

الميزان

في تفسير القرآن

ج ١٠



الجزء العاشر

مكتاب

الميزان

في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

شبكة كتب الشيعة

مدرسة الطبع والنشر

الشيخ محمد الخوئي

مؤسس

دار الكتب الإسلامية

طهران - سور السلطاني

في سنة ١٣٨٢ هـ

مطبعة الحيدري بطهران

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ( ١ ) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ( ٢ ) إِنَّ رَبَّهُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ( ٣ ) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِنْدَ اللَّهِ حَقًّا أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ( ٤ ) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ( ٥ ) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ( ٦ ) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ( ٧ ) أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ( ٨ ) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ( ٩ ) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ( ١٠ ) .



## ﴿بيان﴾

السورة - كما يلوح من آياتها - مكّية من السور النازلة في أوائل البعثة وقد نزلت دفعة للاتصال الظاهر بين كرائم آياتها ، وقد استثنى بعضهم قوله تعالى : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » إلى تمام ثلاث آيات فذكر أنها مدنيّة ، وبعضهم قوله تعالى : « ومنهم من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به و ربك أعلم بالمفسدين » فذكر أنها نزلت في اليهود بالمدينة ، ولا دليل من جهة اللفظ على شيء من القولين .

وغرض السورة وهو الذي أنزلت لأجل بيانه هو تأكيد القول في التوحيد من طريق الانذار والتبشير كأنها أنزلت عقيب إنكار المشركين الوحي النازل على النبي ﷺ وتسميتهم القرآن بالسحر فردّ الله سبحانه ذلك عليهم ببيان أن القرآن كتاب سماوي نازل بعلمه تعالى ، وأن الذي يتضمنه من معارف التوحيد كوحانيته تعالى وعلمه وقدرته وانتهاء الخلقة إليه وعجائب سننه في خلقه و رجوعهم جميعاً إليه بأعمالهم التي سيجزون بها خيراً أو شراً كل ذلك مما تدلّ عليه آيات السماء والأرض ويهتدي إليه العقل السليم فهي معان حقّة ولا يدلّ على مثلها إلا كلام حكيم لاسحر مزوق باطل .

والدليل على ما ذكرنا افتتاح السورة بالكلام على تكذيبهم القرآن : « أكان للناس عجباً أن أوحينا - إلى قوله - قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » واختتامها بمثل قوله : « و اتبع ما يوحى إليك و اصبر » الآية ثم عوده تعالى إلى مسألة الإيحاء بالقرآن وتكذيبهم له في تضاعيف الآيات مرّة بعد مرّة كقوله : « وإذ أتتلى عليهم آياتنا الآية ، وقوله : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » الآية ، وقوله : « يا أيّها الناس قد جاءكم موعظة الآية ، وقوله : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك » الآية .

فتمكّر هذه الآيات والافتتاح والاختتام بها يدلّ على أن الكلام مبني على

تعقيب إنكارهم لكلام الله و تكذيبهم الوحي و لذلك كان من عمدة الكلام في هذه السورة الوعيد على مكذبى آيات الله من هذه الأمة بعذاب يقضي بين النبي ﷺ وبينهم وأن ذلك من سنة الله في خلقه ، وعلى تعقيبهِ تختتم السورة حتى كاد يكون بيان هذه الحقيقة من مختصات هذه السورة فمن الحري أن تعرف السورة بأنها سورة الإنذار بالقضاء العدل بين النبي ﷺ وبين أمته وقد اختتمت بقوله : «واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين» .

قوله تعالى : « الرّ تملك آيات الكتاب الحكيم » الإشارة باللفظ الدال على البعد للدلالة على ارتفاع مكانة القرآن وعلو مقامه فإنه كلام الله النازل من عنده وهو العليّ الأعلى رفيع الدرجات ذوالعرش .

والآية - ومعناها العلامة - وإن كان من الجائز أن يسمّى بها ما هو من قبيل المعاني أو الأعيان الخارجية كما في قوله : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » الشعراء : ١٩٧ وفي قوله : « وجعلناها وابنها آية للعالمين » الأنبياء : ٩١ و كذا ما هو من قبيل القول كما في قوله ظاهراً : « وإذا بدلنا آية مكان آية » النحل : ١٠١ ونحو ذلك لكن المراد بالآيات ههنا هي أجزاء الكلام الإلهي قطعاً فإنّ الكلام في الوحي النازل على النبي ﷺ وهو كلام متلوّ مقروء بأي معنى من المعاني صورنا نزول الوحي .

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهي ، وتعيّن في الجملة من جهة المقاطع التي تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانة ما من ذوق التفاهم ، ولذلك ربّما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين والبصريين وغيرهم .

و المراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذي استقرت فيه الحكمة ، و ربّما قيل : إنّ الحكيم من الفعل بمعنى المفعول والمراد به المحكم غير القابل للانثلام والفساد ، والكتاب الذي هذا شأنه - وقد وصفه تعالى في الآية التالية بأنّه من الوحي - هو القرآن المنزل على النبي ﷺ .

و ربّما قيل : إنّ الكتاب الحكيم هو اللّوح المحفوظ ، وكون الآيات آياته هو أنّها نزلت منه وهي محفوظة فيه ، و هو وإن لم يخل عن وجه بالنظر إلى أمثال قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ و قوله : « إنّهُ لقرآن كريم في كتاب مكنون » الواقعة : ٧٨ لكنّ الأظهر من الآية أنّي نحن فيها وسائر ما في سياقها من آيات أوائل هذه السور المفتحة بالحروف « الر » وسائر الآيات المشابهة لها أو الناضرة إلى وصف القرآن أنّ المراد بالكتاب وبآياته هو هذا القرآن المتلوّ المقروء وآياته المتلوّة المقروّة بما أنّه من اللوح المحفوظ من التغيير والبطالان كالكتاب المأخوذ بوجه من الكتاب كما يستفاد من مثل قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » الحجر : ١ ، وقوله : « كتاب أحكمت آياته ثمّ فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ ، وغير ذلك .

**قوله تعالى :** « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم » إلى آخر الآية الاستفهام للإِنْكار فهو إنكار لتعجّبهم من إحياء الله إلى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوة القرآنيّة .

وقوله : « أن أُنذر الناس » الخ تفسير لما أوحاه إليه ، و يتبيّن به أنّ الذي ألّقه إليه من الوحي هو بالنسبة إلى عامّة الناس إنذار و بالنسبة إلى الذين آمنوا منهم خاصّة تبشير فهو لا محالة يضّرّ الناس على بعض التقادير وهو تقدير الكفر والعصيان وينفعهم على تقدير الإيمان والطاعة .

وقد فسّر البشري الذي أمره أن يبشّر به المؤمنين بقوله : « أنّ لهم قدم صدق عند ربّهم » والمراد بقدم الصدق هو المنزلة الصادقة كما يشير إليه قوله : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » القمر : ٥٥ ، فإنّ الإيمان لمّا استتبع الزلفى و المنزلة عند الله كان الصدق في الإيمان يستتبع الصدق في المنزلة التي يستتبعها فلم ينزلة الصدق كما أنّ لهم إيمان الصدق .

فإطلاق القدم على المنزلة و المكانة من الكناية ولمّا كان إشغال المكان عادة إنّمّا هو بالقدم استعملت القدم في المكان إن كان في الماديّات ، وفي المكانة والمنزلة

إن كان في المعنويات ثم أُضيفت القدم إلى الصدق ، و هو صدق صاحب القدم في شأنه أي قدم منسوبة إلى صدق صاحبها أوقدم هي صادقة لصدق صاحبها في شأنه .  
و هناك معنى آخر وهو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدما وللكذب قدما و قدّم الصدق هي التي تثبت ولا تزول .

و قوله : « قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين » أي النبي ﷺ ، و قرى : « إنّ هذا لسحرمبين » أي القرآن ومآل القراءتين واحداً في أنّهم إنما كانوا يرمونه ﷺ بالسحر من جهة القرآن الكريم .

و الجملة كالتعليل لقوله : « كان للناس عجباً » يمثل به معنى تعجبهم و هو أنّهم لمّا سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاماً من غير نوع كلامهم خارقاً للعادة المألوفة في سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب و تتولّاه إليه النفوس فقالوا : إنّّه لسحر مبين ، و إنّ الجائي به لساحر مبين .

**قوله تعالى :** « إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام »  
لمّا ذكر في الآية السابقة عجبهم من نزول الوحي و هو القرآن على النبي ﷺ وتكذيبهم له برميّه بالسحر شرع تعالى في بيان ما كذبوا به من الجهتين أعني من جهة أنّ ما كذبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حقّ لا ريب فيه ، و من جهة أنّ القرآن الذي رموه بالسحر كتاب إلهي حقّ و ليس من السحر الباطل في شيء .

فقوله : « إنّ ربكم الله » الخ شروع في بيان الجهة الأولى وهي أنّ ما يدعوكم إليه النبي ﷺ ممّا يعلمكم القرآن حقّ لا ريب فيه و يجب عليكم أن تتبّعوه .  
و المعنى : إنّ ربكم معاشر الناس هو الله الذي خلق هذا العالم المشهود كلّه سماواته وأرضه في ستة أيام ثمّ استوى على عرش قدرته وقام مقام التدبير الذي إليه ينتهي كلّ تدبير وإدارة فشرع يدبّر أمر العالم ، و إذا انتهى إليه كلّ تدبير من دون الاستعانة بمعين أو الاعتضاد بأعضاء لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسّط في تدبير أمر من الأمور - وهو الشفاعة - إلّا من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه هو السبب

الأصليّ الذي لاسبب بالأصالة دونه ، ومن دونه من الأسباب أسباب بتسببيه وشفعاء من بعد إذنه .

و إذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذي يدبر أمركم لاغيره ممّا اتخذتموها أرباباً من دون الله وشفعاء عنده ، وهو المراد بقوله : « ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » أي هلاً انتقلتم انتقالاً فكرياً إلى ما يستنير به أنّ الله هو ربكم لارب غير بالتأمل في معنى الألوهية و الخلقة والتدبير .

وقد تقدّم الكلام في معنى العرش والشفاعة والإذن وغير ذلك في ذيل قوله : « إنّ ربكم الله » الأعراف : ٤٥ في الجزء الثامن من الكتاب .

**قوله تعالى :** «إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقاً» تذكير بالمعاد بعد التذكير بالمبدء ، و قوله : « وعد الله حقاً » من قيام المفعول المطلق مقام فعله ، و المعنى : وعده الله وعداً حقاً .

والحق هو الخبر الذي له أصل في الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقاً معناه كون الخلقة الإلهية بنحو لا تتم خلقة إلا برجوع الأشياء - و من جعلتها الإنسان - إليه تعالى وذلك كالحجر الهابط من السماء فإنّه يعد بحر كنهه السقوط على الأرض فإن حر كنهه سنخ أمر لا يتم إلا بالاقتراب التدريجي من الأرض و السقوط و الاستقرار عليها ، والأشياء على حال كدح إلى ربّها حتّى تلاقيه قال تعالى : « يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » الانشقاق : ٦ فافهم ذلك .

**قوله تعالى :** «إنّه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزّي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط» الخ تأكيد لقوله : «إليه مرجعكم جميعا» و تفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع و المعاد .

و يمكن أن يكون في مقام التعليل لما تقدّمه من قوله : «إليه مرجعكم» الخ أشربه إلى حجّتين من الحجج المستعملة في القرآن لإثبات المعاد : أمّا قوله : «إنّه يبدؤ الخلق ثم يعيده» فلا أنّ الجاري من سنة الله سبحانه أنّه يفيض الوجود على



ما يخلقه من شيء، ويمدّه من رحمته بما تتمّ له به الخلقة فيوجد ويعيش ويتنعم برحمة منه تعالى مادام موجوداً حتّى ينتهي إلى أجل معدود .

وليس انتهاءه إلى أجله المعدود المضروب له فناءً منه وبطلاناً للرحمة الإلهيّة التي كان بها وجوده وبقاؤه و سائر ما يلحق بذلك من حياة و قدرة وعلم ونحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة فإنّ ما أفاضه الله عليه من عنده هو وجهه تعالى ولن يهلك وجهه .

فنفاد وجود الأشياء و انتهاءؤها إلى أجلها ليس فناء منها و بطلاناً لها على ما نتوهمه بل رجوعاً و عوداً منها إلى عنده و قد كانت نزلت من عنده ، وما عند الله باق فلم يكن إلّا بسطاً ثمّ قبضاً فالله سبحانه يبدؤ الأشياء ببسط الرحمة ، و يعيدها إليه بقبضها و هو المعاد الموعود .

و أمّا قوله : « ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط » الخ فإنّ الحجّة فيه أنّ العدل والقسط الإلهي - وهو من صفات فعله - يأبى أن يستوي عنده من خضع له بالإيمان به وعمل صالحاً ومن استكبر عليه و كفر به وبآياته ، والطائفتان لا يحسّ بينهما بفرق في الدنيا فإنّما السيطرة فيها للأسباب الكونيّة بحسب ما تنفع وتضرّ بأذن الله .

فلا يبقى إلّا أن يفرّق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما إليه فيجزي المؤمنين المحسنين جزاء حسناً و الكفّار المسيئين جزاء سيئاً من جهة ما يتلذّذون به أو يتألمون . فالحجّة معتمدة على تمايز الفريقين بالإيمان والعمل الصالح وبالكفر وعلى قوله : « بالقسط » هذا ، و قوله : « ليجزي » متعلّق بقوله : « إليه مرجعكم جميعاً » على ظاهر التقرير .

و يمكن أن يكون قوله : « ليجزي » الخ متعلّقاً بقوله : « ثمّ يعيده » ويكون الكلام مسوقاً للتعليل و إشارة إلى حجّة واحدة وهي الحجّة الثانية المذكورة ، و الأقرب من جهة اللفظ هو الأخير .

**قوله تعالى :** « هو الذي جعل الشمس ضياء و القمر نوراً » إلى آخر الآية

الضياء - على ما قيل - مصدر ضاء يضيء ضوءاً وضياءً كعاذ يعوذ عوذاً وعواذاً ، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط ، واللفظ - على ما قيل - على تقدير مضاف والأصل جعل الشمس ذات ضياء والقمر زانور .

و كذلك قوله : « وقدّره منازل » أي وقدّر القمر ذامنازل في مسيره ينزل كلّ ليلة منزلاً من تلك المنازل غير منازلها في الليلة السابقة فلا يزال يتباعدهم الشمس حتّى يوافيها من الجانب الآخر ، وذلك في شهر قمريّ كامل فترتسم بذلك الشهور و ترتسم بالشهور السنون ، و لذلك قال : « لتعلموا عدد السنين والحساب » .

والآية تنبئ عن حجّة من الحجج الدالّة على توحّده تعالى في ربوبيّته للناس و تنزّهه عن الشركاء ، و المعنى أنّه هو الذي جعل الشمس ضياء تستفيدون منه في جميع شؤون حياتكم كما يستفيد منه ما في عالمكم الأرضيّ من موجود مخلوق ، و كذا جعل القمر نوراً يستفاد منه ، و قدّره ذامنازل يؤدّي اختلاف منازلها إلى تكوّن الشهور و السنين فتستفيدون من ذلك في العلم بعدد السنين و الحساب ولم يخلق ما خلق من ذلك بما يترتب عليه من الغايات والفوائد إلّا بالحقّ فإنّها غايات حقيقة منظمّة تترتب على خلقها ما خلق فليست بلغو باطل ولا صدفة اتّفاقية .

فهو تعالى إنّما خلق ذلك و رتبّه على هذا الترتيب لتدبير شؤون حياتكم و إصلاح أمور معاشكم و معادكم فهو ربّكم الذي يملك أمركم و يدبّر شأنكم لا ربّ سواه .

و قوله : « يفصّل الآيات لقوم يعلمون » من المحتمل أن يراد به التفصيل بحسب التكوين الخارجيّ أو بحسب البيان اللفظيّ ، ولعلّ الأوّل أقرب إلى سياق الآية .

**قوله تعالى :** « إنّ في اختلاف الليل و النهار و ما خلق الله في السماوات و الأرض آيات لقوم يتّقون » قال في المجمع : الاختلاف ذهاب كلّ واحد من الشيئين في جهة غير جهة الآخر فاختلف الليل و النهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام . انتهى . و الظاهر أنّه مأخوذ من الخلف ، و الأصل في معناه أخذ

أحد الشيئين الآخر في جهة خلفه ثم اتسع فاستعمل في كل تغاير كائن بين شيئين .  
يقال : اختلفه أي جعله خلفه ، و اختلف الناس في كذا ضد اتفقوا فيه ، و اختلف  
الناس إليه أي تردّوا بالدخول عليه والخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه .  
و المراد باختلاف الليل والنهار إمّا ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر  
و هو توالي الليل و النهار الراسم للأسابيع و الشهور و السنين ، وإمّا اختلاف كل  
من الليل و النهار في أغلب بقاع الأرض المسكونة فالليل والنهار يتساويان في الاعتدال  
الربيعي ثم يأخذ النهار في الزيادة في المناطق الشمالية فيزيد النهار كل يوم على النهار  
السابق عليه حتّى يبلغ أوّل الصيف فيأخذ في النقيصة حتّى يبلغ الاعتدال الخريفي  
و هو أوّل الخريف فيتساويان .

ثم يأخذ الليل في الزيادة على النهار إلى أوّل الشتاء وهو منتهى طول الليالي  
ثم يعود راجعا إلى التساوي حتّى ينتهي إلى الاعتدال الربيعي و هو أوّل الربيع  
هذا في المناطق الشماليّة والأمر في المناطق الجنوبيّة بالخلاف منه فكلما زاد النهار  
طولا في أحد الجانبين زاد الليل طولا في الجانب الآخر بنفس النسبة .

والاختلاف الأوّل بالليل و النهار هو الذي يدبّر أمر أهل الأرض بتسليط  
حرارة الأشعة ثمّ بسط برد الظلمة و نشر الرياح و بعث الناس للحركة المعاشيّة  
ثمّ جمعهم للسكن و الراحة قال تعالى : « وجعلنا نومكم سباتا و جعلنا الليل لباسا  
و جعلنا النهار معاشا » النبأ : ١١ .

و الاختلاف الثاني هو الذي يرسم الفصول الأربعة السنويّة التي يدبّر بها  
أمر الأقوات و الأرزاق كما قال تعالى : « وقدّر فيها أوقاتها في أربعة أيّام سواء  
للسائلين » حم السجدة : ١٠ .

و النهار و اليوم مترادفان إلّا أنّ في النهار - على ما قيل - فائدة اتّسع الضياء  
ولعلّه لذلك لا يستعمل النهار إلاّ بعناية مقابلته الليل بخلاف اليوم فانه يستعمل فيما  
لا عناية فيه بذلك كما في مورد الإحصاء يقال : عشرة أيّام وعشرين يوما و هكذا ،  
ولا يقال : عشرة نهارات وعشرين نهارا وهكذا .

و الآية تشتمل على حجة تامة على توحده تعالى في ربوبيته فان اختلاف الليل و النهار وما خلق الله في السماوات و الأرض يحمل نظاماً واحداً عاماً متقناً يدبر به أمر الموجودات الأرضية و السماوية وخاصة العالم الانساني تدبيراً واحداً يتصل بعض أجزائه ببعض على أحسن ما يتصور .

وهو يكشف عن ربوبية واحدة ترب كل شيء ومنه الانسان فلا رب إلا الله سبحانه لاشريك له في ربوبيته .

ومن المحتمل أن يكون قوله : « إن في اختلاف الليل و النهار » الخ في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « يفصل الآيات لقوم يعلمون » لكان إن ، والأنسب على هذا أن يكون المراد باختلاف الليل و النهار تواليهما على الأرض دون الاختلاف بالمعنى الآخر فان هذا المعنى من الاختلاف هو الذي يسبق إلى الذهن من قوله في الآية السابقة : « جعل الشمس ضياء و القمر نورا وقد رة منازل » وهو ظاهر .

**قوله تعالى :** « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأننوا بها » إلى آخر الآيتين . شروع في بيان ما يتفرع على الدعوة السابقة المذكورة بقوله : « ذلكم الله ربكم فاعبدوه » من حيث عاقبة الأمر في استجابته وردّه وطاعته و معصيته .

فبدء سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأننوا بها و الذين هم عن آياتنا غافلون » فوصفهم أولاً بعدم رجائهم لقاءه ، وهو الرجوع إلى الله بالبعث يوم القيامة ، وقد تقدم الكلام في وجه تسميته بلقاء الله في مواضع من هذا الكتاب ومنها ما في تفسير آية الرؤية من سورة الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء ، وبإنكاره يسقط الحساب و الجزاء فالوعد و الوعيد و الأمر و النهي ، و بسقوطها يبطل الوحي و النبوة وما يتفرع عليه من الدين السماوي .

و بإنكار البعث و المعاد ينعطف هم الانسان على الحياة الدنيا فان الانسان كذا كل موجود ذي حياة له هم فطري ضروري في بقائه و طلب لسعادة تلك

الحياة فإن كان مؤمناً بحياة دائمة تسع الحياة الدنيوية والأخروية معاً فهو، وإن لم يدعن إلا بهذه الحياة المحدودة الدنيوية علقت همته الفطرية بها، و رضي بها وسكن بسببها عن طلب الآخرة، وهو المراد بقوله: «ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها».

ومن هنا يظهر أن الوصف الثاني أعني قوله: «ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها» من لوازم الوصف الأول أعني قوله: «لا يرجون لقاءنا» وهو بمنزلة المفسر بالنسبة إليه، وأن الباء في قوله: «اطمأنوا بها» للسببية أي سكنوا بسببها عن طلب اللقاء وهو الآخرة.

وقوله: «والذين هم عن آياتنا غافلون» في محل التفسير لما تقدّمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فإن نسيان الآخرة وذكر الدنيا لا ينفك عن الغفلة عن آيات الله.

و الآية قريبة المضمون من قوله تعالى: «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله» الآية النجم: ٣٠ حيث دل على أن الإعراض عن ذكر الله وهو الغفلة عن آياته يوجب قصر علم الإنسان في الحياة الدنيا وشؤونها فلا يريد إلا الحياة الدنيا وهو الضلال عن سبيل الله، وقد عرف هذا الضلال بنسيان يوم الحساب في قوله: «إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» ص - ٢٦.

فقد تبين أن إنكار اللقاء ونسيان يوم الحساب يوجب رضى الإنسان بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها من الآخرة وقصر العلم عليه وانحصار الطلب فيه، وإذا كان المدار على حقيقة الذكر والطلب لم يكن فرق بين إنكاره والرضى بالحياة الدنيا قولاً وفعلاً أو فعلاً مع القول الخالي به.

و تبين أيضاً أن الاعتقاد بالمعاد أحد الأصول التي يتقوّم بها الدين إذ يسقط الأمر والنهي والوعد والوعيد والنبوة والوحي وهو بطلان الدين الإلهي من رأس.



وقوله : « أُولَئِكَ مَاوَاهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » بيان لجزائهم بالنار الخالدة قبل أعمالهم التي كسبوها .

**قوله تعالى :** « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » إلى آخر الآية هذا بيان لعاقبة أمر المؤمنين وما يثيبهم الله على استجابتهم لدعوته وطاعتهم لأمره .

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم ، وإنما يهديهم إلى ربهم لأن الكلام في عاقبة أمر من يرجو لقاء الله و قد قال تعالى : « ويهدي إليه من أناب » الرعد : ٢٧ . فإنما يهدي الإيمان بالذن الله إلى الله سبحانه وكلمما اهتدى المؤمنون إلى الحق أو إلى الصراط المستقيم أو غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هي وسائل ومدارج تنتهي بالأخرة إليه تعالى قال تعالى : « وأن إلى ربك المنتهى » النجم : ٤٢ .

وقد وصف المؤمنين بالإيمان والأعمال الصالحة ثم نسب هدايتهم إليه إلى الإيمان وحده فإن الإيمان هو الذي يصعد بالعبد إلى مقام القرب ، وليس للعمل الصالح إلا إعانة الإيمان وإسعاده في عمله كما قال تعالى : « يرفع الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » المجادلة : ١١ حيث ذكر للرفع الإيمان والعلم وسكت عن العمل الصالح ، وأوضح منه في الدلالة قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ .

هذا في الهداية التي هي شأن الإيمان ، وأما نعم الجنة فإن للعمل الصالح دخلاً فيها كما أن للعمل الطالح دخلاً في أنواع العذاب وقد ذكر تعالى في المؤمنين قوله : « تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النعيم » كما ذكر في الكافرين قوله : « أُولَئِكَ مَاوَاهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

وليتنبّه الباحث المتدبّر أنّه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنّات النعيم ، ومن نعيمها الأنهار التي تجري من تحتهم فيها وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « صراط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » الحمد : ٧ وقوله : « فأُولَئِكَ مع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » الآية النساء : ٦٩ أن النعيم بحقيقة معناه في القرآن الكريم

هو الولاية الإلهية ، و قد خصّ الله أوليائه المقرّ بين بنوع من شراب الجنة اعتنى به في حقهم كما قال : « إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيّرا » الإنسان : ٦ ، و قال أيضا : « إنّ الأبرار لنفي نعيم - إلى أن قال - يسقون من رحيق مختوم - إلى أن قال - عينا يشرب بها المقرّبون » المطففين : ٢٨ ، و عليك بالتدبّر في الآيات و تطبيق بعضها على بعض حتّى ينجلي لك بعض ما أودعه الله سبحانه في كلامه من الأسرار اللطيفة .

**قوله تعالى :** « دعواهم فيها سبحانهك اللهمّ وتحيتهم فيها سلام و آخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين » أوّل ما يكرم به الله سبحانه أوليائه - و هم الذين ليس في قلوبهم إلّا الله ولا مدبّر لأمرهم غيره - أنّه يطهّر قلوبهم عن محبة غيره فلا يحبّون إلّا الله فلا يتعلّقون بشيء إلّا الله و في الله سبحانه فهم ينزّهونه عن كلّ شريك يجذب قلوبهم إلى نفسه عن ذكر الله سبحانه ، و عن أيّ شاغل يشغلهم عن ربّهم .

و هذا تنزيه منهم لربّهم عن كلّ ما يليق بساحة قدسه من شريك في الاسم أو في المعنى أو نقص أو عدم ، و تسبيح منهم له لا في القول واللفظ فقط بل قولاً وفعلاً و لساناً و جناناً ، و مادون ذلك فإنّ له شوباً من الشرك و قد قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ .

وهؤلاء الذين طهّر الله قلوبهم عن قذارة حبّ غيره الشاغلة عن ذكره وملأها بحبّه فلا يريدون إلّا إيّاه و هو سبحانه الخير الذي لا شرّ معه قال : « والله خير » طه : ٧٣ .

فلا يواجهون بقلوبهم التي هي ملأى بالخير و السلام أحداً إلّا بخير و سلام اللهمّ إلّا أن يكون الذي واجهوه بقلوبهم هو الذي يبدّل الخير والسلام شرّاً أو ضراً كما أنّ القرآن شفاء لمن استشفى به لكنّه لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

ثمّ إنّ هذه القلوب الطاهرة لا تواجه شيئاً من الأشياء إلّا وهي تجده وتشاهده نعمة لله سبحانه حاكية لصفات جماله و معاني كماله واصفة لعظمته و جلاله فكلموا وصفوا شيئاً من الأشياء وهم يرونه نعمة من نعم الله ويشاهدون فيه جماله تعالى في أسمائه

وصفاته ولا يغفلون ولا يسهون عن ربهم في شيء كان وصفهم لذلك الشيء وصفاً منهم لربهم بالجميل من أفعاله وصفاته فيكون ثناء منهم عليه وحمداً منهم له فليس الحمد إلا الثناء بالجميل من الفعل الاختياري .

فهذا شأن أوليائه تعالى وهم قاطنون في دار العمل يجتهدون في يومهم لغد فإذا لقوا ربهم فوفى لهم بوعده وأدخلهم في رحمته وأسكنهم دار كرامته أتم لهم نورهم الذي كان خصهم به في الدنيا كما قال تعالى : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » التحريم : ٨ .

فسقاهم شرباً طهوراً يطهر به سرائرهم من كل شرك جلي و خفي ، وغشيم بنور العلم واليقين ، وأجرى من قلوبهم على ألسنتهم عيون التوحيد فنزّ هوا الله و سبّحوه أولاً و سلّموا على رفقاءهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ثمّ حمدوا الله سبحانه و أثنوا عليه بأبلغ الحمد وأحسن الثناء .

وهذا هو الذي يقبل الانطباق عليه - والله أعلم - قوله في الآيتين : « تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النعيم » وفيه ذكر جنّة الولاية وتطهير قلوبهم «دعواهم فيها سبحانه اللهم » وفيه تنزيهه تعالى و تسبيحه عن كل نقص وحاجة و شريك تنزيها على وجه الحضور لأنهم غير محجوبين عن ربهم « وتحييتهم فيها سلام » وهو توسيم اللقاء بالأمن المطلق ، ولا يوجد في غيرها من الأمن إلا اليسير النسبي « وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين » وفيه ذكر ثنائهم لله بالجميل بعد تسبيحهم له و تنزيههم ، وهذا آخر ما ينتهي إليه أهل الجنّة في كمال العلم .

و قد قدّمنا في تفسير قوله تعالى : « الحمد لله ربّ العالمين » الحمد : ٢ أن الحمد توصيف ، ولا يسهو وصفه تعالى لأحد من خلقه إلا للمخلصين من عباده الذين أخلصهم لنفسه و خصّهم بكرامة من القرب لا واسطة فيها بينهم و بينه قال تعالى : « سبحانه الله عما يصفون إلاّ عباد الله المخلصين » الصافات : ١٦٠

ولذلك لم يحك في كلامه حمده إلاّ عن آحاد من كرام أنبيائه كنوح وإبراهيم ومحمد و داود و سليمان عليهم السلام كقوله فيما أمر به نوحا : « فقل الحمد لله الذي نجّانا

من القوم الظالمين « المؤمنون : ٢٨ ، و قوله حكاية عن إبراهيم : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل و إسحاق » إبراهيم : ٣٩ ، وقوله فيما أمر به محمد صلى الله عليه وآله في عدة مواضع : « قل الحمد لله » النمل : ٩٣ ، و قوله حكاية عن داود و سليمان : « و قالوا الحمد لله » النمل : ١٥ .

و قد حكى سبحانه حمده عن أهل الجنة في عدة مواضع من كلامه كقوله : « و قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا » الأعراف : ٤٣ ، وقوله أيضا : « و قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » فاطر : ٣٤ ، وقوله أيضا : « و قالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده » الزمر : ٧٤ ، وقوله في هذه الآية : « و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » . و الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق أهل الجنة من المؤمنين بالآخرة بعباده المخلصين ففيها وعد جميل و بشارة عظيمة للمؤمنين .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العياشي عن يونس بن عبد الرحمن عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « و بشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » الآية قال : الولاية . و في الكافي بإسناده عن إبراهيم بن عمر اليماني عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « و بشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » قال : هو رسول الله ﷺ .

**اقول :** و رواه القمّي في تفسيره مسندا و العياشي في تفسيره مرسلان إبراهيم بن عمر عمّن ذكره عنه عليه السلام . و الظاهر أن المراد به شفاعته عليه السلام . و يدل على ذلك ما رواه الطبرسي في المجمع حيث قال : قيل : قدم صدق شفاعته محمد ﷺ . قال : و هو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

و ما رواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله : « قدم صدق عند ربهم » قال : محمد صلى الله عليه وسلم شفيع لهم يوم القيامة .

و في تفسير العياشي عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن التسبيح قال : هو اسم من أسماء الله و دعوى أهل الجنة .

**اقول :** ومراده بالتسبيح قولنا : سبحان الله ، ومعنى اسميته دلالة على تنزيهه تعالى .

وفي الاختصاص بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث طويل مع يهودي وقد سأله عن مسائل : قال عليه السلام : إذا قال العبد : سبحان الله سبع كل شيء معه مادون العرش فيعطى قائمها عشر أمثالها ، وإذا قال : الحمد لله أنعم الله عليه بنعيم الدنيا حتى يلقاه بنعيم الآخرة ، وهي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها ، و الكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله ، و ذلك قوله : تحييتهم يوم يلقونه سلام .

**اقول :** و قوله : « و الكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله » أي جميع الكلام المستعمل في الدنيا لمقاصد تعود إلى مستعمله كالكلام المستعمل لمقاصد المعاش كجميع المحاورات الإنسانية والكلام المستعمل في العبادات لغرض الثواب ونحو ذلك ينقطع بانقطاع الدنيا إذ لا خبر بعد ذلك عن هذه المقاصد الدنيوية ، ولا يبقى بعدئذ إلا الحمد لله و الثناء عليه بالجميل و هو كلام أهل الجنة فيها .

و قوله : « و ذلك قوله : » تحييتهم يوم يلقونه سلام « معناه أن كون التحية يومئذ هو السلام المطلق يدل على أن ليس هناك إلا موافقة كل شيء وملائمته لما يريد الإنسان فكل ما يريد له فلا يستعمل هناك كلام لتحصيل غاية من الغايات على حدّ الكلام الدنيوي إلا الثناء على جميل ما يشاهد منه تعالى فافهم ذلك .







وَلَوْ يَعْلَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ  
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ<sup>١</sup>  
دَعَا نَجْنِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانَتْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ<sup>٢</sup>  
مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي  
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ  
تَعْمَلُونَ (١٤) .

### ﴿بيان﴾

لمَّا ذكر سبحانه الأصليين من أصول الدعوة الحقَّة وهما التوحيد و المعاد و احتجَّ عليهما من طريق العقل الفطريّ ثمَّ أخبر عن عاقبة الإيمان و الكفر بهما بحث عن سبب إهمال الناس وعدم تعجيل نزول العذاب بساحتهم مع تماديهم في غيبيهم و ضلالهم و عمهم في طغيانهم و ما هو السبب الذي يوجب لهم ذلك فبيِّن أنَّ الأمر بيِّن لاستر عليه ، وقد بيَّنه لهم رسل الله بالبيِّنات لكن الشيطان زيَّن لهؤلاء المسرفين أعمالهم فأغفلهم عن ذكر المعاد فذهلوا و نسوا بعد ما ذكروا ثمَّ لم يعجِّل الله لهم العذاب بل أمهلهم في الدنيا إلى حين ليبتليهم ويمتحنهم فانَّما الدار دار ابتلاء وامتحان .  
**قوله تعالى :** « ولو يعجِّل الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير » الخ تعجيل الشيء الاتيان به بسرعة و عجلة ، والاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعة وعجلة ، و العمه شدَّة الحيرة .

ومعنى الآية : ولو يعجِّل الله للناس الشرَّ وهو العذاب كما يستعجلون بالخير

كالنعمة لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنّه تعالى لا يعجل لهم الشرّ فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتمحيرون في طغيانهم أشدّ التحير .

و توضيحه أنّ الإنسان عجول بحسب طبعه يستعجل بما فيه خيره و نفعه أي إنّّه يطلب من الأسباب أن تسرع في إنتاج ما يمتّغه و يريده فهو في الحقيقة يطلب الإسراع المذكور من الله سبحانه لأنّه السبب في ذلك بالحقيقة فهذه سنّة الإنسان وهي مبنية على الأهواء النفسانية فإنّ الأسباب الواقعة ليست في نظامها تابعة لهوى الإنسان بل العالم الإنسانيّ هو التابع الجاري على ما يجريه عليه نظام الأسباب اضطرارا أحبّ ذلك أو كرهه .

ولو أنّ السنّة الإلهية في خلق الأشياء و الإتيان بالمسبّبات عقيب أسبابها اتّبعت أو شابهت هذه السنّة الإنسانية المبنية على الجهل فعجلت المسبّبات و الآثار عقيب أسبابها لأسرع الشرّ و هو الهلاك بالعذاب إلى الإنسان فإنّ سببه قائم معه ، و هو الكفر بعدم رجاء لقاء الله والطغيان في الحياة الدنيا لكنّه تعالى لا يعجل الشرّ لهم كاستعجالهم بالخير لأنّ سنّته مبنية على الحكمة بخلاف سنّتهم المبنية على الجهالة فيذرهم في طغيانهم يعمهون .

و قد بان بذلك أو لا أنّ في قوله « لقضي إليهم أجلهم » نوعاً من التضمن فقد ضمّن فيه « قضى » معنى مثل الإنزال أو الإبلاغ و لذا عدّي بالي .  
و المعنى قضى منزلاً أو مبلغاً إليهم أجلهم أو أنزل أو أبلغ إليهم أجلهم مقضياً ، وهو كناية عن نزول العذاب فالكلمة من الكناية المركّبة .

و ثانياً : أنّ في قوله : « فنذر الذين » التفاتاً من الغيبة إلى التكلّم مع الغير ، و لعلّ النكته فيه الإشارة إلى توسيط الأسباب في ذلك فإنّ المذكور من أفعاله تعالى في الآية و ما بعدها كثر كهّم في عمهم و كشف الضرّ و التزيين و الإهلاك أمور يتوسّل إليها بتوسيط الأسباب ، و العظما إذا أرادوا أن يшиروا إلى دخل أعوانهم و خدمهم في بعض أمورهم أتوا بصيغة المتكلّم مع الغير .

**قوله تعالى :** « و إذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » إلى

آخر الآية . الضّرّ بالضمّ ما يمسّ الإنسان من الضرر في نفسه ، و قوله : « دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » أي دعانا منبطحاً لجنبه الخ ، و الظاهر أن التردد للتنعيم أي دعانا على أي حال من أحواله فرض من انبطاح أو قعود أو قيام مصرّاً على دعائه لا ينسانا في حال ، ويمكن أن يكون « لجنبه » الخ أحوالاً ثلاثة من الإنسان لا من فاعل دعانا و العامل فيه « مسّ » و المعنى إذا مسّ الإنسان الضّرّ و هو منبطح أو قاعد أو قائم دعانا في تلك الحال و هذا معنى ماورد في بعض المرسلات : « دعانا لجنبه » العليل الذي لا يقدر أن يجلس « أوقاعدا » الذي لا يقدر أن يقوم « أوقائما » الصحيح .

و قوله : « مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه » كناية عن النسيان و الغفلة عمّا كان لا يكاد ينساه .

و المعنى : و إذا مسّ الإنسان الضّرّ لم يزل يدعونا للكشف ضرّه و أصرّ على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضرّه الذي مسّه نسينا و ترك ذكرنا و انجذبت نفسه إلى ما كان يتمتّع به من أعماله كذلك زيّن للمسرفين المفرطين في التمتع بالخارف الدنيويّة أعمالهم فأورثهم نسيان جانب الربوبيّة والأعراض عن ذكر الله تعالى . وفي الآية بيان السبب في تمادي منكري المعاد في غيهم وضلالهم وخصوصيّة سببه و هو أن هؤلاء مثلهم كمثل الإنسان يمسّه الضّرّ فيذكر ربّه ويلجّ عليه بالدعاء لكشف ضرّه حتّى إذا كشف عنه الضّرّ - ولذلك كان يدعو - مرّ لوجهه متوغّلاً في شهواته و قد نسي ما كان يدعو و يذكره فلم يكن تركه لدعاء ربّه بعد ذكره إلّا معلولاً لما زيّن له من عمله فأورثه النسيان بعد الذكر .

فكذلك هؤلاء المسرفون زيّن لهم أعمالهم فجذبتهم إلى نفسها فنسوا ربّهم بعد ذكره ، و قد ذكرهم الله مقامه بإرسال الرسل إلى من قبلهم بالبيّنات و ما كانوا ليؤمّنوا و إهلاك القرون من قبلهم بظلمهم و هذه هي السنّة الإلهيّة يجزي القوم المجرمين .

و من هنا يظهر أن الآية التالية : « و لقد أهلكنا القرون من قبلكم » الخ

متمّم للبيان في هذه الآية : « و إذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا » إلى آخر الآية .  
**قوله تعالى :** « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم » إلى آخر الآية قد ظهر  
 معناه ممّا تقدّم ، وفي الآية التفات في قوله : « من قبلكم » من الغيبة إلى الخطاب ،  
 و كأنّ النكته فيه التشديد في الإلّ نذار لأنّ الإلّ نذار و التخويف بالمشافهة أو وقع أثراً  
 و أبلغ من غيره .

ثمّ في قوله : « كذلك نجزي القوم المجرمين » التفات آخر بتوجيه الخطاب  
 إلى النبيّ ﷺ ، و النكته فيه أنّه إخبار عن السنّة الإلهيّة في أخذ المجرمين ، و  
 النبيّ ﷺ هو الأهل لفهمه و الإلّ ذعان بصدقه دونهم ولو أذعنوا بصدقه لآمنوا به و  
 لم يكفروا ، وهذا بخلاف قوله : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم .... وجاءتهم رسلهم »  
 فإنّه خبر تاريخيّ لا ضير في تصديقهم به .

**قوله تعالى :** « ثمّ جعلناكم خلائف من بعدهم لننظر كيف تعملون » معناه  
 ظاهر ، و فيه بيان أنّ سنّة الامتحان والابتلاء عامّة جارية .





وَ إِذَا تَنَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ  
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا  
يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ  
مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)  
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ (١٧)  
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا  
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ  
تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْلَا  
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ يَقُولُونَ لَوْلَا  
أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)  
وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفَىٰ آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ  
أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُمُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْوَ  
الْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا  
رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَلَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ  
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا  
أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ  
أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)



إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

### ﴿بيان﴾

احتجاجات يلقنها الله سبحانه نبيه ﷺ ليرد بها ما قالوه في كتاب الله أو في آلهتهم أو اقترحوه في نزول الآية .

**قوله تعالى :** « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله » هؤلاء المذكورون في الآية كانوا قوماً وثنيين يقدسون الأصنام ويعبدونها ، ومن سننهم التوغّل في المظالم والآثام واقتراف المعاصي ، والقرآن ينهى عن ذلك كلّهُ ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ورفض الشركاء ، وعبادة الله مع التنزّه عن الظلم والفسق واتّباع الشهوات .

ومن المعلوم أنّ كتاباً هذا شأنه إذا تلمّيت آياته على قوم ذلك شأنهم لم يكن ليوافق ما تهووا أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوة المخالفة فلو قالوا : ائت بقرآن غير هذا دلّ على أنّهم يقترحون قرآناً لا يشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوة إلى رفض الشركاء واتّقاء الفحشاء والمنكر ، وإن قالوا : بدّل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته إلى ما يوافقها حتّى يقع منهم موقع القبول ، وذلك كالشاعر يندش من شعره أو القاصّ يقصّ القصة فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون : ائت بغيره أو بدّله ، وفي ذلك تنزيل القرآن أنزل مراتب الكلام وهو لهو الحديث الذي إنّما يلقي لتلهو به نفس سامعه وتنشط به عواطفه ثم لا يستطيعه

السامع فيقول : ائت بغير هذا أو بدّله .

فبذلك يظهر أنّ قولهم إذا تليت عليهم آيات القرآن : « ائت بقرآن غير هذا » يريدون به قرآن لا يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا و يؤتى بذاك ، و قولهم : « أو بدّله » أن يغيّر ما فيه من المعارف المخالفة لأهوائهم إلى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره وبين تبديله .  
فما قيل : إنّ الفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يكون معه وتبديله لا يكون إلا برفعه . غير سديد فإنهم ما كانوا يريدون أن يأتيهم النبي ﷺ بهذا القرآن و غيره معاً قطعاً .

و كذا ما ذكره بعضهم أن قولهم : « ائت بقرآن غير هذا أو بدّله » إنّما أرادوا به أن يمتحنوه بذلك فيغيروا حتّى إذا أجابهم إلى ذلك كان ذلك نقضاً منه لدعوى نفسه أنّه كلام الله ؛ وذلك أنّهم لمّا سمعوا ما بلغهم النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن و تلاه عليهم وتحدّاهم بالإتيان بمثله وعجزوا عن الإتيان بمثله ، و كانوا في ريب من كونه كلام الله ، و في ريب من كونه من النبي ﷺ نفسه ولم يكن يفوقهم في الفصاحة و البلاغة و العلم ، بل كانوا يرونه دون كبار فصحاءهم و مصاقع خطباءهم أرادوا أن يمتحنوه بهذا القول حتّى إذا أتاهاهم بما سألوه كان ذلك ناقضاً لأصل دعواه أنّه كلام الله . و كان قصارى أمره أنّه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان لقوّة نفسيّة فيه كانت خفيّة عليهم كأسباب السحر لا بوحى . هذا .

و فيه مضافاً إلى مناقضة آخره أنّه مدفوع بما يلقّنه الله سبحانه من الحجّة فإنّ السؤال الذي لم يصدر إلا بداعي الامتحان والاختبار من غير داع جدّي لا معنى للجواب عنه بالإثبات الجدّي بحجّة جدّيّة و هو ظاهر .

وفي قوله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا » التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والظاهر أنّ النكته فيه أن يكون توطئة إلى إلقاء الأمر إلى النبي ﷺ بقوله : « قل ما يكون لي أن أبدّله » الخ فإنّ ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم وتوجيهه إليه ﷺ .  
**قوله تعالى :** « قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما

يوحى إليّ» إلى آخر الآية التلقاء بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان و البيان ويستعمل ظرفاً .

والله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم : «أنت بقرآن غير هذا أوبدّله» في أثناء كلامه بقوله «بيّنات» فإنّ الآيات إذا كانت بيّنات ظاهرة الاستناد إلى الله سبحانه كشف كشفاً قطعياً عما يريد الله سبحانه منهم من رفض الأصنام والاجتناب من كلّ ما لا يرتضيه بما أوحى إلى رسوله ﷺ من تفصيل دينه ؛ ردّ سؤالهم إليهم تفصيلاً بملقين نبيّه ﷺ الحجّة في ذلك بقوله : « قل ما يكون لي » إلى آخر الآيات الثلاث .

فقوله : « قل ما يكون لي أن أبدّله » الخ جواب عن قولهم : « أو بدّله » و معناه : قل لأملك - وليس لي بحق - أن أبدّله من عند نفسي لأنّه ليس بكلامي وإنّما هو وحي إلهي أمرني ربّي أن أتبعه ولا أتبع غيره ، وإنّما لا أخالف أمر ربّي لأنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم وهو يوم لقائه .

فقوله : « ما يكون لي أن أبدّله » نفى الحقّ و سلب الخيرة ، وقوله : « إن أتبع إلّا ما يوحى إليّ » في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « ما يكون لي » وقوله : « إنّي أخاف إن عصيت ربّي » الخ في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « إن أتبع » الخ بما يلوح منه أنّه ممّا تعلّق به الأمر الإلهي .

وفي قوله : « إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم » نوع محاذاة لما في صدر الكلام من قوله : « قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن » الخ فإنّ الإتيان بالوصف للإشعار بأنّ الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنّما هو إنكارهم للمعاد و عدم رجائهم لقاء الله فقابلهم النبي ﷺ بأمر من ربّه بقوله : « إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم » فيؤول المعنى إلى أنّكم تسألون ما تسألون لأنّكم لا ترجون لقاء الله لكنّني لا أشكّ فيه فلا يمكنني إجابتكم إليه لأنّي أخاف عذاب يوم اللقاء ، وهو يوم عظيم .

وفي تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائدة الإذار مضافاً إلى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسبة .

**قوله تعالى :** « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » أدراكم به أي أعلمكم الله به ، والعمر بضمّين أو بالفتح فالسكون هو البقاء ، وإذا استعمل في القسم كقولهم : لعمرى ولعمرك تعين الفتح . وهذه الآية تتضمن ردّ الشقّ الأوّل من سؤالهم وهو قولهم : « ائت بقرآن غير هذا » ومعناها على ما يساعد عليه السياق : أن الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيئتي فإنما أنا رسول ولو شاء الله أن ينزل قرآناً غير هذا ولم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فإنني مكثت فيكم عمراً من قبل نزول القرآن وعشت بينكم وعاشرتكم وعاشرتموني وخالطتكم وخالطتموني فوجدتموني لا خبر عندي من وحي القرآن ، ولو كان ذلك إليّ ويدي لبأدت إليه قبل ذلك ، وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه ، فليس إليّ من الأمر شيء ، وإنّما الأمر في ذلك إلى مشيئة الله وقد تعلّقت مشيئته بهذا القرآن لا غيره أفلا تعقلون ؟ .

**قوله تعالى :** « فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنّّه لا يفلح المجرمون » استفهام إنكاري أي لا أحد أظلم وأشدّ إجراماً من هذين الفريقين : المفترى على الله كذباً ، والمكذب بآياته فإنّ الظلم يعظم بعظمة من يتعلّق به وإذا اختصّ بجنب الله كان أشدّ الظلم .

و ظاهر سياق الاحتجاج في الآيتين أنّ هذه الآية من تمامها والمعنى : لا أجيبكم إلى ما اقترحتم عليّ من الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله فإنّ ذلك ليس إليّ ولا لي حقّ فيه ، ولو أجبتكم إليه لكنت أظلم الناس وأشدّهم إجراماً ولا يفلح المجرمون فإنّني لو بدّلت القرآن وغيّرت بعض مواضعه ممّا لا ترتضونه لكنت مفترياً على الله كذباً ولا أظلم منه ، ولو تركت هذا القرآن وجئتكم بغيره ممّا ترتضونه لكنت مكذباً بآيات الله ، ولا أظلم منه .

وربّما احتمل كون الاستفهام الإنكاري بشقيّه تعريضاً للمشرّكين أي أنتم

أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء و هو افتراء الكذب على الله و بتكذيبكم بنبوتي و الآيات النازلة عليّ وهو تكذيب بآيات الله ولا يفلح المجرمون .

وذكر بعضهم أن الأول من شقبي الترديد للنبي على تقدير إجابتهم والثاني للمشركين ، أي لا أحد أظلم عند الله من هذين الفريقين : المفتريين على الله والمكذّبين بآياته ، وأنا أنعى عليكم الثاني منهما فكيف أرضى لنفسي بالأول وهو شر منه ؟ وأي فائدة لي من هذا الإجماع العظيم وأنا أريد الإصلاح ؟ .

والذي ذكره من المعنى لا بأس به في نفسه لكن الشأن في استفادته من الآية ودلالة لفظها عليه ، وكذا الوجه السابق عليه بالنظر إلى السياق .

**قوله تعالى :** « و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاءنا عند الله » إلى آخر الآية الكلام موجه نحو عبدة الأصنام من المشركين وإن كان ربّما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعة معناه ، وذلك لما كان « ما » و كون السورة مكّية من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من القرآن .

وقد كانت عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليمتقروا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربّ الأرباب وهو الله سبحانه ، ويقولون : إننا على ما بنانا من ألوات البشرية المادية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل لنا إلى ربّ الأرباب لطهارة ساحته وقدها ولا نسبة بيننا وبينه .

فمن الواجب أن نتقرب إليه بأحبّ خلائقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوّض الله إليهم أمر تدبير خلقه ، و نتقرب إليهم بأصنامهم و تماثيلهم و إنّما نعبد الأصنام لتكون شفعا لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة للأصنام حقيقة ، والشفاعة لأربابها وربّما نسبت إليها .

وقد وضع في الكلام قوله : « مالا يضرهم ولا ينفعهم » موضع الأصنام للتلويح إلى موضع خطيئهم في مزعمتهم ، وهو أن هذا السعي إنّما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّة نافعة في الأمور وكانت ذوات شعور بالعبادة والتقرب حتّى ترضى عن عبادها بعبادتهم لها فتشفع أو يشفع أربابها لهم عند الله إن كان الله يرتفع شفاعتهم

وهؤلاء أجسام ممتة لا تشعر بشيء ولا تضر ولا تنفع شيئاً .

وقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعة - مضافاً إلى ما يلوح إليه قوله : « لا يضرهم ولا ينفعهم » - بقوله : « قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات والأرض » ومحصله أن الله سبحانه لا علم له بهذه الشفاعة في شيء من السماوات والأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم ، و هو من أقبح الافتراء وأشنع المكابرة ، وكيف يكون في الوجود شيء لا يعلم به الله وهو يعلم ما في السماوات والأرض ؟

فالاستفهام إنكاري ، ونفي العلم بوجود الشفاعة كناية عن نفي وجودها ، ولعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعة مما يتقوّم بالعلم لذاته فإن الشفاعة إنما تتحقق إذا كان المشفوع عنده عالماً بوجود الشافع وشفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفاعة فكيف تتحقق الشفاعة عنده وهو لا يعلم .

وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » كلمة تنزيه ، وهي من كلام الله وليست مقولة قول النبي ﷺ فإن ظرف المشركين بالنسبة إليه هو الخطاب دون الغيبة فلو كان من كلام النبي ﷺ لقليل : عما تشركون بالخطاب .

**قوله تعالى :** « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا » قد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » البقرة : ٢١٣ أن الآية تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس :

أحدهما الاختلاف من حيث المعاش وهو الذي يرجع إلى الدعاوي وينقسم به الناس إلى مدّع ومدّعى عليه وظالم ومظلوم ومتعدّ ومتعدّى عليه وآخذ بحقهّ وضائع حقّه ، وهذا هو الذي رفعه الله سبحانه بوضع الدين وبعث النبيّين وإنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويعلمهم معارف الدين ويواجههم بالإنذار والتبشير .

و ثانيهما الاختلاف في نفس الدين وما تضمنه الكتاب الإلهي من المعارف الحقّة من الأصول و الفروع ، وقد صرح القرآن في مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهي إلى علماء الكتاب بغياً بينهم ، وليس ممّا يقتضيه طباع الإنسان كالتقسّم الأوّل ، وبذلك ينقسم الطريق إلى طريقي الهداية والضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ، وقد ذكر سبحانه في مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنّه لو لا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ولكن يؤخّرهم إلى أجل قال تعالى : « وما تقرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضى بينهم » الشورى : ١٤ إلى غير ذلك من الآيات .

وسياق الآية السابقة أعني قوله تعالى . « ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم » الخ لا يناسب من الاختلافين المذكورين إلا الاختلاف الثاني وهو الاختلاف في نفس الدين لأنّها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم مالا يضرّهم ولا ينفعهم واتّخاذهم شفعا عند الله ، ومقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقاً أمّة واحدة كونهم على دين واحد وهو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرّقوا فريقين موحّد ومشرك .

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقتضي أن يحكم الله بينهم باظهار الحق على الباطل وفيه هلاك المبطلين وإنّجاء المحقّقين لكنّ السابق من الكلمة الإلهيّة منعت من القضاء بينهم ، والكلمة هي قوله تعالى لمّا أهبط الإنسان إلى الدنيا : « ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ .

وللمفسّرين في الآية أقوال عجيبّة منها : أن المراد بالناس هم العرب كانوا على دين واحد حقّ وهو دين إبراهيم عليه السلام إلى زمن عمرو بن لُحَيّ الذي روج بينهم الوثنيّة فانقسموا إلى حنفاء مسلمين ، وعبدّة أضنام مشركين ، وأنت خير أنّه لا دليل عليه من جهة اللفظ البتّة .

ومنها : أن المراد بالناس جميعهم ، و المراد من كونهم أمّة واحدة كونهم على

فطرة الإسلام وإن كانوا مختلفين دائماً ، فلفظة «كان» منسلخ الزمان ، والآية تحكي عمّا عليه الناس بحسب الطبع وهو التوحيد ، وماهم عليه بحسب الفعلية وهو الاختلاف فليس الناس بحسب الطبع الفطريّ إلاّ أمة واحدة موحدون لكنهم اختلفوا على خلاف فطرتهم .

وفيه أنّه خلاف ظاهر الآية والآية التي في سورة البقرة ، وكذا ظاهر سائر الآيات كقوله : «وماتفرّقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» الشورى : ١٤ وقوله : «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» آل عمران : ١٩ . على أنّ القول بوجود الاختلاف الدائم بين الناس مع عدم رجوعه إلى الفطرة ممّا لا يجتمعان .

ومنها : أنّ المراد أنّ الناس جميعاً كانوا على ملّة واحدة هي الكفر والشرك ثمّ اختلفوا فكان مسلم وكافر .

وهذا أسخف الأقوال في الآية فإنّه مضافاً إلى كونه قولاً بغير دليل يأباه ظاهر الآيات فإنّ ظاهرها أنّ ظهور الاختلاف لانتهاؤه إلى بغى الناس من بعد ما جاءهم العلم أي ظهور الكفر والشرك عن بغى كان هو المقتضي للحكم بينهم والقضاء عليهم بنزول العذاب والهلاك فإنّ كانوا جميعاً على الكفر والشرك من غير سابقة هدى وإيمان فمامعنى استناد الاقتضاء إلى البغى عن علم ؟ وما معنى خلق الجميع ووجود المقتضي لإهلاكهم جميعاً إلاّ انتقاض الغرض الإلهي ؟

وهذا القول أشبه بما قالته النصارى في مسألة التقدية أنّ الله خلق الإنسان ليطيعه فيسكنه الجنة دائماً لكنّه عصاه ونقض بذلك غرض الخلقة فتداركه الله بتقدية المسيح .

ومنها : قول بعضهم : إنّ المراد بالكلمة في قوله : « ولولا كلمة سبقت من ربك » الخ قوله تعالى في هذه السورة : «إنّ ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» آية ٩٣ .

وفيه : أنّ المراد بالسبق إنّ كان هو السابق بحسب البيان فالآية متأخرة عن



هذه الآية لوقوعها في أواخر السورة ، والآيات متصلة جارية . على أن الآية في بني إسرائيل خاصة و الضمير في قوله : « بينهم » راجع إليهم وهي قوله : « ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوءاً صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يونس : ٩٣ .

على أن قوله في بعض الآيات : « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » الشورى : ١٤ لا يلائم هذا المعنى من السبق .

وإن كان المراد بالسبق السابق بحسب القضاء فينبغي أن يتبع في ذلك أول كلمة قالها الله تعالى في ضلال الناس وشر كههم ومعصيتهم ، وليست إلا ما قاله عند أول ما أسكن الإنسان الأرض وهو ما قد مناه من الآية .

**قوله تعالى :** « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنني معكم من المنتظرين » الآية كقوله قبلها : « ويعبدون من دون الله » وقوله قبله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا » تعداً أموراً من مظالم المشركين في أقوالهم وأعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبي ﷺ ليقيمها عليهم كما مر في أول الآيات فقوله : « ويقولون لولا أنزل » الخ عطف على قوله في أول الآيات : « وإذا تتلى عليهم آياتنا » .

وفيهما مع ذلك عود بعد عود إلى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم : « لولا أنزل عليه آية من ربه » وإن كان طلب آية أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزراءً وتحقيراً لأمر القرآن واستخفافاً به لعدم عدّه آية إلهية والدليل عليه قوله تعالى : « فقل إنما الغيب لله » ولم يقل : « قل » كما قال في سائر الآيات كأنه يقول : ويطلبون منك آية أخرى غير مكتفين بالقرآن ولا راضين به فإذا لم يكتفوا به آية فقل : إنما الآيات من الغيب المختص بالله وليست بيدي فانتظروا إنني معكم من المنتظرين .

فهذا هو المستفاد من الآية وفيها دلالة على أن النبي ﷺ كان ينتظر آية فاصلة بين الحق والباطل غير القرآن قاضية بينه وبين أمته ، وسيجيء الوعد الصريح

منه بهذه الآية - التي يأمر بانتظارها ههنا - في قوله : « و إنما نريدك بعض الذي نعدهم أو نتوقيتك فإلينا مرجعهم » يونس : ٤٦ إلى تمام عدة آيات .

**قوله تعالى :** « وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا » إلى آخر الآية مضمون الآية وإن كان من المعاني العامة الجارية في أغلب الناس في أكثر الأوقات فإن الفرد من الانسان لا يخلو عن أن يمسه سرء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر في حقّه ذلك لكن الآية من جهة السياق المتقدّم كأنّها مسوقة للتعريض للمشرّكين ومكرهم في آيات الله ، والدليل عليه قوله : « قل الله أسرع مكرًا » فقد كان النظر معطوفاً على مكر طائفة خاصّة وهم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء والضراء بعد ظهورها ، ومن مكرهم مكرهم في القرآن الذي هو آية إلهيّة ورحمة أذاقهم الله إيّاها بعد ضراء الجهالة العالقة بهم و شمول ضنك العيش والذلّة و التفرقة وتباعد القلوب وبغضائها لهم وهم يمكرون به فتارة يقولون : « أئت بقرآن غير هذا أو بدّله » وتارة يقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربّه » .

فالأية تبيّن لهم أن هذا كلفهم مكر يمكرونه في آيات الله ، وتبيّن لهم أن المكر بآيات الله لا يعقّب إلاّ السوء من غير أن ينفعهم شيئاً فإنّ الله أسرع مكرًا يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإنّ مكرهم بآيات الله عين مكر الله بهم . فمعنى الآية : « وإذا أدقنا الناس » عبّر عن الإصابة بالإحالة للإيماء إلى التذاذهم بالرحمة وعناية بالقلة فإنّ الذوق يستعمل في القليل من التغذية « رحمة من بعد ضراء مستهم » والتعبير بالرحمة في موضع السراء للإشارة إلى أنّها من الرحمة الإلهيّة من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه ، و يخضعوا لما تدعو إليه الآية و هو توحيد ربّهم و شكر نعمته لكنّهم يفاجؤون بغير ذلك « إذا لهم مكر في آياتنا » كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم قد مسّ آباءنا السراء والضراء ، و الاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم : « لولا أنزل عليه آية » وقولهم : « إن نتبّع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » .

فأمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله : « قل الله أسرع مكرًا » ثم علّمه بقوله : « إن رسلنا يكتبون ما تمكرون » فلنا عليكم شهداء رقباء أرسلناهم إليكم يكتبون أعمالكم ويحفظونها ، وبمجرد ما عملتم عملاً حفظ عليكم وتعيّن جزاؤه لكم قبل أن يؤثّر مكركم أثره أولاً يؤثّر كما فسّروه .

وهنا شيء وهو أن الظاهر من قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » إننا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ على ما سيجيء من البيان في تفسير الآية إن شاء الله تعالى أن معنى كتابة الملائكة أعمال العباد هو إخراجهم الأعمال من كمون الاستعدادات إلى مرحلة الفعلية الخارجية ورسم نفس الأعمال في صحيفة الكون وبذلك تنجلي علمية كتابة الرسل لأعمالهم لكونه تعالى أسرع مكرًا تمام الانجلاء فإن حقيقة المعنى على هذا : أننا نحن نخرج أعمالكم التي تمكرون بها من داخل ذاتكم ونضعها في الخارج فكيف يخفى علينا كونكم تريدون بنا المكر بذلك ؟ و هل المكر إلا صرف الغير عما يقصده بحيلة و ستر عليه بل ذاك الذي تزعمونه مكرًا بنا مكر منّا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرًا وتقدمون على المكر بنا ، وهذه المزمعة والإقدام ضلال منكم وإضلال منّا لكم جزاء بما كسبته أيديكم ، وسيأتي نظير هذا المعنى في قوله : « يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم » آية ٢٣ من السورة .

و في الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : « إن رسلنا يكتبون ما تمكرون » على قراءة تمكرون بناء الخطاب وهي القراءة المشهورة ، وهو من عجيب الالتفات الواقع في القرآن و لعلّ النكتة فيه تمثيل معنى قوله : « قل الله أسرع مكرًا » في العين كأنه تعالى لما قال لنبيه ﷺ : « قل الله أسرع مكرًا » أراد أن يوضحه لهم عياناً ففاجأهم بتجليه لهم دفعة فكلّمهم وأوضح لهم السبب في كونه أسرع مكرًا ثم حجبهم عن نفسه فعادوا إلى غيبتهم وعاد الكلام إلى حاله ، وخوطف النبي ﷺ ببقية الخطاب : « هو الذي يسيّركم » الخ وهذا من لطيف الالتفات .

**قوله تعالى :** « هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم » إلى آخر الآية الفلك السفينة و تستعمل مفردا و جمعا والمراد بها

ههنا الجمع بدليل قوله : « وجرين بهم » و الريح العاصف الشديدة الهبوب ، و قوله : « اُحيط بهم » كناية عن الإشراف على الهلاك ، و تقديره أحاط بهم البلاء أو الأمواج ، و الإشارة بقوله : « من هذه » إلى الشدة . ومعنى الآية ظاهر .

وفيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله : « وجرين بهم بريح طيبة - إلى قوله - بغير الحق » و لعل النكته فيه إرجاعهم إلى الغيبة و توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ و وصف أعجب جزء من هذه القصة الموصوفة له ليسمعه و يتعجب منه ، و يكون فيه معذرك إعراض عن الأمر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول .

**قوله تعالى :** « فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق » أصل البغي هو الطلب و يكثر استعماله في مورد الظلم لكونه طلباً لحقّ الغير بالتعدّي عليه و يقيّد حينئذ بغير الحقّ ، ولو كان بمعنى الظلم محضاً لكان القيد زائداً .  
والجملة من تتمّة الآية السابقة ، والمجموع أعني قوله : « هو الذي يسيركم في البرّ والبحر - إلى قوله - بغير الحق » بمنزلة الشاهد و المثل بالنسبة إلى عموم قوله قبله : « و إذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم » إلى آخر الآية أولخصوص قوله : « قل الله أسرع مكرا » و على أيّ حال فقوله : « يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم » الخ ممّا يتوقّف عليه تمام الغرض من الكلام في الآية السابقة و إن لم يكن من كلام النبي ﷺ فافهم ذلك .

**قوله تعالى :** « يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثمّ إلينا مرجعكم » إلى آخر الآية في الكلام النفات من الغيبة إلى الخطاب فقوله : « يا أيّها الناس » الخ خطاب منه تعالى للناس بلا واسطة ، و ليس من كلام النبي ﷺ ممّا أمره الله سبحانه أن يخاطب به الناس .

و الدليل على ذلك قوله تعالى : « ثمّ إلينا مرجعكم » إلى آخر الآية فإنّه لا يصلح أن يكون من خطاب النبي ﷺ .

والنكته في هذا الالتفات هي نظير النكته التي قدّمنا ذكرها في قوله تعالى في أوّل

الكلام : « إنَّ رسلنا يكتبون ما تمكرون » فكأنَّه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم أثناء ما يخاطبهم النبي ﷺ وهم يحسبون أنَّ ربَّهم غائب عنهم غافل عن نيَّاتهم و مقاصدهم في أعمالهم فيشرف عليهم ويمثِّل بذلك كونه معهم في جميع أحوالهم وإحاطته بهم و يقول لهم : أنا أقرب إليكم و إلى أعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به أن تبغوا علينا و تمكروا بنا إنَّما توجد بتقديرنا و تجري بأيدينا فكيف يمكنكم أن تبغوا بها علينا ؟ بل هي بغي منكم على أنفسكم فإنَّها تبعَّدكم منَّا وتكتب آثامها في صحائف أعمالكم فبغيركم على أنفسكم و هو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به أيَّاماً قلائل ثمَّ إلينا مرجعكم فنخبركم و نوضح لكم هناك حقائق أعمالكم .

وقوله : « متاع الحياة الدنيا » بالنصب في قراءة حفص عن عاصم والتقدير : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، وبالرفع في قراءة غيره وهو خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو أي بغيركم و عملكم متاع الحياة الدنيا .

و على كلتا القراءتين فقوله : « متاع الحياة الدنيا » إلى آخر الآية تفصيل لإجمال قوله : « إنَّما بغيركم على أنفسكم » فقوله « متاع » الخ في مقام التعليل بالنسبة إلى كون بغيرهم على أنفسهم من قبيل تعليل الإجمال بالتفصيل و بيانه به .

**قوله تعالى :** « إنَّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض » إلى آخر الآية لمَّا ذكر سبحانه في الآية السابقة متاع الحياة الدنيا ممثِّل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقة أمره ما يعتبر به المعتبرون ، وهو من الاستعارة التمثيلية وليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شيء وإنَّ أوهم ذلك قوله : « كما أنزلناه » ابتداء ، و نظائره شائعة في أمثال القرآن ، و الزخرف الزينة و البهجة ، و قوله : « لم تغن » من غني في المكان إذا أقام فيه فأطال المقام ، و الباقي ظاهر .

**قوله تعالى :** « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » الدعاء و الدعوة عطف نظر المدعو إلى ما يدعى إليه و جلب توجَّهه و هو أعم من النداء فإنَّ النداء يختصُّ بباب اللفظ و الصوت ، و الدعاء يكون باللفظ و الإشارة وغيرهما ، و النداء إنَّما يكون بالجهر ولا يقيّد به الدعاء .

و الدعاء في الله سبحانه تكوينيّ و هو إيجاد ما يريد له شيء كأنّه يدعوّه إلى ما يريدّه قال تعالى : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » أسرى : ٥٢ أي يدعوكم إلى الحياة الأخرى فتستجيبون إلى قبولها ، و تشريعيّ و هو تكليف الناس بما يريدّه من دين بلسان آياته ، والدعاء من العبد لربّه عطف رحمته و عنايته إلى نفسه بنصب نفسه في مقام العبوديّة و المملوكيّة ، ولذا كانت العبادة في الحقيقة دعاء لأنّ العبد ينصب فيها نفسه في مقام المملوكيّة والاتّصال بمولاه بالتبعيّة والذلّة ليعطفه بمولويّته و ربوبيّته إلى نفسه و هو الدعاء .

و إلى ذلك يشير قوله تعالى : « و قال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » المؤمن ٦٠ حيث عبّر أوّلاً بالدعاء ثمّ بدّل له ثانياً العبادة

و قد التبس الأمر على صاحب المنار فقال في تفسيره : إنّ قول بعض المفسّرين وغيرهم : إنّ من معاني الدعاء العبادة لا يصحّ على إطلاقه في العبادة الشرعيّة التكليفيّة فإنّ الصيام لا يسمّى دعاء لغة ولا شرعاً وإنّما الدعاء هو مخّ العبادة الفطريّة و أعظم أركان التكليفيّة منها كما ورد في الحديث فكلّ دعاء شرعيّ عبادة وما كلّ عبادة شرعيّة دعاء . انتهى ومنشأ خطاه زعمه أنّ معنى الدعاء هو النداء للمطلب وغفلته عمّا تقدّم من تحليل معناه .

و الأصل في معنى السلام على ما ذكره الراغب في المفردات هو التعرّي عن الآفات الظاهرة و الباطنة ، و إليه يرجع معناه في جميع مشتقاته ، والسلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة ، و الظاهر أنّ السلام و الأمن متقاربان معنى ، و إنّما الفارق أنّ السلام هو الأمن مأخوذاً في نفسه ، و الأمن هو السلام مضافاً إلى ما يسلم منه يقال : هو في سلام ، و هو في أمن من كذا و كذا .

و السلام من أسمائه تعالى لأنّ ذاته المتعالية نفس الخير الذي لا شرّ فيه ، و تسمّى الجنّة دار السلام حيث لا شرّ فيه ولا ضرّ على ساكنه ، و قيل : إنّما سمّيت

دار السلام لأنّه دار الله الذي هو السلام ، والمآل واحد في الحقيقة لأنّه تعالى إنّما سمّي سلاماً لبراءته من كلّ شرّ وسوء ، و في سياق الآية ما يشعر بكون معنى السلام الوصفيّ مقصوداً في الكلام .

و قد أطلق سبحانه السلام ولم يقيده بشيء ، ولاورد في كلامه ما يقيده ببعض الحقيثات فهو دار السلام على الإطلاق وليست إلا الجنة فإنّ ما يوجد عندنا في الدنيا من السلام إنّما هو الإضافي دون المطلق فما من شيء إلا وهو مزاحم ممنوع من بعض ما يحبه ويهواه ، و مامن حال إلا وفيه مقارنات من الأضداد والأنداد .

فاذا أخذت معنى السلام مطلقاً غير نسبيّ تحصلّ عندك ما عليه الجنة من الوصف ، و انكشف أنّ توصيفها بهذه الصفة نظير توصيفها في قوله : « لهم ما يشاؤون فيها » ق : ٣٥ فإنّ سلامة الإنسان من كلّ ما يكرهه ولا يحبه تلازم سلطانه على كلّ ما يشاؤه ويحبه .

وفي تقييد دار السلام بكونها عند ربّهم دلالة على قرب الحضور وعدم غفلتهم عنه سبحانه هناك أصلاً ، و قد تقدّم الكلام في معنى الهداية و معنى الصراط المستقيم في مواضع من الأبحاث السابقة كتفسير سورة الحمد وغيره .

## ﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا » الآية قال : فإنّ قریشا قالت : يا رسول الله ائتنا بقرآن غير هذا فإنّ هذا شيء تعلمته من اليهود و النصارى قال الله : قل لهم : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم أربعين سنة قبل أن يوحى إليّ ، ولم أتكلّم بشيء منه حتّى أوحى إليّ .

**اقول :** و في انطباق مضمونه على الآية خفاء ، على ما فيه من مخاطبتهم النبي ﷺ بالرسالة .

و في تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال :  
لم يزل رسول الله ﷺ يقول : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم حتى نزلت  
سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام .

**اقول :** والرواية لا تخلو عن شيء .

و في الدر المنثور أخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال : فر عكرمة بن  
أبي جهل يوم الفتح فركب البحر فأخذته الريح فنادى باللات والعزى فقال أصحاب  
السفينة : لا يجوز ههنا أحد يدعو شيئاً إلا الله وحده مخلصاً فقال عكرمة : و الله لئن  
كان في البحر وحده إنّه لفي البر وحده فأسلم .

**اقول :** و الرواية مروية بطرق كثيرة مختلفة .

و في تفسير العياشي عن منصور بن يونس عن أبي عبد الله عليه السلام ثلاث يرجع  
على صاحبهن : النكث و البغي و المكر قال الله : يا أيها الناس إنما بغيتكم على  
أنفسكم .

**اقول :** و هو مروى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاث هن  
رواجع على أهلها : النكث و المكر و البغي . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم » « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله » و  
من نكث فإنما ينكث على نفسه » . أورده في الدر المنثور .

و في الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي قال :  
ما من عبادة أفضل من أن تسأل ، و ما يدفع القضاء إلا الدعاء ، وإن أسرع الخير ثواباً  
البر ، و أسرع الشر عقوبة البغي و كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمرى  
عليه من نفسه ، و أن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه ، و أن يؤذي جلسيه بما  
لا يعنيه .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه



و سلم : لو بغى جبل على جبل لذكّ الباغي منهما .

و في تفسير البرهان عن ابن بابويه باسناده عن العلاء بن عبد الكريم قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عزّ وجلّ : « و الله يدعو إلى دار السلام » فقال : إنّ السلام هو الله عزّ وجلّ وداره التي خلقها لأوليائه الجنة .

و فيه عن ابن شهر آشوب عن عليّ بن عبدالله بن عباس عن أبيه وزيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى : « و الله يدعو إلى دار السلام » يعني به الجنة « و يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » يعني ولاية عليّ بن أبي طالب .

**اقول :** إنّ كانت الرواية موقوفة فهي من الجري أو من الباطن من معنى القرآن ، و في معناها روايات أخر .





لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ  
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ  
 بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا  
 مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ  
 جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ  
 شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاءٌ تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا  
 عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَا فُلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ  
 مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) .

### ﴿بيان﴾

استئناف يعود فيه إلى ذكر جزاء الأعمال وعود الجميع إلى الله الحق ، وقد  
 تقدّم إيماء إلى ذلك ، وفيه إثبات توحيد الربوبية .

**قوله تعالى :** « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا  
 ذِلَّةٌ » الخ الحسنی مؤنّث أحسن و المراد المثوبة الحسنی ، والمراد بالزيادة الزيادة  
 على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلاً من الجزاء و الثواب ثم  
 جعله حقاً للعامل في مثل قوله : «لهم أجرهم عند ربهم» آل عمران : ١٩٩ ثم ضاعفه  
 وجعل المضاعف منه أيضاً حقاً للعامل كما في قوله : « من جاء بالحسنة فله عشر  
 أمثالها » الأنعام : ١٦٠ وعند ذلك كان مفاد قوله : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ» استحقاقهم  
 للجزاء و المثوبة الحسنی ، و تكون الزيادة هي الزيادة على مقدار الاستحقاق من

المثل أو العشرة الأمثال نظير ما يفيدته قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » النساء : ١٧٤ .

و لو كان المراد بالحسنى في قوله : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى» العاقبة الحسنى ، وليس فيما يعقل فوق الحسنى شيء ، كان معنى قوله : « و زيادة » الزيادة على ما يعقله الإنسان من الفضل الإلهي كما يشير إليه قوله : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ » الم السجدة : ١٧ وما في قوله : «لهم ما يشاؤون فيها ولدينامزيد» ق : ٣٥ فإنَّ من المعلوم أنَّ كلَّ أمر حسن يشاؤه الإنسان فالمزيد على ما يشاؤه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك .

والرهب بقفتحين اللحق والغشيان يقال : رهبه الدين أي لحق به وغشيه ، والقتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود ، وفي توصيفهم بقوله : ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلَّة « محاذاة لما في الآية التالية من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر وهو سواد صوريّ و الذلَّة وهي سواد معنويّ .

و المعنى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي الدُّنْيَا الْمُنُوبَةُ الْحَسَنَى و زيادة من فضل الله - أو العاقبة الحسنى و زيادة لاتخطر ببالهم - ولا يغشى وجوههم سواد من قتر ولا ذلَّة ، و أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

**قوله تعالى :** « وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » إلى آخر الآية جملة «جزاء سيئة بمثلها» خبر لمبتدأ، محذوف والتقدير: لهم جزاء سيئة بمثلها من العذاب ، والجملة خبر للمبتدأ، الذي هو قوله : « الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » والمراد أنَّ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ لايجزون إلاَّ مثل ما عملوه من العقوبات السيئة فجزاء فعله سيئة عقوبة سيئة .

وقوله : « ما لهم من الله من عاصم » أي ما لهم عاصم يعصمهم من الله أي من عذابه وفيه نفي لشركائهم الَّذِينَ يظنونهم شفعاء على وجه ينفي كلَّ عاصم مانع سواء كان شريكاً شافعياً أو ضدَّاً قوياً مانعاً أو أيَّ عاصم غيرهما .

وقوله : « كَانُوا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قُطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمًا » القطع جمع قطعة

ومظلماً حال من الليل ، والمراد كأنّ الدليل المظلم قسم إلى قطع فأغشيت وجوههم تلك القطع فاسودّت بالتمام ، والمتبادر منه أن يغشى وجه كلّ من المشرّكين بقطعة من تلك القطع لا كما فسّره بعضهم أن المراد أنّ الوجوه أغشيت تلك القطع قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات بعضها فوق بعض . فليس في الكلام ما يدلّ على ذلك .

وقوله : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » يدلّ على دوام بقائهم في النار لدلالة الصحابة و الخلود عليه كما أنّ نظيره في أصحاب الجنة يدلّ على نظيره .

**قوله تعالى :** « ويوم نحشرهم جميعاً ثمّ نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم و شركاؤكم » إلى آخر الآية . المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين والمشرّكين وشركائهم فإنّه تعالى يذكر المشرّكين وشركاءهم في هذه الآية وما يتلوها ثمّ يشير إلى الجميع بقوله في الآية التالية : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » .

وقوله : « ثمّ نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم و شركاؤكم » أي الزموا مكانكم أنتم و ليلزم شركاؤكم مكانهم وتقرّع على هذا الخطاب أن زبيلنا بينهم ، و قطعنا الرابطة التي كانت تربطهم بشركائهم وهي رابطة الوهم و الحسبان التي يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم و انقطع شركاؤهم عنهم فبان أنّ عبادتهم لم تقع عليهم ولم تتعلّق بهم لأنّهم إنّما عبدوا الشركاء وهم ليسوا بشركاء .

والدليل على هذا الذي ذكرناه قوله تعالى بعده : « وقال شركاؤهم ما كنتم إيماناً تعبدون » فالكلام على ظاهره من النفي الجدّيّ الصادق لعبادتهم إيمانهم ، و ليسوا يكذبون في كلامهم هذا بدليل استنادهم إلى شهادة الله سبحانه ، ولا أنّهم يريدون أنّا لم نكن ندعوكم إلى عبادتنا فإنّ الكلام لا يلائم هذا المعنى ، ولا أنّ مرادهم التعريض لهم بأنّكم كنتم تعبدون أهواءكم و شياطينكم المغوين لكم في الحقيقة فإنّ ذلك لا يلائم دعاوهم الغفلة ، و كذا لا يلائمه قوله بعده : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » الخ على ما سيحيي من معناه بل مرادهم نفي العبادة حقيقة

بنفي حقيقة الشريعة ، والاستشهاد على ذلك بشهادة الله وعلمه بغفلتهم عن عبادتهم .  
والعبادة التي هي اتصال ما بالمملوكية و التذلل من العابد بالمعبود إنما تكون عبادة إذا اتصلت و ارتبطت بالمعبود - حتى يتم به معنى اللام في قولنا :  
العبادة له - ولا يكون ذلك إلا بشعور من المعبود و علم منه بذلك فإذا لم يتحقق  
هناك علم لم يتحقق عبادة حقيقة ، وإنما هي صورة عبادة .

فقد تبين أن المراد بقوله : « ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم  
فزيلنا بينهم » إظهاره وإبرازه تعالى يومئذ حقيقة الأمر الذي سترت عليه الأوهام  
وحجبته الأهواء في الدنيا وهو أن حقيقة المولوية ومالكية زمام التدبير لله سبحانه  
وليس لغيره من المولوية والاربوية شيء حتى يصح الالتجاء إليه وتصدق عبادته .  
فإذا كشف الله الغطاء عن وجه هذه الحقيقة يومئذ بان للمشركين أن شركاءهم  
لم يكونوا شركاء ولا معبودين لهم في الحقيقة - لغفلتهم عن عبادتهم ، وإنما كانوا  
يأتون لهم بصورة العبادة التي كان الوهم والهوى يصور رانها عبادة وليست بها .  
وإليه يشير أيضاً قوله تعالى : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا  
ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كننا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون »  
النحل : ٨٦ .

وقد تبين بذلك أيضاً أن قوله : « وقال شركاؤهم ما كنتم إيماناً تعبدون »  
قول من شركائهم لهم على الجد والحقيقة ، ويظهر به فساد قول بعضهم : المراد أنكم  
لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا لأنكم لم تعبدونا أصلاً لأن ذلك كذب لا يجوز أن يقع في  
الآخرة لكونهم ملجئين فيها إلى ترك القبيح .

فإن نفي أصل العبادة بما عرفت من معناه هو حق الصدق ، وإثبات العبادة  
وإن لم يكن كذباً إلا أنه لا يخلو عن مجاز في الجملة بالنظر إلى حقيقة الأمر . على  
أن ما ذكره أن المراد نفي العبادة بأمرهم و دعوتهم معنى لا دليل عليه من جهة  
اللفظ .

على أن الكذب إنما لا يقع في الآخرة إذا كان عملاً و كسباً وأما بمعنى

نتيجة الملكات الدنيوية فلا مانع من إمكانه بل هو واقع كما يحكيه تعالى في قوله: « ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم » الأنعام : ٢٤ وغيره من الآيات .

و كذا قول بعضهم : إن المراد ما كنتم تخصصوننا بالعبادة ، و إنما كنتم تعبدون أهواءكم و شهواتكم و شياطينكم المغوية لكم - فإن صدق عبادة الأهواء و الشيطان على عملهم من جهة أنه أتباع للهوى و الشيطان لا ينفي عنه صدق كونه عبادة للأصنام كما أنه تعالى يصدق في كلامه الجهات الثلاث جميعاً قال تعالى : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم » يونس : ١٨ و قال : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الجاثية : ٢٣ و قال : « أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » يس : ٦٠ . و من المعلوم أن الشركاء يحتجّون لنفي كونهم معبودين لهم بالأثبات كون الهوى و الشيطان معبودين لهم مع الشركاء فإن هذا لا ينفعهم في الحجّة البتّة ، و يستلزم لغوية إيمانهم الغفلة لأنفسهم في قولهم : « إن كنا عن عبادتكم لغافلين » لأنّ الأهواء أيضاً ما كانت شاعرة بعبادتهم كما أن الأصنام و هي أجسام ميتة كذلك .

و لعلّ القائل اعتمد في قواه على الحصر المفهوم من قوله : « ما كنتم إيماناً تعبدون » بتقديم المفعول على فعله ، و ظاهره أنه قصر قلب مدلوله نفى المعبودية عن أنفسهم و إثباته لغيرهم ، و ليس نفياً لأصل العبادة فإنهم يثبتونها في قولهم : « عن عبادتكم » فإن إضافة المصدر إلى معموله يفيد الثبوت .

لكن الحق أن هؤلاء الشركاء إنما قالوا لهم : « ما كنتم إيماناً تعبدون » تجاه ما قاله المشركون على ما حكاه الله : « ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنّا ندعو من دونك » النحل : ٨٦ فنفوا عبادتهم عن الله سبحانه و أثبتوها للشركاء ، و الشركاء لم يكن ينفعهم إلا نفى عبادة المشركين عن أنفسهم ، و أمّا أنها ثابتة لمن ؟ فلا غرض لهم يتعلق بذلك و إنما همّهم تنزيه أنفسهم عن دعوى الشركاء ، و قد احتجّوا على ذلك بأثبات الغفلة

عن ذلك لأنفسهم ، و لو كانوا شاعرين بعبادتهم و عبدوهم كان لزمهم أعني الشركاء دعوى الشركة .

**قوله تعالى :** « فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم » إلى آخر الآية ظهر معناه بما مرّ من التقرير ، والفاء في قوله : « فكفى بالله » يفيد التعليل كقولنا : اعبد الله فهو ربك ، وهو شائع في الكلام .

**قوله تعالى :** « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » إلى آخر الآية البلاء الاختبار ، و الإشارة بقوله : « هنالك » إلى الموقف الذي ذكره بقوله : « ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزِيلنا بينهم » .

فذلك الموقف موقف تختبر و تمتحن كل نفس ما أسلفت وقدّمت من الأعمال فتتكشف لها حقيقة أعمالها و تشاهدها مشاهدة عيان لا مجرد الذكر أو البيان ، و بمشاهدة الحقّ من كلّ شيء عياناً ينكشف أنّ المولى الحقّ هو الله سبحانه ، و تسقط وتنهدم جميع الأوهام ، و تضلّ جميع الدعاوي التي يفترها الإنسان بأوهامه و أهوائه على الحقّ .

فهذه الافتراءات و الدعاوي جميعاً إنّما نشأت من حيث الروابط التي نضعها في هذه الدنيا بين الأسباب و المسببات والاستقلال والمولوية التي نعطيها الأسباب ولا إله إلا الله ولا مولى حقّاً إلا هو سبحانه فإذا انجلت حقيقة الأمر ، و انكشف غيم الوهم و انتهت حجاب الدعاوي ظهر أنّ لا مولى حقّاً إلا هو سبحانه ، و بطل جميع الآلهة التي إنّما أثبتتها الافتراء من الإنسان ، و سقطت وحبطت جميع الأعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عبادة حقّ .

فالفقرات الثلاث من الآية أعني قوله : « تبلو كل نفس » الخ وقوله : « ردّوا إلى الله » الخ ، و قوله : « و ضلّ عنهم » الخ كلّ منها تعين الآخرين على إفادة حقيقة معناها ، و محصل مفاد المجموع ظهور حقيقة الولاية الإلهية يومئذ ظهور عيان وأن ليس لغيره تعالى إلا الفقر والمملوكة المحضة فيبطل عند ذلك كلّ دعوى باطلة وينهدم بنيان الأوهام .

كما يشير إلى ذلك قوله : « هنالك الولاية لله الحق » الكهف : ٤٤ وقوله : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ وقوله : « والأمر يومئذ لله » الانقطار : ١٩ إلى غير ذلك .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في أمالي المفيد بإسناده إلى أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما كتب إلى محمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر وأمره أن يقرأه على الناس ، وفيما كتب : قال الله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » والحسنى هي الجنة والزيادة هي الدنيا .

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية : فأما الحسنى فهي الجنة ، وأما الزيادة فالدنيا ما أعطاهم الله في الدنيا يحاسبهم الله في الآخرة ، ويجمع الله لهم ثواب الدنيا والآخرة . الحديث .

**أقول :** والروايتان ناظرتان إلى المعنى الأول الذي قدّمناه في البيان المتقدم وروى ما في معنى الثاني الطبرسي في المجمع عن الباقر عليه السلام وفي تفسير البرهان روى في نهج البيان عن علي بن إبراهيم قال : قال : الزيادة هبة الله عز وجل .

وفي الدر المنثور أخرج الدارقطني وابن مردويه عن صهيب في الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الزيادة النظر إلى وجه الله .

**أقول :** وروي هذا المعنى بعدّة طرق من طرق أهل السنّة عن النبي صلى الله عليه وآله وقد تقدّم توضيح معناها في تفسير قوله تعالى : « ربّ أرنني أنظر إليك » الأعراف : ١٤٣ في الجزء الثامن من الكتاب .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلاً » قال : أما ترى البيت إذا كان الليل



كان أشدّ سواداً من خارج فكذلك وجوههم يزدادون سواداً .  
**أقول :** ورواه العياشي عن أبي بصير عنه عليه السلام و كأنّه عليه السلام يريد تفسير القطع من الليل الواقعة في الآية .  
 وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن السديّ في قوله : « و ردّوا إلى الله مولاهم الحق » قال : نسختها قوله : « مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم » .  
**أقول :** و هو من أسخف القول بل الآيتان ناظرتان إلى جهتين مختلفتين من المعنى وهما الظاهر والباطن .





قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ فَمُتَقَوْنَ اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصْرِفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتِي رَبِّكَ عَلَيَّ الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَمْدُقُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُوهُ قُلِ اللَّهُ يَمْدُقُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُوهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَضِلَّ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) .

### ﴿بيانات﴾

حجج ساطعة على توحيده تعالى في الربوبية يأمر نبيه صلى الله عليه وآله بإقامتها على المشركين ، وهي ثلاث حجج مرتبة بحسب الدقة والمثانة فالحجة الأولى تسلك من الطريق الذي يعتبره الوثنيون وعبداء الأصنام فإنهم إنما يعبدون أرباب الأصنام بأصنامهم من جهة تدبيرهم للكون فيعبدون كلاً منهم لأجل ما يخص به من الشأن ، وما يرجع إليه من التدبير ليرضى بذلك عمّن يعبدوه فيفيض عليه بركاته أو ليؤمنه فلا يرسل إليه سخطه وعقابه كما كان يعبد سكان السواحل رب البحر ، وأهل الجبال وأهل البر وأهل العلوم والصنائع وأهل الحروب والغارات

وغيرهم كلُّ يعبد من يناسب تدبيره الشأن الذي يهّمه ليرضى عنه ربّه فيبارك عليه برضاه أو يكفّ عنه غضبه .

و محصل الحجّة أنّ تدبير العالم الانسانيّ وسائر الموجودات جميعاً يقوم به الله سبحانه لاغير على مايعترفون به فمن الواجب أن يوحدوه بالربوبية ولا يعبدوا إلا إياه .

والحجّة الثانية مايعتبره عامّة المؤمنين ، وذلك أنّهم لايلتفتون كثيراً إلى زخارف هذه النشأة من لذائذ المادّة ، وإنّما جلّ اعتنائهم بالحياة الدائمة الأخروية التي تمنعهم سعادتها وشقاوتها بالجزاء الإلهي بأعمالهم فإذا قامت البيّنة العقلية على الإعادة كالبده كان من الواجب أن لايعبد إلاالله سبحانه ، ولا يتخذ أرباب من دونه طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه .

والحجّة الثالثة وهي التي تحنّ إليها قلوب الخاصة من المؤمنين وهي أنّ المتّبع عند العقل هو الحقّ ، ولما كان الحقّ سبحانه هو الهادي إلى الحقّ دون مايدعونه من الأرباب من دون الله فليكن هو المتّبع دون ما يدعونه من الأرباب ، وسيأتي في تفسير الآيات توضيح هذه الحجج الثلاث بما تنجلي به مزيد انجلاء إن شاء الله .

ولولا اعتبار هذه النكته كان الظاهر أن تذكر أولاً الحجّة الثانية ثمّ الثالثة ثمّ الأولى أو تذكر الثانية ثمّ يجمع بين الأولى والثالثة فيذكر بعدها .

**قوله تعالى :** « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار » إلى آخر الآية . الرزق هو العطاء الجاري ، ورزقه تعالى للعالم الانسانيّ من السماء هو نزول الأمطار والثلوج ونحوه ، ومن الأرض هو با نباتها وثمارها وتربيتها الحيوان ومنهما يرتزق الانسان ، وبركة هذه النعم الإلهية يبقى النوع الانسانيّ والمراد بملك السمع والأبصار كونه تعالى متصرفاً في الحواسّ الانسانية التي بها ينظم له أنواع التمتع من الأرزاق المختلفة التي أذن الله تعالى أن يتمتع بها فإنّما هو يشخص ويميّز مايريده ممّا لايريده بأعمال السمع والبصر واللمس والذوق والشمّ

فيتحرك نحو ما يريد ، ويتوقف أو يفرّ مما يكرهه بها .

فالحواس هي التي تتم بها فائدة الرزق الإلهي ، وإنما خصّ السمع و البصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما في الأعمال الحيويّة أكثر من غيرهما ، والله سبحانه هو الذي يملكهما ويتصرّف فيهما بالإعطاء والمنع والزيادة والنقص .

و قوله : « و من يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي » الحياة بحسب النظر الباديء في الإنسان هي المبدء الذي يظهر به العلم والقدرة في الشيء ، فيصدر أعماله عن العلم والقدرة ما دامت الحياة ، وإذا بطلت بطل الصدور كذلك .

ثم اكتشف من طريق النظر العلمي أن ذلك لا يختص بأقسام الحيوان كما كان يعطيه النظر الابتدائي فإن الملاك الذي كان يوجب للحيوان كونه ذا حياة - وهو كونه ذا نفس يصدر عنها أعمال مختلفة لا على وتيرة واحدة طبيعياً كحركاته إلى جهات مختلفة بحركات مختلفة وسكونه من غير حركة - موجود في النبات .

و كذلك الأبحاث الجارية على الطرق الحديثة تعطي ذلك فإن جراثيم الحياة الموجودة في الحيوان التي إليها تنتهي أعماله الحيويّة توجد في النبات نظيرها فهو ذو حياة كمثل الحيوان فالنظر العلمي على أي حال يهدي إلى عموم الحياة لجميع أنواع الحيوان والنبات .

ثم الحياة وهي تقابل الموت الذي هو بطلان مبدء الأعمال الحيويّة تعود بحسب التحليل إلى كون الشيء بحيث تترتب عليه آثاره المطلوبة منه كما أن الموت عدم كونه كذلك فحياة الأرض هي كونها نابتة مخضرة وموتها خلافه ، و حياة العمل كونه بحيث ينتهي إلى الغرض الذي أتي به لأجله وموته خلافه ، و حياة الكلمة كونها بحيث تؤثر في السامع أثراً مطلوباً وموتها خلافه ، و حياة الإنسان كونه جارياً على ما تهدي إليه الفطرة الإنسانية ككونه ذا عقل سليم ونفس زاكية ، و لذا عد القرآن الشريف الدين حياة للإنسان لأنه يرى أن الدين الحق وهو الإسلام هو الفطرة الإلهية .

إذا تبين هذا اتضح أن خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي

يختلف معناه بحسب اختلاف المراد بالحياة والموت فعلى النظرتين الأوليين هو خروج الحيوان أو الحيوان والنبات بالكينونة من غيرها كالمشي والبيضة والبذر فإن الحي كما لا تدوم له هذه الحياة بقاء إلى غير النهاية لانتهاب أيضا بحسب البدء في حياة غير متناهية ولا طريق إلى إثباته ، وخروج أجزاء غير ذات حياة من الحيوان أو الحيوان والنبات بالانفصال .

وعلى النظرة الأخيرة أعني نظرة تعميم الحياة لكل ما يترتب عليه آثارها المطلوبة منها هو أن يخرج من الأمور غير المفيدة في باب أمور مفيدة في ذلك الباب بالكينونة والتولد كخلق الإنسان الحي والحيوان الحي والنبات الحي من التراب الميت وبالعكس ، وكخروج الإنسان العاقل الصالح من الإنسان الذي لا عقل له ولا صلاح وبالعكس ، وخروج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

وظاهر الآية الكريمة بالنظر إلى سياقها ومقام المخاطبة فيها أن يكون المراد بإخراج الحي من الميت وبالعكس فيها هو هذا المعنى الأخير ، وذلك أن الآية تقيم الحجّة على المشرّكين من المسلك الذي كانوا يسلكونه في الاحتجاج على اتخاذ الآلهة المختلفة وهو أن العالم المشهود مجموعة من موجودات مختلفة متشعبة علوية وسفلية والسفلية من إنسان وحيوان ونبات وبحر وبر وأمر وراء ذلك كثيرة ، وكل منها تحت تدبير مدبر شفيع عند الله نعبده بعبادة صنمه ليقربنا إلى الله زلفى وبالجملة انتهاء التدبيرات على اختلافها إلى مدبرات مختلفة يوجب وجود أرباب من دون الله كثيرة .

والآية تردّ عليهم حجّتهم ببيان انتهاء التدبيرات المختلفة إليه تعالى وأن ذلك يدلّ على أن الله سبحانه ربّ كل شيء وحده ، فهي تخاطبهم بأنّكم تعترفون بأنّ ما يخصّكم من التدبير كرزقكم وما يعمّكم وغيركم منه ينتهي إلى الله سبحانه فهو المدبر لأمركم وأمر غيركم فهو الربّ لأربّ سواه .

وقد بدأت في التعداد بما يخصّ الإنسان أعني قوله : « قل من يرزقكم من السماء والأرض » وختمت بما يعمّه وغيره أعني قوله : « ومن يدبر الأمر » وظاهر

السياق أن يكون المراد بقوله : « أَمَّنْ يملك السمع و الأبصار ومن يخرج الحي من الميِّت » هو التدبير الخاص بالإنسان فيكون المراد ملك السمع و الأبصار التي لأفراد الإنسان ، وكذا إخراج الحي من الإنسان من ميِّته و بالعكس ، وقد بيّن أن الحياة المخصوصة بالإنسان هو كونه ذا نعمة العقل والدين .

فالمراد بإخراج الحي من الميِّت و بالعكس - والله أعلم - إخراج الإنسان الحي بالسعادة الإنسانية من الإنسان الميِّت الذي لاسعادة له و بالعكس .

فالله سبحانه يلقّن نبيّه ﷺ الحجّة على توحيدهِ بالربوبية فأمره بقوله : « قل » أن يقول لهم في سياق الاستفهام « من يرزقكم من السماء و الأرض » بالأطوار و النبات و التكوين « أَمَّنْ يملك السمع و الأبصار » منكم فتتمّ بهما فائدة رزقكم حيث ترتزقون بتشخيصهما من طبيّبات الرزق ، ولولاهما لم توفّقوا لذلك و فنيتم عن آخركم « و من يخرج الحي من الميِّت » أي كلّ أمر مفيد في بابهِ من غيره « و من يخرج الميِّت من الحي » فيتولّد الإنسان السعيد من الشقيّ و الشقيّ من السعيد « و من يدبّر الأمر » في جميع الخليقة .

« فيقولون الله » اعترافاً بأنّه الذي ينتهى إليه جميع هذه التدبيرات في الإنسان و غيره لأنّ الوثنيين يعتقدون ذلك فأمر النبيّ ﷺ أن يوبّخهم أوّلاً على ترك تقوى الله بعبادة غيره مع ظهور الحجّة ثمّ يستنتج لهم من الحجّة وجوب توحيدهِ تعالى فقال : « فقل أفلأنتقون » ثمّ قال : « فذلّكم الله ربّكم » .

**قوله تعالى :** « فذلّكم الله ربّكم الحقّ فما ذا بعد الحقّ إلّا الضلال فإنّي تصرفون » الجملة الأولى نتيجة الحجّة السابقة ، و قد وصف الربّ بالحقّ ليكون توضيحاً لمفاد الحجّة ، و توطئة و تمهيداً لقوله بعده : « فما ذا بعد الحقّ إلّا الضلال » .

وقوله : « فما ذا بعد الحقّ إلّا الضلال » أخذ بلازم الحجّة السابقة لاستنتاج أنّهم ضالّون في عبادة الأصنام فإنّه إذا كانت ربوبيّته تعالى حقّة فإنّ الهدى في

اتّباعه وعبادته فإنّ الهدى مع الحقّ لا غير فلا يبقى عند غيره الذي هو الباطل إلاّ الضلال .

فتقدير الكلام : فماذا بعد الحقّ الذي معه الهدى إلاّ الباطل الذي معه الضلال فحذف من كلّ من الطرفين شيء ، وأقيم الباقي مقامه إيجازاً و قيل : فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال ، ولذا قال بعضهم : إنّ في الآية احتباك - وهو من المحسنات البديعية - وهو أن يكون هناك متعابكان ، بلان فيحذف من كلّ منهما شيء ، يدلّ عليه الآخر فإنّ تقدير الكلام : فماذا بعد الحقّ إلاّ الباطل ؟ وماذا بعد الهدى إلاّ الضلال ؟ فحذف الباطل من الأوّل والهدى من الثاني وبقي قوله : فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال ؟ والوجه هو الذي قدّمناه .

ثمّ تمّ الآية بقوله : « فأنتى تصرفون » أي إلى متى تصرفون عن الحقّ الذي معه الهدى إلى الضلال الذي مع الباطل .

**قوله تعالى :** « كذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنّهم لا يؤمنون » ظاهر السياق أنّ الكلمة التي تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هي أنّهم لا يؤمنون أي أنّه سبحانه قضى عليهم قضاء حتماً وهو أنّ الفاسقين - وهم على فسقهم - لا يؤمنون ولا تنالهم الهداية الإلهية إلى الإيمان ، وقد قال تعالى : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » المائدة : ١٠٨ .

وعلى هذا فالإشارة بقوله : « كذلك » إلى ما تحصّل من الآية السابقة : أنّ المشركين صرفوا عن الحقّ وفسقوا عنه فوقعوا في الضلال إذ ليس بعد الحقّ إلاّ الضلال .

فمعنى قوله : « كذلك حقّت كلمة ربك » الخ أنّ الكلمة الإلهية والقضاء الحتميّ الذي قضى به في الفاسقين - وهو أنّهم لا يؤمنون - هكذا حقّت وثبتت في الخارج وأخذت مصداقها وهو أنّهم خرجوا عن الحقّ فوقعوا في الضلال أي إنّنا لم نقض عدم هدى الفاسقين وعدم إيمانهم ظلماً ولا جازافاً وإنّما قضينا ذلك لأنّهم صرفوا عن الحقّ وفسقوا فوقعوا في الضلال ولا واسطة بينهما فافهم ذلك .

وفي الآية دلالة على أن الأمور الضرورية والأحكام والقوانين البينة التي تجري في النظام المشهود كقولنا : لا واسطة بين الحق والباطل ولا بين الهدى والضلال لها نوع استناد إلى القضاء الإلهي ، وليست ثابتة في ملكه تعالى من تلقاء نفسها .  
و ربما ذكر بعض المفسرين : أن المراد بالكلمة في الآية كلمة العذاب وقوله : «أنهم لا يؤمنون» في موضع التعليل بتقدير لاهمه ، والتقدير كذبوا هذه الحجّة عليهم حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا وهي وعيدهم بالعذاب وإنما حقّت عليهم العذاب لأنهم لا يؤمنون .

ولا يخلو عن سقم فإن وجه الشبه غير ظاهر ولا متفق فيهما فالحجّة ثابتة عليهم بذاتها وأما العذاب فليس ثبوته كذلك بل لأمر آخر وهو أنهم لا يؤمنون .  
و الحجّة - كما سمعت في البيان المتقدم - حجة ساذجة يعترف بحقيقتها الوثنية ، و قد صرفوها عن وجهها وأقاموها على ما يدعونها من ربوبية أربابهم و استحقاقها للعبادة من دون الله حيث قالوا : إن تدبير كل شأن من شؤون العالم العامة إلى واحد من هذه الأرباب فهو ربّ ذلك الشأن ، وإنما نعبد أصنامها و تماثيلها لنرضيها بذلك فتشفع لنا عند الله بما لها من القرب عنده .

فأخذت الآية اعترافهم بأن هذه التدابير لله سبحانه - و كيف لا تكون له و هو خالق الكل و مبقيها ؟ - فله سبحانه وحده حقيقة الربوبية و هو المستحق للعبادة لا غيره .

**قوله تعالى :** « قل هل من شركائكم من يبدء الخلق ثم يعيده » إلى آخر الآية . تلقين للاحتجاج من جهة المبدء و المعاد فإن الذي يبدء كل شيء ثم يعيده يستحق أن يعبد الإنسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه وينال عظيم ثوابه يوم المعاد .

و لما كان المشركون - وهم المخاطبون بالحجة - غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه ﷺ أن يتصدى جواب سؤاله بنفسه فقال : « قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فأنتى تؤفكون » و إلى متى تصرفون عن الحق .



و ليس اعتماد الآية على مسألة الإبداء و الإعادة في احتجاجها اعتمادا على مقدمة غير بيّنة ولا مبيّنة فقد احتجّ عليها في كلامه تعالى من طرق مختلفة كاحتجاج من طريق لزوم الغاية في فعله ، و من طريق وجوب الجزاء على الأعمال في العدل و غير ذلك و قد نفى سبحانه الرب عن البعث و القيامة فيما يبلغ عشر مواضع من كلامه .

والحجّة - كما تقدّم الإيماء إليه - حجّة عامّة المؤمنين الذين يعبدونه تعالى خوفا من العقاب أو رغبة في الثواب الذي أعدّ لهم يوم القيامة .

**قوله تعالى :** « قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ قل الله يهدي للحقّ » إلى آخر الآية ، يهدي للحقّ و إلى الحقّ بمعنى واحد فالهداية تتعدّى بكلتا الحرفين ، و قد ورد تعديتها باللام في مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله : « أولم يهدلهم » الم السجدة : ٣٦ و قوله : « يهدي للتي هي أقوم » أسرى : ٩ إلى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام في قوله : « يهدي للحقّ » للتعليل ليس بشيء .

لقّن سبحانه نبيه ﷺ هذه الحجّة وهي ثلثة الحجج ، وهي حجّة عقلية يعتمد عليها الخاصّة من المؤمنين ، و توضيحها أنّ من المرتكز في الفطرة الإنسانية و به يحكم عقله أنّ من الواجب على الإنسان أن يتّبع الحقّ حتّى أنّه إن انحرف في شيء من أعماله عن الحقّ واتّبع غيره لغلط أو شبهة أو هوى فإنّما اتّبعه لحسابه إيّاه حقّا و التباس الأمر عليه ، و لذا يعنّذ عنه بما يحسبه حقّا فالحقّ واجب الاتّباع على الإطلاق و من غير قيد أو شرط .

و الهادي إلى الحقّ واجب اتّباعه لما عنده من الحقّ ، و من الواجب ترجيحه على من لا يهدي إليه أو يهدي إلى غيره لأنّ اتّباع الهادي إلى الحقّ اتّباع لنفس الحقّ الذي معه و وجوب اتّباعه ضروري .

وقد اعتمد في الحجّة على هذه المقدّمة الضرورية فافتتح الكلام فيها بسؤالهم عن شركائهم هل فيهم من يهدي إلى الحقّ ؟ و من البيّن أنّ لا جواب للمشرّكين في ذلك مثبتا إذ شركاؤهم سواء أكانوا بهاديا غير ذي حياة كالآوثان و الأصنام أم كانوا

من الأحياء كالملائكة وأرباب الأنواع والجن والطواغيت من فرعون ونمرود وغيرهما لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

و إذ لم يكن لهم في ذلك جواب مثبت فإنهم لا يجيبون ، و لذلك أمر النبي ﷺ أن يخلفهم في الجواب فيجيب في ذلك - أعني الهداية إلى الحق - بإثباتها لله سبحانه فقيل : « قل الله يهدي للحق » فإن الله سبحانه هو الذي يهدي كل شيء إلى مقاصده التكوينية والأمر التي يحتاج إليها في بقائه كما في قوله : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ و قوله : « الذي خلق فسوَّى و الذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ و هو الذي يهدي الإنسان إلى سعادة الحياة ويدعوه إلى الجنة والمغفرة بإذنه بإرسال الرسل و إنزال الكتب و تشريع الشرائع ، و أمرهم ببث الدعوة الحقّة الدينيّة بين الناس .

و قد مرّ في تفسير قوله تعالى : « الحقّ من ربك فلا تكن من الممترين » آل عمران : ٦٠ أن الحقّ من الاعتقاد و القول و الفعل إنّما يكون حقاً بمطابقة السنّة الجارية في الكون الذي هو فعله فالحقّ بالحقيقة إنّما يكون حقاً بمشيئته و إرادته .

و إذ تحقّق أنّه ليس من شركائهم من يهدي إلى الحقّ ، و أنّ الله سبحانه يهدي إلى الحقّ سألهم بقوله : « أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدي إلّا أن يهدي » ؟ أن يقضوا في الترجيح بين اتّباعه تعالى و اتّباع شركائهم و هو تعالى يهدي إلى الحقّ وهم لا يهدون ولا يهتدون إلّا بغيرهم ، و من المعلوم أنّ الرجحان لمن يهدي على من لا يهدي أي لا يتّباعه تعالى على اتّباعهم ، والمشركون يحكمون بالعكس ، و لذلك لامهم و وبّخهم بقوله : « فما لكم كيف تحكمون » ؟ . و التعبير في الترجيح في قوله : « أحقّ أن يتّبع » بأفعل التفضيل الدالّ على مطلق الرجحان دون التعيّن والانحصار مع أنّ اتّباعه تعالى حقّ لا غير و اتّباعهم لا نصيب له من الحقّ إنّما هو بالنظر إلى مقام الترجيح ، وليسهل بذلك قبولهم للقول من غير إثارة لعصبيتهم وتوبيخ لجبهاتهم .

و قد أبدع تعالى في قوله : « أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي » و القراءه الدائرة : « لا يهدي » بكسر الهاء و تشديد الدال وأصله يهتدي ، و ظاهر قوله : « لا يهدي إلا أن يهدي » و قد حذف متعلقات الفعل فيه أنه إنما يهتدي بغيره لانفسه .

و الكلام قد قوبل فيه قوله : « يهدي إلى الحق » بقوله : « من لا يهدي » مع أن الهداية إلى الحق يقابلها عدم الهداية إلى الحق ، وعدم الاهتداء إلى الحق يقابله الاهتداء إلى الحق فلازم هذه المقابلة الملازمة بين الاهتداء بالغير وعدم الهداية إلى الحق ، و كذا الملازمة بين الهداية إلى الحق و الاهتداء بالذات فالذي يهدي إلى الحق يجب أن يكون مهتدياً بنفسه لاهداية غيره و الذي يهتدي بغيره ليس يهدي إلى الحق أبداً .

هذا ما تدل عليه الآية بحسب ظاهرها الذي لا ريب فيه و هو أعدل شاهد على أن الكلام موضوع فيها على الحقيقة دون التجويزات المبنيّة على المساهلة التي نبني عليها و نداولها فيما بيننا معاشر أهل العرف فننسب الهداية إلى الحق إلى كل من تكلم بكلمة حق و دعا إليها و إن لم يعتقد بها أو اعتقد ولم يعمل بها أو عمل ولم يتحقق بمعناها ، و سواء اهتدى إليها بنفسه أو هداه إليها غيره .

بل الهداية إلى الحق أعني الإيصال إلى صريح الحق و متن الواقع ليس إلا لله سبحانه أو لمن اهتدى بنفسه أي هداه الله سبحانه من غير واسطة تتخلل بينه و بينه فاهتدى بالله و هدى غيره بأمر الله سبحانه ، و قد تقدّمت نبذة من الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » الآية البقرة : ١٢٤ .

و قد تبين بما قدّمناه في معنى الآية أمور :

**أحدها :** أن المراد بالهداية إلى الحق ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون ما هو بمعنى إراءة الطريق المنتهي إلى الحق فإن من الضروري أن وصف طريق الحق يتأتى من كل أحد سواء اهتدى إلى الحق بنفسه أو بغيره أو لم يهتد .

**وثانيها :** أن المراد بقوله : « من لا يهدي إلا أن يهدي » من لا يهدي بنفسه ، و هذا أعم من أن يكون ممن يهدي غيره أو يكون ممن لا يهدي أصلاً ، لا بنفسه ولا غيره كالأوثان والأصنام التي هي جناد لا يقبل هداية من غيره ، وذلك أن قوله : « إلا أن يهدي » استثناء من قوله : « من لا يهدي » الأعم من أن لا يهدي أصلاً أو يهدي غيره ، والمأخوذ في قوله : « أن يهدي » فعل دخلت عليه أن المصدرية المؤولة إلى المصدر ، والجملة الفعلية المؤولة إلى المصدر كذلك لا يدل على التحقق بخلاف المصدر المضاف إلى معموله ففرق بين قوله : « أن تصوموا خير لكم » البقرة : ١٨٤ فلا يدل على الوقوع و بين نحو قوله : « إن كننا عن عبادتكم لعافلين » يونس : ٢٩ فيدل على الوقوع ، ويقال : ضربك زيداً عجيب إذا ضربته ، وأن تضرب زيداً عجيب إذا هممت أن تضربه .

فقوله : « من لا يهدي إلا أن يهدي » معناه من لا يكون هداه من نفسه إلا أن تأتيه الهداية من ناحية الغير ، و من المعلوم أنها إنما تأتيه من الغير إذا كان في طبعه أن يقبل ذلك ، و أمّا إذا لم يقبل فأنما يبقى له من الوصف أنه لا يهدي فافهم ذلك .

و للمفسرين في معنى هذا الاستثناء أقوال عجيبة :

منها : أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال لأن من نفي عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزيراً والملائكة والجن ، و هؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الأنبياء من سورتهم : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ .

و فيه : أن محصله : أن المعنى لا يهدي إلا أن يهدي الله تعالى فيهدي غيره بعد اهتدائه بهدايته تعالى ، و قد اختلف عليه معنى الآية من أصله فإن من لا يهدي إلى الحق بنفسه لا يتأتى له أن يهدي إلى الحق فأنه إنما يماس الحق من وراء حجاب فكيف يوصل إليه ؟

على أن ما ذكره لا ينطبق على الأصنام التي هي مورد الاحتجاج في الآية فانها لا تقبل الهداية من أصلها ، وقد ذكر المسيح وعزيراهما ممن قد سته النصرى واليهود وليس وجه الكلام في الآية إليهم وإن شملتهما وغيرهما الآية بحسب عموم الملاك.

ومنها : أن الاستثناء منقطع والمراد بمن لا يهدي الأصنام التي لا تقبل الهداية أصلا فحسب ، والمعنى : أم من لا يهدي أصلا كالأصنام إلا أن يهديه الله فيهدي حينئذ .

وفيه : أنه لا يفي بتوجيه المقابلة التي بين قوله : « من يهدي إلى الحق » وقوله : « من لا يهدي » فإن الهداية إلى الحق والاهتداء إليه لا يتقابلان إلا أن يؤول المعنى إلى مثل قولنا : أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي أصلا إلا أن يهديه الله فيهدي فيه غير ، و يرد عليه أنه لا وجه حينئذ لتخصيصه بمثل الأصنام ممن لا يهدي أصلا حتى يصير الاستثناء منقطعا بل يعم ما لا يهدي أصلا بنفسه ولا غيره ، ومن لا يهدي بنفسه وغيره كالملائكة مثلا ، ويرد عليه ماورد على الوجه السابق .

ومنها : أن المراد بمن لا يهدي الأصنام التي لا تقبل الهداية و « إلا » بمعنى حتى والمعنى لا يهدي ولا يقبل الهداية حتى يهدي .

وفيه : أن التزديد يرجع حينئذ إلى مثل قولنا : أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي أصلا حتى يهدي إلى الحق ، و يعود الاستثناء مستدركا لا يتعلق به غرض في الكلام . مضافا إلى أن مجيء إلا بمعنى حتى غير ثابت وعلى تقدير ثبوته قليل في الكلام لا يحمل على مثله أفصح الكلام .

ومنها : أن المراد بمن لا يهدي إلا أن يهدي الملائكة والجن ممن يعبدون من دون الله وهم يقبلون الهداية من الله وإن لم يهتدوا من عند أنفسهم أو المراد الرؤساء المضلون الذين يدعون إلى الكفر فانهم وإن لم يهتدوا لكنهم يقبلون

الهداية ولو هدوا إلى الحق لهدوا إليه .

و فيه : أن الآيات واقعة في سياق الاحتجاج على عبدة الأصنام ، و القول بأن المراد بمن لا يهدي إلا أن يهدي الملائكة و الجن أو الرؤساء المصلون يخرجها عن صلاحية الانطباق على المورد .

**ونائبها :** أن الهداية إلى الحق بمعنى الايصال إليه إنما هي شأن من يهدي بنفسه أي لا واسطة بينه و بين الله سبحانه في أمر الهداية إما من بادی، أمره أو بعناية خاصة من الله سبحانه كالأنبياء و الأوصياء من الأئمة ، و أما الهداية بمعنى إراءة الطريق و وصف السبيل فلا يختص به تعالى ولا بالأئمة من الأنبياء والأوصياء كما يحكيه الله تعالى عن مؤمن آل فرعون إذ يقول : « و قال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد » المؤمن : ٣٩ و قال : « إنا هديناه السبيل إما شاكرًا و إما كفورًا » الإنسان : ٣ .

و أما قوله تعالى خطابا للنبي ﷺ و هو إمام : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » القصص : ٥٦ و غيره من الآيات فهي مسوقة لبيان الأصاله و التبع كما في آيات التوفّي و علم الغيب و نحو ذلك ممّا سيقت لبيان أن الله سبحانه هو المالك لها بالذات و الحقيقة ، و غيره يملكها بتمليك الله ملكاتبعيًا أو عرضيًا ، و يكون سبيلها بإذن الله قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ و في الأحاديث إشارة إلى ذلك و أن الهداية إلى الحق شأن النبي و أهل بيته ﷺ و قد مرّ بعض الكلام في الهداية فيما تقدّم .

و قوله في ذيل الآية : « فما لكم كيف تحكمون » استفهام للتعجب باستغراباً لحكمهم باتّباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتّباع من لا يهدي ولا يهدي إلى الحق .

**قوله تعالى :** « و ما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » أغنى يغني يتعدى بمن و عن كلمتهما و قد جاء في الكلام الإلهي بكلّ من الوجهين

فعدّي بمن كما في الآية ، وبعن كما في قوله : « ما أغنى عني ماليه » الحاقّة : ٢٩ .  
وإنّما نسب اتّباع الظنّ إلى أكثرهم لأنّ الأقلّ منهم وهم أئمة الضلال  
على يقين من الحقّ ، ولم يؤثروا عليه الباطل ويدعوا إليه إلا بغيا كما قال تعالى :  
« وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » البقرة : ٢١٣ .  
وأما الأكثرون فإنّما اتّبعوا آباءهم تقليداً لهم لحسن ظنّهم بهم .  
وقوله : « إنّ الله عليم بما يفعلون » تعليل لقوله : « وما يتّبع أكثرهم  
إلا ظنّاً » والمعنى أنّ الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنّها اتّباع للظنّ .





وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَاوِيلُهُ كَذَّابٌ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنْ اللَّهُ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانُ ثُمَّ يُلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) .

### ﴿ بيان ﴾

رجوع إلى أمر القرآن و أنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه و تلقين الحجة في ذلك ، و للآيات اتصال بما تقدمها من قوله : « قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق » الآية فقد تقدم أن من هدايته تعالى إلى



الحقّ هدايته الناس إلى دينه الذي يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه والكتب التي أنزلها إليهم ككتب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، وهذه الآيات تذكرها وتقيم الحجّة على أنّ القرآن منها هاد إلى الحقّ ، و لذلك أُشير إليها معه حيث قيل : « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين » .

وفي آخر الآيات الرجوع إلى ذكر الحشر وهو من مقاصد السورة كما تقدّم .  
**قوله تعالى :** « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » إلى آخر الآية . قد تقدّمت الإشارة إلى أنّ نفي صفة أو معنى بنفي الكون يفيد نفي الشأن والاستعداد ، وهو أبلغ من نفيه نفسه ففرق بين قولنا : ما كان زيد ليقوم وقولنا : لم يقم أو ما قام زيد إذ الأوّل يدلّ على أنّ القيام لم يكن من شأن زيد ولا استعداد له استعداداً ، والثاني ينفي القيام عنه فحسب ، وفي القرآن منه شيء كثير كقوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » يونس : ٧٤ ، وقوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » الشورى : ٤٥ وقوله : « وما كان الله ليظلمهم » العنكبوت : ٤٠ .  
فقوله : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » نفي لشأنيّة الافتراء عن القرآن كما قيل وهو أبلغ من نفي فعليّته ، والمعنى ليس من شأن هذا القرآن ولا في صلاحيّته أن يكون افتراء من دون الله يفتره على الله سبحانه .

وقوله : « ولكن تصديق الذي بين يديه » أي تصديقاً لما هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراة والإنجيل كما حكى عن المسيح قوله : « يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يديّ من التوراة » الصفّ : ٦ ، وإنّما وصفهما بما بين يديه مع تقدّمهما لأنّ هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح وكتاب إبراهيم عليهما السلام فاذا لوحظ تقدّم جميعها عليه كان الأقرب منها زماناً إليه وهو التوراة والإنجيل موصوفاً بأنّه بين يديه .

وربّما قيل : إنّ المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الأمور كالبعث

و النشور و الحساب و الجزاء . و ليس بشيء .

و قوله : « و تفصيل الكتاب » عطف على « تصديق » و المراد بالكتاب بدلالة من السياق جنس الكتاب السماوي النازل من عند الله سبحانه على أنبيائه ، و التفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجة بعضها في بعض المنظوية جانب منها في آخر بالإيضاح و الشرح .

وفيه دلالة على أن الدين الإلهي المنزل على أنبيائه ﷺ واحد لا اختلاف فيه إلا بالاجمال و التفصيل ، و القرآن يفصل ما أجمله غيره كما قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » آل عمران : ١٩ .

و أن القرآن الكريم مفصل لما أجمله الكتب السماوية السابقة مهيمن عليها جميعا كما قال تعالى : و أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب و مهيمنا عليه » المائدة : ٤٨ . و قوله : « لا ريب فيه من رب العالمين » أي لا ريب فيه هو من رب العالمين ، و الجملة الثانية كالتعليل للأولى .

**قوله تعالى :** « أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله ، إلى آخر الآية . أم منقطعة و المعنى بل يقولون افتراء ، و الضميران للقرآن ، و اتصاف السورة بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه و القليل .

و المعنى قل للذين يقولون افتراء : إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة مثل هذا القرآن المفترى و ادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فإنه لو كان كلاما مفترى كان كلاما بشرياً و جاز أن يؤتى بمثله و في ذلك تحد ظاهر بسورة واحدة من سور القرآن طويلة كانت أو قصيرة .

و من هنا يظهر أولاً : أن التحدي ليس بسورة معينة فأنهم لم يرموا بالافتراء بعض القرآن دون بعض بل جميعه ، و هو يكلفهم أن يأتوا بسورة مثل ما يدعون أنه افتراء ، و إنما ادعوه لجميع القرآن دون بعضه .

ولا يصغى إلى قول من يقول : إن التنكير في « سورة » للمتعظيم أو للتنويع و المراد سورة من السور يذكر فيها قصص الأنبياء و أخبار و عيد الدنيا والآخرة لأن

الافتراء إنما يتهم به الإخبار دون الإنشاء . أو يقول : المراد سورة طويلة مثل هذه السورة سورة يونس - في اشتغالها على أصول الدين و الوعد و الوعيد .  
و ذلك أن القرآن بجميع آياته منسوب إلى الله سبحانه ، ولا يختلف في ذلك ما يتضمن الإخبار و ما يتضمن الإنشاء ، و ما كانت سورة طويلة أو قصيرة حتى الآية الواحدة ، و الرمي بالافتراء يصح أن يتعلق بالجميع لأنه تكذيب للنسبة المتعلقة بالجميع .

و ثانيا : أن الآية لا تتحدى ببلاغة القرآن و فصاحته فحسب بل السياق في هذه الآية و في سائر الآيات التي وردت مورد التحدي يشهد على أن التحدي إنما هو بما عليه القرآن من صفة الكمال و نعت الفضيلة من اشتغاله على مخ المعارف الإلهية ، و جوامع الشرائع من الأحكام العبادية و القوانين المدنية السياسية و الاقتصادية و القضائية ، و الأخلاق الكريمة و الآداب الحسنة ، و قصص الأنبياء و الأمم الماضية ، و الملاحم و الأخبار الغيبية ، و وصف الملائكة و الجن و السماء و الأرض و الحكمة و الموعظة و الوعد و الوعيد ، و أخبار البدء و العود ، و قوة الحجّة و جزالة البيان و النور و الهداية من غير أن يختلف جزء منه عن جزء ؛ أضف إلى ذلك و قوعه في بلاغته و فصاحته موقعا يقصر عن البلوغ إليه أيدي البشر .

و لقد قصر الباحثون من علماء الصدر الأول و من يتلونهم إذ قصروا إعجازه على بلاغته و فصاحته ، و كتبوا في ذلك كتباً و ألفوا رسائل فصرفهم ذلك عن التدبر في حقائقه و التعمق في معارفه ، و أنماهم إلى أن عدوا المعاني أمورا مطروحة في الطريق يستوي فيه البدوي و الحضري و العاني و الخاصي و الجاهل و العالم ، و أن الفضل لنظم اللفظ على نظم المعنى ولا قيمة لماوراء ذلك .

و قد وصفه الله تعالى بكل وصف جميل دخیل في التحدي كوصفه بأنه نور و رحمة و هدى و حكمة و موعظة و برهان و تبيان لكل شيء و تفصيل الكتاب و شفاء للمؤمنين و قول فصل و ما هو بالهزل و أنه مواقع للنجوم و أنه لا اختلاف فيه ولم يصرح ببلاغته بعينها .

وأطلق القول بأنهم لا يأتون بمثله ولو دعوا من استطاعوا من دون الله ، ولو اجتمع على ذلك الجن والانس وكان بعضهم لبعض ظهيرا ولم يقيّد الكلام بالبلاغة والفصاحة .

وقد فصلنا القول في إعجاز القرآن في تفسير قوله : « وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » البقرة : ٢٣ في الجزء الأول من الكتاب .  
**قوله تعالى :** « بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » إلى آخر الآية . الآية تبيّن وجه الحقيقة في عدم إيمانهم به وقولهم إنه افتراء وهو أنهم كذبوا من القرآن بمالم يحيطوا بعلمه أو كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقية من قبيل العلوم الواقعية لا يسعها علمهم ، ولم يأتهم تأويله بعد أي تأويل ذاك الذي كذبوا به حتّى يضطرّهم إلى تصديقه .

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله : « ولما يأتهم تأويله » يشير إلى يوم القيامة كما يؤيّد قوله تعالى : « هل ينظرون إلاّ تأويله يوم يأتني تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذي كنّا نعمل » الأعراف : ٥٣ .

وهذا يؤيّد ما قدّمناه في تفسير قوله : « ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ الله » آل عمران : ٧ في الجزء الثالث من الكتاب أن المراد بالتأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها معنى من المعاني من حكم أو معرفة أو قصة أو غير ذلك من الحقائق الواقعية من غير أن يكون من قبيل المعنى ، وأن لجميع القرآن وما يتضمنه من معرفة أو حكم أو خبر أو غير ذلك تأويلا .

ويؤيّد ذلك أيضا قوله بعد : « كذلك كذب الذين من قبلهم » فإن التشبيه يعطي أن المراد أن الذين من قبلهم من المشركين أيضا كذبوا بما دعاهم إليه أنبياءهم لكونهم لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، فلما جاء به سائر الأنبياء من أجزاء الدعوة الدينية من معارف وأحكام تأويل كما أن لمعارف القرآن وأحكامه تأويلا من غير أن يكون من قبيل المفاهيم ومعاني الألفاظ كما توهّموه .

فمحصل المعنى أن هؤلاء المشركين الرامين للقرآن بأنه افتراء مثل المشركين والكفار من الأمم السابقة استقبلتهم من الدعوة الدينية بمعارفها وأحكامها أمور لم يحيطوا بها علماً حتى يوقنوا بها و يصدّقوا ، فحملهم الجهل على التكذيب بها و لما يأتهم اليوم الذي يظهر لهم فيه تأويلها وحقيقة أمرها ظهوراً يضطرهم على الايقان والتصديق بها وهو يوم القيامة الذي يكشف لهم فيه الغطاء عن وجه الحقائق بواقعيتها فهؤلاء كذبوا و ظلموا كما كذب الذين من قبلهم و ظلموا فانظر كيف كان عاقبة أولئك الظالمين حتى تحدثس بما سيصيب هؤلاء .

هذا ما يعطيه دقيق البحث في معنى الآية ، و للمفسرين فيها أقوال شتى مختلفة مبنية على ما ذهبوا إليه من معنى التأويل لاجدوى في التعرّض لها وقد استقصينا أقوالهم سابقا .

**قوله تعالى :** « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » قسمهم قسمين من يؤمن بالقرآن ومن لا يؤمن به ثم كنى عمن لا يؤمن به أنهم مفسدون فتحصل من ذلك أن الذين يكذبون بما في القرآن إنما كذبوا به لأنهم مفسدون .

فالآية لبيان حالهم الذي هم عليه من إيمان البعض و كفر البعض وأن الكفر ناش من رذيلة الإفساد .

و أما ما ذكره بعضهم في تفسير الآية : أن المراد أن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم إلا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبدا فهو معنى خارج عن مدلول الآية البتة .

**قوله تعالى :** « و إن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم » إلى آخر الآية تلقين للتبرّي على تقدير تكذيبهم له ، وهو من مراتب الانتصار للحق ممّن انتفض لا حيائه فالطريق هو حمل الناس عليه إن حملوا و إلا فالتبرّي منهم لئلا يحملوه على باطلهم .

وقوله : « أنتم بريئون مما أعمل وأنا بري، مما تعملون » تفسير لقوله : « لي عملي ولكم عملكم » .

**قوله تعالى :** « ومنهم من يستمعون إليك أفـأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » الاستفهام للإِنكار ، وقوله : « ولو كانوا لا يعقلون » قرينة على أن المراد بنفي السمع نفي ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمى بسمع القلب .

و المعنى : ومنهم الذين يستمعون إليك وهم صم لا سمع لقلوبهم ، ولست أنت قادرا على إسماعهم ولا سمع لهم .

**قوله تعالى :** « ومنهم من ينظر إليك » إلى آخر الآية . الكلام فيها نظير الكلام في سابقتها .

**قوله تعالى :** « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » مسوق للإشارة إلى أن ما ابتلي به هؤلاء المحرومون من السمع و البصر من جهة الصمم والعمى من آثار ظلمهم أنفسهم من غير أن يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع والبصر عنهم فإنهم إنما أوتوا ما أوتوا من قبل أنفسهم .

**قوله تعالى :** « و يوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم » الخ ظاهر الآية أن يكون « يوم » ظرفاً متعلقاً بقوله : « قد خسر » الخ و قوله : « كأن لم يلبثوا إلا ساعة » الخ حالاً من ضمير الجمع في « يحشرهم » وقوله : « يتعارفون بينهم » حالا ثانياً مبيّناً للحال الأول .

والمعنى قد خسر الذين كذبوا بقاء الله في يوم يحشرهم إليه حال كونهم يستقلّون هذه الحياة الدنيا فيعدّونها كمكث ساعة من النهار وهم يتعارفون بينهم من غير أن ينكر بعضهم بعضاً أو ينساه .

و قد ذكر بعضهم أن قوله : « كأن لم يلبثوا » صفة ليوم أو صفة للمصدر المحذوف المدلول عليه بقوله : « يحشرهم » ، وذكر بعض آخر أن قوله : « يتعارفون بينهم » صفة لساعة ، وهما من الاحتمالات البعيدة التي لا يساعد عليها اللفظ .

وكيف كان ففي الآية رجوع إلى حديث اللقاء المذكور في أوّل السورة و  
 انعطاف على ما ذكره آنفاً أنّ من المتوقّع أن يأتيهم تأويل الدين .  
 فكأنّها تقول : إنّهم وإن لم يأتيهم تأويل القرآن بعد لا ينبغي لهم أن يغترّوا  
 بالجمود على مظاهر هذه الحياة الدّنيا ويستكثروا الأمد ويستبطؤوا الأجل فإنّهم  
 سوف يحشرون إلى الله فيشهدون أن ليست الحياة الدنيا إلّا متاعاً قليلاً ، ولا اللبث  
 فيها إلّا لبثاً يسيراً كأن لم يلبثوا إلاّ ساعة من النهار يتعارفون بينهم .  
 فيومئذ يظهر لهم خسرانهم في تكذيبهم بقاء الله ظهور عيان وذلك باّتيان تأويل  
 الدين و انكشاف حقيقة الأمر و ظهور نور التوحيد على ما كان ، ووضوح أنّ الملك  
 يومئذ لله الواحد القهار جلّ شأنه .





وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ  
شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ  
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)  
قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ  
فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَيْكُمْ عَذَابُهُ يَبَاتًا أَوْ  
نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَافٌ وَقَدْ  
كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ  
إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَ يَسْتَنْبِئُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ أَيْ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا  
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا  
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) إِلَّا أَنْ لِلَّهِ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)  
هُوَ يَخْبِي وَيَكْشِي وَيَمِيتُ وَيُحْيِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) .

### ﴿بيان﴾

الآيات تنبئ عن سنة إلهية جارية ، وهي أن الله سبحانه قضى قضاء حق لا  
يرد ولا يبدل أن يرسل إلى كل أمة رسولا يبلغهم رسالته ثم يحكم بينه وبينهم  
حكماً فصلاً بانزال العذاب عليهم وإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين .  
ثم تأمر النبي ﷺ أن يخبرهم أن هذه الأمة يجري فيهم ماجرى في الأمم



الماضية من السنّة الإلهيّة من غير أن يستنوا من كلّيتها غير أنّه ﷺ لم يذكر لهم فيما لقّنه الله من جواب سؤالهم عن وقت العذاب إلّا أنّ القضاء حتم و للأمة عمراً وأجلاً كالفردي ينتهي إليه أمد حياتها ، و أمّا وقت النزول فقد أُوهم إبهاماً .

وقد قدّمنا في قوله تعالى : «وما كان الله ليعذبّ بهم وأنّك فيهم وما كان الله معذبّ بهم وهم يستغفرون» الأنفال : ٣٣ أنّ الآية لا تخلو عن إشعار بأنّ الأمة ستنتزع منهم نعمة الاستغفار بعد زمن النبي ﷺ فينزل عليهم العذاب ، وقد تقدّم أنّ الشواهد قائمة على كون الآية مدنيّة فهي بعد هذه الآيات المكيّة من قبيل الإيضاح في الجملة بعد الإبهام ومن ملاحم القرآن .

وقد حمل بعض المفسّرين ما وقع من حديث العذاب في هذه الآيات على عذاب الآخرة ، وسياق الآيات يأمّر ذلك .

**قوله تعالى :** « وإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّيّنك فإلينا مرجعهم ثمّ الله شهيد على ما يفعلون » إمّا نرينّك أصله : إن نرك ، زيد عليه ما والنون الثقيلة للتأكيد ، والترديد بين الإراءة و التوفّي للتسوية و استيعاب التقادير ، و المعنى إلينا مرجعهم على أيّ تقدير ، ولفظة ثمّ للتراخي بحسب ترتيب الكلام دون الزمان والآية مسوقة لتطبيب نفس النبي ﷺ و لتكون كالنوطئة لحديث قضاء العذاب الذي ستفصله الآيات التالية لهذه الآية .

و المعنى طب نفساً فإنّنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أرينّاك بعض ذاك أو توفّيّاك قبل أن نريك ذاك فإنّ أمرهم إلينا ونحن شاهدون لأفعالهم المستوجبة للعذاب لا تغيب عنا ولا ننساها .

و الالتفات من قوله : «نرينّك» إلى قوله : « ثمّ الله شهيد » للدلالة على علّة الحكم فإنّ الله سبحانه شهيد على كلّ فعل بمقتضى أولوحيّته .

**قوله تعالى :** « ولكلّ أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » قضاء إلهيّ منحلّ إلى قضائين أحدهما : أنّ لكلّ أمة من الأمم رسولاّ يحمل رسالة الله إليهم ويبلّغها إليهم ، وثانيهما أنّه إذا جاءهم وبلّغهم رسالته فاختلفوا

من مصدق له و مكذب فإن الله يقضي و يحكم بينهم بالقسط و العدل من غير أن يظلمهم . هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى .

ومنه يظهر أن قوله : « فإذا جاء رسولهم وبلغ الرسالة فاختلف قومه بالتكذيب و التصديق ، ويدل على ذلك قوله : «قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون» فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه ، ولذا كان السؤال عن القسط وعدم الظلم في القضاء في مورد العذاب والضرار أسبق إلى الذهن .

وقد تقدم الفرق بين الرسول و النبي في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب ، وهذا القضاء المذكور في الآية من خواص الرسالة دون النبوة .

**قوله تعالى :** « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود ، وهو القضاء بينهم في الدنيا ، والسائلون هم بعض المشركين من معاصري النبي ﷺ ، والدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله : « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل » الخ فقول بعضهم : إن السؤال عن عذاب يوم القيامة أو إن السائلين بعض المشركين من الأمم السابقة لا يلتفت إليه .

**قوله تعالى :** « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل » إلى آخر الآية لما كان قولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » في معنى قولنا : أي وقت ينفي ربك بما وعدك أو يأتي بما أوعدنا به أنه يقضي بيننا وبينك فيهلكنا وينجيكم والمؤمنين بك فيصفو لكم الجو و يكون لكم الأرض و تخلصون من شرنا ؟ فهلاً عجل لكم ذلك - وذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزاً واستهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التالية وهذا نظير قولهم : « لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ .

لقد سبحانه النبي ﷺ أن يبدأهم في الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضراً حتى يدفعه عنها ولا نفعاً حتى يجلبد إليها ويستعجل ذلك إلا ما شاء الله أن يملكه من

ضرّ ونفع فالأمر إلى الله سبحانه جميعاً ، واقتراحهم عليه بأن يعجل لهم القضاء والعذاب من الجهل .

ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جواباً إجمالياً بالإعراض عن تعيين الوقت والإقبال على ذكر ضرورة الوقوع، أمّا الأوّل فإنّه من الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله ، وأمره الذي لا يتسلّط عليه إلّا هو ، وقد تقدّم قوله في آيات السورة: «ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربّه فقل إنّما الغيب لله فانظروا إنّي معكم من المنتظرين» الآية ٢٠ من السورة .

و أمّا الثاني أعني ذكر ضرورة الوقوع فقد بيّن ذلك بالإشارة إلى حقيقة هي من النواميس العامّة الجارية في الكون تنحلّ بها العقدة وتندفع بها الشبهة ، وهي أنّ لكلّ أمة أجلاً لا يتخطّاهم ولا يتخطّونه فهو آتيتهم لا محالة ، وإذا أتاهم لم يخبط في وقوعه موقعه ولا ساعة ، وهو قوله تعالى : « لكلّ أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » أي وأنتم أمة من الأمم فلا محالة لكم أيضاً أجل كمثلهم إذا جاءكم لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون .

فاذا فقهوا هذا الكلام وتدبّروه بان لهم أنّ لكلّ أمة حياة اجتماعيّة وراء الحياة الفرديّة التي لكلّ واحد من أفرادها ولحياتها من البقاء والعمر ما قضى به الله سبحانه لها ، ولها من السعادة والشقاوة والتكليف والرشد والغني والثواب والعقاب نصيبها ، وهي ممّا اعتنى بها التدبير الإلهي نظير الفرد من الإنسان حذو النعل بالنعل .

ويدلّهم على ذلك ما يحدثهم به التاريخ ويفصح به عنهم الآثار من ديارهم - الخبرة ومساكنهم الخالية ، وقد قصّ عليهم القرآن أخبار بعضهم كقوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح وكلدّة قوم إبراهيم وأهل سدوم وسائر الموثفكات قوم لوط والقبط قوم فرعون وغيرهم .

فهؤلاء أمم منقرضة سكنت أجراسهم وخمدت أنفاسهم ولم ينقرضوا إلّا بعذاب و هلاك ، ولم يعدّوا إلّا بعد ما جاءتهم رسالهم بالبيّنات ولم يأت قوماً منهم رسوله

إلا و اختلفوا في الحقّ الذي جاءهم فمنهم من آمن به و منهم من كذب به وهم  
الأكثرون .

فهذا يدلّهم على أنّ هذه الأمّة - وقد اختلفوا في الحقّ لما جاءهم - سيّضي  
الله بين رسوله و بينهم فيأخذهم بما أخذ به من خلت من قبلهم من الأُمم و إنّ الله  
بالمرصاد .

وعلى الباحث المتدبّر أن يتنبّه لأنّ الله سبحانه وإنّ بدء في وعيده بالمشركين  
غير أنّه هدّد في أثناء كلامه المجرمين فتعلّق الوعيد بهم ، و من أهل القبلة مجرمون  
كغيرهم فلينظروا عذابا واصبا يفصل به الله بينهم وبين نبيّه ﷺ ، و لينسوا ما يلقيه  
الشیطان في روعهم أنّ أمّتهم هذه أمّة مرحومة رفع الله عنهم عذاب الدنيا إكراماً  
منه لنبيّهم نبيّ الرحمة فهم في أمن من عذاب الله و إنّ انهمكوا في كلّ إثم و خطيئة  
وهتكوا كلّ حجاب مع أنّه لا كرامة عند الله إلاّ بالتقوى و قد خاطب المؤمنين من  
هذه الأمّة بمثل قوله : « ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوء . يجز  
به » النساء : ١٢٣ .

وربّما تعدّى المتعدّي فعطف عذاب الآخرة على عذاب الدنيا فذكر أنّ الأمّة  
مغفور لهم محسنهم ومسيئهم فلا يبقى لهم في الدنيا إلاّ كرامة أنّ لهم أن يفعلوا ما  
شاؤوا فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن ، ولا في الآخرة إلاّ المغفرة و الجنة .  
ولا يبقى على هذا للملّة و الشريعة إلاّ أنّها تكاليف و أحكام جزافية لعب بها  
ربّ العالمين ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون تعالى عمّا يقولون علواً كبيراً .  
فهذا كلّه من الإعراض عن ذكر الله وهجر كتابه وقال الرسول ياربّ إنّ  
قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً .

**قوله تعالى :** « قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيّاتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه  
المجرمون » إلى آخر الآيتين البيّات و التبيّات الاّ تيان ليلاً ويغلب في الشرّ كقصد  
العدوّ عدوّه ليلاً .

ولمّا كان قولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » في معنى استعجال آية

العذاب الّتي يلجئهم إلى الايمان رجوع بعد بيان تحقّق الوقوع إلى توبيخهم وذمّهم من الجبهتين فوبّخهم أولاً على استعجالهم بالعذاب ، وهو عذاب فجائيّ من الحزم أن يكون الايمان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقّنا لنبيّه ﷺ : « قل أرايتم » وأخبروني « إن أناكم عذابه بيّناً » ليلاً « أو نهاراً » فإنّه عذاب لا يأتيكم إلّا بغتة إذ لستم تعلمون وقت نزوله « ماذا يستعجل منه » من العذاب « المجرمون » أي ما ذا تستعجلون منه وأنتم مجرمون لا يتخطّاكم إذا أناكم .

ففي قوله : « ما ذا يستعجل منه المجرمون » التفات من الخطاب إلى الغيبة و كأنّ النكته فيه رعاية حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشرّ و ليكون تعرّضاً لملاك نزول العذاب عليهم وهو إجراؤهم .

ووبّخهم ثانياً على تأخير إيمانهم إلى حين لا ينفعهم الايمان فيه وهو حين نزول العذاب فإنّ آية العذاب يلجئهم إلى الايمان قطعاً على ما هو المجرّب من إيمان الايمان عند إشراف الهلكة ، ومن جهة أخرى الايمان توبة والتوبة غير مقبولة عند ظهور آية العذاب والإشراف على الموت .

فقال تعالى : « أئنّم إذا ما وقع » العذاب « آمنتم به » أي بالقرآن أو بالدين أو بالله « آلآن » أي أتؤمنون به في هذا الآن والوقت « وقد كنتم به تستعجلون » و كان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب و تحقيره بالاستهزاء به .

**قوله تعالى :** « ثمّ قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلّا ما كنتم تكسبون » الأ شبه أن تكون الآية متصلة بقوله تعالى : « لكلّ أمة أجل » الخ فتكون الآية الأولى تبين تحقّق وقوع العذاب عليهم وإهلاكه إيّاهم ، والآية الثانية تبين أنّه يقال لهم بعد الوقوع و الهلاك : ذوقوا عذاب الخلد وهو عذاب الآخرة ولا تجزون إلّا أعمالكم الّتي كنتم تكسبونها و ذنوبكم الّتي تحملونها ، و الخطاب تكويينيّ كنّي به عن شمول العذاب لهم و نيله إيّاهم ، و على هذا المعنى فالآيتان : « قل أرايتم - إلى قوله - تستعجلون » و اردتان مورد الاعتراض .

**قوله تعالى :** « و يستنبؤنك أحقّ هو قل إي و ربّي إنّّه لحقّ وما أنتم

بمعجزين» إلى آخر الآية - يستنبئونك أي يستخبرونك ، وقوله : «أحقّ هو» بيان له ، والضمير على ما يفيد السياق راجع إلى القضاء أو العذاب ، والمآل واحد ، وقد أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يؤكّد القول في إثباته من جميع جهاته وبعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضي وعدم المانع .

فقوله : « قل إي وربي إنه لحقّ » إثبات لتحقيقه وقد أكّد الكلام بالقسم والجملة الاسميّة وإنّ واللام ، وقوله : «وما أنتم بمعجزين» بيان أنّه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم .

**قوله تعالى :** « ولو أن لكلّ نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به » إلى آخر الآية إشارة إلى شدّة العذاب وأهميّة التخلص منه عندهم ، وإسرار الندامة إخفاؤها وكتماها خشية الشماتة ونحوها ، والظاهر أنّ المراد بالقضاء والعذاب في الآية هو القضاء والعذاب الدنيويّان لا غير .

**قوله تعالى :** « ألا إنّ الله ما في السماوات والأرض ألا إنّ وعد الله حقّ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » الآية وما بعدها بيان برهانيّ على حقيقة ما ذكره من كونه حقّاً واقعاً لا يمنع عنه فإنّ كلّ شيء ممّا في السماوات والأرض إذا كان مملوكاً لله وحده لا شريك له كان كلّ تصرّف مفروض فيها إليه تعالى ، ولم يكن لغيره شيء من التصرف إلاّ بأذنه فإذا تصرف في شيء كان مستنداً إلى إرادته فقط من غير أن يستند إلى مقتض آخر خارج يتصرّف في ذاته المقدّسة فيحمله على الفعل ، أو يتقيّد بعدم مانع خارجيّ إذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل ، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط إلى مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئاً فعله من غير ممدّ أو عائق ، وإذا وعد وعداً كان حقّاً لا مردّ له من غير أن يتغيّر عن وعده بصارف .

فإنّ المعان النظر في ملكه تعالى المطلق الحقيقيّ يهدي إلى العلم بأنّ وعده حقّ لا يمازجه باطل ولكنّ أكثرهم وهم العامّة من الناس لا يعلمون لعجزهم عن الإمعان في هذه الأبحاث الحقيقيّة أو إعجابهم بسذاجة الفهم و انسلاكهم في سلك العامّة .

فهم على ذلك يقيسون ملكه تعالى إلى ملك العظماء المستغلين من الإنسان فإنهم يجدون الواحد من عظمائهم وقد أوتي ملكاً وسلطاناً ومن كل ما يتنافس فيه فيرون له القدرة المطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ثم يجدونه ربّما يهيم ويسعى ولا يقع ما همّت به أو وعد وعداً ثم لم يف به رعاية لمصلحة شخصه أو غيره أو لمانع عائق فيقيسون أمره تعالى إلى أمره ، ووعدته إلى وعده . على أن الوعد عندهم قول من شأنه جواز أن ينطبق على الخارج وأن لا ينطبق .

مع أن حقيقة معنى ملكه وسلطانه وسعة قدرته ونفوذ إرادته أن الناس يعتقدون له ذلك و يتصورونه عظيماً فيهم ولو طحنه نازلات الدهر يوماً فأهلكته أو تغيرت عليه عقائد الناس بسبب من الأسباب سلبته ما عنده من ملك و قدرة ، و معنى وقوع ما أَراده أو أَحَبّه أن الأسباب الكونية ساعدته على ذلك و وافقته على ما أَحَبّه ، ولولم تساعد من القدرة كما لا توافقه على مثل الموت و الحياة و الشباب و الشيب و الصحة و المرض و أمور أخرى كثيرة فليس له من الأمر شيء .

لكنه سبحانه مالك لخلقه بمعنى أن وجود كل شيء قائم به متكوّن متحوّل بأمره منوط باذنه ، و ما تصرف فيه من شيء فإنما يتصرف عن نفسه لا عن اقتضاء من مقتض خارج مؤثر فيه أو عدم مانع يعوقه عن فعله فلا ينتسب شيء إلا إليه تعالى نفسه أو إلى غيره باذنه بمقدار ما أذن فكيف يمكن أن يتخلف عن مشيئته شيء فيرجع إلى غيره ولا غير هناك يرجع نحوه و ينتسب إليه ؟

و قوله تعالى فعله بما يدلّ بنفسه على مراده فكيف يتسرّب إليه الكذب و هو متن الخارج ، و العين الخارجي لا كذب فيه ؟ و إنّما الكذب و الخطأ شأن المفاهيم الذهنية من حيث انطباقها على الخارج ، و كيف يكون وعده باطلا ووعدته لنا هو فعله الغائب عن نظرنا المستقبل لنا ، و قد وجهه كلىّة الأسباب إليه ولا مردّ له ؟ فإن معان النظر في هذه الحقائق ينوّر للباحث المتدبّر معنى ملكه تعالى لما في السماوات و الأرض ، و أن لازم ذلك أن وعد الله حق ، و أن الارتباب فيه إنّما

هو عن الجهل بمقامه تعالى .

ولذلك قال تعالى أوّلاً : « ألا إنّ الله ما في السماوات والأرض » ثمّ عقّبه بقوله كالاستنتاج منه : « ألا إنّ وعد الله حقّ » ثمّ استدرك فقال : « ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » ثمّ بيّن ملكه بقوله : « هو يحيي ويميت » الخ في الآية التالية .

**قوله تعالى :** « هو يحيي ويميت وإليه ترجعون » احتجاج على ما تقدّم في الآية السابقة من ملكه تعالى بالنسبة إلى نوع الإنسان كأنّه تعالى يقول : إنّ أمركم جميعاً من حياة وموت ورجوع إليه تعالى فكيف لا تكونون ملكاً له .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « قل رأيتم إنّ أتاكم عذابه بيّاتاً » يعني ليلاً « أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون » فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة وهم يجحدون نزول العذاب عليهم .  
**اقول :** و الرواية تتأيّد بالآيات و تؤيّد ما أسلفناه من البيان .

وفيه بإسناده عن الحسن بن موسى الخشاب عن رجل عن حماد بن عيسى عمّن رواه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سئل عن قوله تبارك و تعالى : « وأسروا الندامة طمّاً رأوا العذاب » قال : قيل له ما ينفعهم إسرار الندامة وهم في العذاب ؟ قال : كرهوا شماتة الأعداء .







يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ  
هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ  
خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ مِنْهُ حَرَامًا  
وَحَلَالًا قُلِ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى  
اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا  
يَشْكُرُونَ (٦٠) وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَلَا تَتَلَوُ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ  
عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ  
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)  
أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لِأَخَوْفَ عَلَيْهِمْ وَ لَهُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا  
يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ  
اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ  
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ  
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)  
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصَرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ  
لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا  
تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي  
الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْزِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠).

## ﴿ بيان ﴾

عاد الكلام في الآيات إلى وصف القرآن الكريم بماله من كرائم الأوصاف و يتلوه متفرقات ترتبط بسابق القول في غرض السورة ، و فيها موعظة وحكمة و حجة على مقاصد شتى ، و فيها وصف أولياء الله و بشارتهم .

**قوله تعالى :** « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم » إلى آخر الآية . قال الراغب في المفردات : الوعظ زجر مقترن بتخويف ، وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، والعظة والموعظة الاسم ، انتهى . والصدر معروف والناس لما وجدوا القلب في الصدر وهم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه و به يعقل الأمور و يحب و يبغض و يريدو يكره و يشاق و يرجو ويتمنى ، عد و الصدر خزانة لما في القلب من أسراره و الصفات الروحية التي في باطن الإنسان من فضائل و رذائل ، و في العضائل صحة القلب و استقامته ، و في الرذائل سقمه و مرضه ، و الرذيلة داء يقال : شفيت صدري بكذا إذا ذهب به ما في صدره من ضيق و حرج ، و يقال : شفيت قلبي ، فشفاء الصدور و شفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب إلى الإنسان الشقاء و تنغص عيشته السعيدة و تحرمة خير الدنيا والآخرة .

و الهدى هي الدلالة على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب ، و قد تقدم في ذيل قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » الأنعام : ١٢٥ في الجزء السابع من الكتاب بحث فيها .

و الرحمة تأثر خاص في القلب عن مشاهدة ضر أو نقص في الغير يبعث الراحم إلى جبر كسره و إتمام نقصه ، و إذا نسبت إليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل التأثر لتنزّهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطية تعالى و إفاضة الوجود على خلقه .

وعطيته إذا نسبت إلى مطلق خلقه كانت هي ما ينسب إليه تعالى من وجودهم

و بقاءهم و رزقهم الذي يمدّ به بقاءهم و سائر ما ينعم به عليهم من نعمه التي لا تحصى كثرة و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، و إذا نسبت إلى المؤمنين خاصّة كانت هي ما يختصّ بهم من سعادة الحياة الإنسانية بمظاهرها المختلفة التي ينعم الله بها عليهم من المعارف الحقّة الإلهيّة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، والحياة الطيّبة في الدنيا والآخرة و الجنّة و الرضوان .

و من ثمّ إذا وصف القرآن بأنّه رحمة للمؤمنين كان معناه أنّه يغشي المؤمنين أنواع الخيرات و البركات التي كنزها الله فيه لمن تحقّق بحقائقها وتلبّس بمعانيها قال تعالى : « و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً » أسرى : ٨٢ .

وإذا أخذت هذه النعوت الأربعة التي عدّها الله سبحانه للقرآن في هذه الآية أعني أنّه موعظة و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة ، و قيس بعضها إلى بعض ثمّ اعتبرت مع القرآن كانت الآية بيانا جامعاً لعامة أثره الطيّب الجميل وعمله الزاكي الطاهر الذي يرسمه في نفوس المؤمنين منذ أوّل ما يقرع أسماعهم إلى آخر ما يتمكّن من نفوسهم و يستقرّ في قلوبهم .

فإنّه يدرّ كهّم أوّل ما يدرّ كهّم و قدغشيهم يمّ الغفلة و أحاطت بهم لجة الحيرة فأظلمت باطنهم بظلمات الشكّ و الريب ، و أمرضت قلوبهم بأدواء الرذائل و كلّ صفة أو حالة رديّة خبيثة فيعظمهم موعظة حسنة ينبتّهم بها عن رقدة الغفلة ، و يزجرهم عمّا بهم من سوء السريرة و الأعمال السيئة ، و يبعثهم نحو الخير و السعادة .

ثمّ يأخذ في تطهير سرّهم عن خبائث الصفات ، ولا يزال يزيل آفات العقول و أمراض القلوب واحداً بعد آخر حتّى يأتي على آخرها .

ثمّ يدلّهم على المعارف الحقّة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة دلالة لطف برفعهم درجة بعد درجة ، و تقرّبهم منزلة فمنزلة حتّى يستقرّوا في مستقرّ المقرّبين ، و يفوزوا فوز المخلصين .

ثمّ يلبسهم لباس الرحمة و ينزلهم دار الكرامة و يقرّهم على أريكة السعادة

حتّى يلحقهم بالنبِيِّينَ والصّدِّيقينَ والشّهداءِ والصّالحينَ وحسنِ أولئك رفيقا ، و يدخلهم في زمرة عباده المقرّبينَ في أعلى علميّين .

فالقرآن واعظ شاف لما في الصدور هاد إلى مستقيم الصراط مفيض للرحمة باذن الله سبحانه ، وإنّما يعظ بما فيه و يشفي الصدور و يهدي ويدسط الرحمة بنفسه لأبامر آخر فإنّه السبب الموصول بين الله و بين خلقه فهو موعظة و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين . فافهم ذلك .

و قد افتتح سبحانه الآية بقوله : « يا أيّها الناس » و هو خطاب لعامة الناس دون المشركين أو مشركي مكّة خاصّة و إن كانت الآية واقعة في سياق الكلام معهم و ذلك لأنّ النعوت المذكورة فيها بقوله : « قد جاءكم موعظة من ربّكم و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين » تتعلّق بعامّتهم دون قبيل خاصّ منهم . و من غريب التفسير قول بعضهم : إنّ المراد بالرحمة ما يتّصف به المؤمنون من الرحمة و الرأفة فيما بينهم و هو خطأ يدفعه السياق البتّة .

**قوله تعالى :** « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير ممّا يجمعون » الفضل هو الزيادة ، و تسمّى العطية فضلا لأنّ المعطي إنّما يعطي غالبا ما لا يحتاج إليه من المال ففي تسمية ما يفيضه الله على عباده فضلا إشارة إلى غناه تعالى وعدم حاجته في إفاضته إلى ما يفيضه ولا إلى من يفيض عليه .

و ليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامّة خلقه ، و بالرحمة خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإنّ رحمة السعادة الدنيويّة إذا انضمت إلى النعمة العامّة من حياة و رزق و سائر البركات العامّة كان المجموع منهما أحقّ بالفرح و السرور و أخرى بالانبساط و الابتهاج .

و من الممكن أن يتأيد ذلك بقوله : « بفضل الله و برحمته » حيث أدخلت بالـ السببيّة على كلّ من الفضل و الرحمة ، و هو مشعر بكون كلّ واحد منهما سببا مستقلاّ و إن جمع بينهما ثانيا بقوله : « فبذلك فليفرحوا » للدلالة على استحقاق مجموعهما لأنّ ينحصر فيه الفرح .

و يمكن أن يكون المراد بالفضل غير الرحمة من الأمور المذكورة في الآية السابقة أعني الموعظة وشفاء ما في الصدور و الهدى ، و المراد بالرحمة الرحمة بمعناها المذكور في الآية السابقة وهي العطية الخاصة الإلهية التي هي سعادة الحياة في الدنيا و الآخرة .

و المعنى على هذا أن ما تفضل الله به عليهم من الموعظة وشفاء ما في الصدور و الهدى ، و ما رحم المؤمنين به من الحياة الطيبة ذلك أحق أن يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال .

و ربّما تأيّد هذا الوجه بقوله سبحانه : « و لولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء » النور : ٢١ حيث نسب زكاتهم إلى الفضل و الرحمة معا و استناد الزكاة إلى الفضل بمعنى العطية العامة بعيد عن الفهم ، و ممّا يؤيّد هذا الوجه ملائمته لما ورد في الرواية من تفسير الآية بالنبي ﷺ و عليّ عليه السلام أو بالقرآن و الاختصاص به و سيجي إن شاء الله .

و قوله : « فبذلك فليفرحوا » ذكروا أن الفاء في قوله : « فليفرحوا » زائدة كقول الشاعر : « فإذا قتلت فعند ذلك فاجزعي » و الظرف أعني قوله : « فبذلك » بدل من قوله : « بفضل الله و برحمته » ، و متعلّق بقوله : « فليفرحوا » قدّم عليه لإفادة الحصر ، و قوله : « هو خير ممّا يجمعون » بيان ثان لمعنى الحصر .

فظهر بذلك كلّهُ أن الآية تفريع على مضمون الآية السابقة فإِنَّه تعالى لمّا خاطب الناس امتناناً عليهم بأنّ هذا القرآن موعظة لهم وشفاء لما في صدورهم وهدى ورحمة للمؤمنين منهم فرّع عليه أنّه ينبغي لهم حينئذ أن يفرحوا بهذا الذي امتنّ به عليهم من الفضل و الرحمة لا بالمال الذي يجمعونه فإنّ ذلك - و فيه سعادتهم و ما تتوقّف عليه سعادتهم - خير من المال الذي ليس إلّا فتنة ربّما أهلكتهم و أشقتهم .

**قوله تعالى :** « قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً و حلالاً » إلى آخر الآية . نسبة الرزق وهو ما يمدّ الإنسان في بقائه من الأمور الأراضية من مأكل و مشروب و ملبوس و غيرها إلى الإزال مبنياً على حقيقة يفيدها القرآن

وهي أنّ الأشياء لها خزائن عند الله تنزل من هناك على حسب ما قدّرها الله سبحانه قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ وقال تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » الذاريات : ٢٢ وقال : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ وقال : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ .  
وأمّا ما قيل : إنّ التعبير بالإنزال إنّما هو ليكون أرزاق العباد من المطر الذي ينزل له الله من السماء ، فوجه بسيط لا يطرّد على تقدير صحته في جميع الموارد التي عبّر فيها عن كينونتها بالإنزال كما في الأنعام وفي الحديد ، و الرزق الذي تذكر الآية أنّ الله أنزله لهم فجعلوا منه حراماً و حلالاً هو الأنعام من الإبل والغنم كالوصيلة والسائبة والحام وغيرها .

و اللّام في قوله : « لكم » للغاية و تفيد معنى النفع أي أنزل الله لأجلكم و لتنتفعوا به ، و ليست للتعدية فإنّ الإنزال إنّما يتعدى بعلى أو إلى ، ومن هنا أفاد الكلام معنى الإباحة و الحلّ أي أنزلها الله فأحلّها ، و هذا هو النكته في تقديم التحريم على الإحلال في قوله : « فجعلتم منه حراما وحلالا » أي كان الله أحله لكم بإنزاله رزقكم تنتفعون به في حياتكم و بقائكم ولكنكم قسمتموه قسمين من عند أنفسكم فحرّمتم قسما و أحللتهم آخر فاطعنى : قل لهم يا محمد : أخبروني عما أنزل الله لكم ولأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمين و جعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا ما هو السبب في ذلك ؟ و من البين أنّه افتراء على الله لاعتدائه من الله تعالى .  
و قوله : « قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » سؤال عن سبب تقسيمهم الرزق إلى حرام و حلال ، و إذ كان من البين أنّه ليس ذلك عن إذن منه تعالى لعدم اتّصالهم برّبهم بوحي أو رسول كان من المتعيّن أنّه افتراء فالاستفهام في سياق الترديد كناية عن إثبات الافتراء لهم و توبيخ و ذمّ .

و الذي يقتضي به النظر الابتدائي أنّ الترديد في الآية غير حاصر إذ كما يجوز أن يكون تقسيمهم رزق الله إلى حرام و حلال عن إذن من الله أو افتراء عليه تعالى كذلك يجوز أن يكون عن مصلحة أحرزوها أو زعموها في ذلك أو عن هوى لهم

فيه من غير أن ينسبوه إلى الله تعالى فيكون افتراء عليه .

ومن وجه آخر الترديد في الآية بين إذن الله و الافتراء على الله يشعر بأنّ الحكم إنّما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراما و بعضه حلالا وهو دائر بينهما إمّا أن يكون من الله أو افتراء عليه ، و من الممكن أن يمنع ذلك في بادئ النظر فكثير من السنن الدائرة بين الناس كونهما طبيعة مجتمعهم أو عاداتهم القومية وغير ذلك .

لكنّ التدبّر في كلامه تعالى و البحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أنّ الحكم يختصّ بالله تعالى ، و ليس لأحد من خلقه أن يبادر إلى تشريع حكم و وضعه في المجتمع الإنسانيّ قال تعالى : « إن الحكم إلّا لله » يوسف : ٤٠ . و قد أشار تعالى إلى لمّ ذلك في قوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ فتبيّن به أنّ معنى كون الحكم لله كونه معتمدا على الخلقة و الفطرة منطبقا عليها غير مخالف لما ينطبق به الكون و الوجود .

وذلك أنّ الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثا كما قال : « أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثا » المؤمنون : ١١٥ بل خلقهم لأغراض إلهية و غايات كمالية يتوجهون إليها بحسب جبلّتهم و يسرون نحوها بفطرتهم بما جهّزهم به من الأسباب و الأدوات و هداهم إليه من السبيل الميسّر لهم كما قال : « أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، و قال : « ثمّ السبيل يسّره » عبس : ٢٠ .

فوجود الأشياء في بدء خلقها مناسب لما هيّئ لها من منزلة الكمال مجهّز بقوى و أدوات يتوسّل بها إلى غايتها ، ولايسير شيء منها إلى كماله المهيّأ له إلّا من طريق الصفات الاكتسابية و الأعمال ، فمن الواجب بالنظر إلى ذلك أن يكون الدين أعني القوانين الجارية في الصفات و الأعمال الاكتسابية منطبقا على الخلقة و الفطرة فإن الفطرة لا تنسى غايتها ولا تتخطّاها ، ولا تبعث نحو فعل ولا تزجر عن فعل إلّا لدعوة ما جهّزت به إليه ، ولا يدعو الجهاز إلّا لأجل ما جهّز لأجله و هو الغاية .

فالأإنسان لمّا كان مجهّزاً بجهاز التغذية و النكاح كان حكمه الحقيقيّ في دين الفطرة هو التّغذّي والنكاح دون الجوكيّة والرهبانيّة مثلاً ، ولمّا كان مطبوعاً على الاجتماع و التعاون كان من حكمه أن يشارك سائر الناس في مجتمعيهم و يقوم بالأعمال الاجتماعيّة ، و على هذا القياس .

فالذي يتعيّن للإنسان من الأحكام و السنن هو الذي يدعوّه إليه الكون العالميّ الذي هو جزء حقير منه ، و قد جهّز وجوده بما يسوقه إليه من مرحلة الكمال، فهذا الكون العامّ المرتبط ببعض أجزائه ببعض ، وهو مركب إرادة الله تعالى هو الحامل للشريعة الفطريّة الانسانيّة ، و الداعي إلى دين الله الحنيف . فالدين الحقّ هو حكم الله سبحانه لا حكم إله ، وهو المنطبق على الخلقة الإلهيّة ، و ما وراءه من حكم هو باطل لا يسوق الإنسان إلّا إلى الشقاء و الهلاك ولا يهديه إلّا إلى عذاب السعير .

و من هنا ينحلّ ما تقدّم من العقدين فإنّ الحكم لمّا كان لله سبحانه وحده كان كلّ حكم دائر بين الناس إمّا حكماً لله حقيقة مأخوذاً من لدنه بوحى أو رسالة أو حكماً مفترى على الله ، ولا ثالث للقسمين .

على أنّ المشركين كانوا ينسبون أمثال هذه الأحكام التي ابتدعوها واستنّوا بها فيما بينهم إلى الله سبحانه كما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا و الله أمرنا بها » الآية الأعراف : ٢٨ .

**قوله تعالى :** « وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » إلى آخر الآية لمّا كان جواب الاستفهام المتقدّم : « الله أدنّ لكم أم على الله تفترون » معلوماً من المورد ، وهو أنّه افتراء ، استعظم وخامة عاقبته فإنّه افتراء على الله سبحانه و الافتراء من الآثام و الذنوب بحكم البدهة فلا محالة له أثر سيّئ ، و لذلك قال تعالى إيعاداً و تهديداً : « وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » .

و أمّا قوله : « إنّ الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثرهم لا يشكرون » فهو شكوى و عتبى يشار به إلى ما اعتاد عليه الناس من كفران أكثرهم لنعمة الله ، و



عدم شكرهم قبال عطيتته و نعمته ، و المراد بالفضل ههنا هو العطية الالهية فان الكلام في الرزق الذي أنزله الله لهم و هو الفضل ، و تحريمهم بعضه و هو الكفران وعدم الشكر .

و برجوع ذيل الآية إلى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته ، و المعنى أن الله ذو فضل و عطاء على الناس ولكن أكثرهم كافرون لنعمته و فضله فما ظن الذين يكفرون بنعمة الله ورزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامة .

**قوله تعالى :** « وما تكون في شأن ولا تتلومنه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنّا عليكم شهدوا » إلى آخر الآية قال الراغب : الشأن الحال و الأمر الذي يتفق و يصلح ، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال و الأمور قال : « كل يوم هو في شأن » . انتهى .

و قوله : « ولا تتلومنه من قرآن » الظاهر أن الضمير إلى الله سبحانه و من الأولى للابتداء و النشوء و الثانية للبيان ، و المعنى : ولا تتلوا شيئاً هو القرآن ناشئاً و نازلاً من قبله تعالى ، و الإفاضة في الفعل الخوض فيه جمعا .

و قد وقع في قوله : « إلا كنّا عليكم شهدوا » النفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ، و النكتة فيه الإشارة إلى كثرة الشهود فان الله شهداً على أعمال الناس من الملائكة و الناس والله من وراءهم محيط ، و العظماء يتكلمون عنهم و عن غيرهم للدلالة على أن لهم أعواناً و خدمة .

و ليس ينبغي أن يغفل عن أن أصل الالتفات بيد من أوّل الآية فان الآيات السابقة كانت تخاطب النبي ﷺ و تأخذ المشرّكين على الغيبة و تكلمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخص نفسه ، و قد حولت هذه الآية وجه الكلام إلى النبي ﷺ بما يخص به نفسه فقالت : « وما تكون من شأن ولا تتلومنه من قرآن » ثم جمعته و المشرّكين و غيرهم جميعاً في خطاب واحد فقالت : « ولا تعملون من عمل إلا كنّا عليكم شهدوا » وذلك بضمهم إلى النبي ﷺ و هم على

غيبتهم و بسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول مخاطبك : أنت و قومك تفعلون كذا و كذا .

و الدليل على أن هذا الخطاب بنحو الضمّ و التغليب قوله بعده : « ولا يعزب عن ربك » الخ فإنه يكشف عن كون الخطاب معه ﷺ جاريا على ما كان .

و على أي حال فالتحوّل المذكور في خطاب الآية للإشارة إلى أن السلطنة والإحاطة النامة الإلهية واقعة على الأعمال شهادة وعلماً على أن ما يكون من كل جهة من غير أن يستثنى منه نبي ولا مؤمن ولا مشرك أو يغفل عن عمل من الأعمال فلا يتوهّم أحد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامة ، و ليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامة و ليأخذ حذره .

و ذكر تلاوة القرآن مستقلاً مع دخوله في قوله قبلاً : « وما تكون في شأن » فإنه أحد شؤونه ﷺ للإيمان إلى أهميّة أمرها و مزيد العناية بها .

و في الآية أوّلاً تشديد في العظة على النبي ﷺ و على أمته ، و ثانياً : أن الذي يتلوه النبي ﷺ من القرآن للناس من وحي الله و كلامه لا يطرّقه تغيير ولا يدب فيه باطل لا في تلقّيه من الله ولا في تلاوته للناس فالآية قريبة المضمون من قوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه و من خلفه رصد ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » الجن : ٢٨ .

و قوله : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة » إلى آخر الآية العزوب الغيبة والتباعد والخفاء ، و فيه إشارة إلى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبة وحفظه لها في كتاب من غير زوال ، وقد تقدّم بعض ما يتعلّق به من الكلام في ذيل قوله : « و عنده مفاتيح الغيب » الأنعام : ٥٩ في الجزء السابع من الكتاب .

**قوله تعالى :** « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » استئناف في الكلام غير أنه متعلّق بغرض السورة وهو الدعوة إلى الإيمان بكتاب الله و النذب إلى توحيد الله تعالى بمعناه الواسع .

وللدلالة على أهميّة الطلب افتتح بلفظة « ألا » التنبيهية ، والله سبحانه يذكّر

في هذه الآية والآيتين بعدها أولياءه و يعرفهم ويصف آثار ولايتهم وما يختصّون به من الخصيصة .

والولاية وإن ذكروا إياها معاني كثيرة لكنّ الأصل في معناها ارتفاع الواسطة الحائلة بين الشيعيين بحيث لا يكون بينهما ما ليس منهما ، ثمّ استعيرت لقرب الشيء من الشيء بوجه من وجوه القرب كالقرب نسباً أو مكاناً أو منزلة أو بصداقة أو غير ذلك ولذلك يطلق الولي على كلّ من طرفي الولاية ، وخاصة بالنظر إلى أنّ كلّاً منهما يلي من الآخر ما لا يليه غيره فالله سبحانه وليّ عبده المؤمن لأنّه يلي أمره ويدبّر شأنه فيهديه إلى صراطه المستقيم ويأمره وينهاه فيما ينبغي له أو لا ينبغي وينصره في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

والمؤمن حقّاً وليّ ربّه لأنّه يلي منه إطاعته في أمره ونهيّه و يلي منه عامّة البركات المعنويّة من هداية وتوفيق وتأيد و تسديد وما يعقبها من الإكرام بالجنّة والرضوان .

فأولياء الله - على أيّ حال - هم المؤمنون فإنّ الله يعدّ نفسه وليّاً لهم في حياتهم المعنويّة حيث يقول : « والله وليّ المؤمنين » آل عمران : ٦٨ .

غير أنّ الآية التالية لهذه الآية المفسّرة للكلمة تأبى أن تكون الولاية شاملة لجميع المؤمنين وفيهم أمثال الذين يقول الله سبحانه فيهم : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ فإنّ قوله في الآية التالية : « الذين آمنوا وكانوا يتّقون » يعرفهم بالإيمان والتقوى مع الدلالة على كونهم على تقوى مستمرّ سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل : « آمنوا » ثمّ قيل عطفاً عليه : « و كانوا يتّقون » فدلّ على أنّهم كانوا يستمرّون على التقوى قبل تحقّق هذا الإيمان منهم ومن المعلوم أنّ الإيمان الابتدائيّ غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان أو هو قبل التقوى وخاصة التقوى المستمرّ .

فالمراد بهذا الإيمان مرتبة أخرى من مراتب الإيمان غير المرتبة الأولى منه . فقد تقدّم في الجزء الأوّل من الكتاب آية ١٣٠ من البقرة أنّ لكلّ من

الإيمان والإسلام وكذا الشرك والكفر مراتب مختلفة بعضها فوق بعض فالمرتبة الأولى من الإسلام إجراء الشهادتين لساناً والتسليم ظاهراً ، وتليه المرتبة الأولى من الإيمان وهو الإذعان بمؤدى الشهادتين قلباً إجمالاً وإن لم يسر إلى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق ، ولذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ .

ولا يزال إسلام العبد يصفو وينمو حتى يستوعب تسليمه لله سبحانه في كل ما يرجع إليه وإليه مصير كل أمر ، وكلما ارتفع الإسلام درجة ورقى مرتبة كان الإيمان المناسب الإذعان بلوازم تلك المرتبة حتى يسلم العبد لربه حقيقة معني ألوهيته ، وينقطع عنه السخط والاعتراض فلا يسخط الشيء من أمره من قضاء وقدر وحكم ، ولا يعترض على شيء من إرادته ، وبإزاء ذلك الإيمان باليقين بالله وجميع ما يرجع إليه من أمر ، وهو الإيمان الكامل الذي تتم به للمعبد عبوديته .

قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » النساء : ٦٥ ، والأشبه أن تكون هذه المرتبة من الإيمان أو ما يقرب منه هو المراد بالآية أعني قوله : « الذين آمنوا و كانوا يتتقون » فإنه الإيمان المسبوق بتقوى مستمر دون الإيمان بمرتبته الأولى كما تقدم .

على أن توصيفه أهل هذا الإيمان بأنهم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يدل على أن المراد منه الدرجة العالية من الإيمان الذي يتم معه معنى العبودية والمملو كية المحضة للعبد الذي يرى معه أن الملك لله وحده لاشريك له ، وأن ليس إليه من الأمر شيء حتى يخاف فوته أو يحزن لفقده .

وذلك أن الخوف إنما يعرض للنفس عن توقع ضرر يعود إليها ، والحزن إنما يطرأ عليها لفقد ما تحببه أو تحقق ماتكرهه مما يعود إليها نفعه أو ضرره ، ولا يستقيم تحقق ذلك إلا فيما يرى الإنسان لنفسه ملكاً أو حقاً متعلقاً بما يخاف عليه أو يحزن لفقده من ولد أو مال أو جاه أو غير ذلك ، وأما ما لا علاقة للإنسان به بوجه

من الوجوه أصلاً فلا يخاف إلا نسان عليه ولا يحزن لفقده البتة .  
والذي يرى كل شيء ملكاً طلقاً لله سبحانه لا يشاركه في ملكه أحد لا يرى  
لنفسه ملكاً أَوْحَقاً بالنسبة إلى شيء حتّى يخاف في أمره أو يحزن ، وهذا هو الذي  
يصفه الله من أوليائه إذ يقول : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »  
فهؤلاء لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء ، لافي الدنيا ولا في الآخرة إلا أن يشاء الله وقد  
شاء أن يخافوا من ربهم وأن يحزنوا لما فاتهم من كرامته إن فاتهم وهذا كله من التسليم  
لله فافهم ذلك .

فإطلاق الآية يفيد اتّصافهم بهذين الوصفين : عدم الخوف وعدم الحزن في  
النشأتين الدنيا والآخرة ، وأمّا مثل قوله تعالى : « إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَاجِدُونَ لِخَوْفِ عَلِيمٍ الْيَوْمِ »  
ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين « الزخرف : ٧٠ » فإن ظاهر الآيات  
وإن كان هو أنّها تريد الأُولياء بالمعنى الذي تصفه الآية التي نحن فيها إلا أن إثبات  
عدم الخوف والحزن لهم يوم القيامة لا ينفي ذلك عنهم في غيره . نعم هناك فرق من  
جهة أخرى وهو خلوص النعمة والكرامة وبلوغ صفاتها يوم القيامة وكونها مشوبة  
غير خالصة في غيره .

ونظيرها قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ  
المَلَائِكَةُ أَنْ لَا يَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نحن أولياءكم  
في الحياة الدنيا وفي الآخرة » فصلت : ٣٢ فإن الآيات وإن كانت ظاهرة في كون  
هذا التنزّل والقول والبشارة يوم الموت لمكان قوله : « كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » وقوله :  
« أَبْشُرُوا » غير أن الإثبات في وقت لا يكفي للنفي في وقت آخر كما عرفت .

هذا ما يدل عليه الآية بحسب إطلاق لفظها وتأييد سائر الآيات له ، وقد  
قيّد أكثر المفسرين قوله : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » - بالاستناد إلى آيات  
الآخرة - بيوم الموت والقيامة ، وأهملوا ما تفيدُه خصوصيّة اللَّفْظ في قوله : « الَّذِينَ  
آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » وأخذوا بالإيمان والتقوى أمرين متقارنين فرجع المعنى إلى  
أن أولياء الله هم المتّقون من أهل الإيمان ولا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون

وهذا - كما عرفت - من التقييد من غير مقيّد .

وعمم بعضهم نفى الخوف و الحزن فذكر أنّهم متّصفون به في الدنيا والآخرة غير أنّه أفسد المعنى من جهة أخرى فقال : إنّ المراد بالأولياء على ما تفسّرهم به الآية الثانية جميع المتّقين من المؤمنين ، والمراد بعدم خوفهم وحزنهم أنّهم لا يخافون في الآخرة ممّا يخاف منه الكافرون و الفاسقون والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الموقف وعذاب الآخرة ولا هم يحزنون على ماتر كوا وراهم وأنّهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفّار ولا يحزنون كحزنهم .

قال : وأمّا أصل الخوف والحزن فهو من الأعراض البشريّة التي لا يسلم منها أحد في الدنيا ، وإنّما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً وعلماً بأنّه إذا ابتلاهم بشيء ممّا يخيف أو يحزن فإنّما يرّبّهم بذلك لتكميل نفوسهم وتمحيصها بالجهد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرّحت بذلك الآيات الكثيرة . انتهى .

أمّا تقييده الآية بأنّ المنفّي عن الأولياء هو الخوف والحزن اللّذين يعرضان للكفّار دون ما يعرض لعامة المؤمنين بحسب الطبع البشريّ واستناده في ذلك إلى الآيات الكثيرة فهو من التقييد من غير مقيّد ، وأمّا قوله : إنّ أصل الخوف والحزن ممّا لا يسلم منه أحد أصلاً فهو من عدم تحصيل المراد بالكلام لعدم تعمّقه في البحث عن الأخلاق العالية و المقامات المعنويّة الانسانيّة فحمله ذلك على أن يقيس حال المكرمين من عباد الله المقرّبين من الأنبياء والأولياء إلى ما يجده من حال المتوسّطين من عامّة الناس فزعم أن ما يغشى العامّة من الأعراض التي سمّاها أحوالاً طبيعيّة يغشى الخاصّة لا محالة ، وأنّ ما يتعذّر أو يتعسّر على المتوسّطين من الأحوال فهو كذلك عند الكاملين ، ولا يبقى حينئذ للمقامات المعنويّة و الدرجات الحقيقيّة إلّا أنّها أسماء ليس وراءها حقيقة ، واعتبارات وضعيّة اصطلاح عليها نظير المقامات الوهميّة و الدرجات الرسميّة الاجتماعيّة التي تتداولها في مجتمعاتنا لمصلحة الاجتماع . فلا وفي حقّ البحث العلميّ حتّى يهديه إلى حقّ النتيجة فيتبيّن أنّ التوحيد

الكامل يقصر حقيقة الملك في الله سبحانه فلا يبقى لغيره شيء، من الاستقلال في التأثير حتى يتعلّق به لنفسه حبّ أو بغض أو خوف أو حزن ولا فرح ولا أذى ولا غير ذلك ، وإنما يخاف هذا الذي غشيه التوحيد و يحزن أو يحبّ أو يكره بالله سبحانه ، و يرتفع التناقض حينئذ بين قولنا : إنّه لا يخاف شيئاً إلا الله وبين قولنا : إنّه يخاف كثيراً ممّا يضرّه و يحذر أموراً يكرهها فافهم ذلك .

ولا البحث القرآني "أنتن و استفرغ فيه الوسع حتى يظهر له أن قوله تعالى : « ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » اُطلق فيه نفي الخوف و الحزن من غير تقييد بشيء، أحوال إلا ما صرح به آيات من وجوب مخافة الله فهو لا يخافون من شيء في دنيا ولا آخرة إلا من الله سبحانه ولا يحزنون . و أمّا الآيات الكثيرة التي تصف المؤمنين بعدم الخوف و الحزن عند الموت أو يوم القيامة فهي إنّما تصف أحوالهم في ظرف ولا يستوجب نفي شيء، أو إثباته في مورد خلافه في غيره وهو ظاهر .

و الآية مع ذلك تدلّ على أن هذا الوصف إنّما هو لطائفة خاصّة من المؤمنين يمتازون عن غيرهم بمرتبة خاصّة من الإيمان تخصّصهم دون غيرهم من عامّة المؤمنين و ذلك بما يفسّرها من قوله : « الذين آمنوا وكانوا يتّقون » بما تقدّم من تقرير دلالته .

و بالجملة ارتفاع الخوف من غير الله و الحزن عن الأولياء ليس معناه أنّ الخيرو الشرّ و النفع و الضرر و النجاة و الهلاك و الراحة و العناء و اللذة و الألم و النعمة و البلاء متساوية عندهم و متشابهة في إدراكهم فإنّ العقل الإنساني بل الشعور العامّ الحيواني لا يقبل ذلك .

بل معناه أنّهم لا يرون لغيره تعالى استقلالاً في التأثير أصلاً، ويقصرون الملك و الحكم فيه تعالى فلا يخافون إلا إياه أو ما يحبّ الله و يريد أن يحذروا منه أو يحزنوا عليه .

**قوله تعالى :** « لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة لا تبديل لكلمات

الله ذلك الفوز العظيم « يبشّركم الله تعالى بشارة إجمالية بما تقرّ به أعينهم فإن كان قوله : « لهم البشرى » إنشاء للبشارة كان معناه وقوع ما بشّركم به في الدنيا وفي الآخرة كليهما ، وإن كان إخباراً بأن الله سيبشّركم بشرى كانت البشارة واقعة في الدنيا وفي الآخرة ، وأما المبشّركم به فهل يقع في الآخرة فقط أو في الدنيا والآخرة معاً ؟ الآية ساكنة عن ذلك .

وقوله : « لا تبديل لكلمات الله » إشارة إلى أن ذلك من القضاء المحتوم وقد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى : « و كان حقاً علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ وقوله : « إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأَشهاد » المؤمن : ٥١ وقوله : « بشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار » الحديد : ١٢ إلى غير ذلك .

وقوله : « لا تبديل لكلمات الله » إشارة إلى أن ذلك من القضاء المحتوم الذي لا سبيل للتبدّل إليه ، وفيه تطيب لنفوسهم .

**قوله تعالى :** « ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم » تأديب للنبي ﷺ بتعزّيته و تسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربّه و الطعن في دينه والاعتزاز بشركائهم وآلهتهم كما يشعر به القول في الآية التالية فكاد يحزن لله فسلاًه الله وطيّب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده وهو أن العزة لله و أنه سميع لمقالمهم عليهم بحاله وحالهم وإذ كان له تعالى كلّ العزة فلا يعبأ بما اعتزّوا به من العزة الوهميّة فهذوا ما هذوا ، وإذ كان سميعاً عليماً فلو شاء لأخذهم بالنكال وإذ كان لا يأخذهم فإنّما في ذلك مصلحة الدعوة و خير العاقبة .

و من هنا يظهر أن كلاً من قوله : « إن العزة لله » وقوله : « هو السميع العليم » علّة مستقلّة للنهي و لذا جيء بالفصل من غير عطف .

**قوله تعالى :** « ألا إنّ لله من في السماوات ومن في الأرض » إلى آخر الآية فيه بيان مالكيّته تعالى لكلّ من في السماوات و الأرض التي بهيتمّ للإله معنى الربوبيّة فإنّ الربّ هو المالك المدبّر لأمر مملوكه ، وهذا الملك لله وحده لا شريك



له فما يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشراكة إلّا ما في ظنّ الداعين وفي خرصهم من المفهوم الذي لامصداق له .

فالآية تقيس شركاءهم إليه تعالى و تحكم أن نسبتهم إليه تعالى نسبة الظنّ و الخرص إلى الحقيقة والحق ، و الباقي ظاهر .

و قد قيل : « من في السماوات و من في الأرض » ولم يقل : ما في السماوات و ما في الأرض لأنّ الكلام في ربوبية العباد من ذوي الشعور و العقل وهم الملائكة و الثقلان .

**قوله تعالى :** « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » الآية .  
الآية تتمم البيان الذي أورد في الآية السابقة لإثبات ربوبيته تعالى والربوبية - كما تعلم - هي الملك و التدبير ، و قد ذكر ملكه تعالى في الآية السابقة ، فبذكر تدبير من تدبيره العامة في هذه الآية تصلح به عامة معيشة الناس وتستبقى به حياتهم يتم له معنى الربوبية .

و للإشارة إلى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه ، و مع النهار إصباحهم فيه الباعث لهم إلى أنواع الحركات و التنقلات لكسب مواد الحياة وإصلاح شؤون المعاش فليس يتم أمر الحياة الإنسانية بالحركة فقط أو بالسكون فقط فدبر الله سبحانه الأمر في ذلك بظلمة الليل الداعية إلى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العي و التعب و النصب وإلى الارتياح و الأُنس بالأهل و التمتع بمجتمع و اكتسب بالنهار و الفراغ للعبودية ، و بضوء النهار الباعث إلى الرؤية فلاشتياق فالطلب .

**قوله تعالى :** « قالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه هو الغنيّ له ما في السماوات و الأرض » إلى آخر الآية الاستيلاد بمعناه المعروف عند الناس هو أن يفصل الموجود الحيّ بعض أجزاء مادّته فيربّيه بالحمل أو البيض تربية تدريجية حتّى يتكوّن فرداً مثله ، و الإنسان من بينها خاصّة ربّما يطلب الولد ليكون عوناً له على نوائب الدهر و ذخراً ليوم الفاقة ، و هذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عز اسمه

منزّه عن الأجزاء متعال عن التدريج في فعله بريء عن المثل و الشبه مستغن عن غيره بذاته .

و قد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كلّ من الجهات المذكورة كما تعرض لنفيه من جميعها في قوله : « و قالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كلّ له قانتون بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون » البقرة : ١١٧ و قد مرّت الإشارة إلى ذلك في تفسير الآيات في الجزء الأوّل من الكتاب .

و أمّا الآية التي نحن فيها فهي مسوقة للاحتجاج على نفي الولد من الجهة الأخيرة فحسب و هو أنّ الغرض من وجوده الاستعانة به عند الحاجة وذلك إنّما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجاً فقيراً ، و الله سبحانه هو الغنيّ الذي لا يخالطه فقر فإنّه المالك لما فرض في السماوات و الأرض من شيء .

و قوله : « إن عندكم من سلطان » أي برهان « بهذا » إثبات لكونهم إنّما قالوه جهلاً من غير دليل فيكون محصّل المعنى أنّه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه و هو أنّه تعالى غنيّ على الإطلاق ، والولد إنّما يطلبه من به فاقة و حاجة ، و الكلام على ما اصطلاح عليه في فنّ المناظرة من قبيل المنع مع السند . و قوله : « أتقولون على الله ما لا تعلمون » توبيخ لهم في قولهم ما ليس لهم به علم ، وهو ممّا يستقبحه العقل الإنسانيّ ولاسيّما في ما يرجع إلى ربّ العالمين عزّ اسمه .

**قوله تعالى :** « قل إنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » تخويف و إنذار بشؤم العقاب ، و في الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى الله أوّلاً عنهم من طريق الغيبة قولهم : « اتّخذ الله ولداً » ثمّ خاطبهم خطاب الساخط الغضبان ممّا نسبوا إليه و افتروا عليه فقال : « إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون » و إنّما خاطبهم متكرّراً من غير أن يعرفهم نفسه حيث قال : « على الله » ولم يقل : عليّ أو علينا صونا لعظمة مقامه أن يخالطهم معروفاً ثمّ أعرض عنهم تنزّها عن ساحة جهلهم و رجع إلى خطاب رسوله قائلاً : « قل إنّ الذين يفترون

على الله الكذب لا يفلحون» لأنه إنذار و الإذار شأنه .

**قوله تعالى :** « متاع في الدنيا ثمَّ إلينا مرجعهم ثمَّ نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » خطاب للنبي ﷺ فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنّه كفر بالله ليس بحذائه إلاّ متاع قليل في الدنيا ثمَّ الرجوع إلى الله و العذاب الشديد الذي يذوقونه .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في أمالي الشيخ قال : أخبرنا أبو عمرو قال : أخبرنا أحمد قال : حدّ ثنا ياقوب ابن يوسف بن زياد قال : حدّ ثنا نصر بن مزاحم قال : حدّ ثنا محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : « بفضل الله و برحمته » بفضل الله النبي ﷺ ، و برحمته عليّ ﷺ .

**اقول :** و رواه الطبرسي و ابن الفارسي عنه مرسلًا ، و رواه أيضا في الدر المنثور عن الخطيب و ابن عساكر عنه .

و في المجمع قال أبو جعفر الباقر ﷺ : فضل الله رسول الله ﷺ و رحمته عليّ بن أبي طالب ﷺ .

**اقول :** و ذلك أن النبي ﷺ نعمة أنعم الله بها على العالمين بما جاء به من الرسالة و مواد الهداية ، و عليّ ﷺ هو أوّل فاتح لباب الولاية و فعلية التحقيق بنعمة الهداية فهو الرحمة فينطبق الخبر على ما قدّمناه في تفسير الآية .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي عن ابن عباس : « قل بفضل الله القرآن » و برحمته حين جعلهم من أهل القرآن .

**اقول :** أي الفضل مواد المعارف و الأحكام التي فيه ، و الرحمة فعلية تحقيق ذلك في العالمين به فيرجع إلى ما قدّمناه في تفسير الآية فيتمصّر ، و لا مخالفة بين هذه

الرواية و الرواية السابقة حينئذ بحسب الحقيقة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « وما تكون في شأن » الآية قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديدا .

**اقول :** و رواه في المجمع عن الصادق عليه السلام .

و في أمالي المفيد بإسناده عن عباية الأسدي عن ابن عباس قال : سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فقيل له : من هؤلاء الأولياء ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام : قوم أخلصوا لله في عبادته ، و نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها فعفرها آجلها حين غرّت الخلق سواهم بعاجلها فتركوا ما علموا أنه سيمر بهم ، وأماتوا منها ما علموا أنه سيميتهم .

ثم قال : أيها المطلق نفسه بالدنيا الرأى على حبائلها المجتهد في عمارتها سيخرب منها ألم تر إلى مصارع آبائك في البلاد ومصارع أبنائك تحت الجنادل و الثرى ؟ كم مرضت ببدنك و عللت بكفك تستوصف لهم الأطباء ، و تستغيث لهم الأحماء فلم تغن عنهم غناك ، ولا ينجع عنهم دواؤك ؟

و في تفسير العياشي عن مرثد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال : وجدنا في كتاب علي بن الحسين عليه السلام : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » قال : إذا أدوا فرائض الله ، وأخذوا بسنن رسول الله ﷺ ، وتورعوا عن محارم الله ، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا ، و رغبوا فيما عند الله ، و اكتسبوا الطيب من رزق الله ، ولا يريدون هذا التفاخر و التكاثر ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا و يثابون على ما قدّموا لآخرتهم .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و الحكيم و الترمذي عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي صلى الله عليه و سلم يقول : إنه لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب الله و يبغض الله تعالى فإذا أحب الله وأبغض الله فقد استحق الولاء من الله .  
الحديث .

**اقول :** و الروايات الثلاث في معنى الولاية يرجع بعضها إلى بعض و ينطبق الجميع على ما قدّمناه في تفسير الآية .

و فيه أخرج ابن المبارك و ابن أبي شيمية و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن النبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم « ألا إنّ أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » قال : يذكر الله لرؤيتهم .

**اقول :** ينبغي أن يحمل إلى أنّ هن آثار ولايتهم ذلك لأنّ كلّ من كان كذلك كان من أهل الولاية إلّا أن يراد أنّهم كذلك في جميع أحوالهم و أعمالهم ، و في معناها ما روي عن أبي الضحى و سعد عن النبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم في الآية قال : إذا رؤوا ذكر الله .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو القاسم بن منده في كتاب سؤال القبر من طريق أبي جعفر عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل من أهل البادية رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله : « الذين آمنوا و كانوا يتّسقون لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة » فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم : أمّا قوله : « لهم البشرى في الحياة الدنيا » فهي الرؤيا الحسنة ترى للمؤمن فيبشّر بها في دنياه ، و أمّا قوله : « و في الآخرة » فإنّها بشارة المؤمن عند الموت أنّ الله قد غفر لك و لمن حملك إلى قبرك .

**اقول :** و في هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنّة و رواها الصدوق مرسلًا و قوله : « ترى للمؤمن » بصيغة المجهول أعمّ من أن يراها هو نفسه أو غيره و قوله : « عند الموت » قد أضيف إليه في بعض الروايات البشرى يوم القيامة بالجنة . و في المجمع في قوله : « لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة » عن أبي جعفر عليه السلام في معنى البشارة في الدنيا : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له ، و في الآخرة الجنة وهي ما يبشّرونهم به الملائكة عند خروجهم من القبور ، و في القيامة إلى أن يدخلوا الجنة يبشّرونهم حالًا بعد حال .

**اقول :** و قال بعد ذلك : وروي ذلك في حديث مروي عن النبي ﷺ انتهى و روى مثله عن الصادق عليه السلام و رواه القمي في تفسيره مضمرًا .  
و في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن زريق عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا » قال : هو أن يبشّراه بالجنة عند الموت يعني حمداً و عليهما السلام .

و في الكافي بإسناده عن أبان بن عثمان عن عقبة أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره رأى . قلت : جعلت فداك وما يرى ؟ قال : يرى رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله : أنا رسول الله أبشر ثم قال : ثم يرى علي بن أبي طالب عليه السلام فيقول : أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحبّ أما لا نفعمك اليوم .

قال : قلت له : أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا ؟ قال : إذا رأى هذا أبداً مات و أعظم ذلك قال : و ذلك في القرآن قول الله عز وجل : « الذين آمنوا و كانوا يتّقون لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة لا تبدل لكلمات الله » .

**اقول :** و هذا المعنى مروي عن أئمة أهل البيت عليه السلام بطرق كثيرة جداً و قوله : « وأعظم ذلك » أي عدّه عظيماً . وقد أخذ في الحديث قوله تعالى : « الذين آمنوا و كانوا يتّقون » كلاماً مستقلاً ففسّره بما فسّر ، و تقدّم نظيره في رواية الدر المنثور عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم مع أن ظاهر السياق كون الآية مفسّرة لقوله قبلها : « ألا إن أولياء الله » الآية وهو يؤيد ما قدّمناه في بعض الأبحاث السابقة أن جميع التقادير من التراكيبات الممكنة في كلامه تعالى حجة يحتج بها كما في قوله : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » الأنعام : ٩١ و قوله : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم » و قوله : « قل الله ثم ذرهم » و قوله : « قل الله » .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و الترمذي و صحّحه و ابن

مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ الرسالة و النبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي ولكنّ المبشّرات . قالوا : يا رسول الله و ما المبشّرات قال : رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة .

**اقول :** و روي ما في معناه عن أبي قتادة و عائشة عنه عليه السلام .

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و مسلم و الترمذي و أبو داود و ابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا اقترب الزمان لم تكدرؤيا المؤمن تكذب ، و أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا ، و رؤيا المسلم جزء من ستة و أربعين جزءاً من النبوة ، و الرؤيا ثلاث : فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ، و الرؤيا من تحزن و الرؤيا ممّا يحدث بها الرجل نفسه . و إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم وليتفل و لا يحدث به الناس . الحديث .

و فيه أخرج ابن أبي شيبة عن عوف بن مالك الأشجعيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرؤيا على ثلاثة : تخويف من الشيطان ليحزن به ابن آدم و منه الأمر يحدث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، و منه جزء من ستة و أربعين جزءاً من النبوة .

**اقول :** أمّا انقسام الرؤيا إلى الأقسام الثلاثة كما ورد في الروايتين وفي معناهما روايات أخرى من طرق أهل السنة و أخرى من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام فسيجيء توضيحه في تفسير سورة يوسف إن شاء الله تعالى .

و أمّا كون الرؤيا الصالحة جزءاً من ستة و أربعين جزءاً من النبوة فقد وردت به روايات كثيرة من طرق أهل السنة رواها عنه عليه السلام جمع من الصحابة كأبي هريرة و عبادة بن الصامت و أبي سعيد الخدريّ و أبي رزين ، و روى أنس و أبو قتادة و عائشة عنه عليه السلام أنّها من أجزاء النبوة كما تقدّم .

و عن الصفدي أنّه وجّه الرواية بأنّ مدّة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث و عشرون سنة دعا فيها إلى ربّه ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة ، و عشر سنين

بعدها ، وقد ورد أن الوحي كان يأتيه ستة أشهر من أولها من طريق الرؤيا الصالحة حتى نزل القرآن ، و النسبة بين الستة الأشهر و بين الثلاث و عشرين سنة نسبة الواحد إلى الستة و الأربعين .

و قد روي عن ابن عمر و أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنها جزء من سبعين جزءاً من النبوة فإن صحّت هذه الرواية كان المراد بالتعداد مجرد التكثير من غير خصوصية لعدد السبعين .

و اعلم أن الرؤيا ربّما أُطلقت في لسان القرآن و الحديث على ما يشاهده الرائي ما لا يشاهده غيره و إن لم ينم نومه الطبيعي ، و قد نبّهنا عليه في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب و أحسن كلمة في تفسيرها قوله ﷺ : تنام عيني ولا ينام قلبي .







وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَ  
تَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ  
أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ ( ٧١ ) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ  
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَآمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ( ٧٢ ) فَكَذَّبُوهُ  
فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَآغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ( ٧٣ ) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ  
فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ  
عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ( ٧٤ ) .

### ﴿بيان﴾

تذكر الآيات إجمال قصة نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل إلى زمن موسى و  
هارون عليهما السلام ، وما عامل به الله سبحانه أممهم المكذبة بين لرسلم حيث أهلكتهم و نجيا  
رسله والمؤمنين بهم ليعتبر بها أهل التكذيب من هذه الآية .

**قوله تعالى :** « وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » إلى آخر الآية المقام مصدر ميمي و  
اسم زمان ومكان من القيام ، والمراد به الأول أو الثالث أي قيامي بأمر الدعوة إلى  
توحيد الله أو مكائتي و منزلتي وهي منزلة الرسالة ، والاجماع العزم وربما يتعدى  
بعلی قال الراغب : وأجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوسل إليه بالفكرة  
تحو فأجمعوا كيدكم وشركاءكم .

والغمّة هي الكربة والشدة وفيه معنى التغطية كأنّ الهمّ يغطّي القلب ، و  
منه الغمام للغيم سمّي به لتغطيته وجه السماء ، والقضاء إلى الشيء إتمام أمره بقتل  
وإفناء ونحو ذلك .

ومعنى الآية : « وائل » يا محمد « عليهم نبأ نوح » وخبره العظيم حيث واجهه  
قومه وهو واحد يتكلّم عن نفسه ، و هو مرسل إلى أهل الدنيا فتحدّى عليهم بأن  
يفعلوا به ما بدالهم إن قدروا على ذلك ، وأتمّ الحجّة على مكذّبيه في ذلك « إذ  
قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي » ونهضني لأمر الدعوة إلى التوحيد أو  
منزلتي من الرسالة « وتذكيري بآيات الله » وهو داعيكم لاحالة إلى قتلي وإيقاع ما  
تقدرون عليه من الشرّ بي لإزاحة أنفسكم منّي « فعلى الله توكلت » قبالة ما يهدّدني  
من تحرّج صدوركم وضيق نفوسكم عليّ بأرجاع أمري إليه وجعله وكيلا يتصرّف  
في شؤني ومن غير أن أشتغل بالتدبير « فأجمعوا أمركم و شركاءكم » الذين تزعمون  
أنهم ينصرونكم في الشدائد ، واعزموا عليّ بما بدالكم ، وهذا أمر تعجيزي « ثمّ  
لا يمكن أمركم عليكم غمّة » إن لم تكونوا اجتهدتم في التوسّل إلى كلّ سبب في  
دفعي « ثمّ اقضوا إليّ » بدفعي وقتلي « ولا تنظرون » ولا تمهلوني .

وفي الآية تحدّيه ﷺ على قومه بأن يفعلوا به ما بدالهم ، وإظهار أن ربّه  
قدير على دفعهم عنه وإن أجمعوا عليه وانتصروا بشركائهم وآلهتهم .

**قوله تعالى :** « فإن تولّيتم فما سألتكم عليه من أجر » إلى آخر الآية .  
تفريع على توكله برّبّه ، وقوله : « فما سألتكم » الخ بمنزلة وضع السبب موضع  
المسبّب ، والتقدير فإن تولّيتم وأعرضتم عن استجابة دعوتي فلا ضير لي في ذلك  
فإنّي لا أتضرّر في إعراضكم شيئا لأنّي إنّما كنت أتضرّر بأعراضكم عنّي لو  
كنت سألتكم أجراً على ذلك يفوت بالأعراض وما سألتكم عليه من أجر إن أجري  
إلا على الله .

وقوله : « وأمرت أن أكون من المسلمين » أي الذين يسلمون الأمر إليه فيما

أرادهم وعليهم ، ولا يستكبرون عن أمره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهرة حتى يخضعوا لها ويتوقّعوا به إيصال نفع أو دفع شرّ .

**قوله تعالى :** « فكذبوا فنجبناهم ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف » إلى آخر الآية الخلائف جمع خليفة أي جعلنا هؤلاء الناجين خلائف في الأرض والباقي من بعدهم يخلفون سلفهم ويقومون مقامهم ، والباقي ظاهر .

**قوله تعالى :** « ثمّ بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم » إلى آخر الآية يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح إلى زمن موسى عليه السلام . وظاهر السياق أنّ المراد بالبيّنات الآيات المعجزة التي اقترحتها الأمم على أنبيائهم بعد مجيئهم ودعوتهم وتكذيبهم لهم فأتوا بها وكان فيها القضاء بينهم وبين أممهم ، ويؤيّد قوله بـ«فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل» الخ فإنّ السابق إلى الذهن أنّهم جاؤوهم بالآيات البيّنات لكنّ الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن في وسعهم أن يؤمنوا ثانياً بما كذبوا به أولاً .

ولازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسل بملك الآيات البيّنات فقد كانت الرسل بشّروا دعوتهم فيهم ودعّوهم إلى توحيد الله فكذبوا به و بهم ثمّ اقترحوا عليهم آية معجزة فجاءوهم بها فلم يؤمنوا .

و قد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآية في تفسير قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل » الأعراف : ١٠١ في الجزء الثامن من الكتاب ، وبيّنا هناك أنّ في الآية إشارة إلى عالم الذرّ غير أنّه لا ينافي إفادتها لما قدّمناه من المعنى آنفاً فليراجع .



## ﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن إسماعيل عن صالح ابن عقبة عن عبد الله بن محمد الجعفي و عقبة جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله عز وجل خلق الخلق فخلق من أحب فكان ممّا <sup>(١)</sup> أحب أن خلقه من طين الجنة و خلق من أبغض ممّا أبغض و كان ما أبغضه أن خلقه من طينة النار ثمّ بعثهم في الظلال ، فقلت : و أيّ شيء الظلال ؟ فقال : ألم تر إلى ظلك في الشمس شيء ، و ليس بشيء .

ثمّ بعث منهم النبيين فدعوههم إلى الإقرار بالله عز وجل و لئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله « ثمّ دعوههم إلى الإقرار بالنبيين فأقرّ بعض وأنكر بعض ، ثمّ دعوههم إلى ولايتنا فأقرّ بها والله من أحب وأنكرها من أبغض ، وهو قوله : « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » . ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : كان التكذيب من قبل .

**أقول :** و رواه في العلل بإسناده إلى محمد بن إسماعيل عن صالح عن عبد الله وعقبة عنه عليه السلام ، و رواه العياشي عن الجعفي عنه عليه السلام .

و في تفسير العياشي عن زرارة و حران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام : خلق الخلق وهم أظلة فأرسل رسوله محمد عليه السلام فمنهم من آمن به ومنهم من كذب به ثمّ بعثني الخلق الآخر فأمن به من كان آمن به في الأظلة وجحد من جحد يومئذ فقال : « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » .

**أقول :** قد فصلنا القول في ما يسمّى عالم الذرّ في تفسير قوله تعالى : « و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » الآية . وأوضحنا هناك أنّ آيات الذرّ تثبت عالماً إنسانياً آخر غير هذا

العالم الانساني الماديّ التدريجيّ المشوب بالآلام والمصائب والمعاصي والآثام المشهود لنا من طريق الحسّ .

وهو مقارن لهذا العالم المحسوس نوعاً من المقارنة لكنّه غير محكوم بهذه الأحكام الماديّة ، وليس تقدّمه على عالمنا هذا تقدّمأ بالزمان بل بنوع آخر من التقدّم نظير التقدّم المستفاد من قوله : « أن نقول له كن فيكون » يس : ٨٤ فإنّ « كن » و « يكون » يحكيان عن مصداق واحد وهو وجود الشيء خارجاً لكنّ هذا الوجود بعينه بوجهه الذي إلى الله متقدّم عليه بوجهه الآخر ، وهو بوجهه الربانيّ غير تدريجيّ ولا زمنيّ ولا غائب عن ربّه ولا منقطع عنه بخلاف وجهه إلى الخلق على التفصيل الذي تقدّم هناك .

والذي أوردناه من الرواية في هذا البحث الروائيّ تشير إلى عالم الذرّ كالذي مرّت سابقاً غير أنّها تختصّ بمزيّة وهي ما فيها من لطيف التعبير بالظلال فإنّ باجادة التأمل في هذا التعبير يتّضح المراد أحسن الاتّضاح فإنّ في الأشياء الكونية أموراً هي كالظلال في أنّها لازمة لها حاكبة لخصوصيات وجودها وآثار وجودها ، و مع ذلك فهي هي وليست هي .

فإنّا إذا نظرنا إلى الأشياء و جرّدنا النظر ومحضناه في كونها صنع الله وفعله المحض غير المنفكّ منه ولا المنفصل عنه - وهي نظرة حقّه واقعيّة - لم يتحقّق فيها إلّا التسليم لله والخضوع لإرادته والتذلّل لكبريائه والتعلّق برحمته وأمر ربوبيّته و الايمان بوحديّته وبما أرسل به رسّله وأنزله إليهم من دينه .

وهذه الوجودات ظلال - أشياء وليست بأشياء - إذا قيست إلى وجودات الأشياء الماديّة ، وأخذ العالم الماديّ أصلامقيساً إليه وهو الذي بنت عليه الآيات من جهة كون غرضها بيان ثبوت التكليف بالتوحيد تكليفا لا محيص عنه مسؤولا عنه يوم القيامة .

ولو أخذت جهة الربّ تعالى أصلا وقيس إليه هذا العالم الماديّ بما فيه من الموجودات الماديّة - وهو أيضاً نظر حقّ - كان هذا العالم هو الظلّ وكانت جهة

الربّ تعالى هو الأصل والشخص الذي له الظلّ كما يشير إليه قوله تعالى : « كلّ شيء هالك إلاّ وجهه » القصص : ٨٨ و قوله : « كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك » الرحمن : ٢٧ .

وأما ما رواه العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » قال : « بعث الله الرسل إلى الخلق وهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء فمن صدّق حينئذ صدّق بعد ذلك ، ومن كذب حينئذ كذب بعد ذلك » .

فظاهره أنّ للبعث تعلّقاً بالنطف التي في الأصلاب والأرحام . وهم أحياء عقلاء مكلفون ، وهذا ممّا يدفعه الضرورة كما تقدّم في الكلام على آية الذرّ اللهمّ إلاّ أن يحمل على أن المراد كون عالم الذرّ محيطاً بهذا العالم المادّي التدرّجيّ الزمانيّ من جهة كونه غير زمانيّ فلا يتعلّق الوجود الذرّيّ بزمان دون زمان ، وهو مع ذلك محمل بعيد .





ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخَافُونَ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ رُكْبَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِيَوْمِ الْحَاقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرُهُ هَذَا وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَوْتَنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيَحَقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَنَهُمْ وَانْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَوَحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَآخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آتَيْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) .

### ﴿ بيان ﴾

ثم ساق الله سبحانه نبأ موسى وأخيه ووزير هارون مع فرعون وملأه وقد أوجز في القصة غير أنه ساقها سوقاً ينطبق بفصولها على المحصل من حديث بعثة النبي ﷺ ودعوته عتاة قومه والطواغيت من قريش وغيرهم ، وعدم إيمانهم به إلا ضعفاؤهم الذين كانوا يفتنونهم حتى التجؤوا إلى الهجرة فهاجر هو ﷺ وجمع من المؤمنين به إلى المدينة فعتبه فراغته هذه الأمة وملئهم فأهلكهم الله بذنوبهم وبوأ الله المؤمنين ببركة الإسلام مَبُوءًا صَدَقِ ورزقهم من الطيبات ثم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وسيقضي الله بينهم .

فكان ذلك كله تصديقاً لما أسر الله سبحانه إلى نبيه ﷺ في هذه الآيات فيما سيستقبله وقومه من الحوادث ، ولقوله ﷺ يخاطب أصحابه وأُمَّته : لتنبعن سنة بني إسرائيل حتى أنتم لودخلوا جحر ضب لدخلتموه .

قوله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون » الخ أي ثم بعثنا من بعد



نوح و الرسل الَّذِينَ من بعده موسى و أخاه هارون بآياتنا إلى فرعون و الجماعة الَّذِينَ يختصُّون به من قومه و هم القبط فاستكبروا عن آياتنا و كانوا مستمرِّين على الإِجرام .

**قوله تعالى :** « فلمَّا جاءهم الحقُّ من عندنا » الخ الظاهر أنَّ المراد بالحقِّ هو الآية الحقَّة كالثعبان و اليد البيضاء ، و قد جعلهما الله آية لرسالته بالحقِّ فلمَّا جاءهم الحقُّ قالوا و أكَّدوا القول : إنَّ هذا - يشيرون إلى الحقِّ من الآية - لسحرمبين واضح كونه سحراً ، وإنَّما سمَّى الآية حقًّا لقبال تسميتهم إيَّاه سحراً .

**قوله تعالى :** « قال موسى أتقولون للحقِّ لمَّا جاءكم أسحر هذا » الخ أي فلمَّا سمع مقالتهم تلك و رميهم الحقِّ بأنَّه سحرمبين قال لهم منكراً لقولهم في صورة الاستفهام : « أتقولون للحقِّ لمَّا جاءكم » إنَّه لسحر ؟ ثمَّ كرَّر الإنكار مستفهماً بقوله : « أسحر هذا » ؟ فمقول القول في الجملة الاستفهاميَّة محذوف إيجازاً لدلالة الاستفهام الثاني عليه ، و قوله : « ولا يفلح الساحرون » يمكن أن يكون جملة حالية معلَّمة للإنكار الذي يدلُّ عليه قوله : « أسحر هذا » ، و يمكن أن يكون إخباراً مستقلاًً بياناً للواقع يبرِّئ به نفسه من أن يقترب السحر لأنَّه يرى لنفسه الفلاح و للساحرين أنَّهم لا يفلحون .

**قوله تعالى :** « قالوا أجئتنا لنتلفننا عمَّا وجدنا عليه آباءنا » الخ اللفظ هو الصرف عن الشيء ، والمعنى : قال فرعون وملؤه لموسى معاتبين له : « أجئتنا لنتلفننا » و تصرفنا « عمَّا وجدنا عليه آباءنا » يريدون سنَّة قدمائهم و طريقتهم « و يكون لكما الكبرياء في الأرض » يعنون الرئاسة و الحكومة و انبساط القدرة و نفوذ الإرادة يؤمَّون بذلك أنكما اتَّخذتما الدعوة الدينيَّة وسيلة إلى إبطال طريقتنا المستقرَّة في الأرض ، و وضع طريقة جديدة أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان باجرائها في الناس و إيماننا بكما و طاعتنا لكما الكبرياء و العظمة في المملكة .

و بعبارة أخرى إنَّما جئتما لتبدِّلا الدولة الفرعونيَّة المتعرِّقة في القبط إلى دولة إسرائيليَّة تدار بإمامتكما و قيادتكما ، و ما نحن لكما بمؤمنين حتَّى تنالا

بذلك أُمْنِيَّتُكُمْ و تَبْلُغَايَتُكُمْ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمَزُورَةِ .

**قوله تعالى :** « وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم » كان يأمر به ملاءه فيعارض بسحر السحرة معجزة موسى كما فصل في سائر الآيات القاصّة للقصة و تدلّ عليه الآيات التالية .

**قوله تعالى :** « فلمّا جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا الخ أي لمّا جاؤوا و واجهوا موسى و تهَيَّؤوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال و العصي » ، و قد كانوا هَيَّؤوها ليلقوها فيظهروها في صور الحيات و الثعابين بسحرهم .  
**قوله تعالى :** « فلمّا ألقوا قال لهم موسى ما جئتم به السحر » ما قاله عَلَيْهِ السَّلَام بيان لحقيقة من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحقّ على يديه من صيرورة العصا ثعباناً يلقف ما ألقوه من الحبال و العصي و أظهره في صور الحيات و الثعابين بسحرهم .

و الحقيقة التي بيّنها لهم أنّ الذي جاؤوا به سحر و السحر شأنه إظهار ما ليس بحقّ واقع في صورة الحقّ الواقع لحواسّ الناس و أنظارهم ، و إذ كان باطلاً في نفسه فإنّ الله سيبطله لأنّ السنّة الإلهيّة جارية على إقرار الحقّ و إحقاقه في التكوين و إزهاق الباطل و إبطاله فالدولة للحقّ و إن كانت للباطل جولة أحيانا .  
و لذا علّل قوله : « إنّ الله سيبطله » بقوله : « إنّ الله لا يصلح عمل المفسدين » فإنّ الصلاح و الفساد شأنان متقابلان ، و قد جرت السنّة الإلهيّة أن يصلح ما هو صالح و يفسد ما هو فاسد أي أن يرتّب على كلّ منهما أثره المناسب له المختصّ به و أثر العمل الصالح أن يناسب و يلائم سائر الحقائق الكونيّة في نظامها الذي تجري هي عليه ، و يمتزج بها و يخالطها فيصلحه الله سبحانه و يجريه على ما كان من طباعه ، و أثر العمل الفاسد أن لا يناسب و لا يلائم سائر الحقائق الكونيّة فيما تقتضيه بطباعها و تجري عليه بجبلتها فهو أمر استثنائيّ في نفسه ، و لو أصلحه الله في فساده كان ذلك إفساداً للنظام الكونيّ .

فيعارضه سائر الأسباب الكونيّة بمالها من القوى و الوسائل المؤثّرة ، و

تعيده إلى السيرة الصالحة إن أمكن و إلا أبطلته و أفنته و محمته عن صحيفة الوجود البتة .

و هذه الحقيقة تستلزم أن السحر و كل باطل غيره لا يدوم في الوجود وقد قررها الله سبحانه في كلامه في مواضع مختلفة كقوله : «والله لا يهدي القوم الظالمين» و قوله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » و قوله : « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » المؤمن : ٢٨ ، و منها قوله في هذه الآية : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين . » وأكده بتقريره في جانب الإثبات بقوله في الآية التالية : « و يحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » كما سيأتي توضيحه .

**قوله تعالى :** « و يحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » لما كشف الله عن الحقيقة المتقدمة في جانب النقي بقوله : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » أبان عنه في جانب الإثبات أيضا في هذه الآية بقوله : « و يحق الله الحق بكلماته » و قد جمع تعالى بين معنيي النقي و الإثبات في قوله : « ليحق الله الحق و يبطل الباطل ولو كره المجرمون » الأنفال : ٨ .

و من هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات في الآية أقسام القضية الإلهية في شؤون الأشياء الكونية الجارية على الحق فإن قضاء الله ماض و سننه جارية أن يضرب الحق و الباطل في نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى و يعفى أثره و يبقى الحق على جلائه ، و ذلك قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً و مما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق و الباطل فأما الزبد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » الرعد : ١٧ ، و سيجيء استيفاء البحث فيه في ذيل الآية إن شاء الله تعالى .

و الحاصل أن موسى عليه السلام إنما ذكر هذه الحقيقة لهم ليوقفهم على سنة إلهية حقة غفلوا عنها ، و ليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملاً من غلبة الآية المعجزة على السحر وظهور الحق على الباطل ، و لذا بادروا إلى الإيمان حين شاهدوا

المعجزة ، و ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه في مواضع أخرى من كلامه .

و قوله : « ولو كره المجرمون » ذكر الإِجرام من بين أوصافهم لأنّ فيه معنى القطع فكأنّهم قطعوا سبيل الحقّ على أنفسهم وبنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهية من ظهور الحقّ ، ولذلك نسب الله كراهة ظهور الحقّ إليهم بما هم مجرمون في قوله : « ولو كره المجرمون » و في معناه قوله في أوّل الآيات : « فاستكبروا و كانوا قوما مجرمين » .

**قوله تعالى :** « فما آمن لموسى إلاّ ذرّية من قومه على خوف من فرعون و ملائمتهم » إلى آخر الآيتين ذكر بعض المفسّرين أنّ الضمير في « قومه » راجع إلى فرعون ، و الذرّية الذين آمنوا من قومه كانت أمّهم من بني إسرائيل و آبائهم من القبط فتبعوا أمّهم في الإيمان بموسى ؛ و قيل : الذرّية بعض أولاد القبط ؛ و قيل : أريد بها امرأة فرعون و مؤمن آل فرعون ، و قد ذكرنا في القرآن و جارية و امرأة هي مشاطة امرأة فرعون .

و ذكر آخرون أنّ الضمير لموسى عليه السلام و المراد بالذرّية جماعة من بني إسرائيل تعلّموا السحر و كانوا من أصحاب فرعون ؛ و قيل : هم جميع بني إسرائيل و كانوا ستمائة ألف نسمة سمّاهم ذرّية لضعفهم ؛ و قيل : ذرّية آل إسرائيل ممّن بعث إليهم موسى و قد هلكوا بطول العهد ، و هذه الوجوه - كما ترى - لا دليل على شيء منها في الآيات من جهة اللفظ .

و الذي يفيد السياق وهو الظاهر من الآية أن يكون الضمير راجعا إلى موسى ، و المراد بالذرّية من قوم موسى بعض الضعفاء من بني إسرائيل دون ملائمتهم الأقوياء و الشرفاء ، و الاعتبار يساعد على ذلك فإنّهم جميعا كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم ، و العادة الجارية في أمثال هذه الموارد أن يتوسّل الشرفاء و الأقوياء بأيّ وسيلة أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعية و جاههم القوميّ ، و يتقرّبوا إلى الجبّار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال و التظاهر بالخدمة و مراعاة

النصح والتجنب عملاً لا يرتضيه فلم يكن في وسع الملأ من بني إسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى على بغيته ، ويتظاهروا بالإيمان به .

على أن قصص بني إسرائيل في القرآن أعدل شاهد على أن كثيراً من عتاة بني إسرائيل و مستكبريهم لم يؤمنوا بموسى إلى أواخر عهده وإن كانوا يتسلّمون له و يطيعونه في عامّة أو امره التي كان يصدرها لبذل المساعي في سبيل نجاة بني إسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم و حرّية شعبهم و منافع أشخاصهم ، فلا طاعة في هذه الأمور أمر و الإيمان بالله و ما جاء به الرسول أمر آخر .

و يستقيم على هذا معنى قوله : « وملاهم » بأن يكون الضمير إلى الذريّة و يفيد الكلام أن الذريّة الضعفاء كانوا في إيمانهم يخافون الملأ و الأشراف من بني إسرائيل فانهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم أنفسهم أو تظاهرا بذلك ليرضوا به فرعون و قومه و يطيعوا أنفسهم فلا يضيقوا عليهم و ينقصوا من إيدائهم والتشديد عليهم .

و أمّا ما قيل : إن الضمير راجع إلى فرعون لأنّه ذو أصحاب أو للذريّة لأنهم كانوا من القبط فممّا لا يصار إليه البتّة و خاصّة أوّل الوجهين .

و قوله : « أن يفتنهم » أي يعدّ بهم ليعودوا إلى ملّته ، وقوله : « وإن فرعون لعال في الأرض » أي و الظرف هذا الظرف و هو أن فرعون عال في الأرض مسرف في الأمر .

فالمعنى - والله أعلم - فتفرّع على قصّة بعثهما و استكبار فرعون وملاؤه أنّه لم يؤمن بموسى إلّا ضعفاء من بني إسرائيل وهم يخافون ملاّهم و يخافون فرعون أن يعدّ بهم لإيمانهم و كان ينبغي لهم ومن شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عالياً في الأرض مسلّطاً عليهم وإنّه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم و يجاوز الحد في الظلم و التعذيب .

ولو صح أن يراد بقومه كلّ من بعث إليهم موسى وبلغهم الرسالة وهم القبط

و بنو إسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجة إلى ما تقدم من تكلفاتهم .

**قوله تعالى :** « وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » لما كان الإيمان بالله بما يفيد للمؤمن من العلم بمقام ربه ولو إجمالاً وأنه سبب فوق الأسباب إليه ينتهي كل سبب ، وهو المدبر لكل أمر ، يدعو إلى تسليم الأمر إليه و التجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل ، و لازم ذلك إرجاع الأمر إليه و التوكل عليه ، وقد أمرهم في الآية بالتوكل على الله ، علّقه أو لا على الشرط الذي هو الإيمان ثم تمّ الكلام بالشرط الذي هو الإسلام .

فالكلام في تقدير : إن كنتم آمنتم بالله ومسلمين له فتوكلوا عليه . وقد فرق بين الشرطين و علّله لم يجمع بينهما فيقول : « إن كنتم آمنتم وأسلمتم فتوكلوا لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعاً محرزاً منهم ، وأما الإسلام فهو من كمال الإيمان ، وليس من الواجب الضروري أن يكون كل مؤمن مسلماً بل من الأولى الأخرى أن يكمل إيمانه بالإسلام .

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون أحدهما واجباً واقعاً منهم ، والآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله - وقد آمنتم - و كنتم مسلمين له - وينبغي أن تكونوا كذلك - فتوكلوا على الله ؛ ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى .

**قوله تعالى :** « فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للظالمين » إلى آخر الآيتين إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون وماله فدعائهم بمادعوا به من قولهم : « ربنا لا تجعلنا فتنة » الخ سؤال منهم نتيجة توكلهم وهو أن ينزع الله عنهم لباس الضعف و الذلّة ، وينجيهم من القوم الكافرين .

أما الأول فقد أشاروا إليه بقولهم : « ربنا لا تجعلنا فتنة للظالمين » و ذلك أن الذي يغري الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم

من الضعف فيفتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنة للقويّ الظالم كما أنّ الأموال والأولاد بما عندها من جاذبة الحبّ فتنة للإنسان قال تعالى : « إنّما أموالكم وأولادكم فتنة » التغابن : ١٥ . والدنيا فتنة لطالبها فسؤالهم ربّهم أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف والدّلة بسلب الغرض منه وهو سلب الشيء بسلب سببه .

وأما الثاني أعني النجية فهو الذي ذكره حكاية عنهم في الآية الثانية : « و نجّنا برحمتك من القوم الكافرين » .

**قوله تعالى :** « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً » الخ التبوّي أخذ المسكن والمنزل ، ومصر بلد فرعون ، والقبلة في الأصل بناء نوع من المصدر كجلسة أي الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أي اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي جهة واحدة وكان الغرض أن يتمكنوا منهم بالتبليغ ويتمكّنوا من إقامة الصلاة جماعة كما يدلّ عليه أو يشعر به قوله بعده : « وأقيموا الصلاة » لوقوعه بعده .

وأما قوله : « و بشر المؤمنين » فالسياق يدلّ على أنّ المراد به البشارة بإجابة ما سألوه في دعائهم المذكور آنفاً : « ربّنا لاتجعلنا فتنة » إلى آخر الآيتين . والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتّخذوا لقومكما مساكن من البيوت في مصر - وكانّهم لم يكونوا إلى ذاك الحين إلاّ كهيفة البدويّين يعيشون في الفساطيط أو عيشة تشبهها - واجعلوا أنتم وقومكما بيوتكم متقابلة وفي جهة واحدة يتصل بذلك بعضكم ببعض ويتمشّى أمر التبليغ والمشاورة والاجتماع في الصلوات ، وأقيموا الصلاة و بشر يا موسى أنت المؤمنين بأنّ الله سينجّيهم من فرعون وقومه .

**قوله تعالى :** « وقال موسى ربّنا إنّك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالاً » الخ الزينة بناء نوع من الزين وهي الهيئة التي تجذب النفس إلى الشيء ، والنسبة بين الزينة والمال العموم من وجه فبعض الزينة ليس بمال يبذل بإزائه الثمن كحسن الوجه واعتدال القامة ، وبعض المال ليس بزينة كالأنعام والأراضي ، وبعض المال

زينة كالحليّ و التقابل الواقع بين الزينة و المال يعطي أن يكون المراد بالزينة جهة الزينة من غير نظر إلى الماليّة كالحليّ والرياش والأثاث و الأبنية الفاخرة وغيرها .

وقوله : « ربّنا ليضلّوا عن سبيلك » قيل اللّام للعاقبة : والمعنى و عاقبة أمرهم أنّهم يضلّون عن سبيلك ، ولا يجوز أن يكون لام الغرض لأنّنا قد علمنا بالأدلة الواضحة أنّ الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال ولا يريد أيضاً منهم الضلال ، وكذلك لا يؤتيتهم المال ليضلّوا . انتهى .

وهو حقّ لكن في الإضلال الابتدائيّ المستحيل عليه تعالى ، وأمّا الإضلال بعنوان المجازاة ومقابلة السوء بالسوء فلا دأيل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبت كلامه في موارد كثيرة ، وقد كان فرعون و ملؤه مصرّين على الاستكبار و الإفساد ملحّين على الإجرام فلا مانع من أن يؤتيتهم الله بذلك زينة وأموالاً ليضلّوا عن سبيله جزاء بما كسبوا .

وربّما قيل : إنّ اللّام في « ليضلّوا » للدعاء ، و ربّما قيل : إنّ الكلام بتقدير لا أي لئلا يضلّوا عن سبيلك ، و السياق لا يساعد على شيء من الوجهين . و الطمس - كما قيل - تغيير إلى الدثور و الدروس فمعنى « اطمس على أموالهم » غيرها إلى الفناء والزوال ، وقوله : « واشدد على قلوبهم » من الشدّ المقابل للحلّ أي أقس قلوبهم و اربط عليها ربطاً لا ينشرح للحقّ فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم فهو الطمع على القلوب ، و قول بعضهم : إنّ المراد بالشدّ تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشدّ عليهم وآلم ، وكذا قول آخرين : إنّ كناية عن إماتتهم و إهلاكهم من الوجوه البعيدة .

فمعنى الآية : وقال موسى - و كان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون و ملكه و يقينه بأنّهم لا يدومون إلّا على الضلال والإضلال كما يدلّ عليه سياق كلامه في دعائه ربّنا إنّك جازيت فرعون وملأه على كفرهم وعتوّهم جزاء السوء فأتيتهم زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربّنا إرادة منك لأن يضلّوا من اتّبعهم عن سبيلك ، وإرادتك



لا تبطل و غرضك لا يلغو ربنا آدم على سخطك عليهم و اطمس على أموالهم و غيرها  
عن مجرى النعمة إلى مجرى النعمة ، و اجعل قلوبهم مشدودة مربوطة فلا يؤمنوا  
حتى يقفوا موقفاً لا ينفعهم الايمان وهو زمان يرون فيه العذاب الالهى .  
وهذا الدعاء من موسى عليه السلام على فرعون وملئه إنما هو بعد يأسه التام من  
إيمانهم ، وعلمه أنه لا يترقب منهم في الحياة إلا أن يضلوا ويضلوا كدعاء نوح على  
قومه فيما حكا الله : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم  
يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » نوح : ٢٧ ، وحاشا ساحة الأنبياء عليهم السلام أن  
يتكلموا على الخرص والمظنة في موقف يشافهون فيه رب العالمين جلّت كبريأؤه و  
وعزّ شأنه .

**قوله تعالى :** « قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا  
يعلمون » الخطاب - على ما يدل عليه السياق - لموسى و هارون ولم يحك الدعاء في  
الآية السابقة إلا عن موسى ، وهذا يؤيد ما ذكره المفسرون : أن موسى عليه السلام كان  
يدعو ، وكان هارون يؤمن له و آمين دعاء فقد كانا معاً يدعوان و إن كان متن الدعاء  
لموسى عليه السلام وحده .

والاستقامة هو الثبات على الأمر ، وهو منهما عليهما السلام الثبات على الدعوة إلى  
الله وعلى إحياء كلمة الحق ، و المراد بالذين لا يعلمون الجهلة من شعب إسرائيل  
وقد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل كما في قوله : « قال إنكم قوم تجهلون »  
الأعراف : ١٣٨ .

و المعنى : « قال » الله مخاطباً لموسى و هارون « قد أجيبت دعوتكما » من سؤال  
العذاب الأليم لفرعون وملئه ، والطمس على أموالهم و الشدّ على قلوبهم « فاستقيما »  
واثباتاً على ما أمرتما به من الدعوة إلى الله وإحياء كلمة الحق « ولا تتبعان » البتة  
« سبيل الذين لا يعلمون » بإجابة ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم ودواعي  
شهواتهم ، وفيه نوع تلويح إلى أنهم سيسألون أموراً فيها إحياء سنتهم القومية و  
سيرتهم الجاهلية .

وبالجملة فالآية تذكر إجابة دعوتهما المتضمنة لعذاب فرعون وملئه و عدم توفيقهم للإيمان ووعدهما بذلك ، ولذلك ذكر في الآية التالية وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التي فيه .

ولم يكن في الدعاء ما يدل على مسألة الفور أو التراخي في القضاء عليهم بالعذاب وعلى ذلك جرى أيضاً سياق الآية الدالة على القبول و الإجابة وكذا الآية المخبرة عن كيفية إنجازها ، وقد نقل في المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعدها الدعاء أربعين سنة قال : وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ، ورواه عنه عليه السلام في الاحتجاج و كذا في الكافي وتفسير العياشي عن هشام بن سالم عنه عليه السلام وفي تفسير القمي عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عنه عليه السلام .

**قوله تعالى :** « وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا و وعدوا » إلى آخر الآية البغي والعدو كالعدوان الظلم وإدراك الشيء لل حقوق به و التسلط عليه كما أن اتباع الشيء طلب الحقوق به .

وقوله : « آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل » أي آمنت بأنه . وقد وصف الله بالذي آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم وهو مجاوزة البحر و الأمان من الغرق ، ولذلك أيضا جمع بين الإيمان و الإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصر عليه من المعصية وهو الشرك بالله و الاستكبار على الله ، و الباقي ظاهر .

**قوله تعالى :** « آآن وقد عصيت قبل و كنت من المفسدين » آآن بالمد أصله ، آآن أي أتؤمن بالله الآن وهو حين أدر كك العذاب ولا إيمان وتوبة حين غشيان العذاب ومجيء الموت من كل مكان ، وقد عصيت قبل هذا و كنت من المفسدين ، و أفنيت أيامك في معصيته ، ولم تقدم التوبة لوقتها فما ذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته وهذا هو الذي كان موسى و هارون سألاه ربهما أن يأخذ به عذاب أليم و يسد سبيله إلى الإيمان إلا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان ولا تغني عنه التوبة شيئا .

**قوله تعالى :** « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثير من

الناس عن آياتنا لغافلون» التنجية و الإِ نجاء تفعيل و إفعال من النجاة كالتخليص و الإِ خلاص من الخلاص وزنا ومعنى .

وتنجيته ببدنه تدلّ على أن له أمراً آخر وراء البدن فقد به بدنه بغشيان العذاب وهو النفس التي تسمّى أيضاً روحاً ، وهذه النفس المأخوذة هي التي يتوفّاها الله و يأخذها حين موتها كما قال تعالى : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ و قال : « قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكل بكم » الم السجدة : ١١ ، وهي التي يخبر عنها الإنسان بقوله : « أنا » وهي التي بها تتحقّق للإنسان إنسانيّته ، وهي التي تدرك و تريد و تفعل الأفعال الإِ انسانيّة بواسطة البدن بماله من القوى و الأعضاء الماديّة ، و ليس للبدن إلاّ أنّه آلة وأداة تعمل بها النفس أعمالها الماديّة .

ولم كان الاتحاد الذي بينها و بين البدن يسمّى باسمها البدن و إلاّ فأسماء الأشخاص في الحقيقة لنفوسهم لا لأبدانهم ، وناهيك في ذلك التغيّر المستمرّ الذي يعرض البدن مدّة الحياة ، والتبدّل الطبيعيّ الذي يطرأ عليه حيناً بعد حين حتّى ربّما تبدّل البدن بجميع أجزائه إلى أجزاء أخرى تتركّب بدناً آخر فلو كان زيد هو البدن الذي ولدته أمّه يوم ولادته و الاسم له لكان غيره و هو ذو سبعين و ثمانين قطعاً و الاسم لغيره حتماً ، ولم يثب ولم يعاقب الإِ نسان وهو شائب على ما عمله وهو شابّ لأنّ الطاعة و المعصية لغيره .

فهذه وأمثالها شواهد قطعيّة على أن إنسانيّة الإِ نسان بنفسه دون بدنه ، و الأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الإِ نسان ويعرفها إجمالاً وإن كان ربّما أنكرها في مقام التفصيل .

وبالجملة فالآية : « اليوم ننجيّك ببدنك » كالصريح أو هو صريح في أن النفوس وراء الأبدان ، و أن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلاّ ما يطلق على الأبدان بعناية الاتحاد .

فمعنى « ننجيّك ببدنك » نخرج بدنك من اليمّ و ننجيّ به ، وهو نوع من تنجيّتك - لما بين النفس و البدن من الاتحاد القاضى بكون العمل الواقع على أحدهما واقعا

بنحو على الآخر - لتكون لمن خلفك آية ، وهذا بوجه نظير قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم » طه : ٥٥ فإنَّ الَّذِي يعاد إلى الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام فليست نسبة الإعادة إلى الإنسان إلّا لما بين نفسه و بدنه من الاتحاد .

وقد ذكر المفسّرون أنَّ الإِنجاء ، و التنجية لما كان دالّاً بلفظه على سلامة الَّذي أُنجي إِنْجاء كان مفاد قوله : « ننجيك » أن يكون فرعون خارجاً من اليمِّ حيثاً وقد أخرجه الله ميّناً فاطمعيْن أخذ قوله : « ننجيك » من النجوة وهي الأرض المرتفعة التي لا يعلموها السيل ، والمعنى اليوم نخرج بدنك إلى نجوة من الأرض . وربما قال بعضهم : إنَّ المراد بالبدن الدرع ، وقد كان لفرعون درع من ذهب يعرف به فأخرجه الله فوق الماء بدرعه ليكون لمن خلفه آية و عبرة ، وربما قال بعضهم إنَّ التعبير بالتنجية تهكّم به .

و الحقَّ أنَّ هذا كلّهُ تكلف لا حاجة إليه ، ولم يقل : « ننجيك » وإنّما قيل « ننجيك ببدنك » ومعناه ننجي بدنك ، و الباء للآلية أو السببية ، و العناية هي الاتحاد الَّذي بين النفس و البدن .

على أنَّ جعل « ننجيك ببدنك » بمعنى نجعلك على نجوة من الأرض لا يفي بدفع الإشكال من أصله فإنَّ الَّذي جعل على نجوة هو بدن فرعون على قولهم ، وهو غير فرعون قطعاً وإلّا كان حيّاً سالمّاً ، ولا مناص إلّا أن يقال : إنَّ ذلك بعناية الاتحاد الَّذي بين الإنسان و بدنه ، ولو صحّحت هذه العناية إطلاق اسم الإنسان على بدنه من غير نفس لكان لها أن تصحّح نسبة التنجية إلى الإنسان من جهة وقوع التنجية ببدنه ، و خاصّة مع وجود القرينة الدالة على أنَّ المراد بالتنجية هي التي للبدن دون التي للإنسان المستتبع لحفظ حياته و سلامته نفساً و بدنّاً ، و القرينة هي قوله : « ببدنك » .

**قوله تعالى :** « ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعوثاً صدق ورزقناهم من الطيبات أي أسكنناهم مسكن صدق ، وإنّما يضاف الشيء إلى الصدق نحو وعد صدق و قدم

صدق ولسان صدق ومدخل صدق ومخرج صدق للدلالة على أن لوازم معناه و آثاره المطلوبة منه موجودة فيه صدقا من غير أن يكذب في شيء من آثاره التي يعدها بلسان دلالته الالتزامية لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الذي سيفي به واعده ، و يسرّ بالوفاء به مواعده ، ويحقّ أن يطمع فيه ويرجى وقوعه . فان لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب في معناه ولوازم معناه .

وعلى هذا فقولُه : « مَبُوءٌ صدق » يدلّ على أن الله سبحانه بوّأهم مَبُوءاً أي يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء و الهواء و بركات الأرض و وفور نعمها والاستقرار فيها وغير ذلك ، وهذه هي نواحي بيت المقدس والشام التي أسكن الله بني إسرائيل فيها وسمّاها الأرض المقدّسة المباركة وقد قصّ القرآن دخولهم فيها .

وأما قول بعضهم : إن المراد بهذا المَبُوءُ مصر دخلها بنو إسرائيل و اتخذوا فيها بيوتاً فأمّر لم يذكره القرآن . على أنهم لو فرض دخولهم فيها ثانيا لم يستقرّوا فيها استقراراً مستمراً ، وتسمية ما هذا شأنه مَبُوءاً صدق ممّا لا يساعد عليه معنى اللفظ . والآية أعني قوله : « ولقد بوّأنا بني إسرائيل - إلى قوله - من الطيبات » مسوقة سوق الشكوى والعتبي ، ويشهد به تذييلها بقوله : « فما اختلفوا حتّى جاءهم العلم ، وقوله : « إن ربك يقضي بينهم » إلى آخر الآية بيان لعاقبة اختلافهم عن علم وبمنزلة أخذ النتيجة من القصة .

والمعنى أننا أتممنا على بني إسرائيل النعمة وبوّأناهم مَبُوءاً صدق ورزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم عن ذلك مدّة طويلة كانوا فيها في أسارة القبط فوحدنا شعبهم وجمعنا شملهم فكفروا بالنعمة وفرّقوا الكلمة واختلفوا في الحقّ ، ولم يكن اختلافهم عن عذر الجهل و إنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .



فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ  
 قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
 الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ  
 كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)  
 فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ  
 عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ  
 مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)  
 وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)  
 قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا  
 يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا  
 أَنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا  
 عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) .

### ﴿بيانات﴾

تتضمن الآيات الاستشهاد على حقيقة ما أنزله الله في السورة من المعارف  
 الراجعة إلى المبدء والمعاد وما قصه من قصص الأنبياء وأممهم - ومنهم نوح و  
 موسى ومن بينهما من الأنبياء عليه السلام وأممهم - إجمالاً بما قرأه أهل الكتب السماوية  
 فيها قبل نزول القرآن على النبي ﷺ .

ثم تذكر ما هو كالفذلكة والمعنى المحصل من البيانات السابقة وهو أن الناس لن يملكوا من أنفسهم أن يؤمنوا بالله و آياته إلا بأذن الله ، وإنما يأذن الله في إيمان من لم يطبع على قلبه ولم يجعل الرجس عليه و إلا فمن حقّت عليه كلمة الله لن يؤمن بالله و آياته حتّى يرى العذاب .

فالسنة الجارية أن الناس منذ خلقوا واختلفوا بين مكذب بآيات الله ومصدق لها ، وقد جرت سنة الله على أن يقضي فيهم بالحق بعد مجيئهم برسولهم إليهم فينجي الرسل والمؤمنين بهم ، و يأخذ غيرهم بالهلاك .

**قوله تعالى :** « فإن كنت في ريب ممّا أنزلنا إليك » إلى آخر الآية الريب الشك ، والمراد بقوله : « ممّا أنزلنا إليك » المعارف الراجعة إلى المبدء والمعاد و السنة الإلهية في القضاء على الأمم ممّا تقدّم في السورة ، وقوله : « يقرؤون الكتاب من قبلك » « يقرؤون » فعل مضارع استعمل في الاستمرار « و من قبلك » حال من الكتاب عامله متعلّقه المقدّر ، و التقدير منزلا من قبلك . كل ذلك على ما يعطيه السياق .

و المعنى « فإن كنت » أيّها النبي « في ريب » وشك « ممّا أنزلنا إليك » من المعارف الراجعة إلى المبدء والمعاد و ما قصصنا عليك إجمالا من قصص الأنبياء الحاكية لسنة الله الجارية في خلقه من الدعوة أولا ثم القضاء بالحق « فاسأل » أهل الكتاب « الذين » لايزالون « يقرؤون » جنس « الكتاب » منزلا من السماء « من قبلك » أقسم « لقد جاءك الحق » من ربك فلا تكوننّ من الممترين « المتردين . وهذا لا يستلزم وجود ريب في قلب النبي ﷺ ولا تحقق شك منه فإن هذا النوع من الخطاب كما يصح أن يخاطب من يجوز عليه الريب والشك كذلك يصح أن يخاطب به من هو على يقين من القول و بيّنة من الأمر على نحو التكنية عن كون المعنى الذي أخبر به المخبر ممّا تعاضدت عليه الحجج و تجمعت عليه الآيات فإن فرض من المخاطب أو السامع شك في واحدة منها كان له أن يأخذ بالأخرى .

و هذه طريقة شائعة في عرف التخاطب و التفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جرياً على ما تدعوهم إليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحجّة على أمر من الأمور ثم يقول : فان شككت في ذلك أو سلّمنا أنّها لا توجب المطلوب فهناك حجة أخرى على ذلك وهي أنّ كذا كذا ، وذلك كناية عن أنّ الحجج متوفرة متعاضدة كالدعائم المضروبة على ما لا يحتاج إلى مزيد من واحد منها لكن الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشة قائمة عليها على تقدير قيام الكلّ و البعض .

فيؤل معنى الكلام إلى أنّ هذه معارف بيّنها الله لك بحجج تضطرّ العقول إلى قبولها و قصص تحكي سمة الله في خلقه والآثار تدلّ عليها ، بيّنها في كتاب لا ريب فيه ، فعلى ما بيّنه حجة و هناك حجة أخرى وهي أنّ أهل الكتب السماوية الموفين لها حقّ قراءتها يجدون ذلك فيما يقرؤونه من الكتاب فهناك مبدء و معاد ، و هناك دين إلهيّ بعث به رسله يدعون إليه ، ولم يدعوا أمة من الأمم إلّا انقسموا قبيلين مؤمن و مكذب فأنزل الله آية فاصلة بين الحقّ و الباطل وقضى بينهم .

و هذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه ، و إنّما كانوا ينكرون بشارات النبيّ ﷺ و بعض ما يختصّ به الإسلام من المعارف و ما غيروه في الكتب من الجزئيات ، و من لطيف الإشارة أنّ الله سبحانه لم يذكر في القصص المذكورة في هذه السورة قصّة هود و صالح لعدم تعرّض التوراة الموجودة عندهم لقصّتهما و كذا قصّة شعيب و قصّة المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها وليس إلّا لما كان أن يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه .

فهذه الآية في إلقاء الحجّة على النبيّ ﷺ وزانها وزان قوله تعالى : «أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل» الشعراء : ١٩٧ في إلقاء الحجّة إلى الناس . على أنّ السورة من أوائل السور النازلة بمكة ، ولم تشتدّ الخصومة يومئذ بين المسلمين و أهل الكتاب و خاصّة اليهود اشتدادها بالمدينة ، ولم يركبوا بعد من العناد واللجاج ذاك المركب الصعب الذي ركبوه بعد هجرة النبيّ ﷺ ، ونشوب



الحروب بينهم و بين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذي قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » الأنعام : ٩١ .

فهذا ما يعطيه سياق الآية من المعنى ، و أظنك إن أمعنت في تدبر الآية و سائر الآيات التي تناسبها مما يخاطب النبي ﷺ بحقيقة ما نزل إليه من ربه ، و يتحدث على البشر بعجزهم عن إتيان مثله ، و ما يصف النبي ﷺ أنه على بصيرة من أمره ، و أنه على بينة من ربه أفنعتك ذلك فيما قد مناه من المعنى ، و أغناك عن التمحولات التي ارتكبوها في تفسير الآية بما لاجدوى في نقلها و البحث عنها .

**قوله تعالى :** « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين »  
 نهى عن الارتياب و الامتراء أو لا ثم ترقى إلى النهي عن التكذيب بآيات الله و هو العناد مع الحق استكباراً على الله فإن الآية لا تكون آية إلا مع وضوح دلالتها و ظهور بيانها و تكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنياً إلا على العناد و اللجاج .

و قوله : « فتكون من الخاسرين » تفريع على التكذيب بآيات الله فهو نتيجةه و عاقبته فهو المنهي عنه بالحقيقة و المعنى : ولا تكن من الخاسرين ، و الخسران زوال رأس المال بانتقاصه أو ذهاب جميعه ، و هو الإيمان بالله و آياته الذي هو رأس مال الإنسان في سعادة حياته في الدنيا والآخرة على ما يستفاد من الآية التالية حيث يعلل خسارهم بأنهم لا يؤمنون .

**قوله تعالى :** « إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية » الخ تعليل للنهي السابق ببيان ما للمنهى عنه من الشأن فإن أصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال : لا تكونن من المكذبين لأن المكذبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعادة هو الإيمان فوضع قوله « الذين حققت عليهم كلمة ربك » موضع « المكذبين » للدلالة على سبب الحكم وأن المكذبين إنما يخسرون لأن كلمة الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال إلى الله سبحانه .

و الكلمة الإلهية التي حققت على المكذبين بآيات الله هي قوله يوم شرع

الشرعية العامة لآدم وزوجته فمن بعدهما من ذريتهما : « قلنا اهبطوا منها جميعا - إلى قوله - و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ .

وهذا هو الذي يريده بقوله في مقام بيان سبب خسران المكذبين : إن الذين حققت عليهم كلمة ربك » و هم المكذبون حققت عليهم كلمة العذاب فهم « لا يؤمنون » و لذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم و هو الإيمان فحرموه و حرموا بركاته في الدنيا والآخرة ، و إذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيل لهم إلى الإيمان ولو جاءتهم كل آية « حتى يروا العذاب الأليم » ولا فائدة في الإيمان الاضطراري .

و قد كرر الله سبحانه في كلامه هذا القول واستتباعه للخسران وعدم الإيمان كقوله : « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » يس : ٧ ، و قوله : « لينذر من كان حيا و يحق القول على الكافرين » يس : ٧٠ أي بتكذيبهم بالآيات المستتبع لعدم إيمانهم فخسرانهم ، وقوله : « وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الانس إنهم كانوا خاسرين » حم السجدة : ٢٥ إلى غير ذلك .

وقد ظهر من الآيات أولا أن العناد مع الحق و التكذيب بآيات الله يحق كلمة العذاب الخالد على الإنسان

و ثانيا : أن رأس مال سعادة الحياة للإنسان هو الإيمان .

و ثالثا : أن كل إنسان فهو مؤمن لاحالة إما إيمانا اختياريا مقبولا يسوقه إلى سعادة الحياة الدنيا والآخرة ، و إما إيمانا اضطراريا غير مقبول حيثما يرى العذاب الأليم .

**قوله تعالى :** « فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها لإقوم يونس ملبا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي » الخ ظاهر السياق أن لولا للتضيض ، و أن المراد بقوله : « آمنت » الإيمان الاختياري الصحيح كما يشعر به قوله بعده : « فنفعها إيمانها » ولوقوع التضيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس

المساوق للنقي فاستقام الاستثناء الذي في قوله : « إلّا قوم يونس » .

والمعنى : هلّا كانت قرية - من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم - آمنت قبل نزول العذاب إيماناً اختيارياً فنفعها إيمانها . لا ولم يؤمن إلّا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم بالحياة إلى حين آجالهم العادية الطبيعية . ومنه يعلم أنّ الاستثناء متصل .

وذكر بعضهم أنّ المعنى : لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم حتّى يشدّ منهم أحد إلّا قوم يونس فهلّا كانت القرى كلّها هكذا . وفيه أنّه في نفسه معنى لا بأس فيه إلّا أنّ الآية بلفظها لا تنطبق عليه بما فيه من الخصوصيات وهو ظاهر .

وذكر بعض آخر : أنّ المعنى لم يكن معهودا من حال قرية من القرى أن يكفر ثمّ يؤمن فينفعها إيمانها إلّا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم العذاب ومتّعناهم . إلّا شكّال عليه كالإشكال على سابقه .

**قوله تعالى :** « و لو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً » أي لكنّه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم ولا يؤمن فالمشيئة في ذلك إلى الله سبحانه ولم يشأ ذلك فلا ينبغي لك أن تطمع فيه ولا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم وإجبارهم على الإيمان ، والإيمان الذي نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه وإجبار .

و لذلك قال بعد ذلك في صورة الاستفهام الإنكاري : « أفأنت تكره الناس حتّى يكونوا مؤمنين » أي بعد ما بيّنا أنّ أمر المشيئة إلى الله وهو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البتّة لم يبق لك إلّا أن تكره الناس وتجبرهم على الإيمان ، وأنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك ولا أنا أقبل الإيمان الذي هذا نعتة .

**قوله تعالى :** « وما كان لنفس أن تؤمن إلّا بأذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » لما ذكر في الآية السابقة أنّ الأمر إلى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن

أهل الأرض جميعاً لآمنوا لكنّه لم يشأ فلا مطمع في إيمان الجميع زاد في هذه الآية في بيان ذلك بما محصله أن الملك - بالكسر - لله فله أصالة التصرف في كل أمر لا يشاركه في ذلك مشارك إلا أن يأذن لبعض ما خلقه في بعض التصرفات .

و الإيمان بالله عن اختيار والاهتداء إليه أمر من الأمور يحتاج في تحققه إلى سبب يخصّه ، ولا يؤثر هذا السبب ولا يتصرف في الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه في ذلك لكن الله سبحانه يجعل الرّجس والضلال على أهل العناد والجحود لم يأذن في إيمانهم ، ولا رجاء في سعادتهم .

ولوأنّه تعالى أذن في ذلك لأحد لأذن في إيمان غير أولئك المكذّبين فقوله : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بأذن الله » حكم عام حقيقيّ ينيط تملك النفوس للإيمان إلى إذن الله ، وقوله : « ويجعل الرّجس » الخ يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم .

وقد أريد في الآية بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك والريب بمعنى أنّه هو المصادق المنطبق عليه الرّجس في المقام لما قوبل بالإيمان ، وقد عرّف في قوله تعالى : « ومن يردأ يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصعّد في السماء كذلك يجعل الله الرّجس على الذين لا يؤمنون » الأنعام : ١٢٥ .

وقد أريد أيضاً بقوله : « الذين لا يعقلون » أهل التكذيب بآيات الله من جهة أنّهم ممّن حقّت عليه كلمة العذاب فإنّهم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون قال : « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » التوبة : ٩٣ .

**قوله تعالى :** « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض » أي من المخلوقات المختلفة المنشئة التي كلّ واحد منها آية من آيات الله تعالى تدعو إلى الإيمان ، وقوله : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ظاهره أن « ما » استفهاميّة و الجملة مسوقة بداعي الإنكار وإظهار الأسف كقول الطبيب : بما ذا أعالج الموت؟ أي إنّنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا : « قل انظروا في السماوات » الخ لكنّ أي تأثير للنذر فيهم أو للآيات فيهم وهم لا يؤمنون أي عازمون مجمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع

الَّذِي عَلَى قُلُوبِهِمْ وَرَبِّمَا قِيلَ : إِنَّ مَا نَافِيَةٌ .

**قوله تعالى :** « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » تفريع على ما في الآية السابقة من قوله : « وما تعني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » أي إذا لم تغن الآيات والنذر عنهم شيئاً وهم لا يؤمنون بالبنة فهم لا ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، وإنما يحبسون نفوسهم لآية العذاب الإلهي التي تفصل بينك وبينهم فتقضي عليهم لأنهم حققت عليهم كلمة العذاب .

ولذا أمر النبي ﷺ أن يبلغهم ذلك بقوله : « قل فانتظروا » أي مثل أيام الذين خلوا من قبلكم يعني يوم العذاب الذي يفصل بيني وبينكم فتؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم « إنني معكم من المنتظرين » .

وقد تبين بما مر أن الاستفهام في الآية إنكاري .

**قوله تعالى :** « ثم ننجي رسلنا و الذين آمنوا » الجملة تتمّة صدر الآية السابقة وقوله : « قل فانتظروا » الخ جملة معترضة والنظم الأصلي بحسب المعنى « فهل ينتظرون » أي قومك هؤلاء « إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » من الأمم الذين كانت تحقق عليهم كلمة العذاب فمرسل إليهم آية العذاب « ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا » .

وإنما اعترض بقوله : « قل فانتظروا إنني معكم من المنتظرين » بين الكلام لأنّه يتعلّق بالجزء الذي يتقدّمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنّه المناسب لأن يجعل جواباً لهم ، وهو يتضمّن انتظار النبي ﷺ للقضاء بينه وبينهم ، وأمّا تنجيته وتنجية المؤمنين به فإنّ المنتظر لها هو النبي ﷺ والمؤمنون لا هو وحده ، ولا يتعلّق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاة من العذاب ، وهو مع ذلك لا يتعلّق به غرض في المقام الذي سيق فيه الكلام لأنّ نذار المشرّكين لا لتبشير النبي ﷺ والمؤمنين فافهم ذلك .

وأما قوله : « كذلك حقّاً أعلننا ننج المؤمنين » فمعناه كما كنّا ننجي الرسل و الذين آمنوا في الأمم السابقة عند نزول العذاب كذلك ننجي المؤمنين بك من

هذه الأمة حقّ علينا ذلك حقّاً ، فقلوله : « حقّاً علينا » مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف ، و اللام في « المؤمنين » للعهد والمراد به مؤمنو هذه الأمة ، وهذا هو الوعد الجميل للنبي ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة بالانجاء .

وليس من البعيد أن يستفاد من قوله : « ننج المؤمنين » أن فيه تلويحاً إلى أن النبي ﷺ لا يدرك هذا القضاء ، وإنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون ولم يذكر معهم النبي ﷺ مع أنه تعالى ذكر في السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربّما يخطر بالبال من تكرّر قوله تعالى في كلامه . « فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » أو ما في معناه .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العياشي عن محمد بن سعيد الأسدي أن موسى بن محمد بن الرضا أخبره أن يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل : أخبرني عن قول الله تبارك وتعالى : « فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » من المخاطب بالآية ؟ فان كان المخاطب فيها النبي فقد شك فيما أنزل الله ، وإن كان المخاطب بها غيره فعلى غيره إذا نزل الكتاب .

قال موسى فسألت أخي عن ذلك . قال : فأما قوله : « فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » فان المخاطب بذلك رسول الله ﷺ ولم يكن في شك مما أنزل الله ، ولكن قالت الجبهة : كيف لم يبعث إلينا نبياً من الملائكة ؟ إنّه لم يفرّق بينه وبين غيره في الاستعناء في المأكل والمشرب والمشى في الأسواق فأوحى الله إلى نبيه ﷺ : فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك بمحضر الجبهة هل بعث الله رسولا من قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويشرب ويمشي في الأسواق ؟ ولك بهم أسوة .

وإنما قال : فان كنت في شك ، ولم يكن ولكن ليتبعهم كما قال له : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل

لعنة الله على الكاذبين» ، ولو قال : تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيئون للمباهلة ، وقد عرف أن نبيّه مؤدّ عنه رسالته وما هو من الكاذبين ، كذلك عرف النبي ﷺ أنه صادق فيما يقول ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه .

**أقول :** ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن موسى بن محمد بن عليّ ، وهو يرجع إلى ماقدّمناه ، وقد ورد في بعض الروايات أن الآية نزلت ليلة المعراج فأمره الله أن يسأل أرواح الأنبياء عن ذلك ، وهم الذين أرادهم بقوله : « الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » وروي الوجه أيضاً عن الزهريّ لكن في انطباقه على لفظ الآية خفاء .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبد الرزّاق وابن جرير عن قتادة في الآية قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : لأشكّ ولا أسأل .

وفي تفسير العيّاشيّ عن معمرّ قال : قال أبو الحسن الرضا عليه السلام : إنّ يونس أمره الله بما أمره فأعلم قومه فأظلمهم العذاب ففرّقوا بينهم وبين أولادهم وبين البهائم وأولادها ثمّ عجزوا إلى الله وضجّوا فكفّ الله العذاب عنهم . الحديث .

**أقول :** وسيأتي إن شاء الله قصة يونس وقومه في ذيل بعض الآيات المتعرّضة لتفصيل قصّته عليه السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم واللالكائيّ في السنّة عن عليّ بن أبي طالب قال : إنّ الحذر لا يردّ القدر ، وإنّ الدعاء يردّ القدر ، وذلك في كتاب الله : « إلّا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي » الآية .

**أقول :** وروى ما في معناه عن ابن النجّار عن عائشة عن النبي ﷺ .

وفي الكافي و البصائر مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الرّجس هو الشكّ ولا نشكّ في ديننا أبداً .



قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَ أَنْ يَمْسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ أَنْ يُرْدِكَ بَخِيرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩).

### ﴿بيان﴾

الآيات ختام السورة تفرغ المحصل من بياناتها فتشير إجمالاً إلى التوحيد و المعاد و النبوة ، و تأمر باتِّباع القرآن و الصبر في انتظار حكم الله بينه و بين أمته .  
**قوله تعالى :** « قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني » الخ قد تقدّم غير مرّة أنّ الدين هو السنّة المعمول بها في الحياة لنيل سعادتها و فيه معنى الطاعة كما في قوله تعالى : « و أخلصوا دينهم لله » النساء : ١٤٦ و ربّما استعمل بمعنى الجزاء .



وقوله : « إن كنتم في شك من ديني » أي في طريقتي التي أسلكها وأثبت عليها وشك الإنسان في دين غيره وطريقته المعمولة له إنما يكون في ثباته عليه هل يستقر عليه ويستقيم ؟ وقد كان المشركون يطمعون في دينه ﷺ وربما رجوا أن يحولوا عنه فينجوا من دعوته إلى التوحيد ورفض الشرك بالآلهة .

فالمعنى إن كنتم تشكّون فيما أدين به وأدعو إليه هل أستقيم عليه؟ أو شككني في ديني ماهو ؟ ولم تحصّلوا الأصل الذي يبتني عليه فأنني أصرّح لكم القول فيه وأبيّنه لكم وهو أنني لأعبد آلهمكم وأعبد الله وحده .

وقد أخذ في قوله : « ولكن أعبد الله الذي يتوفّىكم » له تعالى وصف توفّيهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعيمهم الحاجة إليه في دفع الضرر وجلب النفع ، والتوفّي أمر لا يشكّون أنه سيصيبهم وأنه لله وحده فمساس الحاجة إلى الأمن من ضرره يوجب عبادة الله سبحانه .

على أن اختيار التوفّي للذكر ليكون في الكلام تلويح إلى تهديدهم فإن الآيات السابقة وعدتهم العذاب وعداً قطعياً ، ووفاء المشرّكين بميعاد عذابهم ، ويؤيد ذلك إتباع قوله : « ولكن أعبد الله الذي يتوفّىكم » بقوله : « أمرت أن أكون من المؤمنين » فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذي ذكره الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبل - إلى قوله - نجح المؤمنين » .

والمعنى فاعلموا واستيقنوا أنني لأعبد آلهمكم ولكن أعبد الله الذي وعد عذاب المكذّبين منكم وإنجاء المؤمنين وأمرني أن أكون منهم كما أمرني أن أجتنب عبادة الآلهة .

قوله تعالى : « وأن أقم وجهك للدين حنيفاً » عطف على موضع قوله : « وأمرت أن » الخ فإنه في معنى وكن من المؤمنين ، وقد مرّ الكلام في معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير مرّة .

قوله تعالى : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك » نهى بعد نهى

عن الشرك ، و بيان أنَّ الشرك يدخل الإنسان في زمرة الظالمين فيحق عليه ما أوعده الله به الظالمين في كلامه .

و من لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء : « ما لا ينفعك ولا يضرك » و حين ذكر العبادة : « الذين تعبدون من دون الله » فإنَّ العبادة بالطبع يعطي للمعبود شعوراً و عقلاً فناسب أن يعبر عنه بنحو « الذين » المستعمل في ذوي العلم و العقل ، و الدعاء و إن كان كذلك مساوئقته العبادة غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع و لا يضرك ، و ربما توهّم أن ذوي العلم و العقل يصح أن تنفع و تنضر ، عبّر بلفظة « ما » ليلوِّح إلى أنها جهاد لا يتخيّل في حقهم إرادة نفع أو ضرر .

و في التعبير نفسه أعني قوله : « ما لا ينفعك ولا يضرك » إعطاء الحجّة على النهي عن الدعاء .

**قوله تعالى :** « وإن يمسك الله بضرّ فلا كشف له إلّا هو » الخ الجملة حالية وهي تتمّة البيان في الآية السابقة ، و المعنى : ولا تدع من دون الله ما لا نفع لك عنده ولا ضرر ، و الحال أن ماسك الله به من ضرّ لا يكشفه غيره و ما أراذك به من خير لا يردّه غيره فهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته و إرادته ، و هو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده و يرحمهم ، و اتّصافه بهذه الصفات الكريمة و كون غيره صفر الكف منها يقتضي تخصيص العبادة و الدعوة به .

**قوله تعالى :** « قل يا أيّها الناس قد جاءكم الحقّ من ربّكم » وهو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوة الحقّة ، و قوله : « فمن اهتدى » إلى آخر الآية إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيرة ببيان حقيقة هي أن الحقّ - و قد جاءهم - من حكمه أن من اهتدى إليه فإنما يهتدي و نفعه عائد إليه ، و من ضلّ عنه فإنما يضلّ و ضرره على نفسه فلمهم أن يختاروا لأنفسهم ما يحبّونه من نفع أو ضرر ، وليس هو ﷻ و كيلاً لهم يتصدّى من الفعل ما هو لهم فالآية كناية عن وجوب اهتدائهم إلى الحقّ لأنّ فيه نفعهم .

**قوله تعالى :** و اتّبع ما يوحى إليك و اصبر حتّى يحكم الله و هو خير

الهاكمين، أمر بالتَّبَاع ما يوحى إليه و الصبر على ما يصيبه في جنب هذا الاتِّباع من المصائب و المحن ، و وعد بأنَّ الله سبحانه سيحكم بينه و بين القوم ، ولا يحكم إلَّا بما فيه قرّة عينه فالآية تشتمل على أمره بالاستقامة في الدعوة ، و تسليته فيما يصيبه ، و وعده بأنَّ العاقبة الحسنی له .

و قد اختتمت الآية بحكمه تعالى ، و هو الذي عليه يعتمد معظم آيات السورة في بيانها . والله أعلم .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود مكِّيَّة وهي مائة و ثلاث و عشرون آية

☆☆☆

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتُمْ أَكُنْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ  
حَكِيمٍ خَبِيرٍ ( ١ ) أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ( ٢ ) وَأَنْ  
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يَمُوتَ  
كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ( ٣ ) إِلَى  
اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ( ٤ ) .

### ﴿ بيان ﴾

السورة كما يظهر من مفتتحها و مختتمها و السياق الذي يجري عليه آياتها  
تبين غرض الآيات القرآنيَّة على كثرتها و تشتملها ، و تصف المحصل من  
مقاصدها على اختلافها و الملخص من مضامينها .

فتذكر أنَّها على احتوائها لمعارف الدين المختلفة من أصول المعارف الإلهيَّة  
و الأخلاق الكريمة الإنسانيَّة ، و الأحكام الشرعيَّة الراجعة إلى كليَّات العبادات  
و المعاملات و السياسات و الولايات ثمَّ وصف عامَّة الخليقة كالعرش و الكرسيّ و  
اللوح و القلم و السماء و الأرض و الملائكة و الجنّ و الشياطين و النبات و الحيوان  
و الإنسان ، و وصف بدء الخليقة و ما ستعود إليه من الفناء و الرجوع إلى الله سبحانه .

و هو يوم البعث بما يتقدمه من عالم القبر وهو البرزخ ثم القيام لرب العالمين والحشر والجمع والسؤال والحساب والوزن وشهادة الأَشهاد ثم فصل القضاء ثم الجنة أو النار بما فيهما من الدرجات والدركات .

ثم وصف الرابطة التي بين خلقة الإنسان وبين عمله ، وما بين عمله وما يستتبعه من سعادة أو شقاوة و نعمة أو نقمة و درجة أو دركة ، وما يتعلّق بذلك من الوعد والوعيد والإنذار والتبشير بالموعظة والمجادلة الحسنة والحكمة .

فالأيات القرآنية على احتوائها تفاصيل هذه المعارف الإلهية والحقائق الحقيقة تعتمد على حقيقة واحدة هي الأصل وتلك فروعه ، وهي الأساس الذي بني عليه بنيان الدين وهو توحيد تعالي توحيد الإسلام بأن يعتقد أنه تعالي هو رب كل شيء ، لا رب غيره ويسلم له من كل جهة فيوفي له حق ربوبيته ، ولا يخشع في قلب ولا يخضع في عمل إلا له جلّ أمره .

وهذا أصل يرجع إليه على إجماله جميع تفاصيل المعاني القرآنية من معارفها و شرائعها بالتحليل ، وهو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب .

فالسورة تبيّن ذلك بنحو الإجمال في هذه الآيات الأربع التي افتتحت بها ثم تأخذ في بيانه التفصيلي بسملة الإنذار والتبشير بذكر ماله من السنة الجارية في عباده ، وإيراد أخبار الأمم الماضية ، وقصص أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليه السلام ، وما ساقهم إليه الاستكبار عن إجابة الدعوة الإلهية والافساد في الأرض والإسراف في الأمر ، و وصف ما وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أوعده الله به الذين كفروا وكذبوا بالآيات ، وتبيّن في خلال ذلك أموراً من المعارف الإلهية الراجعة إلى التوحيد والنبوة والمعاد .

ومما تقدم يظهر ما في قول بعضهم عند ما ذكر غرض هذه السورة : أنها في معنى سورة يونس وموضوعها ، وهو أصول عقائد الإسلام في الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء وعمل الصالحات ، وقد فصل فيها ما أجمل في سورة يونس من قصص الرسل عليه السلام . انتهى .

و قد عرفت أنَّ السورتين مسوقتان لغرضين مختلفين لا يرجع أحدهما إلى الآخر البتة فسورة يونس تبين أنَّ السنة الإلهية جارية على القضاء بين الرسل و بين أممهم المكذَّبين لهم ثمَّ توعده هذه الأمة بما جرى مثله على الذين من قبلهم . و سورة هود تبين أنَّ المعارف القرآنية ترجع بالتحليل إلى التوحيد الخالص كما أنَّ التوحيد يعود بحسب التركيب إلى تفاصيل المعارف الأصلية والفرعية . و السورة - على ما تشهد به آياتها بمضامينها والاتصال الظاهر بينها - مكينة نازلة دفعة واحدة ، و قد روي عن بعضهم استثناء قوله تعالى : « فلعلَّك تارك بعض ما يوحى إليك » آية ١٢ فذكر أنَّها مدنيَّة .

و استثنى بعضهم قوله : « أؤمن كان على بينة من ربه » آية ١٧ ، و بعضهم قوله تعالى : « وأقم الصلاة طر في النهار و زلفاً من الليل » آية ١١٤ ، ولا دليل على شيء من ذلك من طريق اللفظ ، و ظاهر اتصاليها أنَّها جميعاً مكينة .

**قوله تعالى :** « الر كتاب أحكمت آياته ثمَّ فصلت من لدن حكيم خبير » المقابلة بين الإحكام و التفصيل الذي هو إيجاد الفصل بين أجزاء الشيء المتصل بعضها ببعض ، و التفرقة بين الأمور المندمجة كلَّ منها في آخر تدلُّ على أنَّ المراد بالإحكام ربط بعض الشيء ببعضه الآخر و إرجاع طرف منه إلى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئاً واحداً بسيطاً غير ذي أجزاء و أبعاد .

و من المعلوم أنَّ الكتاب إذا اتَّصف بالإحكام و التفصيل بهذا المعنى الذي مرَّفاً نَمَا يتَّصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى والمضمون لا من جهة ألفاظه أو غير ذلك ، و أنَّ حال المعاني في الإحكام و التفصيل و الاتحاد و الاختلاف غير حال الأعيان فالمعاني المتكثِّرة إذا رجعت إلى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ في الجميع وهو بعينه على إجماله هذه التفاصيل ، وهي بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال و هذا كله ظاهر لا ريب فيه .

و على هذا فكون آيات الكتاب محكمة أو لا ثمَّ مفصلة ثانياً معناه أنَّ الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها وتشتت مقاصدها و أغراضها ترجع إلى

معنى واحد بسيط ، و غرض فارد أصلي لا تكثر فيه ولا تشتت بحيث لا تروم آية من الآيات الكريمة مقصدا من المقاصد ولا ترمي إلى هدف إلا والغرض الأصلي هو الروح الساري في جثمانه و الحقيقة المطلوبة منه .

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته و تفرق أبعاضه إلا غرض واحد متوحد إذا فصل كان في مورد أصلا دينيا و في آخر أمرا خلقيا و في ثالث حكما شرعيا و هكذا كلما تنزل من الأصول إلى فروعها و من الفروع إلى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ ، ولا يخطي غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد و الأخلاق و الأعمال ، و هي بتحليلها و إرجاعها إلى الروح الساري فيها الحاكم على أجسادها تعود إلى ذاك الأصل الواحد .

فتوحيدة تعالى بما يليق بساحة عزّه و كبريائه مثلا في مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنی و صفاته العليا ، و في مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا و التسليم و الشجاعة و العفة و السخاء و نحو ذلك و الاجتناب عن الصفات الرذيلة ، و في مقام الأعمال و الأفعال الاتيان بالأعمال الصالحة و الورع عن محارم الله .

و إن شئت فقل : إن التوحيد الخالص يوجب في كل من مراتب العقائد و الأخلاق و الأعمال ما يبينه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب و كذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص .

فقد تبين أن الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف و الشرائع القرآنية إلى أصل واحد هو بحيث إذا ركب في كل مورد من موارد العقائد و الأوصاف و الأعمال مع خصوصية ذلك المورد أنتج حكما يخصه من الأحكام القرآنية ؛ و بذلك يظهر :

أولا : أن قوله : « كتاب » خبر لمبتدأ محذوف و التقدير : هذا كتاب ، و المراد بالكتاب هو ما بأيدينا من القرآن المقسم إلى السور والآيات ، ولا ينافي ذلك

ما ربّما يذكر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن بما هو في اللوح فإن هذا الكتاب المقروء متّحد مع ما في اللوح اتّحاد التنزيل مع التّأويل .

و ثانيا : أن لفظة « ثم » في قوله : « ثم فصلت » الخ لإفادة التراخي بحسب ترتيب الكلام دون التراخي الزماني إذ لا معنى للتقدّم والتأخّر الزماني بين المعاني المختلفة بحسب الأصليّة والفرعيّة أو بالأجمال و التفصيل .

و يظهر أيضا ما في بعض ما ذكره أرباب التفاسير في معنى الآية كقول بعضهم : إن معناها أحكمت آياته فلم تنسخ منها كما نسخت الكتب والشرائع ثم فصلت ببيان الحلال والحرام وسائر الأحكام .

و فيه : أن الواجب على هذا المعنى أن يقيّد عدم النسخ بعدم النسخ بكتاب غير القرآن ينسخ القرآن بعده كما نسخ القرآن غيره فإن وجود النسخ بين الآيات القرآنيّة نفسها ممّا لا ينبغي الارتياح فيه . و التقييد المذكور لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية .

و كقول بعضهم : إن المراد أحكمت آياته بالأمر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . و فيه أنه تحكّم لا دليل عليه أصلا .  
و كقول بعضهم : إن المراد إحكام لفظها بجعلها على أبلغ وجوه الفصاحة حتّى صار معجزا ، و تفصيلها بالشرح والبيان . و الكلام في هذا الوجه كسابقه .  
و كقول بعضهم : المراد بإحكام آياته جعلها محكمة متقنة لا خلل فيها ولا باطل ، و المراد بتفصيلها جعلها متتابعة بعضها إثر بعض . و فيه : أن التفصيل بهذا المعنى غير معهود لغة إلّا أن يفسّر بمعنى التفرقة والتكثير و يرجع حينئذ إلى ما قدّمناه من المعنى .

و كقول بعضهم : إن المراد أحكمت آياته جملة ثم فرقت في الانزال آية بعد آية ليكون المكلف أمكن من النظر والتأمل .

و فيه : أن الأحرى بهذا الوجه أن يذكر في مثل قوله تعالى : «إنا أنزلناه



في ليلة مباركة « الدخان : ٣ ، و قوله : « و قرآنا فرقناه لنقرأه على الناس على مكث و نزلناه تنزيلا » أسرى : ١٠٦ و ما في هذا المعنى من الآيات مما يدل على أن القرآن مرتبة عند الله هي أعلى من سطح الأفهام ثم نزل إلى مرتبة تقبل التفهيم و التفقه رعاية لحال الأفهام العادية كما يشير إليه أيضا قوله : « و الكتاب المبين إننا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون و إنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » الزخرف : ٤ .

و أمّا آيتنا التي نحن فيها : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت » الخ فقد علق فيها الأحكام و التفصيل معا على الآيات ، وليس ذلك إلا من جهة معانيها فتفيد أن الأحكام و التفصيل هما في معاني هذه الآيات المتكثرة فلها جهة وحدة و بساطة وجهة كثرة و تركب ، و ينطبق على ما قد مناه من المعنى لا على ما ذكره الراجع إلى مسألة التأويل و التنزيل فافهم ذلك .

و كقول بعضهم : إن المراد بالأحكام و التفصيل إجمال بعض الآيات و تبين البعض الآخر ، و قد مثل لذلك بقوله تعالى في هذه السورة : « مثل الفريقين كالأعمى و الأصم و البصير و السميع » الآية : ٢٤ فانه مجمل محكم يتبين بما ورد فيها من قصة نوح و هود و صالح . و هكذا .

و فيه : أن ظاهر الآية أن الأحكام و التفصيل متحدان من حيث المورد بمعنى أن الآيات التي ورد عليها الأحكام بعينها هي التي ورد عليها التفصيل لأن الأحكام وصف لبعض آياته و التفصيل وصف بعضها الآخر كما هو لازم ما ذكره . و قوله تعالى : « من لدن حكيم خبير » الحكيم من أسمائه الحسنى الفعلية يدل على إتقان الصنع ، و كذا الخبير من أسمائه الحسنى يدل على علمه بجزئيات أحوال الأمور الكائنة و مصالحها ، و إسناد أحكام الآيات و تفصيلها إلى كونه تعالى حكيما خبيرا لما بينهما من النسبة .

**قوله تعالى :** « أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير و بشير و أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » الآية و ما بعدها تفسير لمضمون الآية الأولى : « كتاب أحكمت

آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» وإذ كانت الآية تتضمن أنه كتاب من الله إلى ... له آيات محكمة ثم مفصلة كانت العناية في تفسيرها متوجهة إلى إيضاح هذه الجهات .

ومن المعلوم أن هذا الكتاب الذي أنزل الله تعالى من عنده إلى رسوله ليتلوه على الناس ويبلغهم له وجه خطاب إلى الرسول ﷺ وجه خطاب إلى الناس بوساطته أما وجه خطابه إلى الرسول ﷺ وهو الذي يتلقاه الرسول من وحي الله فهو أن أنذر وبشروادع الناس إلى كذا وكذا ، وهذا الوجه هو الذي عني به في أول سورة يونس حيث قال تعالى : « أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » يونس : ٢ .

وأما وجه خطابه إلى الناس وهو الذي يتلقاه الناس من الرسول ﷺ فهو ما يلقيه إلى الناس من المعنى في ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرسالة أنني أدعوكم إلى الله دعوة نذير وبشير ، وهذا الوجه من الخطاب هو الذي عني به في قوله : « أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير » الخ .

فالآية من كلام الله تفسر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوة الرسول إليهم بتلاوة كتاب الله عليهم ، وليس كلاما للرسول بطريق الحكاية ولا بتقدير القول ولا من الالتفات في شيء ، ولأن التقدير : أمركم بأن لاتعبدوا أو : « فصلت آياته لأن لاتعبدوا إلا الله » بأن يكون قوله : « لاتعبدوا » نهيًا لأنها فإن قوله بعد : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » معطوف على قوله : أن لاتعبدوا إلا الله وهو يشهد بأن « لاتعبدوا » نهي لانقي . على أن التقدير لا يصار إليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعة البلاغة في الآية .

وعلى هذا فقوله : « أن لاتعبدوا إلا الله » دعوة إلى توحيد العبادة بالنهي عن عبادة غير الله من الآلهة المستخذة شركاء لله ، وقصر العبادة فيه تعالى ، وقوله : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » أمر بطلب المغفرة من الله وقداستخذوه رباً لهم برفض عبادة غيره ثم أمر بالتوبة والرجوع إليه بالأعمال الصالحة ، ويتحصل من الجميع

سلوك الطريق الطبيعي الموصل إلى القرب و الزلفى منه تعالى ، وهو رفض الآلهة دون الله ثم طلب المغفرة والطهارة النفسانية للحضور في حظيرة القرب ثم الرجوع إليه تعالى بالأعمال الصالحة .

و قد جئىء بأن التفسيرية ثانيا في قوله : « وأن استغفروا » الخ لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير إليهما قوله : « أن لاتعبدوا إلا الله » وهي مرحلة التوحيد بالعبادة خلاصا ، وقوله : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » وهي مرحلة العمل الصالح و إن كانت الثانية من نتائج الأولى وفروعها .

و لكون التوحيد هو الأصل الأساسي والاستغفار والتوبة نتيجة وفروعاً منفرداً عليه أورد النذر و البشارة بعد ذكر التوحيد ، والوعد الجميل الذي يتضمنه قوله : « يمتّعكم » الخ بعد ذكر الاستغفار و التوبة فقال : « أن لاتعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير » فيبين به أن النذر و البشري كائنين ما كانا يرجعان إلى التوحيد و يتعلّقان به ثم قال : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتّعكم متاعاً حسناً » الخ فإن الآثار القيّمة و النتائج الحسنة المطلوبة إنما تترتب على الشيء بعد ما تمّ في نفسه و كمل بصفاته وفروعه ونتائجه ، والتوحيد وإن كان هو الأصل الوحيد للذين على سعته لكن شجرته لاتثمر ما لم تقم على ساقها و يتفرّع عليها فروعها و أغصانها ، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها .

و الظاهر أن المراد بالتوبة في الآية الايمان كما في قوله تعالى : « فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك » المؤمن : ٧ . فيستقيم الجمع بين الاستغفار و التوبة مع عطف التوبة عليه بـ ثم ، والمعنى : اتركوا عبادة الأصنام بعد هذا واطلبوا من ربكم غفران ما قدّمتم من المعصية ثم آمنوا بربكم .

وقيل : إن المعنى اطلبوا المغفرة واجعلوها غرضكم ثم توصّلوا إليه بالتوبة وهو غير جيّد ومن التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى : استغفروا من ذنوبكم الماضية ثم توبوا إليه كلّما أذنبتم في المستقبل وكذا قول آخر : إن « ثم » في الآية بمعنى

الواو لأنَّ التوبة والاستغفار واحد .

و قوله : « يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى » الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي إليه الحياة لا تنخطأه البتة فالمراد هو التمتع في الحياة الدنيا بل بالحياة الدنيا لأنَّ الله سبحانه سمّاها في مواضع من كلامه متاعاً فالمتاع الحسن إلى أجل مسمى ليس إلاّ الحياة الدنيا الحسنة .

فيؤول معنى قوله : « يمتّعكم متاعاً حسناً » على تقدير كون « متاعاً » مفعولاً مطلقاً إلى نحو من قولنا : يمتّعكم تمتعاً حسناً بالحياة الحسنة الدنيوية ، ومتاع الحياة إنّما يكون حسناً إذا ساق الإنسان إلى سعادته الممكنة له ، وهداه إلى أمانيّ الإنسانية من التمتع بنعم الدنيا في سعة وأمن ورفاهية وعزّة وشرافه هذه الحياة الحسنة تقابل المعيشة الضنك التي يشير إليها في قوله : « ومن أعرض عن ذكرى فإنَّ له معيشة ضنكاً » طه : ١٢٤ .

ولا حسن لمتاع الحياة الدنيا ولا سعة في المعيشة لمن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه فإنَّ البعض من الناس وإن أمكن أن يؤتى سعة من المال وعلوّ في الأرض ثمَّ يحسب أن لا أمنيّة من أمانيّ الإنسانية إلاّ وقد أوتيتها لكنّه في غفلة عن ابتهاج من تحقّق بحقيقة الإيمان بالله ودخل في ولاية الله فآتاه الله الحياة الطيبة الإنسانية ، وآمنه من ذلّة الحياة الحيوانيّة التي لا حكومة فيها إلاّ للحرص والشره والافتراس والتكلّب والجهالة فالنفس الحرّة الإنسانية تذمّ من الحياة ما يستأثره النفوس الرذيلة الخسيسة وإن استتبع الذلّة والمسكنة وكلّ شناعة .

فالحياة الحسنة لمجتمع صالح حرّ أن يشتركوها في التمتع من مزايا النعم الأرضيّة التي خلقها الله لهم اشتراكاً عن تراحم بينهم وتعاون وتعاضد من غير تعدّد وتزاحم بحيث يطلب كلّ خير نفسه ونفعها في خير مجتمعه ونفعه من غير أن يعبد نفسه ويستعبد الآخرين .

و بالجملة التمتع بالحياة الحسنة إلى أجل مسمى هو تمتّع الفرد بالحياة على ما تستحسنه الفطرة الإنسانية وهو الاعتدال في التمتع بالماديّة في ضوء العلم

النافع و العمل الصالح هذا إذا نسب إلى الفرد و أمّا إذا نسب إلى المجتمع فهو الانتفاع العامّ من نعم الحياة الأرضيّة الطيّبة بتخصيص ما يناله الأفراد بكدهم وسعيهم بالمجتمع الملمئم الأجزاء من غير تضادّ بين أبعاضه أو تناقض .

و قوله : « و يؤت كلّ ذي فضل فضله » الفضل هو الزيادة و إذ نسب الفضل في قوله : « كلّ ذي فضل » إلى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينة على كون الضمير في « فضله » راجعاً إلى ذي الفضل دون اسم الجلالة كما احتمله بعضهم و الفضل و الزيادة من المعاني النسبيّة التي إنّما تتحقّق بقياس شيء إلى شيء و إضافته عليه .

فالمعنى : و يعطي كلّ من زاد على غيره بشيء من صفاته وأعماله و ما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر وخصوص موهبة السعادة تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه أو يغصب فضله أو يملكه غيره كما يشاهد في المجتمعات غير الدينيّة و إن كانت مدنيّة راقية فلم تزل البشريّة منذ سكنت الأرض و كوّنّت أنواع المجتمعات الهمجيّة أو الراقية أو ماهي أرقى تنقسم إلى طائفتين مستعلية مستكبرة قاهرة ، و مستدلّة مستعبدة مقهورة ، و ليس يعدّل هذا الإفراط و التفريط ولا يسوّي هذا الاختلاف إلاّ دين التوحيد .

فدين التوحيد هو السنّة الوحيدة التي يقصر المولويّة والسيادة في الله سبحانه و يسوّي بين القويّ و الضعيف و المتقدّم و المتأخّر و الكبير و الصغير و الأبيض و الأسود و الرجل و المرأة و ينادي بمثل قوله تعالى : « يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٣ ، و قوله : « أنبي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » آل عمران : ١٩٥ .

ثمّ إنّ وقوع قوله : « و يؤت كلّ ذي فضل فضله » الحاكية عن الاعتناء بفضل كلّ ذي فضل بعد قوله : « يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى » الدالّة على تمتيع الجميع مشعر :

أو لا بأن المراد بالجملة الأولى المتاع العام المشترك بين أفراد المجتمع و  
بعبارة أخرى حياة المجتمع العامة الحسنة ، و بالجملة الثانية المزايا التي يؤتاها  
بعض الأفراد قبال ما يختصون به من الفضل .

و ثانياً : أن الجملة الأولى تشير إلى التمتع بمتاع الحياة الدنيا و الثانية  
إلى إيتاء ثواب الآخرة قبال الأعمال الصالحة القائمة بالفرد أو إيتاء كل ذي فضل  
فضله في الدنيا و الآخرة معا بتخصيص كل من جاء بزيادة في جهة دنيوية بما  
تقتضيه زيادته من المزية في جهات الحياة باقامة كل ذي فضيلة في صفة أو عمل مقامه  
الذي تقتضيه صفته أو عمله و وضعه موضعه من غير أن يسوَّى بين الفاضل والمفضول  
في دينهما أو تزاح الخصوصيات و تبطل الدرجات و المنازل بين الأعمال و المساعي  
الاجتماعية فلا يتفاوت حال الناشط في عمله و الكسلان ، ولا يختلف أمر المجتهد في  
العمل الدقيق المهم في بابهِ و اللاعب بالعمل الحقير الهين و هكذا .

و قوله : « فإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ » أي فإِنْ تَوَلَّوْا  
الخ بالخطاب ، و الدليل عليه قوله : « عَلَيْكُمْ » و ما تقدّم في الآيتين من الخطابات  
المتعددة فلا يصغى إلى قول من يأخذ قوله : « تَوَلَّوْا » جمعا مذكراً غائباً من الفعل  
الماضي فَإِنَّهُ ظَاهِرُ الْفَسَادِ .

و قد أغرب بعض المفسرين حيث قال في قوله تعالى : « يَمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا  
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » : والآية تتضمن نجاة هذه الأمة المحمدية من عذاب الاستئصال  
كما بيّنناه في تفسير سورة يونس ايضاً انتهى ولست أدري كيف استفاد من الآية ما  
ذكره و لعلّه بنى ذلك على أن الآية اشترطت للأمة الحياة الحسنة من غير استئصال  
إن آمنوا بالله و آياته ثم إنهم آمنوا و انتشر الإسلام في الدنيا ، لكن من المعلوم  
أن الرسول ﷺ مرسل إلى أهل الدنيا عامة ولم يؤمن به عامتهم ، ولأن المؤمنين  
به أخلصوا جميعاً إيمانهم من النفاق و سرى الإيمان من ظاهرهم إلى باطنهم و من  
لسانهم إلى جنانهم .

ولو كان مجرد إيمان بعض الأمة مع كفر الآخرين كافياً في تحقق الشرط

و ارتقاع عذاب الاستئصال لكفى في أمة نوح و هود عليهما السلام و غيرهما و قد دعواهم إلى مادعا إليه محمد صلوات الله عليه وآله ، و اشترطوا لهم مثل ما اشترط لأئمة ثم عمهم الله بعذاب الاستئصال و كان حقاً عليه نصر المؤمنين .

وقد حكى الله سبحانه عن نوح قوله لقومه في ضمن دعوته : « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً » نوح : ١٢ و حكى عن هود قوله : « يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً و يزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » هود : ٥٦ ، و حكى جملة عن نوح و هود و صالح و الذين من بعدهم قولهم : « أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى » إبراهيم : ١٠ .

و أمّا قوله : « وقد بيناه في سورة يونس أيضاً » فلم يأت هناك إلا بدعوى خالية و قد قدّمنا هناك أن آيات سورة يونس صريحة في أن الله سيقضي بين هذه الأمة و بين نبيّها صلوات الله عليه وآله فيعذب بهم و ينجي المؤمنين سنة الله التي قد خلت في عباده و لن تجد لسنة الله تبديلاً .

**قوله تعالى :** « إلى الله مرجعكم و هو على كل شيء قدير » في مقام التعليل لما يفيدته قوله : « فإن تولّوا فإنني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » من المعاد ، و ذيل الآية مسوق لراحة ما يمكن أن يختلج في صدورهم من استبعاد البعث بعد عروض الموت ، و المعنى و إن تولّوا عن إخلاص العبادة له و رفض الشركاء فإنني أخاف عليكم عذاب يوم كبير سيستقبلكم فتواجهونه و هو يوم البعث بعد الموت لأن مرجعكم إلى الله و الله على كل شيء قدير فلا يعجز عن إحيائكم بعد الامتة فإنّيا كم أن تستبعدوا ذلك .

فالآية قرينة على أن المراد باليوم الكبير يوم القيامة ، و روى القمي في تفسيره مضمراً أن المراد بعذاب يوم كبير : الدخان و الصيحة .



أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ الْأَحْيِينَ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ  
 مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي  
 الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)  
 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ  
 لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ  
 مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ الْيَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا  
 كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ أَرْحَمَةِ رَبِّهِ لَأَكْفُرْنَ إِنَّهُ  
 لَيُفْسِدُ كُفُورُهُ (٩) وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضُرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ  
 عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ  
 لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَاجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَمَّا تَرَكْتُ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَاقُ  
 بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ  
 اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ  
 مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ  
 يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ  
 مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نُوْفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ  
 فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ  
 وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦).



### ﴿بيان﴾

جمل و فصول من أعمال المشرّكين و أقوالهم في الردّ على نبوّة النبي ﷺ  
ما نزل عليه من الكتاب تذكرها الآيات و تجيب عنها بإلقاء الحجّة كاستخفائهم  
من الله ، و قولهم : ما يحبس العذاب عنا ، و قولهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه  
ملك ، و قولهم : إنّه افترى القرآن . و فيها بعض معارف آخر .

**قوله تعالى :** « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه » إلى آخر الآية .  
ثنى الشيء يثناه ثنيا كفتح يفتح فتحا أي عطفه و طواه و ردّ بعضه على بعض قال في  
المجمع : أصل الثني العطف تقول : ثنيته عن كذا أي عطفته ، و منه الاثنان لعطف  
أحدهما على الآخر في المعنى ، و منه الثناء لعطف المناقب في المدح ، و منه الاستثناء  
لأنّه عطف عليه بالإخراج منه . انتهى ، و قال أيضا : الاستخفاء طلب خفاء الشيء ،  
يقال : استخفى و تخفّى بمعنى ، و كذلك استغشى و تغشّى . انتهى .

فالمراد بقوله : « يثنون صدورهم ليستخفوا منه » أنّهم يميلون بصدورهم إلى  
خلف و يطأطئون رؤوسهم ليتخفّوا من الكتاب أي من استماعه حين تلاوته و هو  
كناية عن استخفائهم من النبي ﷺ و من حضر عنده حين تلاوة القرآن عليهم  
للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجّة .

و قوله : « ألحين يستغشون ثيابهم يعلم » الخ كأنّهم كانوا يسترون رؤوسهم  
أيضا بثيابهم عند استخفائهم بثني الصدور فذكر الله سبحانه ذلك و أخبر أنّّه تعالى  
يعلم عند ذلك ما يسرون و ما يعلنون فما يغنيهم التخفّي عن استماع القرآن والله  
يعلم سرّهم و علانيّتهم .

و قيل : إنّ المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء في بيوتهم ليلا عند أخذ  
المضاجع للنوم ، وهو أخفى ما يكون فيه الإنسان وأخلى أحواله ، والمعنى : أنّهم  
يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم ، و الله يعلم سرّهم و

علايتهم في أخفى ما يكونون عليه من الحال و هو حال تغشيتهم بثيابهم للنوم ، ولا يخلو الوجه من ظهور .

هذا ما يفيد السباق في معنى الآية ، وربما ذكر لها معان أخر بعيدة من السباق منها قولهم : إنّ الضمير في « ليستخفوا منه » راجع إليه تعالى أو إلى النبي ﷺ ، ومنها قول بعضهم : « يثنون صدورهم » أي يطوونها على الكفر ، وقول آخرين : أي يطوونها على عداوة النبي ﷺ إلى غير ذلك من المعاني المذكورة وهي جميعا معان بعيدة .

**قوله تعالى :** « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » إلى آخر الآية الدابة على ما في كتب اللغة كل ما يدب ويتحرك ، ويكثر استعماله في النوع الخاص منه ، و قرينة المقام تقتضي كون المراد منه العموم لظهور أنّ الكلام مسوق لبيان سعة علمه تعالى ، ولذلك عقب به قوله : « ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون و ما يعلنون إنّّه عليهم بذات الصدور » .

و هذا المعنى أعني كون ذكر وجوب رزق كل دابة على الله لبيان سعة علمه لكل دابة في جميع أحوالها يستوجب أن يكون قوله : « ويعلم مستقرّها ومستودعها » بمنزلة عطف التفسير لقوله : « على الله رزقها » فيعود المعنى إلى أنّ كل دابة من دواب الأرض على الله أن يرزقها - ولن تبقى بغير رزق - فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت في مستقر لا تخرج منه كالحيات في الماء كالصدف فيما وقعت و استقرت فيه من الأرض رزقها هناك و إن كانت خارجة من مستقرّها وهي في مستودع ستر كه إلى مستقرّها كالطير في الهواء أو كالمسافر الغارب عن وطنه أو كالجنين في الرحم رزقها هناك و بالجملة هو تعالى عالم بحال كل دابة في الأرض و كيف لا و عليه تعالى رزقها ولا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق و خبرة منه بما حل فيه من محل دائم أو معجل و مستقر أو مستودع .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بالمستقر والمستودع المحل الذي تستقر فيه الدابة ما دامت دابة تدب في الأرض و تعيش عيشة دنيوية والمحل الذي تحل فيه ثم

تودعه وتفارقه ، وأماما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالمستقر والمستودع أما كنها في الحياة و بعد الاممات أو أن المراد بهما الأصلاح والأرحام أو أن المراد بهما مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل و مودعها من المواد والمقارحين كانت بعد بالقوة فمعان بعيدة عن سياق الآية اللهم إلا أن يجعل قوله : « و يعلم مستقرها و مستودعها » كلاما مستأنفا بحياله غير مفسر لما قبله .

و قد تقدّم في قوله تعالى : « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر و مستودع » الأنعام ٩٨ ما يناسب هذا المقام فليراجع إليه من شاء .

و أمّا قوله : « على الله رزقها » فهو دالّ على وجوب الرزق عليه تعالى و قد تكرر في القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصة به وأنه حقّ للخلق عليه تعالى قال تعالى : « آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه » الملك : ٢١ ، وقال تعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » الذاريات : ٥٨ و قال تعالى : « وفي السماء رزقكم و ما توعدون فو ربّ السماء إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ .

ولاضرير في أن يثبت عليه تعالى حقّ لغيره إذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره ، ولذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال : « كتب على نفسه الرحمة » الأنعام : ١٢ ، وقال : « و كان حقّا علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ إلى غير ذلك من الآيات .

والاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإنّ الرزق هو ما يديم به المخلوق الحي وجوده و إذ كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقّف عليه من الرزق من قبله ، و إذ لا شريك له تعالى في إيجاداه لا شريك له في ما يتوقّف عليه وجوده كالرزق .

و قد تقدّم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين في سورة الأنعام آية : ٥٩ وفي سورة يونس آية : ٦١ فليراجع .

**قوله تعالى :** « وهو الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيّام و كان عرشه على الماء » الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات والأرض على ما يظهر

من كلامه تعالى و يفسره ماورد في ذلك عن أهل العصمة عليهم السلام مو كول إلى ماسياتي من تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى .

و إجمال القول الذي يظهر به معنى قوله : « ستّة أيّام » و قوله : « و كان عرشه على الماء » هو أنّ الظاهر أنّ ما يذكره تعالى من السماوات - بلفظ الجمع - و يقارنها بالأرض و يصف خلقها في ستّة أيّام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا فكلّ ما علاك و أظلك فهو سماء على ما قيل و العلو و السفل من المعاني الإضافيّة .

فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا و تحيط بها فإن الأرض كرويّة الشكل على ما يفيدّه قوله تعالى : « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا » الأعراف ٥٤ .

و السماء الأولى هي التي تزيّنه مصابيح النجوم و الكواكب فهي الطبقة التي تتضمّن منها أوهي فوقها و تميزّين بها كالسقف يميزّين بالقناديل و المشاكي و أمّا ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى : « سبع سماوات طباقا » الملك: ٣ ، و قوله : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا و جعل القمر فيهنّ نورا و جعل الشمس سراجا » نوح : ١٦ حيث يدلّ على مطابقة بعضها بعضا .

و قد ذكر الله سبحانه في صفة خلقها أنّها كانت رتقا ففتقها و متفرّقة متلاشية فجمعها و ركمها و أنّها كانت دخانا فصيّرها سماوات قال تعالى : « أولم ير الذين كفروا أنّ السماوات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما و جعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون » الأنبياء: ٣٠ و قال : « ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهنّ سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها » حم السجدة ١٢ فأفاد أنّ خلق السماوات إنّما تمّ في يومين ، و اليوم مقدار معتدّ به من الزمان وليس من الواجب أن يطابق اليوم في كلّ ظرف ووعاء يوم أرضنا الحاصل من دورة واحدة من حرّكتها الوضعيّة كما أنّ اليوم الواحد

في القمر الذي لهذه الأرض يعدل تسعة وعشرين يوماً ونصفاً تقريباً من أيام الأرض  
و استعمال اليوم في البرهة من الزمان شائع في الكلام .

فقد خلق الله سبحانه السماوات السبع في برهتين من الزمان كما قال في  
الأرض : « خلق الأرض في يومين - إلى أن قال - وقدّر فيها أقواتها في أربعة  
أيام » حم السجدة : ١٠ . فأنبأ عن خلقها في يومين وهما عهدان و طوران و جعل  
الأقوات في أربعة أيام وهي الفصول الأربعة .

فالمتحصّل من الآيات أوّلاً : أن خلق السماوات و الأرض على ما هي عليه  
اليوم من الصفة و الشكل لم يكن عن عدم بحث بل هي مسبوقة الوجود بمادّة  
متشابهة مركومة مجتمعة ففصل بعض أجزائها عن بعض فجعلت أرضاً في برهتين من  
الزمان و قد كانت السماء دخاناً ففصلت وقضيت سبع سماوات في برهتين من الزمان .  
و ثانياً : أن ما نراه من الأشياء الحيّة إنّما جعلت من الماء فمادّة الماء هي  
مادّة الحياة .

وبما قدّمنا يظهر معنى الآية التي نحن فيها فقوله : « هو الذي خلق السماوات  
والأرض في ستة أيام » المراد بخلقها جمع أجزائها وفصلها وفتحها من سائر ما يختلط  
بها من المادّة المتشابهة المركومة ، وقد تمّ أصل الخلق و الرتق في السماوات في  
يومين وفي الأرض أيضاً في يومين ويبقى من الستة الأيام يومان لغير ذلك .

وأما قوله : « وكان عرشه على الماء » فهو حال و المعنى وكان عرشه يوم خلقهنّ  
على الماء و كون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقراً  
يومئذ على هذا الماء الذي هو مادّة الحياة فعرش الملك مظهر ملكه ، واستقراره على  
محلّ هو استقرار ملكه عليه كما أن استواءه على العرش احتواؤه على الملك و  
أخذه في تدبيره .

وقول بعضهم : إنّ المراد بالعرش البناء أخذاً من قوله تعالى : « ممّا يعرشون »  
النحل : ٦٨ أي يبنون كلام بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً » اللام للغاية والبلاء الامتحان و

الاختبار ، وقوله : « أَيْتَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا » بيان للاختبار و الامتحان في صورة الاستفهام و المراد أَنَّهُ تعالى خلق السماوات و الأرض على ما خلق لغاية امتحانكم و تمييز المحسنين منكم من المسيئين .

و من المعلوم أَنَّ البلاء و الامتحان أمر مقصود لغيره و هو تمييز الجيِّد من الرديِّ و الحسن من السيِّئ ، و كذلك الحسنه و السيِّئه إِنَّمَا يراد تمييزهما لأجل ما يترتب عليهما من الجزاء ، و كذلك الجزاء إِنَّمَا يراد لأجل ما فيه من إنجاز الوعد الحقِّ و لذلك نجده تعالى يذكر كلَّ واحد من هذه الأمور المترتبة غاية للخلقة فقال في كون الابتلاء غاية للخلقة : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » الكهف : ٧ ، و قال في معنى التمييز و التمهيص : « لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » الأنفال : ٣٧ ، و قال في خصوص الجزاء : « وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الباقية : ٢٢ و قال في كون الاعادة لا إنجاز الوعد : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعْبُدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » الأنبياء : ١٠٤ إلى غير ذلك من الآيات ، و قال في كون العبادة غرضاً في خلق الثقلين : « وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » الذاريات : ٥٦ .

وعدَّ العمل الصالح أو الأفعال المحسنة غاية للخلقة لاينا في اشتغال الخلقة على غايات أخرى بعدما كان الإنسان أحد تلك الغايات حقيقة لأنَّ الوحدة و الاتصال الحاكم على العالم يصحَّح كون كلِّ واحد من أنواع الموجودات غاية للخلقة بما أَنَّهُ محصول الارتباط و نتيجة الإزدواج العامِّ بين أجزائه فمن الجائز أن يخاطب كلُّ نوع من أنواع الخليقة أَنَّهُ المطلوب المقصود من خلق السماوات و الأرض بما أَنَّهُا تؤدِّي إليه .

على أَنَّ الإنسان أكمل و أتقن المخلوقات الجسمانية من السماوات والأرض و ما فيهما صنْعاً و لئِنْ نَمِيَ في جانب العلم و العمل نماءً حسناً كان أفضل ذاتاً ممَّا سواه و أرفع مقاماً و أعلى درجة من غيره و إنَّ كان بعض الخليقة كالسماء أشدَّ منه خلقاً كما ذكره الله تعالى و من المعلوم أَنَّ كمال الصنع هو المقصود منه إذا اشتمل على ناقص

وإذا كنّا نعدّ مراحل وجود الإنسان المختلفة من المنويّة والجينيّة و الطفوليّة وغيرها مقدّمة لوجود الإنسان السويّ الكامل وهكذا .

وبهذا البيان يظهر أنّ أفضل أفراد الإنسان - إن كان فيهم من هو أفضل مطلقاً - غاية لخلق السماوات والأرض ، و لفظ الآية أيضاً لا يخلو عن إشارة أو دلالة على ذلك فإنّ قوله : « أيّكم أحسن عملاً » يفيد أنّ القصد إلى تمييز من هو أحسن عملاً من غيره سواء كان ذلك الغير محسناً أو مسيئاً فمن كان عمله أحسن من سائر الأفراد سواء كانوا محسنين وأعمالهم دون عمله أو مسيئين كان تمييزه منهم هو الغرض المقصود من الخلقة ، وبذلك يستصحّ ماورد في الحديث القدسيّ من خطابه تعالى لمُنبّيه ﷺ : «لولاك لما خلقت الأفلاك» فإنّه ﷺ أفضل الخلق .

وفي المجمع : قال الجبائيّ : وفي الآية دلالة على أنّه كان قبل خلق السماوات والأرض الملائكة لأنّ خلق العرش على الماء لوجه لحسنه إلّا أن يكون فيه لطف مكلف يمكنه الاستدلال به فلا بدّ حينئذ من حيّ مكلف ، وقال عليّ بن عيسى : لا يمتنع أن يكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين فلا يجب ما قاله الجبائيّ و هو الذي اختاره المرتضى قدس الله روحه . انتهى .

**اقول :** وما ذكرناه مبنيّ على ماذهب إليه المعتزلة : أنّ أفعال الله سبحانه معلّلة بالأغراض وتابعة للمصالح وجهات الحسن ولو كان ذلك بأن يخلق خلقاً ليخبر بذلك المكلفين فيعتبروا به ويؤمنوا له فيتمّ بذلك مصلحة من مصالحهم ، وقد تقدّم في أبحاثنا السابقة أنّ الله سبحانه لا يحكم عليه ولا يؤثر فيه غيره سواء كان ذلك الغير مصلحة أو أيّ شيء آخر مفروض وأنّ غيره أيّ شيء فرض مخلوق له مدبر بأمره إن كان أمراً ذا واقعيّة ووجود إن الحكم إلّا لله والله خالق كلّ شيء .

فجهات الحسن و المصلحة و هي التي تحكم علينا و تبعثنا نحو أفعالنا أمور خارجة عن أفعالنا مؤثّرة فينا من جهة كوننا فاعلين نروم بها إلى سعادة الحياة ، و أمّا هو سبحانه فإنّه أجلّ من ذلك . وذلك أنّ جهات الحسن و المصلحة هذه إنّما هي قوانين عامّة مأخوذة من نظام الكون و الروابط الدائرة بين أجزاء الخلقة ، ومن

الضروريّ أنّ الكون وما فيه من النظام الجاري فعله سبحانه ، ومن الممتنع جدّاً أن يتقدّم المفهوم المنتزع على ما انتزع منه من الفعل ثمّ يتخطّاه ولا يقنع حتّى يتقدّم على فاعله الموجود له .

وأما ما في الآية من تعليل خلق السماوات والأرض بقوله : « ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً » ونظائره الكثيرة في القرآن فإنّما هو وأمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة والمصالح المتفرّعة وقد أخبر تعالى أنّ فعله لا يخلو من الحسن إذ قال : « الذي أحسن كلّ شيء خلقه » الم السجدة : ٧ فهو سبحانه هو الخير لا شرّ فيه وهو الحسن لا قبح عنده وما كان كذلك لم يصدر عنه شرٌّ ولا قبيح البتّة .

وليس مقتضى ما تقدّم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى أو الذي أمر به وإن استقبحه العقل ، ومعنى القبيح هو ما لا يصدر عنه أو الذي نهى عنه وإن استحسّنه العقل واستصوبه فإنّ ذلك يأباه أمثال قوله تعالى : « قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء » الأعراف : ٢٨ .

**قوله تعالى :** « ولئن قلت إنّكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إنّ هذا إلاّ سحر مبين » لمّا كان قوله : « ليبلوكم » الخ يشير إلى المعاد أشار إلى ما كان يواجه به الكفّار ذكره ﷺ للمعاد برميّه بأنّه سحر من القول .

فظاهر الآية أنّهم كما كانوا يسمّون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحة وبلاغة النظم سحراً ، كذلك كانوا يسمّون ما يخبر به القرآن أو النبيّ ﷺ من حقائق المعارف التي لا يصدّقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحراً ، وعلى هذا فهو من مبالغتهم في الافتراء على كتاب الله والتعنّيت والعناد مع الحقّ الصريح حيث تعدّوا عن رمي اللفظ لفصاحته وبلاغته بالسحر إلى رمي المعنى لصحّته واستقامته بالسحر .

ومن الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطة والتمويه بإظهار الباطل في صورة الحقّ على نحو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى في نظير المورد : « قل من بيده ملكوت كلّ شيء » وهو يجبر ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون



سيقولون لله قل فأنسى تسحرون « المؤمنون : ٨٩ .

**قوله تعالى :** «ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه» إلى آخر الآية . اللآم في صدر الآية للمقسم و لذلك أكد الجواب أعني قوله : « ليقولن » باللام والنون والمعنى : وأقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزئين : ما الذي يحبس هذا العذاب الموعود عنا ولما ذا لا ينزل علينا ولا يحل بنا .

وفي هذا إشارة أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبي ﷺ ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه و أن الله أخر ذلك تأخيراً رحمة لهم فاستهزؤا به وسخروا منه بقولهم : «ما يحبسه» ويؤيده قوله تعالى عقيب ذلك : « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » الخ .

و بهذا يتأكد أن السورة - سورة هود - نزلت بعد سورة يونس لمكان قوله تعالى فيها : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط » إلى آخر الآيات .

وقوله : « إلى أمة معدودة » الأمة الحين و الوقت كما في قوله تعالى : « وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة » يوسف : ٤٥ أي بعد حين ووقت .

وربما أمكن أن يراد بالأمة الجماعة فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئاً ويمكن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم قال : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » المائدة : ٥٩ ، وقال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم - إلى أن قال - يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » النور : ٥٥ . وهذا وجه لا بأس به .

وقيل : إن المراد بالأمة الجماعة و هم قوم يأتي الله بهم بعدهؤلاء فيصرون

على الكفر فيعذبهم بعذاب الاستئصال كما فعل بقوم نوح ، أوهم قوم يأتون بعد هؤلاء فيصرثون على معصية الله فتقوم عليهم القيامة .

و الوجهان سخيغان لبنائهما على كون المعدبين غير هؤلاء المستهزئين من الكفار وظاهر قوله تعالى : « ألا يوم يأتيتهم » الخ أن المعدبين هم المستهزؤون بقولهم : « ما يجيبسه » .

وقوله : « ألا يوم يأتيتهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون » بمنزلة الجواب عن قولهم : « ما يجيبسه » الواقع موقع الاستهزاء فإنه في معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب ، ومحصله أن هذا العذاب الذي يهددنا لو كان حقاً لم يكن لحبسه سبب فإن الكافرون غير عادلين عن الكفر ولا تاركين له فتأخّر نزول العذاب من غير موجب لتأخّره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب .

فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيتهم ولا يصرفه يومئذ عنهم صارف و يحيق بهم هذا العذاب الذي كانوا به يستهزؤون .

و بما تقدّم يظهر أن هذا العذاب الذي يهدّدون به عذاب دنيوي سيحقيق بهم و ينزل عليهم دون عذاب الآخرة ، وعلى هذا فهذه الآية والتي قبلها يذكر كل منهما شيئاً من ماتهوس به الكفار بجهالتهم فالآية السابقة تذكر أنهم إذا ذكر لهم البعث و أُنذروا بعذاب يوم القيامة قالوا : إن هذا إلاّ سحر مبين ، وهذه الآية تذكر أن الله إذا أخّر عنهم العذاب إلى أمة و أخبروا بذلك قالوا مستهزئين : ما يجيبسه .

**قوله تعالى :** « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور » قال في المجمع : الذوق تناول الشيء بالفم لا إدراك الطعم ، وسمى الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقة لسرعة زوالها تشبيهاً بما يذاق ثم يزول كما قيل : أحلام نوم أو كظل زائل و النزاع قلع الشيء عن مكانه ، و اليؤس فعول من يؤس - صيغة مبالغة - واليأس القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون و نقيضه الرجاء . انتهى .

و قد وضعت الرحمة في الآية مكان النعمة للإشعار بأنّ النعم التي يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمة وهي رفع حاجة الإنسان فيما يحتاج إليه من غير استحقاق وإيجاب والمعنى : إنّنا إن آتيناه الإنسان شيئاً من النعم التي يتنعم بها ثم نزعناها يؤس منها واشتدّ يأسه حتّى كأنّه لا يرى عودها إليه ثانياً ممكناً وكفر بنعمتنا كأنّه يرى تلك النعمة من حقّه الثابت علينا ويرانا غير مالكين لها فلا إنسان مطبوع على اليأس عمّا أخذ منه والكفران ، وقد أخذ في الآية لفظ الإنسان - وهو لفظ دالّ على نوعه - للدلالة على أنّ الذي يذكر من صفته من طبع نوعه .

**قوله تعالى :** « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السيئات عنيّ إنّّه لفرح فخور » قال في المجمع: النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة يظهر الحال بها لأنّهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهرة مثل حمراء وعيناء مع ما فيهما من المبالغة ، والفرح والسرور من النظائر وهو انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغم - إلى أن قال : - والفخور الذي يكثر فخره وهو التناول بتعدد المناقب وهي صفة ذمّ إذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه . انتهى .

و المراد بالسيئات بقرينة المقام المصائب والبلايا التي يسوء الإنسان نزولها عليه ، والمعنى : ولئن أصبناه بالنعمة بعد الضراء ليقولنّ ذهب الشدائد عنيّ ، وهو كناية عن الاعتقاد بأنّ هاتيك الشدائد والنوازل لا تعود بعد زوالها ولا تنزل بعد ارتفاعها ثانياً .

وقوله : « إنّّه لفرح فخور » بمنزلة التعليل لقوله : « ذهب السيئات عنيّ » فإنّه يفرح ولا يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضراء ، ولو كان يرى أنّ ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقاءه ولا اعتماد على دوامه ، وأنّ الأمر ليس إليه بل إلى غيره ومن الجائز أن يعود إليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحاً بذلك فإنّه لا فرح في أمر مستعار غير ذي قرار .

و إنّّه ليفخر بما أوتي من النعماء على غيره ، ولا فخر إلا بكرامة أو منقبة

يملكها إلا إنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمراً بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه و ينزعه منه و يعيد إليه ما ذهب عنه من السيئات و لذلك يفخر ويكثر من الفخر .

**قوله تعالى :** « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » ذكر سبحانه ما إلا إنسان مطبوع عليه عند الشدة والبلاء من اليأس والكفر و عند الرخاء و النعماء من الفرح و الفخر ، و مغزى الكلام أنه مخلوق قليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده في حاله الحاضرة ، و يذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمه لم يراها عودة و أنها كانت من عند الله سبحانه ، وله تعالى أن يعيدها إليه إن شاء حتى يصبر على بلائه و يتعلق قلبه به بالرجاء و المسألة ، و إن عادت إليه نعمة بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح و فخر ولم ير الله تعالى صنعا في ذلك حتى يشكره عليها و يكف عن الفرح و عن التناول على غيره بالفخر .

استثنى سبحانه طائفة من إلا إنسان و وصفهم بقوله : « الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ » ثم وعدهم وعداً حسناً بقوله : « أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » وذلك أن التخلّص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند الضرأ فلا يحملهم الجزع على اليأس و الكفر ، و يعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضرأ وأعقب بالنعماء و صرف نعمة في ما يرضيه و يريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح و الفخر .

و هؤلاء هم المتخلّصون الناجون يغفر لهم ربهم بأحسان آثار ذلك الطبع المذموم و وضع الخصال المحمودّة موضعه و لهم عند ربهم مغفرة و أجر كبير .  
و في الآية دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة و أجراً كبيراً ، و المغفرة لا تنال المشرّكين قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » النساء : ١١٦ .

و قد ورد الوعد بعين ما ذكر في هذه الآية أعني المغفرة و الأجر الكبير للمؤمنين في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ »

فاطر : ٧ ، و قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » الملك : ١٢ .

واتصال الآيات الثلاث بما قبلها ظاهر فإن الكلام كان في الآيات السابقة مسوقاً في كفر الكافرين ورميهم الوعد بالبعث بالسحر و مقابلتهم الإيعاد بنزول العذاب بالاستهزاء ، فذكر سبحانه أنهم على حالهم الطبيعي لا يرون لما عندهم من نعمة الله زوالاً بنزول العذاب ولا ملابهم من رث الحال تبدلاً إلى العيش الهنيئ، والمتاع الحسن الذي وعدهم الله به في صدر السورة .

**قوله تعالى :** « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك » إلى آخر الآية . لما كانت رسالة النبي ﷺ بما أُيِّدت به من القرآن الكريم والآيات البينات والحجج والبراهين مما لا يسع لذي عقل إنكارها ولا لإنسان صحيح المشاعر ردّها والكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين و إنكار المشركين أمراً مستبعداً بحسب الطبع ، وإذا كان وقوع أمر على صفة من الصفات مستبعداً أخذ الإنسان في تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلباً للمخرج من نسبة الوقوع إلى ما يستبعد الطبع .

ولما كان المقام في الآية الكريمة هذا المقام و كان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين و إنكار المشركين لما جاء به النبي ﷺ إليهم من الحق الصريح و ما أنزل إليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات والحجج مما لا ينبغي أن يدعن به لبعده طبعاً بين تعالى لذلك وجهها بعد وجه على سبيل الترجي فقال : « و لعلك تارك بعض ما يوحى إليك » الخ « أم يقولون افتراء » الخ .

فكأنه قيل : من المستبعد أن تهديهم إلى الحق الواضح و يسمعوا منك كلامي ثم لا يستجيبوا دعوتك و يكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك و غير داعيهم إليه و لذلك جبّهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله و لذلك لم يؤمنوا به . فإن كنت تترك

بعض الوحي خوفاً من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير وليس لك إلا ما شاء الله ، وإن يقولوا افتراء فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات الخ .  
ومما تقدم يظهر أن إيراد الكلام مورد الترجي والاحتمال لرعاية ما يقتضيه المقام من طبع الاستبعاد فالمقام مقام الاستبعاد ومقتضاه ذكر كل سبب محتمل التأثير في الحادثة المستبعدة ، اعتبر ذلك في ملك ينتمي إليه تمرّد بعض ضعفاء رعيته فيبعث بعض عماله إلى دعوتهم إلى السمع والطاعة ويكتب في ذلك كتابا يأمره أن يقرأه عليهم ويلومهم على تمرّدهم واستكبارهم على ما بهم من الضعف والذلة ولولاهم من القوة والسطوة والعزة ثم يبلغ الملك أنهم ردّوا على رسوله ما بلغهم من قبله ، ويكتب إليه كتابا ثانيا يأمره بقراءته عليهم وإذا فيه : لعلك لم تقرء كتابي عليهم مخافة أن يقترحوا عليك بما لا تقدر عليه أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلي وإنما افتريته عليّ افتراء فإن كان الأول فإنك رسول ليس عليك إلا البلاغ وإن كان الثاني فإن الكتاب بخطي كتبته بيدي وختمت عليه بخاتمي ولا يقدر أحد غيري أن يقلدني في ذلك .

والتأمل في هذا المثل يعطي أن المقام فيما يتضمّنه الكتاب الثاني من الخطاب مقام الاستبعاد وأن القصد من ذكر الاحتمالين ترك البلاغ وزعم الافتراء ليس هو توبيخ الرسول جدّا أو احتمال زعمهم الكذب والفرية جدّا ، وإنما ذكر الوجهان لداعي أن يكونا كالمقدمة لذكر ما يزول به الشبهتان وهو أن الرسول ليس له من الأمر شيء ، حتى يقترح عليه بما يقترح ، وأن الكتاب للملك ليس فيه ريب ولا شك .  
ومن هنا يظهر أن قوله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك » الخ ليس يفيد الترجي الجدّي ولا مسوقاً لتوبيخ النبي ﷺ ولا مراداً به تسليته وتطبيب نفسه إثر ما كان يناله من الحزن والأسى بكفرهم وجحودهم لما أتى به من الحقّ الصريح بل الكلام مسوق ليتوصّل به إلى ذكر قوله : « وإنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » .

فما ذكره بعض المفسرين أن الكلام مسرود لنهي النبي ﷺ عن الحزن

و ضيق الصدر بما كانوا يواجهونه به من الكفر والجحود ، و النهي نهى تسليمة و تطيب للنفس نظير ما في قوله : « ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » النحل : ١٢٧ ، و قوله : « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » الشعراء : ٤ كلام ليس في محله . و يظهر أيضاً أن قوله : « فلعلمك تارك » الخ و قوله : « أم يقولون افتراه » الخ كشيقي التردد و يتصلان معاً بما قبلهما من وجه واحد كما ذكرناه .

و قوله : « تارك بعض ما يوحي إليك » إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقة متضمنة لتبليغ الوحي في الجملة أي لعلك تركت بعض ما أوحينا إليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا يجبهوك بما جبهوك به من الرد و الجحود ، و ذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضاً و شطر منه يقرب شطراً منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتملة على الدعاوي ، و آيات الثواب و العقاب تقرب الحق من القبول بالتطمين و التخويف ، و آيات القصص و العبر تستميل النفوس و تليين القلوب .

و قوله : « و ضائق به صدرك أن يقولوا » الخ قال في المجمع : ضائق و ضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق ههنا أحسن لوجهين : أحدهما : أنه عارض و الآخر أنه أشكل بقوله تارك انتهى .

و الظاهر أن ضمير « به » راجع إلى قوله : « بعض ما يوحي » و إن ذكر بعضهم أن الضمير راجع إلى قولهم : « لولا أنزل عليه كنز » الخ أو إلى اقتراحهم وهذا أوفق بكون قوله : « أن يقولوا » الخ بدلاً من الضمير في « به » و ما ذكرناه أوفق بكونه مفعولاً له لقوله : « تارك » و التقدير : لعلك تارك ذلك مخافة أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أوجاء معه ملك .

و قوله : « إنما أنت منذر » جواب عن اقتراحهم بقولهم : لولا أنزل عليه كنز أوجاء معه ملك » و قد تكرر في مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر في بعضها على ذكر مجيئ الملك و زيد في بعضها عليه غيره كاقترح الإتيان

بالله سبحانه ليشهد على الرسالة و أن يكون له جنة يأكل منها و أن ينزل من السماء كتاباً يقرؤه ، وقد أجاب الله سبحانه عنها جميعاً بمثل ما أجاب به ههنا وهو أن رسول الله ليس له إلا الرسالة فليس بيده وهو بشر رسول أن يجيبهم إلى ما اقترحوا به عليه إلا أن يشاء الله في ذلك شيئاً ويأذن في إتيان آية كما قال : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله » المؤمن : ٧٨ .

ثم عقب قوله : « إنما أنت منذر » بقوله : « والله على كل شيء وكيل » لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي ﷺ بالمعجزات ومحصله : أن النبي ﷺ بشر مثلهم ولم يؤمر إلا بالإنذار وهو الرسالة بعلام الخطر ، والقيام بالأمر كلها وتديرها سواء كانت جارية على العادة أو خارقة لها إنما هو إلى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي ﷺ فيما ليس إليه .

و ذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها و فاطرها وهو القائم على كل شيء فيما يجري عليه من النظام فما من شيء إلا وهو تعالى المبدء في أمره و شأنه و المنتهى سواء الأمور الجارية على العادة و الخارقة لها فهو تعالى الذي يسلم إليه أمره و يدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذي يسلم إليه الأمر و ينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء وكيل .

و بذلك يظهر أن قوله : « والله على كل شيء وكيل » بمعونة من قوله : « إنما أنت منذر » يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي ﷺ أمراً ليس إليه وإنما هو إلى الله تعالى .

**قوله تعالى :** « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور » قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ « أم » متصلة لكون قوله : « فلعنك تارك » الخ في معنى الاستفهام و التقدير : أفأنت تارك بعض ما يوحى إليك خوفاً من اقتراحهم المعجزة أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرء عليهم كلامي ثم لا يؤمنوا به ، و قيل : إن أم منقطعة و المعنى : بل يقولون افتراء .



و قوله : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » في الكلام تحدّ ظاهر والضمير راجع إلى القرآن أو إلى السورة بما أنّها قرآن و الناء في « فأتوا » تفيد تقرير الأمر على قوله : « افتراء » و في الكلام حذف و إيصال رعاية للإيجاز ، و التقدير : قل لهم : إن كان هذا القرآن ممّا افتريته على الله كان من عندي و كان من الجائز أن يأتي بمثله غيري فإن كنتم صادقين في دعواكم ومجدّين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و استعينوا في ذلك بدعوة كلّ من تستطيعون من دون الله من أوثانكم الذين تزعمون أنّهم آلهة تتسرّعون إليهم في الحاجات و غيرهم من سائر الخلق حتّى يتمّ لكم جميع الأسباب و الوسائل ولا يبقى أحد ممّن يطمع في تأثير إعانته و يرجي نفعه في ذلك فلو كان من عندي لامن عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله .

وقد بان بهذا البيان أنّ التحديّ بالقرآن في الآية الكريمة ليس من حيث نظمه وبلاغته فحسب فإنّه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كلّ من استطاعوا دعوتهم من دون الله سواء في ذلك آلهتهم وغير آلهتهم وفيهم من لا يعرف الكلام العربيّ أو جزالة نظمه وصفة بلاغته فالتحدّيّ عام لكلّ ما يتضمنّه القرآن الكريم من معارف حقيقة والحجج والبراهين الساطعة والمواعظ الحسنة والأخلاق الكريمة والشرائع الإلهيّة والأخبار الغيبية والفصاحة والبلاغة نظير ما في قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » أسرى : ٨٨ وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على إعجاز القرآن في الجزء الأوّل من الكتاب .

وبذلك يظهر فساد ما قيل : إنّ جهة إعجاز القرآن إنّما هي البلاغة والفصاحة في هذا النظم المخصوص لأنّه لو كان جهة الإعجاز غير ذلك لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق لأنّ البلاغة ثلاث طبقات فأعلى طبقاتها معجز وأدناها وأوسطها ممكن فالتحدّيّ في الآية إنّما وقع في الطبقة العليا منها ، ولو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام أبلغ في باب الإعجاز .

و المثل المذكور في الآية لا يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس لأن مثله في الجنس يكون حكايته فلا يقع بها التحدي ، وإنما يرجع في ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب في تحدي بعضهم بعضا كما اشتهر من مناقضات امرئ القيس و علقمة و عمر بن كلثوم و الحارث بن حلزة و جرير و الفرزدق وغيرهم . انتهى .

فإن فيه أولا : أن لو كانت جهة الإعجاز في القرآن هي بلاغته فحسب وهي أمر لا يعرفه غير العرب لم يكن لتثريبك غيرهم في التحدي معنى ، ولم يرجع قوله : « وادعوا من استطعتم من دون الله » على ما فيه من العموم و كذا قوله : « لئن اجتمعت الإنس والجن » الآية إلى معنى محصل ولكن من الواجب أن يقال : « لئن اجتمعت العرب ، وادعوا من استطعتم من آلهتكم ومن أهل لغتكم .

وثانيا : أنه لو كانت جهة الإعجاز هي البلاغة فقط لم يصح الاحتجاج بمثل قوله : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » النساء : ٨٤ الظاهر في نفي مطلق الاختلاف فإن أكثر الاختلافات و هي التي يرجع إلى المعاني لا تضر بلاغة اللفظ .

وثالثا : أنه تعالى يتحدى بمثل قوله : « فليأتوا بحديث مثله » الطور : ٣٤ وبقوله في سورة يونس : « فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله » آية ٣٨ وقد استفدنا فيما تقدم أن سورة يونس قبل سورة هود في ترتيب النزول و يؤيده الأثر ، ثم بقوله في هذه السورة : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله » ولو كان جهة الإعجاز هي البلاغة خاصة لكانت هذه التحديات خارجة عن النظم الطبيعي إذ لا يصح أن يكلف البلغاء من العرب المنكرين لكون القرآن من عند الله بإتيان مثل سورة منه ثم بعده بإتيان عشر سور مفتريات بل مقتضى الطبع أن يتحدى بتكليفهم بإتيان مثل القرآن أجمع فإن عجزوا فإتيان عشر سور مثله مفتريات فإن عجزوا فإتيان سورة مثله .

وقد ذكر بعضهم في التفصي عن هذا الإشكال أن الترتيب بين السور ونزول

بعضها قبل بعض لا يستلزم الترتيب بين آيات السور فكم من آية مكّية موضوعة في سورة مدنية و بالعكس فمن الجائز حينئذ أن تكون آيات التحديّ بتمام القرآن نازلة قبل غيرها مطلقاً ثم تكون آية التحديّ بعشر سور مفتريات نازلة بعدها ، و آية التحديّ بسورة واحدة نازلة بعد الجميع .

وفيه : أنه إنّما ينفع لوصحّ نزول الآيات على ماصوره وإلاّ فالأشكال على حاله والحقّ أنّ القرآن معجز في جميع صفاته المختصة به من بلاغة وفصاحة وما فيه من المعارف الحقيقية والأخلاق الكريمة والشرائع الإلهية والقصص والعبر والأخبار بالمغيبات وماله من السلطان على القلوب والجمال الحاكم في النفوس .

وأما الوجه في التحديّ بعشر سور مع ما في سورة يونس من التحديّ بواحدة فقد قال في المجمع : فإن قيل : لم ذكر التحديّ مرّة بعشر سور و مرّة بسورة و مرّة بحديث مثله ؟ فالجواب : أنّ التحديّ إنّما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام فيجوز أن يتحدّى مرّة بالأقلّ و مرّة بالأكثر . انتهى .

**اقول :** وهو يصلح وجهاً لأصل التحديّ بالواحد والكثير و أمّا التحديّ بالعشر بعد الواحدة ولا سيّما على ما يراه من كون إعجازه بالبلاغة فحسب فلا . وذكر بعضهم في توجيه ذلك أنّ القرآن الكريم معجز في جميع ما يتضمنه من المعارف والأخلاق والأحكام والقصص وغيرها وينعت به من الفصاحة والبلاغة وانتفاء الاختلاف ، وإنّما يظهر صحّة المعارضة والاثبات بالمثّل عند إثبات عدّة من السور يظهر به ارتفاع الاختلاف وخاصة من بين القصص المودعة فيها مع سائر الجهات كالقصص والفصاحة والبلاغة والمعارف وغيرها .

وإنّما يتمّ ذلك بإثبات أمثال السور الطويلة التي تشتمل على جميع الشؤون المذكورة وتتضمّن المعرفة والقصة والحجّة وغير ذلك كسورتي الأعراف والأنعام .

والتي نزلت من السور الطويلة القرآنية ممّا يشتمل على جميع الفنون المذكورة قبل سورة هود على ما ورد في الرواية هي سورة الأعراف وسورة يونس وسورة مريم

وسورة طه وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القصص وسورة القمر وسورة ص فهذه تسع من السور عاشرتها سورة هود ، وهذا هو الوجه في التحدّي بأمرهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات انتهى بتلخيص منّا وقد أطنب في كلامه .

أقول : فيه أولاً : أن لا تعويل على الأثر الذي عول عليه في ترتيب نزول السور فإنّما هو من الآحاد التي لا تخلو عن ضعف ولا ينبغي بناء البحث التفسيري على أمثالها .

وثانياً : أن ظاهر قوله : «أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات» أن رميهم النبي ﷺ بالافتراء على الله سبحانه قول تقولوه بالنسبة إلى جميع السور القرآنية طويلتها وقصيرتها من غير أن يخصّوا به سورة دون سورة فمن الواجب أن يجابوا بما يحسم مادة الشبهة بالنسبة إلى كل سورة قرآنية ، والتحدّي بما يفي بذلك ، وعجزهم عن إتيان عشر سور مفتريات طويلة تجمع الفنون القرآنية لا يثبت به كون الجميع حتّى السور القصار كسورتي الكوثر والعصر من عند الله اللهم إلاّ ببيان آخر يضمّ إليه واللفظ خال من ذلك .

و ثالثاً : أن قوله : « بعشر سور مثله » إن كان فيه من الضمير راجعاً إلى القرآن كما هو ظاهر كلام هذا القائل أفاد التحدّي بإتيان عشر سور مفتريات مثله مطلقاً سواء في ذلك الطوال والقصار فتخصيص التحدّي بعشر سور طويلة جامعها تقييد للفظ الآية من غير مقيّد وهو تحكّم وأشدّ منه تحكّم القول بأن المراد بالمثل مثل السور العشر التي عدّها .

وإن كان الضمير راجعاً إلى سورة هود كان مستبشعاً من القول وكيف يستقيم أن يقال لمن يقول : إن سورة الكوثر والمعوذتين من الافتراء على الله : اثنت بعشر سور مفتريات مثل سورة هود ويقتصر على ذلك ؟ اللهم إلا أن يهذروا بأن سورة هود وحدها من الافتراء على الله تعالى فيتحدّى عندئذ بأن يأتوا بمثلها ، ولم نسمع أحداً منهم تفوه بذلك .

ويمكن أن يقال في وجه الاختلاف الذي يلوح من آيات التحدّي كقوله :

« فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » يونس : ٣٨ الظاهر في التحدّي بسورة واحدة وقوله : « فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَقْتَرِيَّاتٍ » الظاهر في التحدّي بعدد خاصّ فوق الواحد وقوله : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ » الطور : ٣٤ الظاهر في التحدّي بحديث يماثل القرآن وإن كان دون السورة أن كلّ واحدة من الآيات تؤمّ غرضاً خاصّاً في التحدّي .

بيان ذلك : أن جهات القرآن وشؤنه التي تنقوّم به حقيقته وهو كتاب إلهيّ مضافاً إلى ما في لفظه من الفصاحة وفي نظمه من البلاغة إنّما ترجع إلى معانيه و مقاصده لست أعني من المعنى ما يقصده علماء البلاغة في قولهم : إنّ البلاغة من صفات المعنى والألفاظ مطروحة في الطريق يعنون به المفاهيم من جهة ترتبها الطبيعي في الذهن فإنّ الذي يعنون به من المعنى موجود في الكذب الصريح من الكلام وفي الهزل وفي الفحش والهجو والفرية إذا جرت على أسلوب البلاغة وتوجد في الكلام الموروث من البلغاء نظماً ونشراً شيء كثير من هذه الأمور .

بل المراد من معنى القرآن و مقصده ما يصفه تعالى بأنّه كتاب حكيم ، ونور مبين ، وقرآن عظيم ، وفرقان ، وهاد يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم ، وقول فصل وليس بالهزل ، وكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وذكر وأنّه يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأنّه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً ، وأنّه تبيان لكلّ شيء ولا يمسه إلّا المطهرون .

فمن البيّن أنّ هذه كلّها صفات لمعنى القرآن . وليست صفات لما يقصده علماء البلاغة بالمعنى البليغ الذي ربّما يشتمل عليه الباطل من الكلام الذي يسمّيه القرآن الكريم لغوا من القول وإثمّاً وينهى الإنسان عن تعاطيه والنفوّه به وإن كان بليغاً بل المعنى المتّصف بهذه الصفات هو شيء من المقاصد الإلهيّة التي تجري على الحقّ الذي لا يخالطه باطل ، وتقع في صراط الهداية ، ويكون الكلام المشتمل على معنى هذا نعمته و غرض هذا شأنه هو الذي تتعلّق العناية الإلهيّة بتنزيله وجعله رحمة للمؤمنين وذكرّاً للعالمين .

وهذا هو الذي يصحّ أن يتحدّى به بمثل قوله : « فليأتوا بحديث مثله » فإنّنا لا نسمّي الكلام حديثاً إلا إذا اشتمل على غرض هامّ يتحدّث به فينتقل من ضمير إلى ضمير ، وكذا قوله : « فأتوا بسورة مثله » فإنّ الله لا يسمّي جماعة من آيات كتابه وإن كانت ذات عدد سورة إلا إذا اشتملت على غرض إلهي تميّز بها من غيرها .

و لولا ذلك لم يتمّ التحديّ بالآيات القرآنيّة و كان للخصم أن يختار من مفردات الآيات عددا ذا كثرة كقوله تعالى : « والضحى » « والعصر » « والطور » « في كتاب مكنون » « مدهامتان » « الحاقة ما الحاقة » « وما أدراك ما الحاقة » « الرحمن » « ملك الناس » « إله الناس » « وخسف القمر » « كلاً والقمر » « سندع الزبانية » إلى غير ذلك من مفردات الآيات ثمّ يقابل كلّاً منها بما يناظرها من الكلام العربيّ من غير أن يضمن ارتباط بعضها ببعض و اشتمالها على غرض يجمعها و يخرجها في صورة الوحدة .

فالذي كلّف به الخصم في هذه التحديّات هو أن يأتي بكلام يماثل القرآن مضافاً إلى بلاغة لفظه في بيان بعض المقاصد الإلهيّة المشتملة على أغراض منعوتة بالنعوت التي ذكرها الله سبحانه .

والكلام الإلهيّ مع ما تحدّى به في آيات التحديّ يختلف بحسب ما يظهر من خاصّته فمجموع القرآن الكريم يختصّ بأنّه كتاب فيه ما يحتاج إليه نوع الإنسان إلى يوم القيامة من معارف أصليّة وأخلاق كريمة وأحكام فرعيّة ، و السورة من القرآن تختصّ ببيان جامع لغرض من الأغراض الإلهيّة المتعلّقة بالهدى ودين الحقّ على بلاغتها الخارقة ، وهذه خاصّة غير الخاصّة التي يختصّ بها مجموع القرآن الكريم ، والعدّة من السور كالعشر والعشرين منها تختصّ بخاصّة أخرى وهي بيان فنون من المقاصد والأغراض والتنوّع فيها فإنّها أبعد من احتمال الاتفاق فإنّ الخصم إذا عجز عن الإتيان بسورة واحدة كان من الممكن أن يختلج في باله أن عجزه عن الإتيان بها إنّما يدلّ على عجز الناس عن الإتيان بمثلها لا على كونه

نازلة من عند الله موحاة بعلمه فمن الجائز أن يكون كسائر الصفات و الأعمال الإنسانية التي من الممكن في كل منها أن يتفرد به فرد من بين أفراد النوع اتّفاقاً لتصادف أسباب موجبة لذلك كفرد من الإنسان موصوف بأنه أطول الأفراد أو أكبرهم جنة أو أشجعهم أو أسخاهم أو أجبنهم أو أبخلهم .

وهذا الاحتمال وإن كان مدفوعاً عن السورة الواحدة من القرآن أيضاً التي يقصدها الخصم بالمعارضة فإنها كلام بليغ مشتمل على معان حقّة ذات صفات كريمة خالية عن مادّة الكذب ، وما هذا شأنه لا يقع عن مجرد الاتّفاق والصدفة من غير أن يكون مقصوداً في نفسه ذا غرض يتعلّق به الإرادة .

إلاّ أنه أعني مامرّ من احتمال الاتّفاق والصدفة عن السور المتعدّدة أبعد لأن إتيان السورة بعد السورة وبيان الغرض بعد الغرض والكشف عن خبيء بعد خبيء ، لا يدع مجالاً لاحتمال الاتّفاق والصدفة وهو ظاهر .

إذا تبين ما ذكرنا ظهر أن من الجائز أن يكون التحديّ بمثل قوله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » أسرى : ٨٨ وادراً مورد التحديّ بجميع القرآن لما جمع فيه من الأغراض الإلهيّة ويختصّ بأنّه جامع لعامة ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة ؛ وقوله : « قل فأتوا بسورة مثله » لما فيها من الخاصّة الظاهرة وهي أن فيها بيان غرض تامّ جامع من أغراض الهدى الإلهيّ بياناً فصلاً من غير هزل ؛ وقوله : « قل فأتوا بعشر سور » تحدّياً بعشر من السور القرآنيّة لما في ذلك من التفنّن في البيان والتنوّع في الأغراض من جهة الكثرة ، والعشرة من ألفاظ الكثرة كالمائة والألف قال تعالى : « يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة » البقرة : ٩٦ .

فالمراد بعشر سور - والله أعلم - السور الكثيرة الحائزة لبعض مراتب الكثرة المعروفة بين الناس فكأنّه قيل : فأتوا بعدّة من سورها ولتكن عشراً ليظهر به أن تنوّع الأغراض القرآنيّة في بيانه المعجز ليس من قبل الله .  
وأما قوله : « فليأتوا بحديث مثله » فكأنّه تحدّ بما يعمّ التحديّات الثلاثة

السابقة فإنَّ الحديث يعمُّ السورة والعشر سور القرآن كله فهو تحدٍّ بمطلق {  
الخاصة القرآنية . وهو ظاهر .

بقي هنا أمران أحدهما : أنه لم يقع في شيء من آيات التحدي المذكورة  
توصيف ما يأتي به الخصم بالافتراء إلا في هذه الآية إذ قيل فيها : « فأتوا بعشر سور  
مثله مفتريات » بخلاف قوله : « فأتوا بسورة مثله » فلم يقل فيه : « فأتوا بسورة  
مثله مفتراة » وكذا في سائر آيات التحدي .

ولعلَّ الوجه في ذلك أنَّ نوع العناية في الآية المطبوح عنها غير نوع العناية  
في سائر آيات التحدي فإنَّ العناية في سائر الآيات متعلقة بأنهم لا يقدرُونَ على  
الإتيان بمثل القرآن أو بمثل السورة لما أنه قرآن مشتمل على جهات لا تتعلق  
بها قدرة الإنسان ولا يظهر عليها غيره تعالى وقد أطلق القول فيها إطلاقاً .

وأما هذه الآية فلما عقيبت بقوله : « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما  
أنزل بعلم الله » دلَّ ذلك على أنَّ التحدي فيها إنما هو بكون القرآن متضمناً  
لما يختصَّ علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه ، وهذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته  
فكانه قيل : إنَّ هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراء فإنه متضمن لأمر من العلم الإلهي  
الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه ، وإن ارتبتم في ذلك فأتوا بعشر سور مثله مفتريات  
تدعون أنها افتراء ، واستعينوا بمن استطعت من دون الله فإن لم تقدروا عليه  
فاعلموا أنه من العلم المخصوص به تعالى . فافهم ذلك .

وثانيهما : معنى التحدي بالمثل حيث قيل : « بمثل هذا القرآن » « بحديث  
مثله » « بسورة مثله » « بعشر سور مثله » والوجه الظاهر فيه أنَّ الكلام لما كان  
آية معجزة فلو أتى إنسان بما يماثله لكفى في إبطال كونه آية معجزة ولم يحتج  
إلى الإتيان بما يترجح عليه في صفاته ويفضل عليه في خواصه .

وربما يورد عليه أنَّ عدم قدرة غيره ﷺ على ذلك لا يدل على كونه معجزة  
غير مستندة إليه لأنَّ صفات الكمال التي توجد في النوع الإنساني كالبلاغة  
والكتابة والشجاعة والسخاء وغيرها لها مراتب متفاوتة مختلفة يفضل بعضها على



بعض ، و إذا كان كذلك كان من المراتب ما هو فوق الجميع و هو غاية ما يمكن أن ترتقي إليه النفس الإنسانية البتة .

فكل صفة من صفات الكمال يوجد بين الأفراد الموصوفين بها من هو حامل للدرجة العليا و الغاية القصوى منها بحيث لا يعدله غيره ولا يعارضه أحد ممن سواه فبالضرورة بين أفراد الإنسان عامة من هو أبلغهم أو أكتبهم أو أشجعهم أو أسخاهم كما أن بينهم من هو أطولهم قامة أو أكبرهم جسمة ، ولم لا يجوز أن يكون النبي ﷺ أفصح الناس جميعاً و أبلغهم و القرآن من كلامه الذي لا يسع لأحد أن يعارضه فيه لوقوفه موقفا ليس لغيره فيه موضع قدم ؟ فلا يكون عندئذ عجز غيره عن الإتيان دليلاً على كونه كلاماً إلهياً غير بشري لجواز كونه كلاماً بشرياً مختصاً به ﷺ مضمونا عن غيره . هذا .

و يدفعه أن الصفات الإنسانية التي يقع فيها التفاضل و إن كانت على ما ذكر لكنّها أيّاماً كانت فهي مما تسمح بها الطبيعة الإنسانية بما أودع الله فيها من الاستعداد من غير أن تنشأ عن اتفاق و من غير سبب يمكن الفرد الموصوف من الاتصاف بها .

و إذا كان كذلك و فرض فرد من الإنسان اختص بصفة فاضلة لا يعدله غيره ولا يفوقه سواء كان لغيره أن يسلك ما مهّده من السبيل و يتعوّد بالتمرّن و التدرّب و الارتياض بما يأتيه من الأعمال التي تصدر عنها عنده من صفة الكمال فيأتي بما يماثل بعض ما يختص به من الكمال و يقلّده في نبذة من أعماله و إن لم يقدر على أن يزاحمه في الجميع و يماثله في الكل ، و يبقى للفرد النابغ المذكور مقام الأصاله و السبقه و التقدّم في ذلك فالحاتم مثلاً و إن كان هو المتفرد غير المعارض في سخائه وجوده من غير أن يسع غيره أن يتقدّم عليه و يسبقه لكن من الممكن أن يرتاض مرتاض في سبيله فيتمرّن و يتدرّب فيه فيأتي بشيء من نوع سخائه وجوده و إن لم يقدر على مزاحمته في الجميع و في أصل مقامه ، و الكمالات الإنسانية التي هي منابع للأعمال سبيلها جميعاً هذا السبيل ، و يتمكّن الإنسان بالتمرّن و التدرّب على سلوك سبيل

السابقين المبدعين فيها والأتیان بشي، من أعمالهم وإن لم يسع من أحتهم في أصل موقفهم .  
فلو كان القرآن من كلام النبي ﷺ على فرض أنه أبلغ إنسان وأفصح  
كان من الجائز أن يهتم غيره فيتمرن على سلوك ما أبدعه في كلامه من النظم البديع  
فيقدر على تقليده في شيء من الكلام وإتيان شيء من القول بسورة مثله وإن لم يقدر  
على تقليد القرآن كله والأتیان بجميعة .

ولم يقل فيما تحدّى به : فليأتوا بحديث أبلغ منه أو أحسن أو بسورة هي  
أبلغ أو أحسن حتّى يقال : إن القرآن أبلغ كلام بشريّ أو أحسنه ليس هناك  
ما هو أبلغ أو أحسن منه حتّى يأتي به آت فلا يدلّ عدم القدرة على الإتيان بذلك  
على كونه كلاماً لغير البشر ، بل إنّما قال : « فليأتوا بحديث مثله » « قل فأتوا  
بسورة مثله » وهكذا وفي وسع البشر الإتيان بمثل كلام غيره من البشر وإن فرض  
كون ذلك الغير ذا موقف من الكلام لا يعارضه غيره على ما بيّناه فالشبهة مندفة  
بقوله تعالى : « بمثله » .

**قوله تعالى :** « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله وأن لا إله  
إلا هو فهل أنتم مسلمون » إجابة الدعوة و استجابتها بمعنى .  
و الظاهر من السياق أنّ الخطاب في الآية للمشرّكين ، وأنّه من تمام كلام  
النبي ﷺ الذي أمر بقوله تعالى : « قل » أن يلقيه إليهم ، وعلى هذا فضمير الجمع  
في قوله : « لم يستجيبوا » راجع إلى الآلهة و كلّ من استعانوا به المدلول عليهم  
بقوله : « و ادعوا من استطعتم من دون الله » .

و المعنى : فإن لم يستجب لكم معاشر المشرّكين هؤلاء الذين دعوتهم من  
آلهتكم ومن بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام وعلماء أهل الكتاب الذين  
عندهم الكتب السماوية وأخبار الأنبياء والأهم والكهنة المستمدّين من إلقاء شياطين  
الجنّ ، وجهابذة العلم والفهم من سائر الناس المتعمّقين في المعارف الإنسانية بأطرافها  
فاعلموا أنّما أنزل هذا القرآن بعلم الله ولم يخلق عن علمي أنا ولا غيري بمن تزعمون  
أنّه يعلمني ويملي عليّ ، و اعلموا أيضاً أنّ ما أدعوكم إليه من التوحيد حقّ

فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه إليه فهل أنتم أيها المشركون مسلمون لله تعالى متقادون لأمره ؟

فقوله تعالى : « فإن لم يستجيبوا لكم » في معنى قولنا : فإن لم تقدرُوا على المعارضة بعد الاستعانة والاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون الله ، وذلك أن الأسباب التي توجب قدرتهم على المعارضة هي ما عندهم من قدرة البيان وقريحة البلاغة وهم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله وكذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد ولهم أن يؤيدوهم به إن شاؤا على زعمهم ، وأيضا ما عند غير آلهتهم من المدد ، وإذا لم يستجيبهم الذين يدعونهم في معارضة القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبة لقدرتهم وارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضة القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدرة ففي الكلام كناية . و قوله : « فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله » الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به وهو الغيب الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه إلا بأذنه كما قال تعالى : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه » النساء : ١٦٦ ، وقال : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » يوسف : ١٠٢ ، وقال : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، وقال : « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين » الواقعة : ٨٠ .

فالمعنى : فإن لم تقدرُوا على معارضته بأي سبب ممدّ تعلّقتُم به من دون الله فتيقّنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبي وأنه من أنباء الغيب الذي يختص به تعالى فهو الذي أنزله عليّ وكلمني به وأراد تفهيمي وتفهمكم بما فيه من المعارف الحقّة وذخائر الهداية .

و ذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل على علم من الله بنزوله وشهادة منه له ، و ذكر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضة أو بعلم من الله بنظمه وترتيبه ولا يعلم غيره ذلك ، وهذه معان واهية بعيدة عن الفهم . و الجملة أعني قوله : « إنما أنزل بعلم الله » إحدى النتيجتين المأخوذتين

من عدم استجابة شركائهم لهم . و النتيجة الأخرى قوله : « و أن لا إله إلا هو » و لزوم هذه النتيجة من وجهين : أحدهما : أنهم إذا دعوا آلهمهم لما يهيمهم من الأمور فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بآلهة فليس إلا من يجيب المضطر إذا دعاه و خاصة إذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذي أتى به النبي ﷺ كان يقطع دابرهم و يميت ذكركم و يصرف الناس عن التوجه إليهم فإذالم يجيبوا أولياءهم إذا دعوهم لمعارضة كتاب هذا شأنه كان ذلك من أوضح الدليل على نفي ألوهيتهم .

و ثانيهما : أنه إذا صح أن القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به ، و مما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه . و قوله : « فهل أنتم مسلمون » أي لما علمتم و اتضح لكم من جهة عدم استجابة شركائكم من دون الله و عجزكم عن المعارضة فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه و كون هذا القرآن كتابا نازلا بعلمه ؟ و هو أمر بالاسلام في صورة الاستفهام . هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآية .

وقيل : إن الخطاب في قوله : « فإن لم يستجيبوا لكم » الخ للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجمع تعظيما له و تفخيما لشأنه و ضمير الجمع الغائب راجع إلى المشركين أي فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبي ﷺ إليه من المعارضة فاعلم أنه منزل بعلم الله و أن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره

وفيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع والكثرة يختص في الكلام العربي بالمتكلم و أما الخطاب والغيبة فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع .

مضافا إلى أن استناد الوحي الإلهي و التكليم الرباني إليه تعالى استناد ضروري لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما ينلقاه النبي ﷺ دلالة على كونه كلاما من الله دلالة ضرورية غير محتاجة إلى حجة حتى يحتج عليه بعدم إجابة المشركين إلى معارضة القرآن و عجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الإنسان و الجن و الملك و أي هائف آخر فإنه يحتاج في حصول العلم باستناده

إلى متكلمه إلى دليل خارجي من حسّ أو عقل ، وقد تقدّمت إشارة إلى ذلك في قصة زكريّا من سورة آل عمران ، وسيجيء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من الموارد إن شاء الله تعالى .

على أنّ خطاب النبي ﷺ بمثل قوله : « وأنه لا إله إلا هو » وقوله : « فهل أنتم مسلمون » لا يخلو عن بشاعة . على أنّ نفس الاستدلال أيضا غير تامّ كما سنبين .

وقيل : إنّ الخطاب في الآية للنبي ﷺ والمؤمنين جميعاً أو للمؤمنين خاصة لأنّ المؤمنين يشار كونه ﷺ في الدعوة الدينية والتحدّي بالقرآن الذي هو كتاب ربهم المنزل عليهم والمعنى : فإن لم يستجب المشركون لكم في المعارضة فاعلموا أنّ القرآن منزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله ؟

ولمّا تقطّن بعضهم أن لامعنى لدعوة المؤمنين وهم مؤمنون بالله وحده وبكتابه إلى العلم بأنّه كتاب نازل من عند الله وبأنّه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأنّ المراد فاثبتوا على علمكم أنّه إنّما أنزل بعلم الله وازدادوا به إيماناً و يقينا وأنّه لا إله إلا هو ولا يستحقّ العبادة سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم والا خلاص فيه ؟

وفيه أنّه تقييد للآية من غير مقيّد والحجّة غير تامّة وذلك أنّ المشرّكين لو كانوا وقفوا موقف المعارضة بما عندهم من البضاعة واستعانوا عليها بدعوة آلهتهم وسائر من يطمعون فيه من الجنّ والإنس ثمّ عجزوا كان ذلك دليلاً واضحاً يدلّهم على أنّ القرآن فوق كلام البشر وتمّت بذلك الحجّة عليهم ، وأما عدم استجابة الكفار للمعارضة فليس يدلّ على كونه من عند الله لأنّهم لم يأتروا بما أمروا به بقوله : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » إمّا لعلمهم بأنّه كلام الله الحقّ وإنّما كان قولهم : « افتراء » قولاً ناشئاً عن العناد واللجاج لاعن إدعان به أو شكّ فيه ، أولاً لأنّهم كانوا آتسين من استجابة شركائهم للدعوة على المعارضة ، أولاً لأنّهم كانوا هازلين في قولهم ذلك يهذرون هذا .

وبالجملة عدم استجابة المشرّكين للنبي ﷺ أو للمؤمنين أولهم جميعاً لا يدلّ

بنفسه على كون القرآن نازلاً من عند الله إلا إذا كان عدم الاستجابة المذكورة بهد  
تحقق دعوتهم شركاءهم إلى المعارضة وعدم استجابتهم لهم ، ولم يتحقق من المشر كين  
دعوة على هذه الصفة ، و مجرد عدم استجابة المشر كين أنفسهم لا ينفع شيئاً ، ولا  
يبقى إلا أن يقال : إن معنى الآية : فإن دعا المشر كون من استطاعوا من دون الله  
فلم يستجيبوا لهم ولم يستجب المشر كون لكم أيها النبي و معاشر المؤمنين فاعلموا  
أنما أنزل بعلم الله الخ وهذا هو الذي أو ماناً إليه آنفاً أنه تقييد للآية من غير  
مقيّد .

على أن فيه أمراً للمؤمنين أن يهتدوا في إيمانهم و يقينهم بأمر فرضي غير واقع  
و كلامه تعالى يجلّ عن ذلك ، ولو أريدت الدلالة على أنهم غير قادرين على ذلك  
وإن دعوا شركاءهم إلى المعارضة كان من حقّ الكلام أن يقال : فإن لم يستجيبوا  
لكم ولن يستجيبوا فاعلموا الخ كما قيل كذلك في نظيره قال تعالى : « وإن كنتم  
في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله و ادعوا شهداءكم من دون الله إن  
كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة  
أعدت للكافرين » البقرة : ٢٤ .

**قوله تعالى :** « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها  
وهم فيها لا يبخسون » التوفية إيصال الحقّ إلى صاحبه وإعطاؤه له بكماله ، والبخس  
نقص الأجر .

وفي الآية تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحقّ لمّا جاءهم ولا يسلمون له إثارة  
للحياة الدنيا ونسياناً للآخرة ، وبيان لشيء من سنة الأسباب القاضية عليهم باليأس  
من نعيم الحياة الآخرة .

وذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغاية التي أرادها به و  
عمله لأجلها ، فإن كانت غاية دنيوية تصلح شؤون الحياة الدنيا من مال وجمال وحسن  
حال ساقه العمل إن أعانته سائر الأسباب العاملة إلى ما يرجوه بالعمل وأمّا الغايات  
الأخروية فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع ، و مجرد صلاحية العمل لأن

يقع في طريق الآخرة وينفع في الفوز بنعيمها كالبرِّ والاحسان وحسن الخلق لا يوجب الثواب وارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله ودار ثوابه .

ولذلك عقبه بقوله تعالى : « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » فأخبر أنهم إذا وردوا الحياة الآخرة وقعوا في دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم في الحياة كما تأكل النار الحطب وتبهر وتهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود ، و تحبط جميع ما صنعوا فيها وتبطل ما أسلفوا من الأعمال في الدنيا ، ولذلك سمّاها سبحانه في موضع آخر بدار البوار أي الهلاك فقال تعالى : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها » إبراهيم : ٣٥ ، و بذلك يظهر أن كلاً من قوله : « وحبط ما صنعوا فيها » وقوله : « وباطل ما كانوا يعملون » يفسّر قوله : « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار » نوعاً ما من التفسير .

وبما تقدّم يظهر أو لا : أن المراد من توفية أعمالهم إليهم توفية نتائجها وإيصال الآثار التي لها بحسب نظام الأسباب والمسببات لا ما يقصده الفاعل بفعله ويرجوه بمساعاه فإن الذي يناله الفاعل في هذه النشأة بفعله هو نتيجة الفعل التي يعينه سائر الأسباب العاملة عليها لا ما يؤمّه الفاعل كيفما كان فما كل ما يتمنى المرء يدركه .

وقد عبّر تعالى عن هذه الحقيقة في موضع آخر بقوله : « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » الشورى : ٢٠ ، فقال تعالى : « نؤته منها » ولم يقل : نؤته إيّاها وقال في موضع آخر : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » أسرى : ١٨ فذكر ما يريد الإنسان من الدنيا ويناله منها وزاد بياناً أنه ليس كل من يريد أمراً يناله ولا كل ما يريد ينال بل الأمر إلى الله سبحانه يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء ويقدم من يريد ويؤخر من يريد على ما تجري عليه سنة الأسباب .

وثانياً : أن الآيتين أعني قوله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم

أعمالهم» إلى آخر الآيتين تبينان حقيقة من الحقائق الإلهية .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي في قوله تعالى : « ألا إنهم يثنون صدورهم » الآية بإسناده عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال : أخبرني جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا إذا مروا برسول الله صلى الله عليه وآله حول البيت طأطأ أحدهم رأسه وظهره هكذا وغطى رأسه بثوب لا يراه رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله : « ألا إنهم يثنون الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شعبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رزين قال : كان أحدهم يحسني ظهره ويستغشي بثوبه .

وفي المجمع روي عن علي بن الحسين وأبي جعفر وجعفر بن محمد عليهم السلام يثنونى على يفعلون .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن الفضل عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجل من أهل البادية فقال : يارسول الله إن لي بنين وبنات و إخوة و أخوات و بني بنين و بني بنات و بني إخوة و بني أخوات و المعيشة علينا خفيفة فإن رأيت يارسول الله أن تدعوا لله أن يوسع علينا .

قال : وبكى فرق له المسلمون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها و مستودعها كل في كتاب مبين « من كفل بهذه الأقوال المضمونة على الله رزقها صب الله عليه الرزق صباً كالماء المنهمر إن قليل فقليلاً وإن كثير فكثيراً . قال : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وأمن له المسلمون .

قال : قال أبو جعفر عليه السلام : فحدثني من رأى الرجل في زمن عمر فسأله عن حاله فقال : من أحسن من خول له حلالاً وأكثرهم مالا .

وفي الدر المنثور أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وصححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله قال : إذا



كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعني .

**اقول :** والرواية غير ظاهرة في تفسير الآية .

وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتمقوا الله وأجلوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً فمن اتقى الله وصبر أتاه رزقه من حله ، ومن هتك حجاب ستر الله عز وجل وأخذ من غير حله قص به من رزقه الحلال وحوسب عليه .

**اقول :** الرواية من المشهورات رواها العامة والخاصة بطرق كثيرة .

وفي تفسير العياشي عن أبي الهذيل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله قسم الأرزاق بين عباده وأفضل فضلاً كبيراً لم يقسمه بين أحد قال الله : « واسألوا الله » من فضله .

**اقول :** والرواية مروية عن النبي ﷺ ، وقد تقدمت بعض ما في هذا المعنى من الأخبار في ذيل قوله تعالى : « وترزق من تشاء بغير حساب » سورة آل عمران آية ٢٧ ، وقوله تعالى : « واسألوا الله من فضله » سورة النساء : آية ٣٢ .

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول : اعلموا علماً يقيناً أن الله جل وعز لم يجعل للعبد وإن اشتد جهده ، وعظمت حيلته وكثرت مكائده أن يسبق ما سمي له في الذكر الحكيم . أيها الناس إنه لن يزداد امرؤ نقيراً بحذقه ، ولن ينقص امرؤ نقيراً لحمقه فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعته والعالم بهذا التارك له أعظم الناس شغلاً في مضرتّه ، ورب منعم عليه مستدرج بالاحسان إليه ورب مغرور في الناس مصنوع له .

فائق الله أيها الساعي عن سعيك ، وقصر من عجلتك ، وانتبه من سنة غفلتك وتفكر فيما جاء عن الله عز وجل على لسان نبيه ﷺ . الحديث .

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن عبد الله بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن محمد بن المنكدر كان يقول : ما كنت أظن أن علي بن الحسين يدع خلماً أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي فأردت أن أعظه فوعظني فقال له أصحابه بأي شيء وعظك ؟ فقال : خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني أبو جعفر محمد بن علي وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين فقلت في نفسي : سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة في طلب الدنيا أما إنني لأعظته .

فدنوت منه و سلمت عليه فرد علي بنهر وهو ينصب عرقاً فقلت : أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا أرايت لوجاء أجلك وأنت على هذه الحال ؟ فقال : لوجاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عز وجل أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس ، وإنما كنت أخاف إن جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله . فقلت : صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني .

وفيه بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال : استقبلت أبا عبد الله في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر فقلت : جعلت فداك حالك عند الله عز وجل وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم ؟ فقال : يا عبد الأعلى اخرج في طلب الرزق لا تستغني به عن مثلك .

أقول : ولا منافات بين القضاء بالرزق وبين الأمر بطلبه . وهو ظاهر .

وفيه أخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عماما ماتحته هوا ، وما فوقه هوا ، وخلق عرشه على الماء .

أقول : العمام الغيم الذي يمنع نفوذ البصر فيه ، و«ما» في قوله «ما تحته هوا وما فوقه هوا» موصولة والمراد بالهواء هو الخالي من كل شيء كما في قوله تعالى :

« وأفئدتهم هواء » أو أنفها نافية والمراد بالهواء معناه المعروف ، والمراد به أنه كان عماء لا يحيط به الهواء على خلاف سائر العماءات .

والرواية من أخبار التجسم ولذا وجهه بأن قوله : في عماء الخ كناية عن غيب الذات الذي تكلم عنه الأبصار وتمحيص فيه الأبواب .

وفيه أخرج أحمد و البخاري والترمذي والنسائي وأبو الشيخ في العظمة و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن عمران بن حصين قال : قال أهل اليمن : يارسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال : كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، و كتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء ، و خلق السماوات والأرض . فنادى مناد : ذهب ناقتك يا بن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أنني تركتها .

**أقول :** و روى عدة من رجال الحديث هذه الرواية عن بريدة وقال بريدة في آخرها : « ثم أتاني آت فقال : هذه ناقتك قد ذهبت فخرجت و السراب ينقطع دونها فلوددت أنني كنت تركتها » وهذا مما يوهن الحديثين .

وفيه في قوله تعالى : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » أخرج داود بن المحبر في كتاب العقل و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم في التاريخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » فقلت : ما معنى ذلك يارسول الله ؟ قال : ليلوكم أيكم أحسن عقلاً . ثم قال : و أحسنكم عقلاً أروعكم عن محارم الله و أعلمكم <sup>(١)</sup> بطاعة الله .

وفي الكافي مسنداً عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز و جل : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » قال : قال : ليس يعني أكثر [ كمظ ] عملاً ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله و النية الصادقة .

ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل ، والعمل الخالص : الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عز و جل و النية أفضل من العمل إلا إن

النِّية هي العمل ثم تلا قوله عز وجل : « قل كل يعمل على شاكلته » يعني على نيته .

**أقول :** قوله إلا إن النِّية هي العمل يعني ليس للعمل أثر إلا لما معه من النِّية . وفي تفسير النعماني باسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « لئن أخذنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة » قال : العذاب خروج القائم عليه السلام و الأمة المعدودة أهل بدر وأصحابه .

**أقول :** وروى هذا المعنى الكليني في الكافي والقمي والعيّاشي في تفسيريهما عن عليّ والباقر والصادق عليه السلام .

وفي المجمع قيل : إن الأمة المعدودة هم أصحاب المهدي ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً كعدة أهل بدر يجتمعون في ساعة واحدة كما يجتمع قرع الخريف قال : و هو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام .

وفي تفسير القمي في قوله : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » قال : قال : صبروا في الشدة وعملوا الصالحات في الرخاء .

وفي الدر المنثور في قوله : « من كان يريد الحياة الدنيا » أخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصاً ، و فرقة يعبدون الله رياءً ، و فرقة يعبدون الله يصبون به دنيا . فيقول للذي كان يعبد الله للدنيا : بعزّي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ فيقول : الدنيا فيقول : لاجرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه انطلقوا به إلى النار ، ويقول للذي يعبد الله رياءً : بعزّي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ قال : الرياء فيقول : إنما كانت عبادتك التي كنت ترائي بها لا يصعد إليّ منها شيء ، ولا ينفعك اليوم انطلقوا به إلى النار . ويقول للذي كان يعبد الله خالصاً : بعزّي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ فيقول : بعزّي وجلالك لأنك أعلم به منّي كنت أعبدك لوجهك ولدارك قال : صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة .



أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ  
 إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ  
 فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)  
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ  
 الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)  
 الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)  
 أُولَٰئِكَ أَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ  
 يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠)  
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ  
 فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاخْتَبَأُوا  
 إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ  
 كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

### ﴿بيانات﴾

ظاهر الآيات أنها واقعة موقع التطيب لنفس النبي ﷺ وتقوية إيمانه  
 بكتاب الله وتأكيد ما عنده من البصيرة في أمره فالكلام جار على ما كان عليه من  
 خطابه ﷺ فقد كان وجه الكلام إليه حتى انتهى إلى ما اتهموه به من الافتراء  
 على الله سبحانه فأمره أن يتحدث عليهم بآتيان عشر سور مثله مفتریات ثم أمره

أن يطيب نفساً و يثبت على ما عنده من العلم بأنه منزل من عند الله فإنما هو على الحق وليس بمفتر فلا يستوحش من إعراض الأكرمين ولا يرتاب .

**قوله تعالى :** « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » الجملة تقرير على ماضى الكلام الذي هو في محل الاحتجاج على كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله سبحانه ، و « من » مبتدأ خبره محذوف و التقدير : كغيره ، أو ما يؤدّي معناه ، والدليل عليه قوله تلوأ : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » .

و الاستفهام إنكاري والمعنى : ليس من كان كذا و كذا كغيره ممن ليس كذلك وأنت على هذه الصفات فلا تك في مرية من القرآن .

وقوله : « على بينة من ربه » البينة صفة مشبهة معناها الظاهرة الواضحة غير أن الأمور الظاهرة الواضحة ربما أوضحت ما ينضم إليها ويتعلق بها كالنور الذي هو بين ظاهر ويظهر به غيره ، ولذلك كثر استعمال البينة فيما يتبين به غيره كالحجة و الآية و يقال للشاهد على دعوى المدعي بينة .

وقد سمى الله تعالى الحجة بينة كما في قوله : « ليهلك من هلك عن بينة » الأنفال : ٤٢ و سمى آيته بينة كما في قوله : « قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية » الأعراف : ٧٣ و سمى البصيرة الخاصة الإلهية التي أوتيتها الأنبياء بينة كما في قوله حكاية عن نوح عليه السلام : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده » هود : ٢٨ أو مطلق البصيرة الإلهية كما هو ظاهر قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله و اتبعوا أهواءهم » سورة محمد : ١٤ وقد قال تعالى في معناه : « أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

والظاهر أن المراد بالبينة في المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقريته قوله بعد : « أولئك يؤمنون به » وإن كان المراد به بحسب المورد هو النبي ﷺ فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله : « فلا تك في مرية منه » .

فالمراد بها البصيرة الإلهية التي أوتيتها النبي ﷺ لانفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهراً أن يتفرّع عليه قوله : « فلا تك في مرية منه » وهو ظاهر ولا ينافيه كون القرآن في نفسه بيّنة من الله من جهة كونه آية منه تعالى كما في قوله : « قل إنني على بيّنة من ربّي وكذبتم به » الأنعام : ٥٧ ، فإنّ المقام غير المقام .

و بما مرّ يظهر أنّ قول من يقول : إنّ المراد بمن كان الخ النبيّ خاصّة إرادة استعماليّة ليس في محله وإنّما هو مراد بحسب انطباق المورد . وكذا قول من قال : إنّ المراد به المؤمنون من أصحاب النبي ﷺ فلا دليل على التخصيص . ويظهر أيضاً فساد القول بأنّ المراد بالبيّنة هو القرآن ، وكذا القول بأنّها حجة العقل وأضيفت إلى الربّ تعالى لأنّه ينصب الأدلة العقلية والنقلية . ووجه فساد أنّه لا دليل على التخصيص ولا نقاس البيّنة القائمة للنبي ﷺ من ناحيته تعالى بالتعريف الإلهي القائم لنا من ناحية العقول .

وقوله تعالى : « و يتلوه شاهد منه » المراد بالشهادة تأدية الشهادة التي تفيد صحّة الأمر المشهود لهدون تحمّلها فإنّ المقام مقام تثبيت حقيقة القرآن وهو إنّما يناسب الشهادة بمعنى التأدية لا بمعنى التحمّل .

والظاهر أنّ المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقيقة القرآن وكان على بصيرة إلهية من أمره فأمن به عن بصيرته وشهد بأنّه حقّ منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد والرسالة فإنّ شهادة الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مرية الاستيحاش وريب التفرّد فإنّ الإنسان إذا أذعن بأمر وتفرّد فيه ربّما أوحشه التفرّد فيه إذا لم يؤيّد به أحد في القول به أمّا إذا قال به غيره من الناس وأيد نظره في ذلك زالت عنه الوحشة وقوي قلبه وارتبط جاشه وقد احتجّ تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم » الأحقاف : ١٠ .

وعليهذا فقوله : « يتلوه » من التلولا من التلاوة ، والضمير فيه راجع إلى « من »

أو إلى « بيّنة » باعتبار أنّه نور أو دليل ، ومآل الوجهين واحد فإنّ الشاهد الذي يلي صاحب البيّنة يلي بيّنته كما يلي نفسه و الضمير في قوله : « منه » راجع إلى « من » دون قوله : « ربّه » وعدم رجوعه إلى البيّنة ظاهر و محصل المعنى : من كان على بصيرة إلهيّة من أمر و لحق به من هو من نفسه فشهد على صحّة أمره و استقامته .

و على هذا الوجه ينطبق ما ورد في روايات الفريقين أنّ المراد بالشاهد عليّ عليه السلام إن أريد به أنّه المراد بحسب انطباق المورد لابعنى الإرادة الاستعماليّة . وللقوم في معنى الجملة أقوال شتّى فقيل : إنّ « يتلو » من التلاوة كما قيل : إنّّه من التلو ، و قيل : إنّ الضمير في « يتلوه » راجع إلى « البيّنة » كما قيل : إنّّه راجع إلى « من » .

و قيل : المراد بالشاهد القرآن : وقيل : جبرائيل يتلو القرآن على النبيّ ﷺ ولعلّه مأخوذ من قوله تعالى : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه و الملائكة يشهدون » النساء : ١٦٦ ، وقيل : الشاهد ملك يسدّد النبيّ ﷺ ويحفظه القرآن ، ولعلّه لنوع من الاستناد إلى الآية المذكورة .

وقيل : الشاهد هو النبيّ ﷺ وقد قال تعالى : « يا أيّها النبيّ إنّنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً » الأحزاب : ٤٥ ، وقيل : شاهد منه لسانه أي يتلو القرآن بلسانه .

وقيل : الشاهد عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وقد وردت به عدّة روايات من طرق الشيعة و أهل السنة .

والتأمّل في سياق الآية وظاهر جملها يكفي مؤنة إبطال هذه الوجوه غير ما قدّمناه من معنى الآية فلا نطيل الكلام بالبحث عنها و المناقشة فيها .

وقوله تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » الضمير راجع إلى الموصول أو إلى البيّنة على حدّ ما ذكرناه في ضمير « يتلوه » و الجملة حال بعد حال أي أفمن كان على بصيرة إلهيّة ينكشف له بها أنّ القرآن حقّ منزل من عند الله والحال أنّ



معه شاهداً منه يشهد بذلك عن بصيرة والحال أن هذا الذي هو على بيّنة سبقه كتاب موسى إماماً ورحمة أوقبل بيّنته التي منها القرآن أوهي القرآن المشتمل على المعارف و الشرائع الهادية إلى الحقّ كتاب موسى إماماً فليس هو أو ما عنده من البيّنة ببدع من الأمر غير مسبوق بمثل ونظير بل هناك طريق مسلوكة من قبل يهدي إليه كتاب موسى .

و من هنا يظهر وجه توصيف كتاب موسى و هو التوراة بالإمام والرحمة فإنّه مشتمل على معارف حقّة و شريعة إلهيّة يؤتمّ به في ذلك و يتنعم بنعمته ، و قد ذكره الله بهذا الوصف في موضع آخر من كلامه فقال : « قل أرأيتم إن كان من عند الله و كفرتم به و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم - إلى أن قال - وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة و هذا كتاب مصدّق لسانا عربياً لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين » الأحقاف : ١٢ .

و الآيات - كما ترى - أقرب الآيات مضمونا من الآية المبحوث عنها تذكر أولاً : أن القرآن بيّنة إلهيّة أو أمّ قامت عليه بيّنة إلهيّة ثم تذكر شهادة الشاهد من بني إسرائيل عليه و تأييده بها ثم تذكر أنّه مسبوق فيما يتضمّن من المعارف و الشرائع بكتاب موسى الذي كان إماماً ورحمة يأتّم به الناس و يهتدون ، وطريقاً مسلوكة مجرّبا ، و القرآن كتاب مثله مصدّق له منزل من عند الله لا نذار الظالمين و تبشير المحسنين .

و من هنا يظهر أيضاً : أن قوله : « إماماً ورحمة » حال من كتاب موسى لا من قوله : « شاهد منه » على ما ذكره بعضهم .

**قوله تعالى :** « أولئك يؤمنون به و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » المشار إليهم بقوله : « أولئك » بناء على ماتقدّم من معنى صدر الآية هم الذين كانوا على بيّنة من ربّهم المدلول عليهم بقوله : « أفمن كان » الخ ، و أمّا إرجاع الإشارة إلى المؤمنين لدلالة السياق عليهم فبعيد عن الفهم .

و كذا الضمير في قوله : « به » راجع إلى القرآن من جهة أنه بيّنة منه تعالى أو أمر قامت عليه البيّنة ، و أمّا إرجاعه إلى النبي ﷺ فلا يلائم ما قرّره من معنى الآية فإنّ في صدر الآية بيان حال النبي ﷺ بنحو العموم حتّى يتفرّع عليه قوله : « فلاتك في مرية منه » كأنّه قيل : إنك على بيّنة كذا و معك شاهد و قبلك كتاب موسى ، و من كان على هذه الصفة يؤمن بما أوّتي من كتاب الله ، ولا يصحّ أن يقال : و من كان على هذه الصفة يؤمن بك ، و الكلام في الضمير في « و من يكفر به » كالکلام في ضمير « يؤمنون به » .

و أمر الآية فيما يحتمله مفردات ألفاظها و ضمائرهما عجيب فضرب بعضها في بعض يرقى إلى ألوف من الاحتمالات بعضها صحيح و بعضها خلافه .

**قوله تعالى :** « فلاتك في مرية منه إنّه الحقّ من ربّك و لكنّ أكثر الناس لا يؤمنون » المرية كجلسة النوع من الشكّ ، و الجملة تفريع على صدر الآية ، و المعنى أنّ من كان على بيّنة من ربّه في أمر و قد شهد عليه شاهد منه و قبله امام و رحمة ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من أمر الله ولا يوحشه إعراض أكثر الناس عمّا عنده ، و أنت كذلك فإنك على بيّنة من ربّك و يتلوّك شاهد و من قبلك كتاب موسى إماماً و رحمة و إذا كان كذلك فلاتك في مرية من أمرهما أنزل إليك من القرآن إنّه محض الحقّ من جانب الله و لكنّ أكثر الناس لا يؤمنون .

و قوله : « إنّه الحقّ من ربّك » تعليل للنهي و قد أکد بانّ و لام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمرية وهي قيام البيّنة و شهادة الشاهد و تقدّم كتاب موسى إماماً و رحمة .

**قوله تعالى :** « و من أظلم ممّن افترى على الله كذباً » إلى آخر الآية . من الممكن أن يكون ذيلًا للسياق السابق من حيث كان تطييبًا لنفس النبي ﷺ فيقول المعنى إلى أنّك إذ كنت على بيّنة من ربّك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفترياً

على الله الكذب لأنّ المفترى على الله كذباً من أظلم الظالمين ، ولهم من وبال كذبهم كذا و كذا .

و كيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه أو نسبة شيء إليه بغير الحقّ أو بغير علم ، و الافتراء من أظهر أفراد الظلم والإثم ، و يعظم الظلم بعظم متعلّقه حتّى إذا انتهى إلى ساحة العظمة والكبرياء كان من أعظم الظلم .

و الكلام واقع موقع قلب الدعوى عليهم إذ كانوا يقولون للنبيّ ﷺ : إنّه افترى على الله كذباً بنسبة القرآن إليه فقلب القول عليهم أنّهم هم الذين افتروا على الله كذباً إذ أثبتوا له شركاء بغير علم وهو الله لا إله إلا هو ، و إذ صدّوا عن سبيل الله و معناه نفى كونه سبيلاً لله وهو افتراء ، و إذ طلبوا سبيلاً آخرى فاستنوا بها في حياتهم وكان ذلك تغييراً لسبيل الله التي تهدي إليها الفطرة والنبوءة ، و إذ كفروا بالآخرة فنفوها و ذلك إثبات مبعد من غير معاد و نسبة اللغو وفعل الباطل إليه تعالى وهو افتراء عليه .

و بالجملة انتحالهم بغير دين الله و نحلته ، و أخذهم بالعقائد الباطلة في المبدء والمعاد و استنابهم بغير سنّة الله في حياتهم الدنيويّة والاجتماعيّة \_ و الذي من الله إنّما هو الحقّ و لاسنّة عند الله إلا دين الحقّ \_ افتراء على الله ، و سيشهد عليهم الأَشهاد بذلك يوم يعرضون على ربّهم .

و قوله تعالى : « أولئك يعرضون على ربّهم » العرض إظهار الشيء ليرى و يوقف عليه ، و لما كان ارتفاع الحجب بينهم و بين ربّهم يوم القيامة بظهور آياته و وضوح الحقّ الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضوراً اضطرارياً منهم لفصل القضاء سمّاه عرضاً لهم على ربّهم كما سمّي بوجه آخر بروزاً منهم لله فقال : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ ، و قال : « و برزوا لله الواحد القهار » إبراهيم : ٤٨ فقال : « أولئك يعرضون على ربّهم » أي يأتي بهم الملائكة الموكلون بهم فيوقفونهم موقفا ليس بينهم و بين ربّهم حاجب حائل لفصل القضاء .

و قوله : « و يقول الأَشهاد هؤلاء الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ » الأَشهاد جمع شهيد كأَشراف جمع شريف وقيل : جمع شاهد كأَصحاب جمع صاحب ، و يؤيِّد الأَوَّل قوله تعالى : « فكيف إِذا جئنا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » النساء : ٤١ وقوله : « وجاءت كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ » ق : ٢١ .

و قول الأَشْهاد هؤلاء الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ شَهادَة مِنْهُمْ عَلَيْهِم بِالْاِفْتِراءِ عَلَى اللَّهِ أَي سَجَّلَ عَلَيْهِم بِأَنَّهُم الْمُفْتَرُونَ مِنْ جِهَة شَهادَة الأَشْهاد عَلَيْهِم بِذلك فِي مَوْقفٍ لَا يَذْكَرُ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ وَلَا مَنَاصَ فِيهِ مِنَ الاعْتِرافِ وَ القَبولِ كَمَا قالَ تعالى : « لَا يَتَكَلِّمُونَ إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحمانُ وَ قالَ صَواباً » النِّبأ : ٣٨ وَ قالَ تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سَوءٍ تَودُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً » آلِ عَمْران : ٣٠ .

**قوله تعالى :** « أَلْأَلْعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » الخ تَتِمَّةٌ قَوْلِ الأَشْهاد ، وَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى : « فَأَذِّنْ مُؤذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ » الأعراف : ٤٥ .

وَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ الْمُحْكِيّ فِي كَلَامِهِ تعالى تَثْبِيْتُ مِنْهُمْ لِلْبَعْدِ وَ اللَّعْنِ عَلَى الظَّالِمِينَ وَ تَسْجِيلُ لِلْعَذابِ ، وَ لَيْسَ اللَّعْنُ وَ الرَّحْمَةُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كَاللَّعْنِ وَ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيا كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ الْإِنْسَانُ » البقرة : ١٥٩ وَ ذلك أَنَّ الدُّنْيا دارُ عَمَلٍ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَوْمُ جِزاءٍ فَمَا فِيهِ مِنْ لَعْنَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ هُوَ إِصالُ ما أَذْخَلَهُمْ إِلَيْهِمْ فَلَعْنُ اللَّانِ عَنْ أَحْدا يَوْمَ الْقِيامَةِ طَرْدُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْخَاصَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ وَ تَسْجِيلُ عَذابِ الْبَعْدِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ فَسَّرَ سَبْحانَهُ الظَّالِمِينَ بِقَوْلِهِ حِكايَةً عَنْهُمْ : « الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ » فَهْمُ الَّذِينَ لَا يَذْعَنُونَ بِيَوْمِ الْحِسابِ حَتَّى يَعمَلُوا لَهُ وَ إِنَّمَا يَعمَلُونَ لِلدُّنْيا وَ يَسْلُكُونَ مِنْ طَرِيقِ الْحِياةِ ما يَتَمَتَّعونَ بِهِ لِلدُّنْيا الْمادِّيَّةِ فَحَسَبَ ، وَ هُوَ السَّنَةُ الْاجْتِماعِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْتَنِيَةِ بِما يَريدهُ اللَّهُ مِنْ عِبادِهِ مِنْ

دين الحقّ و ملّة الفطرة فهؤلاء سواء اعتقدوا بصانع و عملوا بسنّة محرّفة منحرفة عن دين الفطرة و هو الإسلام أم لم يعتقدوا به ممّن يقول : إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلّا الدهر ، ظالمون مفترون على الله الكذب ، و قد تقدّم بعض الكلام المتعلّق بهذه المعاني في سورة الأعراف آية ٤٤ - ٤٥ .

و قد بان ممّا تقدّم من البحث في الآيتين أوّلا : أنّ الدين في عرف القرآن هو السنّة الاجتماعيّة الدائرة في المجتمع .

و ثانيا : أنّ السنن الاجتماعيّة إمّا دين حقّ فطريّ و هو الإسلام أو دين محرّف عن الدين الحقّ و سبيل الله عوجا .

**قوله تعالى :** « أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض و ما كان لهم من دون الله من أولياء » إلى آخر الآية . الإشارة إلى المفترين على الله الموصوفين بما مرّ في الآيتين السابقتين .

و المقام يدلّ على أنّ المراد من كونهم غير معجزين في الأرض أنّهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه في حياتهم الأرضيّة حيث خرجوا عن زيّ العبوديّة فأخذوا يفترون على الله الكذب و يصدّون عن سبيله و يبغونها عوجاً فكلّ ذلك لا لأنّ قدرتهم المستعارة فاقت قدرة الله سبحانه و مشيئتهم سبقت مشيئته ، ولا لأنّهم خرجوا من ولاية الله فدخلوا في ولاية غيره و هم الذين اتّخذوهم أولياء من أصنامهم و كذا سائر الأسباب التي ركنوا إليها ، و ذلك قوله : « و ما كان لهم من دون الله من أولياء » .

و بالجملة لا قدرتهم غلبت قدرة الله سبحانه ولا شركائهم الذين يسمّونهم أولياء لأنفسهم أولياء لهم بالحقيقة يدبّرون أمرهم و يحملونهم على ما يأتون به من البغي و الظلم بل الله سبحانه هو وليّهم و هو المدبّر لأمرهم يجازيهم على سوء نيّاتهم و أعمالهم بما يجزّونهم إلى سوء العذاب و يستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى : « فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم » الصفّ : ٥ ، وقال : « يضلّ به كثيرا و يهدي به كثيرا و ما يضلّ به إلّا الفاسقين » البقرة : ٢٦ .

و قوله . « يضاعف لهم العذاب » ذلك لأنهم فسقوا ثم لجّوا عليه أو لأنهم عصوا الله بأنفسهم وحلوا غيرهم على معصية الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصية قال تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » النحل : ٢٥ و قال : « و نكتب ما قدّموا و آثّارهم » يس : ١٢ .

و قوله : « ما كانوا يستطيعون السمع و ما كانوا يبصرون » في مقام التعليل و لذا جيء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا ولم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادة الله و لا لأن لهم أولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار و التبشير من ناحيته أو يذكر لهم من البعث و الزجر من قبله و ما كانوا يبصرون آياته حتّى يؤمنوا بها كما وصفهم في قوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ » الأعراف : ١٧٩ ، و في قوله : « و تقلّب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة » الأنعام : ١١٠ ، و قوله : « ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة » البقرة : ٧ ، و آيات أخرى كثيرة تدلّ على أنّه تعالى سلبهم عقولهم و أعينهم و آذانهم غير أنّه تعالى يحكي عنهم مثل قولهم : « و قالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم » المملك : ١١ ، و اعترفهم بأنّ عدم سمعهم و عقلهم كان ذنباً منهم مع أنّ ذلك مستند إلى سلبه تعالى منهم ذلك يدلّ على أنّهم أنفسهم توسّلوا إلى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدلّ عليه ما تقدّم من قوله تعالى : « و ما يضلّ به إلاّ الفاسقين » البقرة : ٢٦ و غيره .

و ذكروا في معنى قوله : « ما كانوا يستطيعون السمع و ما كانوا يبصرون » وجوهاً أخرى :

منها : أنّ قوله : ما كانوا الخ في محلّ النصب بنزع الخافض و هو متعلّق بقوله : بضاعف الخ و الأصل : بما كانوا يستطيعون السمع و بما كانوا يبصرون ، و المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون و بما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون .

ومنها : أنه عنى بقوله : « ما كانوا يستطيعون » الخ نفي السمع و البصر عن آلهتهم و أوثانهم ، و تقدير الكلام أولئك الكفار و آلهتهم لم يكونوا معجزين في الأرض ، و قال مخبراً عن الآلهة : ما كانوا يستطيعون السمع و ما كانوا يبصرون .  
ومنها : أن لفظة ما في « ما كانوا » ليست للنفي بل تجري مجرى قولهم : لا واصلنك ما لاح نجم ، و المعنى أنهم معدّون ما داموا أحياء .

ومنها : أن نفي السمع و البصر بمعنى نفي الفائدة فإنهم لاستثقالهم استماع آيات الله و النظر فيها و كراهيتهم لذلك أجروا مجرى من لا يستطيع السمع ولا يبصر فالكلام على الكناية .

و أعدل الوجوه آخرها وهي جميعاً سخيصة ظاهرة السخافة . والوجه ما قد مناه .  
**قوله تعالى :** « أولئك الذين خسروا أنفسهم و ضلّ عنهم ما كانوا يفترون »  
أمّا خسرانهم فإنّ الإنسان لا يملك بالحقيقة - و ذلك بتمليك من الله تعالى - إلا نفسه و إذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها و ضيعتها بالكفر و المعصية فقد خسر في هذه المعاملة التي أقدم عليها نفسه فخسران النفس كناية عن الهلاك ، و أمّا ضلال ما كانوا يفترون فإنّه كان كذباً و افتراء ليس له وجود في الخارج من أوهامهم و مزاعمهم التي زينتها لهم الأهواء و الهوسات الدنيوية و بانطواء بساط الحياة الدنيا يزول و ينمحي تلك الأوهام و يضلّ ملاح و استقرّ فيها من الكذب و الافتراء و يومئذ يعلمون أن الله هو الحقّ المبين ، و يبدولهم من الله مالم يكونوا يحتسبون .

**قوله تعالى :** « لاجرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » عن القرأ : أن « لاجرم » في الأصل بمعنى لابدّ و لا محالة ثمّ كثرت فحوّلت إلى معنى القسم و صارت بمعنى « حقاً » و لهذا تجاب باللام نحو لا جرم لا فعلنّ كذا . انتهى وقد ذكروا أن « جرم » بفتح الحين بمعنى القطع فلمعلّها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام كلفظة « لا محالة » و تفيد أنّه لا يقطع هذا القول قاطع - إنّ كذا كذا كما يتصور نظير المعنى في « لا محالة » فمعنى الآية على هذا : حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون .  
و وجه كونهم في الآخرة هم الأخسرين إن فرض أنهم أخسر بالنسبة إلى

غيرهم من أهل المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها وإضاعتها بالكفر والعناد فلا مطمع في نجاتهم من النار في الآخرة كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا ويسعدوا بالإيمان ماداموا على العناد قال تعالى : « الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » الأنعام : ١٢ ، وقال تعالى في هؤلاء المختوم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » يس : ١٠ ، وقال أيضا في سبب عدم إمكان إيمانهم : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَغَشَّى قَلْبَهُ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ » الجاثية : ٢٣ .

وإن فرض أنهم أخسر بالنسبة إلى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله حرّموا سعادة الحياة التي يمهدّها لهم الدين الحقّ فخسروا في الدنيا كما خسروا في الآخرة لكنّهم في الآخرة أخسر لكونها دائمة مخلّدة وأمّا الدنيا فليست إلّا قليلا قال : « كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » الأحقاف : ٣٥ .

على أنّ الأعمال تشدّد وتضاعف في الآخرة بنتائجها كما قال تعالى : « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » أسرى : ٧٢ ، وأحسن الوجهين أوّلهما لأنّ ظاهر الآية حصر الأخسرين فيهم دون إثبات أخسريّتهم في الآخرة قبالة الدنيا .

**قوله تعالى :** « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » إلى آخر الآية قال الراغب في المفردات : الخبت المطمئنّ من الأرض وأخبت الرجل قصد الخبت أنزله نحو أسهل وأنجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين والتواضع قال الله تعالى : « وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » وقال : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ أَيُّ الْمُتَوَاضِعِينَ نَحْوًا لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، وَقَوْلُهُ : فَتَخَبَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ أَيُّ تَلَيَّنَ وَتَخَشَع . انْتَهَى .

فالمراد بإخباتهم إلى الله اطمئنّانهم إليه بحيث لا يتزلزل ما في قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون ولا يرتابون كالأرض المطمئنة التي تحفظ ما استقرّ فيها



فلا وجه لما قيل إن الأصل : أخبتوا ربهم فإن ما في معنى الاطمئنان يتعدى إلى دون اللام .

و تقييده تعالى الإيمان والعمل الصالح بالإخبارات إليه يدل على أن المراد بهم طائفة خاصة من المؤمنين وهم المطمئنون منهم إلى الله ممن هم على بصيرة من ربهم ، وهو الذي أشرنا إليه في صدر الآيات عند قوله : « أفمن كان على بينة من ربه » الخ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس وهم أهل البصيرة الإلهية ومن عميت عين بصيرته .

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن هذه الآيات السبع يعني قوله : « أفمن كان على بينة من ربه » إلى قوله - أفلا تذكرون » بيان لحال الفريقين وهم الذين يكفرون بالقرآن والذين يؤمنون به .

**قوله تعالى :** « مثل الفريقين كالأعمى والأصم » والبصير والسميع أفلا تذكرون » المثل هو الوصف ، و غلب في المثل السائر وهويان معنى من المعاني الخفية على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس يأنس به ذهنه ويتلقاه فهمه لينقل به إلى المعنى المعقول المقصود ببيان ، و المراد بالفريقين من بين حالهما في الآيات السابقة ، والباقي واضح .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن أحمد بن عمر الخلال قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل : « أفمن كان على بينة من ربه و يتلوه شاهد منه » فقال : أمير المؤمنين عليه السلام هو الشاهد من رسول الله صلى الله عليه وآله و رسول الله صلى الله عليه وآله على بينة من ربه . و في أمالي الشيخ بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين عن الحسن عليه السلام في خطبة طويلة خطبها بمحضر معاوية - منها - فأدت الأمور وأفضت الدهور إلى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله للنبوّة و اختاره

للمرسالة ، و أنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ فكان أبي أوّل من استجاب لله عزّ وجلّ و لرسوله و أوّل من آمن و صدّق الله و رسوله و قد قال الله عزّ وجلّ في كتابه المنزل على نبيّه المرسل : «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » فرسول الله الذي على بينة من ربه ، و أبي الذي يتلوه و هو شاهد منه .  
الخطبة .

**اقول :** و كلامه ﷺ أحسن شاهد على ما قدّمناه في معنى الآية أن إرادته ﷺ بالشاهد من باب الانطباق .

و في بصائر الدرجات باسناده عن الأصبع بن نباتة قال : قال أمير المؤمنين ﷺ : لو كسرت لي الوسادة فقعدت عليها لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بأنجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يصعد إلى الله يزهر ، و الله ما نزلت آية في كتاب الله في ليل أو نهار إلا وقد علمت فيمن أنزلت ، و لأحد من مرّ على رأسه المواسي إلا و قد أنزلت آية فيه من كتاب الله تسوقه إلى الجنة أو النار .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ما الآية التي نزلت فيك ؟ قال : أما سمعت الله يقول : «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » فرسول الله ﷺ على بينة من ربه و أنا الشاهد له و منه .

**اقول :** و روى هذا المعنى المفيد في الأمالي مسندا و في كشف الغمّة مرسلا عن عباد بن عبد الله الأسديّ عنه ﷺ ، و العياشيّ في تفسيره مرسلا عن جابر عن عبد الله بن يحيى عنه ﷺ و كذا ابن شهر آشوب عن الطبريّ باسناده عن جابر بن عبد الله عنه ﷺ و كذا عن الأصبع و عن زين العابدين و الباقر و الصادق ﷺ عنه ﷺ .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم في المعرفة عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ما من رجل من قریش إلا نزل فيه طائفة من القرآن فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » رسول الله ﷺ على بينة من ربه ، و أنا شاهد منه .

**اقول :** وفي تفسير البرهان عن تفسير الثعلبي بإسناده عن الشعبي يرفعه إلى علي عليه السلام مثله وفيه عن ابن المغازلي يرفعه إلى عباد بن عبد الله عن علي عليه السلام مثله وكذا عن كنوز الرموز للرسعني مثله .

وفيه أخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفمن كان على بيئته من ربه » أنا « و يتلوه شاهد منه » قال : علي .

**اقول :** وفي تفسير البرهان عن ابن المغازلي في تفسير الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله .

وفي تفسير البرهان عن ابن المغازلي بإسناده عن علي بن حابس قال : دخلت أنا و أبو مريرم على عبد الله بن عطاء قال أبو مريرم : حدثت علينا الحديث الذي حدثتني به عن أبي جعفر قال : كنت عند أبي جعفر جالسا إذ مر علينا ابن عبد الله بن سلام قلت : جعلت فداك هذا ابن الذي عنده علم الكتاب قال : لا ولكنّه صاحبكم علي بن أبي طالب الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله تعالى : « من عنده علم الكتاب » « أفمن كان على بيئته من ربه و يتلوه شاهد منه » « إنما وليكم الله و رسوله و الذين آمنوا » .

وفيه عن ابن شهر آشوب عن الحافظ أبي نعيم بثلاثة طرق عن ابن عباس قال : قال : سمعت عليا يقول : قول الله تعالى : « أفمن كان على بيئته من ربه و يتلوه شاهد منه » رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيئته وأنا الشاهد .

وفيه أيضا عن موفق بن أحمد قال : قوله تعالى : « أفمن كان على بيئته من ربه و يتلوه شاهد منه » قال ابن عباس : هو علي يشهد للنبي صلى الله عليه وسلم و هو منه .

**اقول :** و رواه عن الثعلبي في تفسيره يرفعه إلى ابن عباس « أفمن كان على بيئته من ربه و يتلوه شاهد منه » علي خاصة .

**اقول :** قال صاحب المنار في تفسير الآية عند ذكر معاني الشاهد : و منها :  
 أنه علي رضي الله عنه ترويه الشيعة و يفسرونه بالامامة ، و روي : أنه كرّم الله  
 وجهه سئل عنه فأنكره و فسّره بأنّه لسانه صلى الله عليه وسلّم ، و قابلهم خصومهم  
 بمثلها فقالوا : إنه أبو بكر ، و هما من التفسير بالهوى . انتهى أمّا قوله : « إن  
 الشيعة ترويه » فقد عرفت أن رواته من أهل السنة أكثر من الشيعة ، و أمّا قوله :  
 « إنه مثل تفسيره بأبي بكر من التفسير بالهوى » فيكفيك في ذلك ما تقدّم في معنى  
 الآية فراجع .

وفي الكافي باسناده عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : إن عندنا  
 رجلا يقال له : كليب فلا يجي، عنكم شيء ، إلّا قال : أنا أسلم فسمّيناه كليب تسليم  
 قال : فترحم عليه ثم قال : أندرون ما التسليم ؟ فسكتنا فقال : هو والله الإخبات  
 قول الله عز وجل : « الذين آمنوا و عملوا الصالحات و أخبتوا إلى ربّهم » .  
**اقول :** و روى مثله العياشي في تفسيره و الكشي و كذا صاحب البصائر  
 عن أبي أسامة زيد الشحام عنه عليه السلام .





وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَيْنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ (٢٨) وَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَ يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتَ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥).

### ﴿بيان﴾

شروع فی قصص الانبیاء ﷺ وقد بدأ بنوح وعقبه بجماعة ممن بعده كهود و صالح و إبراهيم و لوط و شعيب و موسى ﷺ . و قد قسم قصة نوح إلى فصول

أولها احتجاجه ﷺ على قومه في التوحيد فهو ﷺ أول الأنبياء الناهضين للتوحيد على الوثنية على ما ذكره الله تعالى في كتابه ، وأكثر ما قص من احتجاجه ﷺ مع قومه من المجادلة بالنبي هي أحسن و بعضه من الموعظة و قليل منه من الحكمة و هو الذي يناسب تفكير البشر الأولي و الإنسان القديم الساذج ، وخاصة تفكيرهم الاجتماعي الذي لا ظهور فيه إلا للمر كوم من أفكار الأفراد المتوسطين في الفهم .

**قوله تعالى :** « و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنني لكم نذير مبين » القراءة المعروفة « إنني » بكسر الهمزة على تقدير القول و قرئ ، أنني بفتح الهمزة بنزع الخافض و التقدير بأنني لكم نذير مبين ، و الجملة أعني قوله : « إنني لكم نذير مبين » على أي حال بيان إجمالي لما أرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه و أرسل به إليهم إنذار مبين فهو نذير مبين .

فكما أنه لو قال : ما سألقيه إليكم من القول إنذار مبين كان بياناً لجميع ما أرسل به إليهم بأوجز كلمة كذا قوله : إنني لكم نذير مبين بيان لذلك بالإجمال غير أنه يزيد على سابقه ببيان سمة نفسه وهي أنه رسول من الله إليهم لينذرهم بعذاب الله ، وليس له من الأمر شيء أزيد من أنه واسطة يحمل الرسالة .

**قوله تعالى :** « ألا تعبدوا إلا الله إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . بيان ثان لما أرسل به أو بيان لقوله : « إنني لكم نذير مبين » ومآل الوجهين واحد، وأن على أي حال مفسرة ، والمعنى أن محصل رسالته النهي عن عبادة غير الله تعالى من طريق الإنذار و التخويف .

و ذكر بعض المفسرين أن الجملة أعني قوله : « أن لا تعبدوا » الخ بدل من قوله : « إنني لكم نذير مبين » أو مفعول لقوله مبين . ولعل السياق يؤيد ما قدّمناه .

و الظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة أو الأعم من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم : « يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به

الله إن شاء » الآية فانه ظاهر في عذاب الاستئصال .

فهو عليه السلام كان يدعوهم إلى رفض عبادة الأوثان ويخوفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم أي مولم ونسبة الأيلام إلى اليوم دون العذاب في قوله : « عذاب يوم أليم » من قبيل وصف الظرف بصفة المظروف .

وبما تقدّم يندفع ما ربّما قيل : إنّ تعذيب المشركين مقطوع لاحتتمل فما الوجه في خوفه ﷺ من تعذيبهم المقطوع ؟ والخوف إنّما يستقيم في محتمل الوقوع لا مقطوعه .

و بالجملة كان ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب، وإنّما كان يخوفهم لأنّهم كانوا يعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح ﷺ بأنّ الله سبحانه هو الذي خلقهم ودبّر شؤون حياتهم وأمر معاشهم بخلق السموات والأرض وإشراق الشمس والقمر وإنزال الأمطار وإنبات الأرض وإنشاء الجنّات وشقّ الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه ﷺ في سورة نوح .

وإذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربّهم لربّ سواه فليخافوا عذابه وليعبدوه

وحده .

وهذه الحجّة في الحقيقة حجّة برهانية مبنية على اليقين لكنّهم إنّما كانوا يتلقونها حجّة جدليّة مبنية على الظنّ لأنّهم لسذاجة أفهامهم كانوا يتوقعون سخط الربّ وعذابه على المخالفة لأنّهم يرونه وليّاً لأمرهم مصلحاً لشأنهم فيقيسون أمره بأمر الأولياء من الإنسان الحاكمين في من دونهم من أفراد المجتمع الذين يجب الخضوع لمقامهم والتسليم لأرادتهم ولو استكبر عن الخضوع لهم والتسليم لأرادتهم من دونهم سخطوا عليهم وعاقبوه بما أجزموا وتمرّدوا .

و على هذا القياس يجب إرضاء الربّ أو الأرباب الذين يرجع إليهم أمر الكون وولاية النظام الجاري فيه فيجب إرضاءه وإخماد نار غضبه بالخضوع له و التقرب إليه بتقديم القرابين والتضحية وسائر أنحاء العبادة فهكذا كانوا يعتقدون و هو مبنيّ على الظنّ .

لكنّ مسألة نزول العذاب على الاستنكاف عن عبادة الله تعالى و الاستكبار عن التسليم و الخضوع لساحة الربوبية مسألة حقيقيّة يقينيّة فإنّ من النواميس الكلّية الجارية في انكون لزوم خضوع الضعيف للقويّ و المتأثر المقهور للمؤثر القاهر فما قولك في الله الواحد القهار الذي إليه مصير الأمور .

وقد أبدع الله سبحانه أجزاء الكون و ربط بعضها ببعض ثمّ أجرى الحوادث على نظام الأسباب وعلى ذلك يجري كلّ شيء في نظام وجوده فلو انحرف عمّا يخطّه له سائر الأسباب من الخطّ أدّى ذلك إلى اختلال نظامها و كان ذلك منازعة منه لها وعند ذلك ينتهز سائر الأسباب الكونية من أجزاء الوجود لتعديل أمره وإرجاعه إلى خطّ يلائمها تدفع بذلك الشرّ عن نفسها فإن استقام هذا الجزء المنحرف عن خطّه المخطوط له فهو وإلاّ حطمتها حاطمات الأسباب ونازلات النوائب والبلايا، وهذا أيضاً من النواميس الكلّية .

و الإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون له في حياته خطّ خطّه له الصنع و الإيجاد فإن سلكه هداه إلى سعادته و وافق بذلك سائر أجزاء الكون و فتحت له أبواب السماء ببركاتها وسمحت له الأرض بكنوز خيراتها ، وهذا هو الإسلام الذي هو الدين عند الله تعالى المدعوّ إليه بدعوة نوح ومن بعده من الأنبياء والرسل عليهم السلام . و إن تخطّاه و انحرف عنه فقد نازع أسباب الكون وأجزاء الوجود في نظامها الجاري وراحها في شؤون حياتها فليمتوقع مرّ البلاء و لينتظر العذاب و العناء فإن استقام في أمره و خضع لإرادة الله سبحانه و هي ما تحطمه من الأسباب العامّة فمن المرجوّ أنّ تتجدّد له النعمة بعد النقمة و إلاّ فهو الهلاك والفناء وإن الله لغنيّ عن العالمين ، وقد تقدّم هذا البحث في بعض أجزاء الكتاب السابقة .

**قوله تعالى :** « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا » إلى آخر الآية . الفاء في صدر الآية لتفريع جوابهم عن قول نوح عليه السلام ، وفيه إشارة إلى أنّهم بادروه بالردّ و الإنكار من دون أن يفكروا في أنفسهم فيختاروا ما هو أصحّ لهم .



و المجبيون هم الملأ من قومه و الأشراف و الكبراء الذين كفروا به ولم-  
يتعزوا في جوابهم لما ألقى إليهم من حجة التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفي رسالته  
و الاستكبار عن طاعته فإن قوله : « إنني لكم نذير مبين » إلى آخر الآيتين كان  
مشتملا على دعوى الرسالة وملوِّحا إلى وجوب الاتباع وقد صرح به فيما حكى عنه  
في موضع آخر قال تعالى : « قال يا قوم إنني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله و اتقوه و  
أطيعون » نوح : ٣ .

و محصل ما نقله الله تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل  
الدليل على خلافه فهو في الحقيقة حجتان منظومتان على طريق الاضراب والترقي  
ولذلك أخرج قولهم : « بل نظنكم كاذبين » .

والحجة الأولى التي مدلولها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينة بطرق  
ثلاث هي قوله : « ما نراك إلا بشرا » الخ وقوله : « وما نراك اتبعك » الخ وقوله :  
« وما نرى لكم علينا » الخ

والحجة بجميع أجزائها مبينة على إنكار ما وراء الحس كما سنبين ولذلك  
كرر روا فيه قولهم : ما نراك وما نرى .

فقوله : « ما نراك إلا بشرا مثلنا » أول جوابهم عما يدعيه نوح عليه السلام من  
الرسالة ، وقد تمسكوا فيه بالمماثلة كما هو دأب سائر الأمم مع أنبيائهم على ما حكاه  
الله تعالى في كتابه و تقريره : أنك مثلنا في البشرية ولو كنت رسولا إلينا من عند  
الله لم تكن كذلك ولا نشاهد منك إلا أنك بشر مثلنا ، و إذ كنت بشرا مثلنا لم  
يكن هناك موجب لا اتباعك .

ففي الكلام تكذيب لرسالته عليه السلام بأنه ليس إلا بشرا مثلهم ثم استنتاج من  
ذلك أنه لا دليل على لزوم اتباعه ، و الدليل على ما ذكرنا قول نوح عليه السلام فيما  
سيحكيه الله تعالى من كلامه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » الخ .  
و قد شبه الأمر على بعض المفسرين فقر قولهم : « ما نراك إلا بشرا مثلنا »  
بأنهم ساووه بأنفسهم في الزنة الاجتماعية و استنتجوا منها أنه لا وجه لاتباعهم له

قال في تفسير الآية : أجابوه بأربع حجج داحضة : إحداها : أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم في الجملة ، وهذا يدل على أنه ﷺ كان من طبقتهم أو ما يقرب منها في بيته و في شخصه و هكذا كان كل رسول من وسط قومه ، ووجه الجواب أن المساواة تنافي دعوى تفوق أحد المتساوين على الآخر بجعل أحدهما تابعا طائعا و الآخر متبوعا مطاعا لأنه ترجيح بغير مرجح . انتهى .

ولو كان المعنى ما ذكره لكان من حق الكلام أن يقال : أنت مثلنا أو نراك مثلنا دون أن يقال : ما نراك إلا بشرا مثلنا فيذكر أنه بشر ولا حاجة إلى الإشارة إلى بشريته ، و لكان معنى الكلام عائدا إلى المراد من قولهم بعد : و ما نرى لكم علينا من فضل ، و كان فضلا من الكلام .

و من العجب استفادته من الكلام مساواته ﷺ لهم في البيت و الشخصية ثم قوله : « و هكذا كان كل رسول من وسط قومه » و في الرسل مثل إبراهيم و سليمان و أيوب ﷺ .

وقوله : « و ما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادلنا بادي الرأي » قال في المفردات : الرذل - بفتح الراء - و الرذال - بكسرها - المرغوب عنه لردائه قال تعالى : « و منكم من يرد إلى أرذل العمر » وقال : « إلا الذين هم أرادلنا بادي الرأي » و قال : « قالوا أنؤمن لك و اتبعك الأرذلون » جمع الأرذل .

و قال في المجمع : الرذل الخسيس الحقير من كل شيء ، و الجمع أرذل ثم يجمع على أرادل كقولك : كلب و أكلب و أكالب ، و يجوز أن يكون جمع الأرذل فيكون مثل أكبر جمع أكبر .

و قال : و الرأي الرؤية من قوله : « يرونهم مثلهم رأي العين » أي رؤية العين و الرأي أيضا ما يراه الإنسان في الأمر و جمعه آراء . انتهى .

و قال في المفردات : و قوله : « بادي الرأي أي ما يبدء من الرأي و هو الرأي الفطير ، و قرىء : بادي بغير همزة أي الذي يظهر من الرأي ولم يترو فيه . انتهى .

و قوله : « بادي الرأي » يحتمل أن يكون قيداً لقوله : « هم أرادلنا » أي كونهم أرادل و سفلة فينا معلوم في ظاهر الرأي و النظر أو في أوّل نظرة .  
و يحتمل كونه قيداً لقوله : « اتّبعك » أي اتّبعوك في ظاهر الرأي أوفي أوّل من غير تعمّق و تفكّر ولو تفكّروا قليلاً و قلبوا أمرك ظهراً لبطن ما اتّبعوك ، و هذا الاحتمال لا يستغني عن تكرار الفعل ثانياً و التقدير : اتّبعوك بادي الأمر و إلّا اختلّ المعنى لولم يتكرّر و قيل : ما نراك اتّبعك في بادي الرأي إلّا الذين هم أرادلنا .

و بالجملة معنى الآية : أنا نشاهد أن متّبعيك هم الأراذل والأخسّاء من القوم ولو اتّبعنك ساويناهم و دخلنا في زميرتهم و هذا ينافي شرافتنا و يحطّ قدرنا في المجتمع ، و في الكلام إيحاء إلى بطلان رسالته ﷺ بدلالة الالتزام فإنّ من معتقدات العامّة أن القول لو كان حقّاً نافعا لتبعه الشرفاء و العظماء و أوّلوا القوّة و الطول فلو استنكفوا عنه أو اتّبعه الأخسّاء و الضعفاء كالعبيد و المساكين والفقراء ممّن لاحظ له من مال أوجه و لا مكاة له عند العامّة فلا خير فيه .

و قوله : « ولا نرى لكم علينا من فضل » المراد نفى مطلق الفضل من متاع دنيويّ يختصّون بالنعيم به أو شيء من الأمور الغيبية كعلم الغيب أو التأييد بقوّة ملكوتية و ذلك لكون النكرة - فضل - واقعة في سياق النفي فنفي العموم .

و قد أشرّكوا أتباع نوح ﷺ و المؤمنين به منهم في دعوته إذ قالوا : « ولا نرى لكم علينا » ولم يقولوا : « ولا نرى لك » لأنّهم كانوا يحثّونهم و يرغبونهم في اتّباع ما اتّبعوه من الطريقة .

و المعنى أن دعوتكم إيانا - و عندنا ما نتمتع به من مزايا الحياة الدنيا كالمال و البنين و العلم و القوّة - إنّما يستقيم و يؤثر أثره لو كان لكم شيء من الفضل تفضلون به علينا من زينة الحياة الدنيا أو علم من الغيب أو قوّة من الملكوت حتّى يوجب ذلك خضوعاً منّا لكم ولا نرى شيئاً من ذلك عندكم فأيّ موجب يوجب علينا اتّباعكم ؟

و إنما عمّمنا الفضل في كلامهم للفضل من حيث الجهات الماديّة وغيره كعلم الغيب والقوّة المملوكيّة خلافاً لأكثر المفسّرين حيث فسّروا الفضل بالفضل الماديّ كالمال والكثرة وغيرهما ، لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكرة في سياق النفي .

مضافاً إلى أنّ ما يحاذي قولهم هذا من جواب نوح عليه السلام يدلّ على ذلك و هو قوله : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنني ملك » الخ على ما سيأتي .

و قوله تعالى : « بل نظنّكم كاذبين » إضراب في الاحتجاج كما تقدّمت الإشارة إليه فمحصله أنّنا لا نرى معكم أمراً يوجب اتّباعنا لكم بل هناك أمر يوجب عدم الاتّباع و هو أنّنا نظنّكم كاذبين .

و معناه على ما يعطيه السياق - والله أعلم - أنّه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحّة دعوتكم و إنّكم تلتجئون علينا بالسمع والطاعة وأنتم صفر الأيدي من مزايا الحياة من مال و جاه و هذه الحال تستدعي الظنّ بأنّكم كاذبون في دعواكم تريدون بهانيل ما بأيدينا من أمانيّ الحياة بهذه الوسيلة وبالجملة هذه أمارّة توجب عادة الظنّ بأنّها أ كذوبة يتوسّل بها إلى اقتناء الأموال و القبض على ثروة الناس و الاستعلاء عليهم بالحكم و الرئاسة ، و هذا كما حكى الله سبحانه عنهم في مثل القصّة إذ قال : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاّ بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم » المؤمنون : ٢٤ . و بهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظنّ دون الجزم ، و أنّ المراد بالكذب الكذب المخبريّ دون الخبريّ .

**قوله تعالى :** « قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربّي » إلى آخر الآية بيان لما أجاب به نوح عليه السلام عن حجّتهم إلى تمام أربع آيات و التعمية الإخفاء فمعنى عميت عليكم بالبناء للمفعول أخفيت عليكم من ناحية جهلكم و كراحتكم للحقّ . و قرئ : عميت بالتخفيف و البناء للفاعل أي خفيت عليكم تلك الرحمة . لما كانت حجّتهم مبنيّة على الحسّ و نفي ما وراءه و قد استنتجوا منها أوّلاً

عدم الدليل على وجوب طاعته واتباعه ثم أُضربوا عنه بالترقي إلى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم أجابهم ﷺ بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته وما يتبعه ، و نفي ما حاولوا إثباته باتّهامه و اتّهام أتباعه بالكذب غير أنّه استعطفهم بـ «خطاب ياقوم - بالاضافة إلى ضمير التكلم - مرة بعد مرة ليجلّهم إليه فيقع نصحه موقع القبول منهم .

وقد أبدع الآيات الكريمة في تقرير حجّته ﷺ في جوابهم فقطعت حجّتهم فصلاً فصلاً وأجابت عن كلّ فصل بوجهيه أعني من جهة إنتاجه أن لا دليل على اتّباعه ﷺ وأنّ الدليل على خلافه و ذلك قوله : «يا قوم أرايتم إن كنت على بيّنة» الخ وقوله : « وما أنا بطارد الذين آمنوا » الخ ، وقوله : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله » الخ ثم أخذت من كلّ حجة سابقة شيئاً يجري مجرى التلخيص فأضافته إلى الحجّة اللاحقة بادئة به فامتزجت الحجّة بالحجّة على ما لكلّ منها من الاستقلال و التمام .

فتمتّ الحجج ثلاثاً كلّ واحدة منها مبدوءة بالخطاب وهي قوله : « يا قوم أرايتم إن كنت على بيّنة » الخ ، و قوله : « ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً » الخ ، و قوله : « ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم » الخ فتدبّر فيها .  
فقوله : « قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيّنة من ربّي » جواب عن قولهم : « ما نراك إلّا بشراً مثلنا » يريدون به أنّه ليس معه إلّا البشرية التي يماثلهم فيها و يماثلونه فبأي شيء يدّعي وجوب اتّباعهم له ؟ بل هو كاذب يريد بما يدّعيه من الرسالة أن يصطادهم فيقتنص بذلك أموالهم و يترأس عليهم .

وإذ كان هذا القول منهم متضمّناً لنفي رسالته وسندهم في ذلك أنّه بشر لا أثر ظاهر معه يدلّ على الرسالة و الاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه في دعوى الرسالة و هو الآية المعجزة الدالة على صدق الرسول في دعوى الرسالة فإنّ الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعادة الجارية لا طريق إلى العلم بتحقيقه إلّا بوقوع أمر غيبي آخر خارق للعادة يوقن به كون الرسول صادقاً في

دعواه الرسالة ، و لذلك أشار ﷺ بقوله : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي » إلى أن معه بينة من الله وآية معجزة تدلّ على صدقه في دعواه .  
ومن هنا يظهر أن المراد بالبينّة الآية المعجزة التي تدلّ على ثبوت الرسالة لأنّ ذلك هو الذي يعطيه السياق فلا يعبأ بما ذكره بعض المفسّرين أن المراد بالبينّة في الآية العلم الضروري الذي يعلم به النبي أنّه نبيّ و ذلك لكونه معنى أجنبيّاً عن السياق .

و قوله : « وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم » الظاهر أنّه ﷺ يشير به إلى ما آتاه الله تعالى من الكتاب و العلم ، وقد تكرر في القرآن الكريم تسمية الكتاب و كذا تسمية العلم بالله و آياته رحمة قال تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » هود : ١٧ ، وقال : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء و هدى و رحمة » النحل : ٨٩ ، وقال : « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا » الكهف : ٦٥ ، وقال : « ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة » آل عمران : ٨ .

وأما قوله : « فعمّيت عليكم » فالظاهر أنّ ضميره راجع إلى الرحمة والمراد أنّ ما عندي من العلم والمعرفة أخفاه عليكم جهلكم و كراهتمكم للحقّ بعدما ذكرتمكم به وبثنته فيكم .

وقوله : « أنزل مكموها و أنتم لها كارهون » الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه ولا ينفكّ منه ، والمراد بالإنزالهم الرحمة وهم لها كارهون إجبارهم على الإيمان بالله و آياته و التلبّس بما يستدعيه المعارف الإلهيّة من النور والبصيرة .

و معنى الآية - و الله أعلم - أخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدّق رسالتي مع كوني بشراً مثلكم وكانت عندي ما تحتاج إليه الرسالة من كتاب و علم يهديكم إلى الحقّ لكن لم يلبث دون أن أخفاه عليكم عنادكم و استكباركم أيجب علينا عندئذ أن نجبركم عليها ؟ أي عندي جميع ما يحتاج إليه رسول من الله في رسالته

وقد أوقفتمكم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغياناً واستكباراً وليس عليّ أن أجبركم عليها ، إذ لا إيجاب في دين الله سبحانه .

ففي الكلام تعريض لهم أنّه قد تمت عليهم الحجّة و بانت لهم الحقيقة فلم يؤمنوا لكنهم مع ذلك يريدون أمراً يؤمنون لأجله وليس إلا الإيجاب والإلزام على كراهية ، فهم في قولهم : لا نراك إلا بشراً مثلنا ، لا يريدون إلا الإيجاب ، ولا إيجاب في دين الله .

والآية من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين تدلّ على أنّ ذلك من الأحكام الدينية المشرّعة في أقدم الشرائع وهي شريعة نوح عليه السلام وهو باق على اعتباره حتّى اليوم من غير نسخ .

وقد ظهر ممّا تقدّم أنّ الآية أعني قوله : « يا قوم أرأيتم إن كنت » الخ جواب عن قولهم : « لا نراك إلا بشراً مثلنا » ويظهر بذلك فساد قول بعضهم : إنّ جواب عن قولهم : « بل نظنّكم كاذبين » وقول آخرين : إنّ جواب عن قولهم : « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » وقول طائفة أخرى إنّ جواب عن قولهم : « وما نرى لكم علينا من فضل » ولا نطيل الكلام بالنعراض لتوضيحها وردّها .

**قوله تعالى :** « يا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرينى إلا على الله » يريد به الجواب ممّا اتّهموه به من الكذب ولازمه أن تكون دعوته طريقاً إلى جلب أموالهم وأخذ ما في أيديهم طمعاً فيه فإنّه إذا لم يسألهم شيئاً من أموالهم لم يكن لهم أن يتّهموه بذلك .

**قوله تعالى :** « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربّهم ولكنني أراكم قوماً تجهلون » جواب عن قولهم : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » وقد بدّل لفظة الأراذل - وهي لفظة إرزاء وتحقير - إلى قوله : الذين آمنوا تعظيماً لأمر إيمانهم وإشارة إلى ارتباطهم بربّهم .

نفى في جوابه أن يكون يطردهم وعلل ذلك بقوله : « إنهم ملاقوا ربّهم » إيذاناً بأنّ لهم يوماً يرجعون فيه إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم فيجازيهم على ما عملوه

من خير أَوْشَرٌ فحسابهم على ربهم وليس لغيره من الأمر شيء ، فليس على نوح عليه السلام أن يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء والمساكين والضعفاء أن يطردوا من مجتمع الخير ويسلبوا النعمة والكرامة .

فظهر أن المراد بقوله : « إِنَّهُمْ مَلَأُوا رَبَّهُمْ » الإيما، إلى محاسبة الله سبحانه إيّاهم يوم يرجعون فيه إليه فيلقونه كما وقع في نظير هذا المعنى في قوله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » الأنعام : ٥٧ .  
و أمّا قول من قال : إن معنى قوله : « إِنَّهُمْ مَلَأُوا رَبَّهُمْ » أنه لا يطردهم لأنهم ملأ قواربهم فيجازى من ظلمهم و طردهم ، أو أنهم ملأوا ثواب ربهم فكيف يكونون أراذل وكيف يجوز طردهم وهم لا يستحقون ذلك ، فبعيد عن الفهم . على أن أوّل المعنيين يجعل الآية التالية أعني قوله : « وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ » الآية زائدة مستغنى عنها كما هو ظاهر .

و ظهر أيضاً أن المراد بقوله : « وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » جهلهم بأمر المعاد وأن الحساب والجزاء إلى الله لا إلى غيره ، وأمّا ما ذكره بعضهم أن المراد به الجهالة المضادة للعقل والحلم أي تسفهون عليهم أو المراد أنكم تجهلون أن حقيقة الامتياز بين إنسان وإنسان باتّباع الحقّ وعمل البرّ والتحليّ بالفضائل لا بالمال و الجاه كما تظنّون فهو معنى بعيد عن السياق .

**قوله تعالى :** « وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » النصر مضمّن معنى المنع أو الإنجاء ونحوهما والمعنى من يمنعي أو من ينجينني من عذاب الله إن طردتهم أفلا تتذكرون أنه ظلم والله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم وينتقم منه ، و العقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوي بين الظالم والمظلوم ، ولا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوؤه و يشفي به غليل صدر المظلوم و الله عزيز ذو انتقام .



**قوله تعالى :** « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنني ملك » جواب عن قولهم : « ولا نرى لكم علينا من فضل » يرد عليهم قولهم بأنني لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعون مني أن أدعيه بما أني أدعي الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهية فيستقل باغناء الفقير وشفاء العليل وإحياء الموتى والتصرف في السماء والأرض و سائر أجزاء الكون بما شاء وكيف شاء .

و أن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه إلى نفسه، ويدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه و بالجملة يستكثر من الخيرات ويصان من المكاره .

وأن يرتفع عن درجة البشرية إلى مقام الملكية أي يكون ملكاً منزهاً من ألوان الطبيعة ومبرئاً من حوائج البشرية ونقائصها فلا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يقع في تعب اكتساب الرزق واقتناء لوازم الحياة وأمتعتها .

فهذه هي جهات الفضل التي تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها و يمتلكها فيستقل بها ، وقد أخطأتم فليس للرسول إلا الرسالة و إنني لست أدعي شيئاً من ذلك فلا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنني ملك ، وبالجملة لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعونه حتى تكذبوني بفقره ، و إنما أقول إنني على بينة من ربي تصدق رسالتي وآتاني رحمة من عنده .

و المراد بقوله : « خزائن الله » جميع الذخائر والكنوز الغيبية التي ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون إليه في وجودهم وبقائهم ويستعينون به على تكميم نقائصهم وتكميلها .

فهاتيك هي التي تزعم العامة أن الأنبياء والأولياء يؤتون مفاتيحها ويمتلكون بها من القدرة ما يفعلون بها ما يشاؤون ويحكمون ما يريدون كما اقترح على النبي ﷺ وقد حكاه الله تعالى إذ يقول : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتجيراً أو تسقط

السماء كما زعمت علينا كسفا أوتأتني بالله والملائكة قبيلاً أويكون لك بيت من زخرف أوترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً « أسرى : ٩٢ .

وإنما قال : « ولا أعلم الغيب » ولم يقل : ولا أقول إنني أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان ممّا يضمن به ولا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل : لا أقول إنني أعلم الغيب نافياً لوجوده عند القائل بل يحتاج إلى أن يقال : لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله : « لا أقول لكم عندي خزائن الله » وقوله : « ولا أقول إنني ملك » ، ولم يكرّر قوله : « لكم » لحصول الكفاية بالواحدة .

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح عليه السلام قومه ثم ذيل به بما يظهر به المراد إذ قال : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » الأنعام : ٥٠ .

انظر إلى قوله : « لا أقول لكم » الخ ثم إلى قوله : « إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » ثم إلى قوله : « قل هل يستوي الأعمى والبصير » الخ فهو ينفي أولاً الفضل الذي يتوقعه عامة الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول الرسالة فحسب ثم يبادر إلى إثبات الفضل من جهة أخرى غير الجهة التي يتوقعها الناس وهو أنه بصير بإبصار الله تعالى وأن غيره بالنسبة إليه كالأعمى بالنسبة إلى البصير وهذا هو الموجب لاتباعهم له كما يتبع الأعمى البصير ، وهو المجوز له أن يدعوهم إلى اتباعه .

## ﴿ كلام في قدرة الانبياء والاولياء فلسفى قرآنى ﴾

الناس في جهل بمقام ربهم و غفلة عن معنى إحاطته وهمنته فهم مع ما تهديهم الفطرة الإنسانية إلى وجوده وأحديته يسوقهم الابتلاء بعالم المادة والطبيعة و التوغل في الأحكام والقوانين الطبيعية ثم السنن والنواميس الاجتماعية والأنس

بالكثرة والبيئونة إلى قياس العالم الربوبي بما ألغوا من عالم المادة فإله سبحانه عندهم مع خلقه كجبار من جبابرة البشر مع عبده و رعيته .

فهناك فرد من الإنسان نسميه مثلاً ملكاً أو جباراً دونه وزراء وأمرأه والجنديون والجلالوزة يُجرون ما يأمر به أو ينهى عنه وله عطايا و مواهب لمن شاء و إرادة و كراهة و أخذ ورد و قبض و إطلاق و رحمة و سخط و قضاء و نسخ إلى غير ذلك .

و كل من الملك وخدمه وأيديه العمالة و رعاياه وما يدور بأيديهم من النعم وأمتعة الحياة أمر موجود محدود مستقل الوجود منفصلة عن غيره إنما يرتبط بعضهم ببعض بأحكام و قوانين و سنن اصطلاحية لا موطن لها سوى ذهن الذاهن و اعتقاد المعتقد .

وقد طبقوا العالم الربوبي أعني ما يخبر به النبوة من مقام الرب تعالى و صفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله على هذا النظام فهو تعالى يريد ويكره ويعطي ويمنع ويدبر نظام الخلقة كما يفعل ذلك الواحد من المسمى ملكا ، و هو محدود الوجود منعزل الكون و كل من ملائكته وسائر خليقته مستقل الوجود يملك ما عنده من الوجود والنعم الموهوبة دون الله سبحانه ، وقد كان تعالى في أزل الزمان وحده لاشي. معه من خلقه ثم أبدع في جانب الأبد الخلق فكانوا معه .

فقد أثبتوا - كما ترى - موجودا محدودا منطبق الوجود على الزمان غير أن وجوده الزماني دائم ، وله قدرة على كل شيء ، وعلم بكل شيء ، وإرادة لا تنكسر وقضاء لا ترد ، مستقل بما عنده من الصفات والأعمال كما يستقل الواحد من أفعاله ما عنده من الحياة و العلم و القدرة و غير ذلك فحياته حياة له و ليست لله ، و علمه علمه لا علم الله ، و قدرته قدرته لا قدرة الله وهكذا ، وإنما يقال لوجودنا أحيانا أو علمنا أو قدرتنا أنها لله كما يقال لما عند الرعية من النعمة أنها للملك بمعنى أنها كانت عنده فأخرجها من عنده و وضعها عندنا نتصرف فيها فجميع ذلك - كما ترى - يقوم على أساس المحدودية والانعزال .

لكن البراهين اليقينية تقضي بفساد ذلك كله فإنها تحكم بسرمان الفقر

و الحاجة إلى الموجودات الممكنة في ذواتها و آثار ذواتها و إذا كانت الحاجة إليه تعالى في مقام الذات استحالة الاستقلال عنه و الانعزال منه على الإطلاق إذ لو فرض استقلال شيء منه تعالى في وجوده أو شيء من آثار وجوده - بأي وجه فرض في حدوث أو بقاء - استغنى عنه من تلك الجهة وهو محال .

فكل ممكن غير مستقل في شيء من ذاته و آثار ذاته ، والله سبحانه هو الذي يستقل في ذاته و هو الغني الذي لا يفتقر في شيء ولا يفقد شيئاً من الوجود و كمال الوجود كالحياة و القدرة و العلم فلا حد له يتحدد به . وقد تقدم بعض التوضيح لهذه المسألة في ذيل تفسير قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة : ٧٣ .

و على ما تقدم كان ما للممكن من الوجود أو الحياة أو القدرة أو العلم متعلق الوجود به تعالى غير مستقل منه بوجه ، ولا فرق في ذلك بين القليل و الكثير ما كانت خصيصة عدم الاستقلال محفوظة فيه فلا مانع من فرض ممكن له علم بكل شيء أو قدرة على كل شيء أو حياة دائمة مادام غير مستقل الوجود عن الله سبحانه ولا منعزل الكون منه كما لا مانع من تحقق الممكن مع وجود موقت ذي أمد أو علم أو قدرة متعلقين ببعض الأشياء دون بعض . نعم فرض الاستقلال يبطل الحاجة إلى مكانية ولا فرق فيه بين الكثير و القليل كما عرفت ، هذا من جهة العقل .

و أمّا من جهة النقل فالكتاب الإلهي وإن كان ناطقاً باختصاص بعض الصفات و الأفعال به تعالى كالعلم بالمغيبات و الأحياء و الإماتة و الخلق كما في قوله : « و عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » الأنعام : ٥٩ ، و قوله : « و أنه هو أُمّات و أحياء » النجم : ٤٤ ، و قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ ، و قوله : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ إلى غير ذلك من الآيات لكنها جميعاً مفسّرة بآيات أخر كقوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، و قوله : « قل يتوفىكم ملك الموت » الم السجدة : ١١ و قوله عن عيسى عليه السلام : « و أحيي الموتى بإذن الله » آل عمران : ٤٩ و قوله : « و

إذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني « المائدة : ١١٠ »  
إلى غير ذلك من الآيات .

وانضمام الآيات إلى الآيات لا يدع شكّا في أن المراد بالآيات النافية اختصاص  
هذه الأمور به تعالى بنحو الأصاله والاستقلال والمراد بالآيات المثبتة إمكان  
تحققها في غيره تعالى بنحو التبعيّة وعدم الاستقلال .

فمن أثبت شيئاً من العلم الممكنون أو القدرة الغيبية أعني العلم من غير طريق  
الفكر والقدرة من غير مجراها العادي الطبيعي لغيره تعالى من أنبيائه وأوليائه  
كما وقع كثيرا في الأخبار والآثار ونفى معه الأصاله والاستقلال بأن يكون العلم  
والقدرة مثالا له تعالى وإنما ظهر ما ظهر منه بالتوسيط ووقع ما وقع منه بافضته  
وجوده فلاحجر عليه .

و من أثبت شيئاً من ذلك على نحو الأصاله والاستقلال طبق ما يثبت به الفهم  
العامي وإن أسنده إلى الله سبحانه وفيض رحمته لم يخل من غلوّ و كان مشمولا  
لمثل قوله : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » النساء : ١٧١ .

**قوله تعالى :** « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيتهم الله خيرا الله أعلم  
بما في أنفسهم إنني إذا لمن الظالمين » قال في المفردات : زريت عليه عبته و أزريت به  
قصدت به وكذلك ازرديت به وأصله افتعلت قال : تزدري أعينكم أي تستقلّم تقديره  
تزدريهم أعينكم أي تستقلّمهم و تستهين بهم . انتهى .

وهذا الفصل من كلامه ﷺ إشارة إلى ما كان يعتقد الملأ الذين كفروا  
من قومه و بنوا عليه سنة الأشرافية وطريقة السيادة ، و هو أن أفراد الإنسان  
تنقسم إلى قسمين الأقوياء والضعفاء أمّا الأقوياء فهم أولو الطول و أرباب القدرة  
المعتضدون بالمال والعدة ، و أمّا الضعفاء فهم الباقون . و الأقوياء هم السادة في  
المجتمع الانساني لهم النعمة والكرامة ، ولأجلهم انعقاد المجتمع ، و غيرهم من  
الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضحاي منافعهم كالرعيّة بالنسبة إلى كرسي

الحكومة المستبدّة ، و العبيد بالنسبة إلى الموالى ، و الخدم و العملة بالنسبة إلى المخذومين و النساء بالنسبة إلى الرجال ، و بالأخرة كلّ ضعيف بالنسبة إلى القويّ المستعلى عليه .

و بالجملة كان معتقدهم أنّ الضعيف في المجتمع إنسان منحطّ أو حيوان في صورة إنسان إنّما يرد داخل المجتمع و يشاركهم في الحياة ليستفيد الشريف من عمله و ينتفع من كدّ يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامة مطرود عن حظيرة الشرافة آئس من الرحمة و العناية .

فهذا هو الذي كانوا يرونه و كان هو المعتمد عليه في مجتمعهم ، و قد ردّ نوح عليه السلام ذلك إليهم بقوله : « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً » .

ثمّ بيّن خطأهم في معتقدهم بقوله : « الله أعلم بما في نفوسهم » أي إنّ أعينكم إنّما تزدريهم و تستحقّهم و تستهين أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم وهوانهم ، و ليس هو الملاك في إحراز الخير و نيل الكرامة بل الملاك في ذلك و خاصّة الكرامات و المثوبات الإلهيّة أمر النفس و تحليها بحليّ الفضيلة و المنقبة المعنويّة ، ولا طريق لي ولا لكم إلى العلم ببواطن النفوس و خبايا القلوب إلّا الله سبحانه فليس لي ولا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير و السعادة .

ثمّ بيّن بقوله : « إنّني إذا لمن الظالمين » السبب في تحاشيه عن هذا القول ومعناه أنّه قول بغير علم ، و تحريم الخير على من يمكن أن يستحقّه جزافاً من غير دليل ظلم لا ينبغي أن يرومه إلاّ إنسان فيدخل بذلك في زمرة الظالمين .

و هذا المعنى هو الذي يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطاباً لهؤلاء الطاغين إذ يقول : « و نادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم و ما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » الأعراف : ٤٩ .

و في الكلام أعني قول نوح عليه السلام : « ولا أقول للذين تزدري أعينكم » الخ تعريض لهم أنّهم كما كانوا يحرمون على ضعفاء المجتمع المزاياء الحيويّة الاجتماعيّة

كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامة الدينية ويقولون : إنهم لا يسعدون بدين  
و إنما يسعده أشراف المجتمع وأقوياءهم ، وفيه أيضا تعريض بأنهم ظالمون .  
و إنما عقب نوح عليه السلام قوله : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم  
الغيب ولا أقول إنني ملك » و هو ينفي فيه جهات الامتياز التي كانوا يتوقعونها في  
الرسول عن نفسه ، بقوله : « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » الخ  
مع أنه راجع إلى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملأ ألحقوهم به في قولهم :  
« ولا نرى لكم علينا من فضل » .

و توضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتبعنا لك و لمن آمن بك من هؤلاء  
الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا ولا نرى لكم علينا من فضل أما أنت فليس  
معك ما يختص به الرسول من قدرة ملكوتية أو علم بالغيب أو أن تكون ملكا  
منزها من ألوات المادة و الطبيعة ، و أما المؤمنون بك فأنما هم أراذلنا الآئسون  
من كرامة الإنسانية المحرومون من الرحمة و العناية .

فأجاب عنهم نوح بما معناه : أما أنا فلا أدعي شيئا مما تتوقعون من رسالتي  
فليست للرسول إلا الرسالة و أما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز  
أن يعلم الله من نفوسهم خيرا فيؤتيهم خيرا و فضلا فهو أعلم بأنفسهم ، و ملاك الكرامة  
الدينية و الرحمة الإلهية زكاء النفس و سلامة القلب دون الظاهر الذي تزدريه  
أعينكم فلست أقول : لن يؤتيهم الله خيرا ، فإنه ظلم يدخلني في زمرة الظالمين .

**قوله تعالى :** « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن  
كنت من الصادقين » كلام ألقوه إلى نوح عليه السلام بعد ما عجزوا عن دحض حجته و  
إبطال مادعا إليه من الحق ، و هو مسوق سوق التعجيز والمراد بقولهم : « ماتعدنا »  
ما أنذرهم به في أول دعوته من عذاب يوم أليم .

و قد أورد الله سبحانه قولهم هذا فضلا من غير تفريع لأنهم إنما قالوه بعد  
مالبث فيهم أمدا بعيدا يدعوهم إلى التوحيد و يخاصمهم و يحاجهم بفنون الخصام  
و الحجاج حتى قطع جميع معاذيرهم و أنار الحق لهم كما يدل عليه قوله تعالى

فيما يحكي عنه ﷺ في دعائه : « قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلا و نهارا - إلى أن قال - ثمّ إنّي دعوتهم جهارا ثمّ إنّي أعلنت لهم و أسررت لهم إسرارا » نوح : ٩ و في سورة العنكبوت : « فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما » العنكبوت : ١٤ . فهذا الذي أورده الله من حجاجه قومه و جوابهم في شكل محاوراة واحدة إنّما وقع في مآت من السنين ، و هو كثير النظير في القرآن الكريم ولا بدع فيه فإنّ الذي يقتصّ ذلك هو الله سبحانه المحيط بالدهر و بكلّ ما فيه و الذي يسمعها بالوحي هو النبيّ ﷺ و قد أوتي من سعة النظر ما يجتمع عنده أشتات الأمم و أطراف الزمان .

والمعنى - والله أعلم - يا نوح قد جادلنا فأكثر جدالنا حتّى سئمنا و مللنا و ما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب ، و هم لا يعترفون بالعجز عن خصامه و جداله بل يؤيسونه من أنفسهم في الحجاج و يطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعي الآئس من السمع و الطاعة و هو الشرّ الذي يهدّهم به و يذكره وراء نصحه .

**قوله تعالى :** « قال إنّما يأتيكم به الله إن شاء و ما أنتم بمعجزين » لما كان قولهم : « فأتنا بما تعدنا » الخ طلبا منه أن يأتيهم بالعذاب و ليس ذلك إليه فإنّما هو رسول ، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضا - في سياق قصر القلب - أن الاتيان بالعذاب ليس إليّ بل إنّما هو إلى الله فهو الذي يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذي وعدتكموه بأمره فهو ربّكم و إليه مرجع أمركم كلّ ، ولا يرجع إليّ من أمر التدبير شيء حتّى أنّ وعدي إليّكم بالعذاب و اقتراحكم عليّ بطلبه لا يؤثر في ساحة كبريائه شيئا فإن يشأ يأتيكم به و إن لم يشأ فلا .

و من هنا يظهر أنّ قوله ﷺ : « إن شاء » من ألطف القيود في هذا المقام أفيد به حقّ التنزيه و هو أنّ الله سبحانه لا يحكم فيه شيء ولا يقهره قاهر يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتي في آخر السورة من الاستثناء في قوله : « خالدين فيها » دامت السماوات و الأرض إلّا ما شاء ربّك عطاء غير مجذوذ » هود : ١٠٨ . و قوله : « و ما أنتم بمعجزين » تنزيه آخر لله سبحانه وهو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزي الذي ألقوه إليه ﷺ فإنّ ظاهره أنّهم لا يعبأون بما هدّهم



به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم .

**قوله تعالى :** « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم » الخ قال في المفردات : النصح تحرّي فعل أو قول فيه صلاح صاحبه - قال - وهو من قولهم : نصحت له الودّ أي أخلصته و ناصح العسل خالصة أو من قولهم : نصحت الجلد خطئه و الناصح الخياط و الناصح الخيط .

و قال أيضا : الغي جهل من اعتقاد فاسد ، و ذلك أنّ الجهل قد يكون من الإنسان غير معتقد اعتقادا لاصالحا ولا فاسدا ، و قد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، و هذا النحو الثاني يقال له غيّ قال تعالى : ما ضلّ صاحبكم و ما غوى ، و قال : و إخوانهم يمدّونهم في الغي . انتهى .

و على هذا فالفرق بين الإغواء و الإضلال أنّ الإضلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد في ذكر الضالّ ، و الإغواء إخراج منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلا .

و الإرادة و المشيئة كلمتا رادفتين ، وهي من الله سبحانه تسبب الأسباب المؤدّية لوجود شيء . بالضرورة فكون الشيء مراداً له تعالى أنّه تمّ أسباب وجوده وأكملها فهو كائن لا محالة ، و أمّا أصل السببية الجارية فهي مرادة بنفسها و لذا قيل : خلق الله الأشياء بالمشيئة و المشيئة بنفسها .

و بالجملة قوله : « ولا ينفعكم نصحي » الخ كأحد شقّي التريديد و الشقّ الآخر قوله : « و ما أنتم بمعجزين » كأنّه ﷺ يقول : أمركم إلى الله إن شاء أن يعذبكم أتاكم بالعذاب ولا يدفع عذابه ولا يقهر مشيئته شيء ، فلا أنتم معجزوه ، ولا نصحي ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحقّ عليكم كلمة العذاب ، و قيّد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا مسلمون له أنّه ينصّحهم . و الإغواء كالإضلال و إن لم يجز نسبته إليه تعالى إذا كان إغواء ابتدائياً لكنّه جائز إذا كان بعنوان المجازاة كأن يعصي الإنسان و يستوجب به الغواية فيمنعه الله أسباب التوفيق ويخلّيه و نفسه فيغوي و يضلّ عن سبيل الحقّ قال تعالى :

« يضلّ به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضلّ به إلاّ الفاسقين » البقرة : ٢٦ .

وفي الكلام إشارة إلى أنّ نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبوق بالاغواء الإلهي كما يلوّح إليه قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا » أسرى : ١٦ ، وقال : « وقبضنا لهم قرناء فزيّناهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقّ عليهم القول » حم السجدة : ٢٥ . وقوله : « هو ربّكم وإليه ترجعون » تعليل لقوله : « ولا ينفعكم نصحي » الخ أو لقوله : « إنّما يأتيكم به الله إن شاء » - إلى قوله - يريد أن يغويكم « جميعا » ومحصّله أنّ أمر تدبير العباد إلى الربّ الذي إليه يرجع الأمور ، والله سبحانه هو ربّكم وإليه ترجعون فليس لي أن آتيكم بعذاب موعود ، وليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتيكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم وليس لنصحي أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذب بكم .

وقد ذكروا في قوله : « إن كان الله يريد أن يغويكم » وجوها من التأويل : **منها** : أنّ المعنى يعاقبكم على كفركم ، وقد سمّى الله تعالى العذاب غيّا في قوله : « فسوف يلقون غيّا » مريم : ٥٩ .

**ومنها** : أنّ المراد إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق وإضلالكم إيّاهم ومن عادة العرب أن يسمّي العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه ، ومن هذا الباب قوله : « الله يستهزئ بهم » أي يعاقبهم على استهزائهم وقوله : « ومكروا ومكر الله » آل عمران : ٥٤ أي عذبهم على مكرهم إلى غير ذلك .

**ومنها** : أنّ الاغواء بمعنى الإهلاك فالمعنى يريد أن يهلككم فهو من قولهم : غوي الفصيل إذا فسد من كثرة شرب اللبن .

**ومنها** : أنّ قوم نوح كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى يضلّ عباده عن الدين ، وأنّ ما هم عليه بإرادة الله ، ولولا ذلك لغيّره وأجبرهم على خلافه فقال لهم نوح على وجه التعجّب لقولهم والّا نكار لذلك إنّ نصحي لا ينفعكم إن كان القول كما تقولون . وأنت بالتأمل فيما قدّمناه تعرف أنّ الكلام في غنى من هذه التأويلات .

**قوله تعالى :** « أم يقولون افتراء قل إن افتريته فعليّ إجرامي و أنا بري، مما تجرمون » أصل الجرم - على ما ذكره الراغب في مفرداته - قطع الثمرة من الشجرة و أجرم أي صار ذا جرم ، و استعير لكلّ اكتساب مكروه فالجرم بضمّ الجيم و فتحها بمعنى الاكتساب المكروه و هو المعصية .

و الآية واقعة موقع الاعتراض ، و النكتة فيه أنّ دعوة نوح و احتجاجاته على و ثنية قومه و خاصة ما أورده الله تعالى في هذه السورة من احتجاجه أشبه شيء بدعوة النبي ﷺ ، و احتجاجه على و ثنية أمته .

وإن شئت زيادة تصديق في ذلك فارجع إلى سورة الأنعام - وهي في الحقيقة سورة الاحتجاج - و قابل ما حكاه الله تعالى عن نوح في هذه السورة ما أمر الله به النبي ﷺ في تلك السورة بقوله : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنني ملك - إلى أن قال - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي - إلى أن قال - قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا و ما أنا من المهتدين قل إنني على بينة من ربي و كذّبتم به » .

و لك أن تطبّق سائر ما ذكر من حججه ﷺ في سورة نوح و الأعراف على ما ذكر من الحجج في سورة الأنعام و في هذه السورة فتشاهد صدق ما ادّعياه .

ولهذه المشابهة و المناسبة ناسب أن يعطف بعد ذكر حجج نوح ﷺ في إنذاره قومه بأمر من الله سبحانه على ما اتّهموا النبي ﷺ و رموه بالافتراء على الله ، و هو لا ينذرهم و لا يلقي إليهم من الحجج إلّا كما أنذر به نوح ﷺ و ألقاهم من الحجج إلى قومه ، و هذا كما ينذر رسول الملك قومه و المتمردين المستنكفين عن الطاعة و يلقي إليهم النصيحة و يتمّ عليهم الحجّة فيرمونه بأنّه مفتر على الملك و لا طاعة ولا وظيفة فيرجع إليهم بالنصح ثانيا ، و يذكر لهم قصّة رسول ناصح آخر من الملك إلى قوم آخرين نصح لهم بمثل ما نصح هولهم فلم يتبصّروا به فهلكوا فحيثما يذكر لهم حججه و مواعظه يبعثه الوجد و الأسف إلى أن يتذكّر رميهم بإيائه بالافتراء فيأسف

لذلك قائلا : إنكم ترمونني بالافتراء ولم أذكر لكم إلّا ما بشّه هذا الرسول في قومه من كلمة الحكمة و النصيحة لاجرم إن افتريته فعليّ إجرامي ولا تقبلوا قولي غير أنّي بريء من عملكم .

و قد عاد سبحانه إلى الأمر بمثل هذه المباراة ثانيا في آخر السورة بعد إيراد قصص عدّة من الرسل حيث قال : « و كلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك - إلى أن قال - و قل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّنا عاملون و انتظروا إنّنا منتظرون » هود : ١٢٢ .

و ذكر بعض المفسّرين أنّ الآية من تمام القصّة و الخطاب فيها لنوح ، و المعنى أم يقول قوم نوح افتراء نوح قل يا نوح إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء ممّا تجرمون ، و على هذا فالكلام مشتمل على نوع التفات من الغيبة إلى الخطاب و هذا بعيد عن سياق الكلام غايته .

و في قوله : « و أنا بريء ممّا تجرمون » إثبات إجرام مستمرّ لهم و قد أرسل إرسال المسلمات كما في قوله : « فعليّ إجرامي » من إثبات الجرم و ذلك أنّ الذي ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذبا من حيث إنّ نوحا عليه السلام لم يحتجّ بهذه الحجج وهي حقّة ، لكنّها من حيث إنّها حجج عقلية قاطعة لا تقبل الكذب وهي تثبت لهؤلاء الكفار إجراما مستمرا في رفض ما يهديهم إليه من الإيمان و العمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضى هذه الحجج مجرمون قطعاً ، والنبي عليه السلام مجرم لا قطعاً بل على تقدير أن يكون مفترياً و ليس بمفتر .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير العياشي عن ابن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قال الله في نوح عليه السلام « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم » قال : الأمر إلى الله يهدي و يضل .  
**أقول :** قد مرّ بيانه .

و في تفسير البرهان في قوله تعالى : « أم يقولون افتراء » الآية ، الشيباني في نهج البيان عن مقاتل قال : إنّ كفّار مكّة قالوا : إنّ محمداً افترى القرآن . قال : و روي مثل ذلك عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليه السلام .





وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ (٣٧) وَاصْنَعِ الْفُلَکَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِإِذْنِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسِيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَأُوبَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَفْعَلُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالًا لَا غَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ

أَسْمَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)  
 قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَيَّ أُمِّمٌ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمٌّ  
 سَمِيَّةٌ هُمْ يُحْسِنُونَ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا  
 إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ  
 لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) .

### ﴿بيان﴾

تمتة قصه نوح عليه السلام وهي تشتمل على فصول كإخباره عليه السلام بنزول العذاب على قومه ، وأمره بصنع الفلك ، وكيفية نزول العذاب وهو الطوفان ، و قصة ابنه الغريق ، و قصة نجاته و نجات من معه لكنها جميعاً ترجع من وجه إلى فصل واحد وهو فصل القضاء بينه عليه السلام وبين قومه .

**قوله تعالى :** « و أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » الابتئاس من البؤس وهو حزن مع استكانة .  
 و قوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » إئناس و إقناط له عليه السلام من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك ، ولذلك فرّج عليه قوله : « فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » لأنّ الداعي إلى أمر إنّما يبتئس و يغتم من مخالفة المدعوين و تمرّدهم مادام يرجو منهم الإيمان والاستجابة لدعوته ، و أمّا إذا يؤس من إجابتهم فلا يهتم بهم ولا يتعب نفسه في دعوتهم إلى السمع والطاعة والإلحاح عليهم بالإقبال إليه ولو دعاهم بعدئذ فإنّما يدعوهم لغرض آخر كإتمام الحجّة وإبراز المعضدة .

وعلى هذا ففي قوله : « فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » تسلية من الله لنوح عليه السلام و تطيب لنفسه الشريفة من جهة ما في الكلام من الإشارة إلى حلول حين فصل القضاء بينه و بين قومه ، وصيانة لنفسه من الوجد و الغم لما كان يشاهد من فعلهم به

و بالمؤمنين به من قومه من إِيذائهم إِيَّاهم في دهر طويل ( ممّا يقرب من ألف سنة ) لبث فيه بينهم .

ويظهر من كلام بعضهم أنّه استفاد من قوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » أن من كفر منهم فليس يؤمن بهذا الحين أبداً كما أن الذين آمنوا به ثابتون على إيمانهم دائمون عليه . وفيه أن العناية في الكلام إنّما تعلّقت ببيان عدم إيمان الكفار بعد ذلك فحسب وأما إيمان المؤمنين فلم يعن به إلا بمجرد التحقّق سابقا ولا دلالة في الاستثناء على أزيد من ذلك ، وأما ثباتهم و دوامهم على الإيمان فلا دليل عليه .

ويستفاد من الآية أوّلا : أن الكفار لا يعدّون ما كان الإيمان مرجوا منهم فاذا ثبتت فيهم ملكة الكفر ورجس الشرك حقّ عليهم كلمة العذاب .

و ثانياً : أن ما حكاه الله سبحانه من دعاء نوح بقوله : « وقال نوح ربّ لا تذّر على الأرض من الكافرين ديّارا إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً » نوح : ٢٧ كان واقعاً بين قوله : « إنّهم لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » الخ وبين قوله : « واصنع الفلك - إلى قوله - إنّهم مغرقون » .

و ذلك لأنّه - كما ذكر بعضهم - لا سبيل إلى العلم بعدم إيمان الكفار في المستقبل من طريق العقل وإنّما طريقه السمع بالوحي فهو ﷺ علم أوّلاً من وحيه تعالى إليه أنّه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن أن أحداً منهم لا يؤمن بعد ذلك ولا في نسلهم من سيؤمن بالله ثمّ دعا عليهم بالعذاب و ذكر في دعائه ما أوحى إليه فلمّا استجاب الله دعوته و أراد إهلاكهم أمره ﷺ باتخاذ السفينة و أخبره أنّهم مغرقون .

**قوله تعالى :** « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون » الفلك هي السفينة مفردها وجمعها واحد والأعين جمع قلّة للمعين و إنّما جمع للدلالة على كثرة المراقبة وشدّتها فإنّ الجملة كناية عن المراقبة في الصنع .



وذكر الأعين قرينة على أن المراد بالوحي ليس هو هذا الوحي أعني قوله: « واصنع الفلك » الخ حتى يكون وحيا للحكم بل وحي في مقام العمل وهو تسديد وهداية عملية بتأييده بروح القدس الذي يشير إليه أن افعل كذا وافعل كذا كما ذكره تعالى في الأئمة من آل إبراهيم عليهم السلام بقوله: « وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء: ٧٣ ، وقد تقدّمت الإشارة إليه في المباحث السابقة وسيجيء إنشاء الله في تفسير الآية .

وقوله: « ولا تخاطبني في الذين ظلموا » أي لا تسألني في أمرهم شيئا تدفع به الشرّ والعذاب وتشفع لهم لتصرف عنهم سوءه لأنّ القضاء فصل والحكم حتم وبذلك يظهر أن قوله: « إنهم مغرّقون » في محلّ التعليل لقوله: « ولا تخاطبني » الخ أو لمجموع قوله: « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا » ويظهر أيضا أن قوله: « ولا تخاطبني » الخ كناية عن الشفاعة .

والمعنى: واصنع السفينة تحت مراقبتنا الكاملة وتعليمنا إياك ولا تسألني صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضيّ عليهم الغرق قضاء حتم لا مردّ له .

**قوله تعالى:** « ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملامن قومه سخرّوا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » قال في المجمع: السخرية إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل ، ومنه التسخير لتذليل يكون استضعافاً بالقهر ، والفرق بين السخرية واللعب أنّ في السخرية خديعة واستنقاص ولا تكون إلّا في الحيوان وقد يكون اللعب بجماد . انتهى .

وقال الراغب في المفردات: سخرت منه واستسخرته للهزم منه قال تعالى: « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون » « بل عجبت و يسخرون » وقيل: رجل سخرة - بالضم - فالفتح - لمن سخر و سخرة - بالضم - فالسكون - لمن يسخر منه ، و السخرية - بالضم - والسخرية - بالكسر - لفعل الساخر . انتهى .

وقوله : « ويصنع الفلك » حكاية الحال الماضية يمثل بها ما يجري على نوح عليه السلام من إيذاء قومه وقيام طائفة منهم بعد طائفة على إهانتهم والاستهزاء به في عمل السفينة وصبره عليه في جنب الدعوة الإلهية وإقامة الحجّة عليهم من غير أن يفشل وينثني .

وقوله : « وكلّمّا مرّ عليه ملاّ من قومه سخروا منه » حال عن فاعل يصنع والملاّ ههنا الجماعة الذين يعبأ بهم ، وفي الكلام دلالة على أنّهم كانوا يأتونه وهو يصنع الفلك جماعة بعد جماعة بالمرور عليه ساخرين ، وأنّه عليه السلام كان يصنعها في مرآى منهم وممرّ عامّ .

وقوله : « قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون » في موضع الجواب لسؤال مقدّر كأنّ قائلاً قال : فما ذا قال نوح عليه السلام ؟ فقيل : « قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم » ولذا فصل الكلام من غير عطف .

ولم يقل عليه السلام : إن تسخروا منّي فإنّي أسخر منكم ليدفع به عن نفسه و عن عصابة المؤمنين به وكأنّه كان يستمدّ من أهله وأتباعه في ذلك وكانوا يشاركونه في عمل السفينة وكانت السخرية تتناولهم جميعاً فظاهر الكلام أنّ الملاّ كانوا يواجهون نوحاً ومن معه في عمل السفينة بسخرية نوح ورميه عليه السلام بالخبل والجنون فيشمل هزؤهم نوحاً ومن معه وإن كانوا لم يذكر في هزئهم إلا نوحاً فقط .

على أنّ الطبع والعادة يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه أيضاً كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشرة بعضهم ببعض وإن كانت سخريتهم من أتباعه سخرية منه في الحقيقة لأنّه هو الأصل الذي تقوم به الدعوة ، ولذا قيل : « سخروا منه » ولم يقل : سخروا منه ومن المؤمنين .

والسخرية وإن كانت قبيحة ومن الجهل إذا كانت ابتدائية لكنّها جائزة إذا كانت مجازاة و بعنوان المقابلة وخاصة إذا كانت تترتب عليها فائدة عقلائية كإنفاذ العزيمة وإتمام الحجّة قال تعالى : « فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب

أليم « التوبة : ٧٩ و يدلّ على اعتبار المجازاة و المقابلة بالمثل في الآية قوله : « كما تسخرون » .

**قوله تعالى :** « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم » السياق يقضي أن يكون قوله : « فسوف تعلمون » تفرّيعاً على الجملة الشرطيّة السابقة « إن تسخروا ممّا فأنّا نسخر منكم » تكون الجملة المنفردة هو متن السخريّة التي أتى بها نوح عليه السلام ، ويكون قوله : « من يأتيه عذاب يخزيه » الخ متعلّقاً بتعلمون على أنّه معلوم العلم .

والمعنى : إن تسخروا ممّا فأنّا نسخر منكم فنقول لكم : سوف تعلمون من يأتيه العذاب ؟ نحن أو أنتم ؟ وهذه سخريّة بقول حقّ .

وقوله : « من يأتيه عذاب يخزيه » المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا وهو الغرق الذي أخزاهم وأذلّهم ، و المراد بقوله : « و يحلّ عليه عذاب مقيم » أي ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق ، هو عذاب النار في الآخرة ، والدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأوّل هو الذي في الدنيا و الثاني هو عذاب الآخرة هو المقابلة و تكرّر العذاب - منكرًا - في اللَّفظ و التوصيف الأوّل بالأخزاء و الثاني بالإقامة .

وربّما أخذ بعضهم قوله : « فسوف تعلمون » تامّاً من غير ذكر متعلّق العلم و قوله : « من يأتيه عذاب يخزيه » الخ ابتداء كلام من نوح عليه السلام و هو بعيد عن السياق .

**قوله تعالى :** « حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنّور » إلى آخر الآية . يقال : فار القدر يفور فوراً وفورانا إذاغلا واشتدّ غليانه ، وفارت النار إذا اشتعلت و ارتفع لهيبها ، و التنّور تنّور الخبز وهو ممّا اتّفقت فيه اللغتان : العربيّة و الفارسيّة أو الكلمة فارسيّة في الأصل .

وفوران التنّور نبع الماء و ارتفاعه منه ، وقد ورد في الروايات : أن أوّل ما ابتدأ الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجّر الماء من تنّور ، و على هذا فالآم في التنّور للعهد يشاربها إلى تنّور معهود في الخطاب ، و يحتمل اللفظ أن يكون كناية عن

اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم : «حمي الوطيس» إذا اشتد الحرب .  
 فقوله : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور » : أي كان الأمر على ذلك حتى إذا  
 جاء أمرنا أي تحقق الأمر الربوبي وتعلق بهم و فار الماء من التنور أو اشتد غضب  
 الرب تعالى قلنا له كذا وكذا .

وفي التنور أقوال أخر بعيدة من الفهم كقول من قال : إن المراد به طلوع  
 الفجر وكان عند ذلك أول ظهور الطوفان ، وقول بعضهم : إن المراد به أعلى الأرض  
 وأشرفها أي انفجر الماء من الأمكنة المرتفعة ونجدد الأرض ، وقول آخرين : إن  
 التنور وجه الأرض هذا .

وقوله : « قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين » أي أمرنا نوحاً عليه السلام أن  
 يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين و هي الذكر و  
 الأنثى .

وقوله : « وأهلك إلا من سبق عليه القول » أي واحمل فيها أهلك وهم المختصون  
 به من زوج وولد وأزواج الأولاد وأولادهم إلا من سبق عليه قولنا وتقدم عليه عهدنا  
 أنه هالك ، وكان هذا المستثنى زوجته الخائنة التي يذكرها الله تعالى في قوله : « ضرب  
 الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح و امرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين  
 فخانتاهما » التحريم : ١٠ . و ابن نوح الذي يذكره الله تعالى في الآيات التالية  
 وكان نوح عليه السلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بين الله سبحانه أن ابنه  
 ليس من أهله وأنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا .

وقوله : « ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » أي واحمل فيها من آمن بك من  
 قومك غير أهلك لأن من آمن به من أهله أمر بحمله بقوله : « وأهلك » ولم يؤمن  
 به من القوم إلا قليل .

وفي قوله : « وما آمن معه » دون أن يقال : وما آمن به تلويح إلى أن المعنى :  
 وما آمن بالله مع نوح إلا قليل ، وذلك أنسب بالمقام و هو مقام ذكر من أنجاه الله  
 من عذاب الغرق ، والملاك فيه هو الإيمان بالله والخضوع لربوبيته ، وكذا في قوله :

« إِلَّا قَلِيلٌ » دون أن يقال : إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ بَلُوغاً فِي اسْتِقْلَالِهِمْ أَنْ مَنْ آمَنَ كَانَ قَلِيلًا فِي نَفْسِهِ لَا بِالْقِيَاسِ إِلَى الْقَوْمِ فَقَدْ كَانُوا فِي نَهَايَةِ الْقَلَّةِ .

**قوله تعالى :** « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » قري، مجراها بفتح الميم وهو مجرى السفينة وسيرها ، ومجراها بضم الميم وهو إجراء السفينة وسيقها ، ومرساها بضم الميم مصدر ميمي مرادف الإرساء ، والإرساء الإثبات والإيقاف قال تعالى : « وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا » البازعات : ٣٢ .  
وقوله : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا » معطوف على قوله في الآية السابقة : « جَاءَ أَمْرُنَا » أي حتّى إذا قال نوح الخ وخطابه لأهله وسائر المؤمنين أو لجميع من في السفينة .

وقوله : « بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » تسمية منه ﷺ يجلب به الخير والبركة لجري السفينة وإرسائها فإنّ في تعليق فعل من الأفعال أو أمر من الأمور على اسم الله تعالى و ربطه به صيانة له عن الهلاك والفساد و اتقاء عن الضلال والخسران لما أنّه تعالى رفيع الدرجات منيع الجانب لا سبيل للدثور والفناء والغنى والعناء إليه فما تعلّق به مصون لاحتمال من تطرّق عارض السوء .

فهو ﷺ يعلّق جري السفينة وإرسائها باسم الله وهذان هما السببان الظاهران في نجاة السفينة ومن فيها من الغرق ، وإنّما ينجح هذان السببان لو شملت العناية الإلهية من ركبها ، وإنّما تشمل العناية بشمول المغفرة الإلهية لخطايا ركابها والرحمة الإلهية لهم لينجوا من الغرق ويعيشوا على رسلهم في الأرض ، ولذلك علّل ﷺ تسميته بقوله : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أي إنّما أذكر اسم الله على مجرى سفينتي ومرساها لأنّه ربّي الغفور الرحيم، له أن يحفظ مجراها ومرساها من الاختلال والتخبّط حتّى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته و رحمته .

و نوح ﷺ أوّل إنسان حكى الله سبحانه عنه التسمية باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو ﷺ أوّل فاتح فتح هذا الباب كما أنّه أوّل من أقام الحجة على التوحيد ، و أوّل من جاء بكتاب و شريعة و أوّل من انتفض لتعديل الطبقات

ورفع التناقض عن المجتمع الإنساني .

وما قدّمناه من معنى قوله : « بسم الله مجراها و مرساها » مبنيّ على ما هو الظاهر من كون الجملة تسمية من نوح عليه السلام و المجرى و المرسى مصدرين ميميّين و ربّما احتمل كونه تسمية ممّن مع نوح بأمره أو كون مجراها و مرساها اسمين للزمان أو المكان فيختلف المعنى .

قال في الكشف في الآية : يجوز أن يكون كلاما واحدا و كلامين : فالكلام الواحد أن يتصل بسم الله باركبوا حالا من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمّين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها و وقت إرسائها إمّا لأنّ المجرى و المرسى للوقت و إمّا لأنّهما مصدران كالإجراء و الإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم : خفوق النجم ومقدم الحاجّ ، و يجوز أن يراد مكانا الإجراء و الإرساء ، و انتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل أو بما فيه من إرادة القول .

و الكلامان أن يكون بسم الله مجراها و مرساها جملة من مبتدئ و خبر مقتضية <sup>(١)</sup> أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، يروى : أنّه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله فجرت ، و إذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست ، و يجوز أن يقحم <sup>(٢)</sup> الاسم كقوله : ثمّ اسم السلام عليكمما و يراد بالله إجراؤها و إرساؤها .

قال : و قرئ مجراها و مرساها <sup>(٣)</sup> بفتح الميم من جرى و رسي إمّا مصدرين أو وقتين أو مكانين ، و قرأ مجاهد : مجريها و مرسبها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحلّ صفتين لله .

**قوله تعالى :** « وهي تجري بهم في موج كالجبال » الضمير للسفينة ، والموج

(١) اقتضاب الكلام ارتجاله و المراد من كون الجملة مقتضية كونها ابتدائية أي كونها كلاما ابتدائيا من نوح مقطوعا عما قبله .

(٢) التقييم لإدخال الكلمة بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف و المضاف اليه و المراد كون الاسم معترضا بين « ثم » و « السلام » و كذا بين الباء و لفظ الجلالة في قوله : بسم الله .

(٣) قراءة مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب إلى ابن محيصن .

اسم جنس كتمر أو جمع موجة - على ما قيل - وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء وفي الآية إشعار بأن السفينة كانت تسير على الماء ولم تكن تسبح جوف الماء كالحيثان كما قيل .

**قوله تعالى :** « و نادى نوح ابنه و كان في معزل يا بني » اركب معنا ولا تكن مع الكافرين « المعزل اسم مكان من العزل و قد عزل ابنه نفسه عن أبيه و المؤمنين في مكان لا يقرب منهم ، ولذلك قال : « و نادى نوح ابنه » ولم يقل : وقال نوح لابنه . و المعنى : و نادى نوح ابنه و كان ابنه في مكان منعزل بعيد منهم و قال في ندائه : يا بني - بالتصغير و الإضافة دلالة على الإشفاق و الرحمة - اركب معنا السفينة ولا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركتهم في الصحة و عدم ركوب السفينة ، ولم يقل **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** : ولا تكن من الكافرين لأنّه لم يكن يعلم نفاقه و أنّه غير مؤمن إلا باللفظ ، و لذلك دعاه إلى الركوب .

**قوله تعالى :** « قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من الله » الخ قال الراغب : المأوى مصدر أوى يأوي أوياً و مأوى تقول : أوى إلى كذا انضم إليه يأوي أوياً و مأوى و آواه غيره يؤويه إيواء . انتهى .

و المعنى : قال ابن نوح مجيباً لأبيه راداً لأمره : سأنضم إلى جبل يعصمني و يقيني من الماء فلا أغرق قال نوح : لا عاصم اليوم - و هو يوم اشتد غضب الله و قضى بالغرق لأهل الأرض إلا من التجأ منهم إلى الله - من الله لا جبل ولا غيره ، و حال بين نوح و ابنه الموج فكان ابنه من المغرقين و لو لم يحل الموج بينهما ولم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره و تبرأ منه .

و في الكلام إشارة إلى أن أرضهم كانت أرضاً جبليّة لا مؤنة زائدة في صعود الإنسان إلى بعض جبال كانت هناك .

**قوله تعالى :** « و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي وغيض الماء و قضى الأمر و استوت على الجودي » و قيل بعداً للمقوم الظالمين « البلع إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف ، و الإقلاع الإمساك و ترك الشيء من أصله ، و الغيض جذب

الأرض المائع الرطب من ظاهرها إلى باطنها وهو كالنشف يقال : غاضت الأرض الماء أي نقصته .

و الجوديّ مطلق الجبل و الأرض الصلبة ، و قيل : هو جبل بأرض موصل في سلسلة جبال تنهي إلى أرمينية وهي المسماة «آارات» .

و قوله : « و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي » نداء صادر من ساحة العظمة و الكبرياء لم يصرّح باسم قائله وهو الله عز اسمه للتعظيم ، والأمر تكوينيّ تحمله كلمة « كن » الصادرة من ذي العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المنفجر من عيونها ، وأن تكف السماء عن إمطارها . و فيه دلالة على أن الأرض و السماء كانتا مشتركتين في إطفاء الماء بأمر الله كما يبيّنه قوله تعالى : « ففتحن أبواب السماء بماء منهمر و فجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » القمر : ١٢ .

و قوله : « و غيض الماء » أي نقص الماء و نشف عن ظاهر الأرض و انكشف البسيط ، و ذلك إنّما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه في الغدران و تشكيل البحار و البحيرات ، و انتشاف ما على سائر البسيطة .

و قوله : « و قضي الأمر » أي أنجز ما وعد لنوح عليه السلام من عذاب القوم و أنفذ الأمر الإلهي بغرقهم و تطهير الأرض منهم أي كان ما قيل له كن كما قيل فقضاء الأمر كما يقال على جعل الحكم وإصداره كذلك يقال على إمضائه وإنفاذه وتحقيقه في الخارج ، غير أن القضاء الإلهي والحكم الربوبي الذي هو عين الوجود الخارجي جعله وإنفاذه واحد ، و إنّما الاختلاف بحسب التعبير .

و قوله : « و استوت على الجودي » أي استقرّت السفينة على الجبل أو على جبل الجوديّ المعهود ، و هو إخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح و من معه من أمر الطوفان .

و قوله : « و قيل بعداً للقوم الظالمين » أي قال الله عز اسمه : بعداً للقوم الظالمين أي ليبعدوا بعداً فأبعدهم بذلك من رحمته وطردهم عن دار كرامته ، والكلام



في ترك ذكر فاعل « قيل » ههنا كالكلام فيه في « قيل » السابق .  
و الأمر أيضا في قوله : « بعداً للقوم الظالمين » كالأمرين السابقين : « يا أرض  
ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي » تكويني فهو عين ما أنفذه الله فيهم من الغرق المؤدي  
إلى خزيهم في الدنيا وخسرانهم في الآخرة ، و إن كان من وجه آخر من جنس الأمر  
التشريعي لتفرّعه على مخالفتهم الأمر الإلهي بالإيمان والعمل ، و كونه جزاء  
لهم على استكبارهم و استعلائهم على الله عزّ وجلّ .

و للصفح عن ذكر الفواعل في قوله : « و قيل يا أرض » الخ وقوله : « وقضي  
الأمر » وقوله : « و قيل بعدا » الخ في الآية وجه آخر مشترك وهو أن هذه  
الأمر العظيمة الهائلة المدهشة لن يقدر عليها إلا الواحد القاهر الذي لا شريك له  
في أمره فلا يذهب الوهم إلى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلا فعله ذكر أم لم  
يذكر .

و لمثل هذه النكتة حذف فاعل « غيض الماء » و هو الأرض ، و فاعل « استوت  
على الجودي » و هو السفينة ، و لم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح ، و لا الناجون  
بأنهم نوح عليه السلام و من معه في السفينة فإن الآية بلغت في بلاغتها العجيبة من  
حيث سياق القصّة مبلغا ليس فيه إلا سماء تنزل أمطارها ، و أرض انفجرت بعيونها  
و انغمرت بالماء و سفينة تجري في أمواجه ، و أمر مقضي ، و قوم ظالمون هم قوم نوح  
و أمر إلهي يوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تعيضة الأرض ، و لو استقر شيء  
و استوى فإنما هي السفينة تستقر على الأرض كما أنه لو قيل : يا أرض ابلعي  
ماءك و يا سماء أقلعي ، و قيل : بعدا للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عزّ اسمه  
و القوم الظالمون هم المقضي عليهم بالعذاب ، و لو قيل : قضي الأمر فإنما القاضي  
هو الله سبحانه ، و الأمر هو ما وعده نوحا ونهيا أن يراجعه في ذلك وهو أنهم مغرّقون  
و لو قيل للسماء : أقلعي بعد ما قيل للأرض : ابلعي ماءك فإنما يراد إقلاعها و  
إمسكها ماءها .

ففي الآية الكريمة اجتماع عجيب من أسباب الإيجاز و توافق لطيف فيما

بينها كما أن الآية واقفة على موقف عجيب من بلاغة القرآن المعجزة يبهر العقول و يدهش الألباب وإن كانت الآيات القرآنية كلها معجزة في بلاغتها .  
وقد اهتمت بأمرها رجال البلاغة وعلماء البيان فغاصوا لجسي بحرها وأخرجوا ما استطاعوا نيله من لثايلها ، وما هو - وقد اعترفوا بذلك - إلا كغرفة من بحر أو حصة من بر .

**قوله تعالى :** « و نادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » دعاء نوح عليه السلام لابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة وقد كان آخر عهده به يوم ركب السفينة فوجده في معزل فناداه و أمره بر كوب السفينة فلم يأتهم ثم حال بينهما الموح فوجد نوح عليه السلام وهو يرى أنه مؤمن بالله من أهله وقد وعده الله بانجاء أهله .

ولما به من الوجد والحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى :  
« و نادى نوح ربه » ولم يقل : سأل أو قال أودعا ، ورفع الصوت بالاستغاثة والدعاء من المضطر الذي اشتد به الضر و حاج به الوجد أمر طبعي . و الدعاء أعني نداء نوح عليه السلام ربه في ابنه وإن ذكر في القصة بعد ذكر إنجاز غرق القوم وظاهره كون النداء بعد تمام الأمر و استواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال أن يكون النداء بعد حيلولة الموح بينهما وعليهذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان إنما هو لمكان العناية ببيان جميع ما في القصة من الهيئة الهائلة في محل واحد لتكميل تمثيل الواقعة ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية .

وقد كان عليه السلام رسولا أحد الأنبياء أولي العزم عالما بالله عارفا بمقام ربه بصيرا بموقف نفسه في العبودية ، و الظرف ظرف ظهرت فيه آية الربوبية و القهر الإلهي أكمل ظهورها فأغرقت الدنيا وأهلها ، ونودي من ساحة العظمة والكبرياء على الظالمين بالبعد ، فأخذ نوح عليه السلام يدعو لابنه والظرف هذا الظرف لم يجترأ عليه السلام - على ما يقتضيه أدب النبوة - على أن يسأل ما يريد من نجاة ابنه بالتصريح بل أورد القول كالمستفسر عن حقيقة الأمر ، و ابتدر بذكر ما وعده الله من نجاة أهله

حين أمره أن يجمع الناجين معه في السفينة فقال له : احمل فيها من كل زوجين اثنين و أهلك .

و كان أهله - غير امرأته - حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا ولو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السلام مؤمنا لم يدعه البتة إلى ركوب السفينة فهو عليه السلام الداعي على الكافرين السائل هلاكهم بقوله : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا ولم يكن مخالفته لأمر أبيه إذ أمره بركوب السفينة كفرا أو مؤديا إلى الكفر وإنما هي معصية دون الكفر .

و لذلك كله قال عليه السلام : « رب إن ابني من أهلي و إن وعدك الحق » فذكر وعد ربه وضم إليه أن ابنه من أهله - على ما في الكلام من دلالة « ربي » على الاسترحام ، و دلالة الإضافة في « ابني » على الحجّة في قوله : « من أهلي » و دلالة التأكيد بأن ولام الجنس في قوله : « و إن وعدك الحق » على أداء حق الإيمان .

و كانت الجملتان : « إن ابني من أهلي » و « إن وعدك الحق » ينتجان بانضمام بعضهما إلى بعض الحكم بلزوم نجاة ابنه لكنه عليه السلام لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدباً في مقام العبودية فلاحكم إلا الله بلسلم الحكم الحق والقضاء الفصل إلى الله سبحانه فقال : « وأنت أحكم الحاكمين » .

فالتمنى : رب إن ابني من أهلي ، و إن وعدك حق كل الحق ، و إن ذلك يدل على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق و مع ذلك فالحكم الحق إليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السلام يستوضح ما هو حقيقة الأمر ولم يذكر نجاة ابنه ولا زاد على هذا الذي حكاه الله عنه شيئا و سيوافيك بيان ذلك .

**قوله تعالى :** « قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسأل ما ليس لك به علم » الخ . بين سبحانه لنوح عليه السلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله : « إن ابني من أهلي و إن وعدك » الخ و هو يستوجب به نجاة ابنه فقال تعالى :

« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » فارتفع بذلك أثر حجته .

و المراد بكونه ليس من أهله - و الله أعلم - أنه ليس من أهله الذين وعده الله بنجاتهم لأن المراد بالأهل في قوله : « و أهلك إلا من سبق عليه القول » الأهل الصالحون ، و هو ليس بصالح و إن كان ابنه و من أهله بمعنى الاختصاص ، ولذلك علل قوله : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » بقوله : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » .

فإن قلت : لازم ذلك أن يكون امرأته الكافرة من أهله لأنها إنما خرجت من الحكم بالاستثناء وهي داخلة موضوعا في قوله : « و أهلك » ويكون ابنه ليس من أهله و خارجا موضوعا لا بالاستثناء و هو بعيد .

قلت : المراد بالأهل في قوله : « و أهلك إلا من سبق عليه القول » هم الأهل بمعنى الاختصاص و بالمستثنى - من سبق عليه القول - غير الصالحين و مصداقه امرأته و ابنه هذا ، و أمّا الأهل الواقع في قوله هذا : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » فهم الصالحون من المختصين به ﷺ طبقا لما وقع في قوله : « رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي » فإنه ﷺ لا يريد بالأهل في قوله هذا غير الصالحين من أولي الاختصاص و إلا شمل امرأته و بطلت حجته فافهم ذلك .

فهذا هو الظاهر من معنى الآية ، و يؤيده بعض ماورد عن أئمة أهل البيت ﷺ مما سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

و ذكروا في تفسير الآية معان أخر :

**منها :** أن المراد أنه ليس على دينك فكان كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله . و نسب إلى جماعة من المفسرين . و فيه أنه في نفسه معنى لا بأس به إلا أنه غير مستفاد من سياق الآية لأن الله سبحانه ينفي عنه الأهلية بالمعنى الذي كان يثبتها له به نوح ﷺ ولم يكن نوح يريد بأهليته أنه مؤمن غير كافر بل إنما كان يريد أنه أهله بمعنى الاختصاص و الصلاح و إن كان لازم الإيمان . اللهم إلا أن يرجع إلى المعنى المتقدم .

**ومنها :** أنه لم يكن ابنه على الحقيقة و إنما ولد على فراشه فقال نوح

عليه السلام : إِنَّهُ ابْنِي عَلَى ظَاهِر الْأَمْرِ فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ، وَنَبَّهَهُ عَلَى خِيَانَةِ امْرَأَتِهِ . وَيَنْسَبُ إِلَى الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ .

و فِيهِ : أَنَّهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ نَسَبَةِ الْعَارِ وَالشَّيْنِ إِلَى سَاحَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَ الذَّوْقِ الْمَكْتَسَبِ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى يَدْفَعُ ذَلِكَ عَنْ سَاحَتِهِمْ وَيَنْزِعُهُ جَانِبَهُمْ عَنْ أُمُثَالِ هَذِهِ الْأَبَاطِيلِ ، أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ بِصِرَاحَةٍ وَلَا ظُهُورِ فُلَيْسَ فِي الْقِصَّةِ إِلَّا قَوْلُهُ : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » وَلَيْسَ بِظَاهِرٍ فِيمَا تَجَرَّؤُا عَلَيْهِ وَ قَوْلُهُ فِي امْرَأَةِ نُوحٍ : « امْرَأَةُ نُوحٍ وَ امْرَأَةٌ لُوطُ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا » التَّحْرِيمُ : ١٠ . وَلَيْسَ إِلَّا ظَاهِرًا فِي أَنَّهُمَا كَانَتَا كَافِرَتَيْنِ تَوَالِيَانِ أَعْدَاءَ زَوْجِيهِمَا وَ تَسْرَانِ إِلَيْهِمَا بِأَسْرَارِهِمَا وَ تَسْتَنْجِدَانِهِمَا عَلَيْهِمَا .

**ومنها :** أَنَّهُ كَانَ ابْنُ امْرَأَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَانَ رِبِيبَهُ لَا ابْنَ مِنْ صُلْبِهِ . وَ فِيهِ أَنَّهُ مِمَّا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يِلَاقُ قَوْلُهُ فِي تَعْلِيلِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مِنْ حَقِّ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ ابْنُ الْمَرْأَةِ . عَلَى أَنَّ « مَنْ الْمُسْتَبْعَدُ جَدًّا أَنْ لَا يَكُونَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَالِمًا بِأَنَّهُ رِبِيبُهُ وَلَيْسَ بِابْنِهِ حَتَّى يَخَاطَبَ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » أَوْ يَكُونَ عَالِمًا بِذَلِكَ وَيَتَكَلَّمُ بِالْمُجَازِ وَيَحْتِجُّ عَلَى رَبِّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ بِذَلِكَ فَيَنْبَهُهُ أَنَّهُ لَيْسَ ابْنُهُ وَإِنَّمَا هُوَ رِبِيبٌ . وَقَوْلُهُ : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الضَّمِيرَ لِابْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَكُونُ هُوَ الْعَمَلُ غَيْرُ الصَّالِحِ ، وَ عَدَّهُ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ نَوْعٌ مِنَ الْمُبَالَغَةِ نَحْوُ زَيْدٍ عَدِلَ أَيْ ذُو عَدَلٍ ، وَقَوْلُهَا : فَأَيُّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ ، أَيْ ذَاتُ إِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ .

فَالْمَعْنَى : أَنَّ ابْنَكَ هَذَا ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ فُلَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِينَ وَعَدْتَنِي أَنْ أَنْجِيَهُمْ . وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » بِالْفِعْلِ الْمَاضِيِّ أَيْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .

وذكر بعضهم: أَنَّ الضَّمِيرَ رَاجِعٌ إِلَى سُؤَالِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: « رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » أَيْ إِنَّ سُؤَالَكَ نَجَاتِ ابْنِكَ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ لِأَنَّهُ سُؤَالٌ لِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ وَلَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَخَاطَبَ رَبَّهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ .

وهو من أسخف التفسير فإِنَّه معنى لا يلائم شيئاً من الجملتين الممكنتين به  
لا قوله : « إِنَّه ليس من أهلك » ولا قوله : « فلا تسألني ما ليس لك به علم » و هو  
ظاهر ، ولو كان كذلك كان من حق الكلام أن يتقدم على قوله : « إِنَّه ليس من  
أهلك » ويتصل بقول نوح عليه السلام .

على أنك عرفت أن قول نوح عليه السلام : « رب إن ابني من أهلي » الخ لا  
يتضمن سؤالاً وإنما كان يسوقه - لوجرى في كلامه - إلى السؤال لكن العناية  
الإلهية حالت بينه وبين السؤال .

وقوله : « فلا تسألن ما ليس لك به علم » كأن قول نوح عليه السلام : « رب إن  
ابني من أهلي » وإن وعدك الحق في مظنة أن يسوقه إلى سؤال نجاته ابنه وهو لا  
يعلم أنه ليس من أهله فأخذته العناية الإلهية ، و حال التسديد الغيبي بينه وبين  
السؤال فأدركه النهي بقوله : « لا تسألن ما ليس لك به علم » بتفريع النهي على ما تقدم  
أي فإذ ليس من أهلك لكونه عملاً غير صالح وأنت لاسبيل لك إلى العلم بذلك فإياك  
أن تبادر إلى سؤال نجاته لأنه سؤال ما ليس لك به علم .

و النهي عن السؤال بغير علم لا يستلزم تحقق سؤال ذلك منه عليه السلام لاستقلال  
ولا في ضمن قوله : « رب إن ابني من أهلي » لأن النهي عن الشيء لا يستلزم الارتكاب  
قبلاً ، وقد قال تعالى : « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم » الحجر : ٨٨  
فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن حب الدنيا والافتتان بزينتها وحاشاه عن ذلك .

وإنما يفنقر النهي في صحة تعلقه بفعل ما أن يكون فعلاً اختيارياً يمكن أن  
يبتلي به المكلف ، وما نهى عنه الأنبياء عليهم السلام على هذه الصفة وإن كانوا ذوي عصمة  
إلهية وتسديد غيبي ، فإن من العصمة والتسديد أن يراقبهم الله سبحانه في أعمالهم  
وكلما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الإنسان نبههم على وجه الصواب ويدعوهم  
إلى السداد والتزام طريق العبودية قال تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن  
إليهم شيئاً قليلاً إذاً لا دقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً »

أُسرَى : ٧٥ فأنبأ تعالى أنه هو الذي ثبتته ولم يدعه يقترب من الركون إليهم فضلا عن نفس الركون .

وقال تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لممت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم ولا يضركم من شيء وأنزل الله عليكم الكتاب والحكمة وعلمكم ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليكم عظيما » النساء : ١١٣ .

ومن الدليل على أن النهي - « فلا تسألن » الخ - نهى عما لم يقع بعد قول نوح عليه السلام بعد استماع هذا النهي : « ربّ إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم » ولو كان سأل شيئا لقليل : أعوذ بك من سؤالي ذلك ليفيد المصدر المضاف إلى المعمول التحقيق والارتكاب .

ومن الدليل أيضا على أنه عليه السلام لم يسأل ذلك تعقيب قوله : « فلا تسألن ما ليس لك به علم » بقوله : « إنني أعظك أن تكون من الجاهلين » فإن معناه : إنني أنصح لك في القول أن لا تكون بسؤالك ذلك من الجاهلين ، ولو كان نوح سأل ذلك لكان من الجاهلين لأنّه سأل ما ليس له به علم .

فإن قلت : إنّه تعالى قال : « أن تكون من الجاهلين » أي بمن استقرت فيه صفة الجهل ، واستقرارها إنّما يكون بالتكرار لا بالمرّة والدفعه ، وبذلك يعلم أنّه سأل ما سأل وتحقق منه الجهل مرّة وإنّما وعظه الله تعالى بما وعظ لئلا يعود إلى مثله فيمتكرّر منه ذلك فيدخل في زمرة الجاهلين .

قلت : زنة الفاعل كجاهل لا تدلّ على الاستقرار والتكرّر وإنّما تقيده الصفة المشبهة كجهول على ما ذكره ، ويشهد لذلك قوله تعالى في قصّة البقرة : « قالوا أأتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » البقرة : ٦٧ ، وقوله في قصّة يوسف : « وإن لا تصرف عني كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين » يوسف : ٣٣ ، وقوله خطابا لنبيه عليه السلام : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننّ من الجاهلين » الأنعام : ٣٥ .

وأيضا لو كان المراد من النهي عن السؤال أن لا يتكرّر منه ذلك بعد ما وقع

مرّة لكن الأنسب أن يصرّح بالنهي عن العود إلى مثله دون النهي عن أصله كما وقع في نظير المورد من قوله تعالى : « إذ تلقّونه بأسنتكم وقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم - إلى أن قال - يعظّمكم الله أن تعودوا لمثله أبداً » النور : ١٧ .

**قوله تعالى :** « قال ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » لما تبيّن نوح عليه السلام أنّه لو ساقه طبع الخطاب الذي خاطب به ربّه إلى السؤال كان سائلاً ما ليس له به علم وكان من الجاهلين وأنّ عناية الله حالت بينه وبين الهلكة ، شكر ربّه فاستعاذ بمغفرته و رحمته عن ذلك السؤال المخسر فقال : « ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم » .

و الكلام في الاستعاذة ممّا لم يقع بعد من الأمور المهلكة والمعاصي الموبقة كالنهي عمّا لم يقع من الذنوب والآثام وقد تقدّم الكلام فيه وقد أمر الله نبيه صلّى الله عليه وآله بالاستعاذة من الشيطان وهو معصوم لا سبيل للشيطان إليه قال تعالى ، « قل أعوذ بربّ الناس - إلى أن قال - من شرّ الوسواس الخناس الذي يوسّس في صدور الناس » الناس : ٥ ، وقال : « وأعوذ بك ربّ أن يحضرون » المؤمنون : ٩٨ والوحي مصون عن مسّ الشياطين كما قال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم » الجن : ٢٨ .

و قوله : « وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » كلام صورته صورة التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم والتأديب .  
أمّا صورة توبته فإنّ في ذلك رجوعاً إلى ربّه تعالى بالاستعاذة ولازمها طلب مغفرة الله و رحمته أي ستره على الإنسان ما فيه زلّته وهلاكه وشمول عنايته لحاله وقد تقدّم في أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أنّ الذنب أعمّ من مخالفة الأمر التشريعيّ بل كلّ وبال و أثر سيّئ ، يسوء الإنسان بوجه ، وأنّ المغفرة أعمّ من الستر على المعصية المعروفة عند المتشرّعة بل كلّ ستر إلهيّ يسعد الإنسان ويجمع شمله .



وَأَمَّا حَقِيقَةُ الشُّكْرِ فَإِنَّ الْعَنَاءَةَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّؤَالِ الَّذِي كَانَ يُوْجِبُ دَخُولَهُ فِي زَمْرَةِ الْجَاهِلِينَ وَ عَصَمَتَهُ بِدِيَانِ وَجْهِ الصَّوَابِ كَانَتْ سِتْرًا إِلَهِيًّا عَلَى زَلَّةٍ فِي طَرِيقِهِ وَ رَحْمَةً وَ نِعْمَةً أَنْعَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ ﷻ : « وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أَيُّ إِنِّ لَمْ تَعْذِنِي مِنَ الزَّلَّاتِ لَخَسِرْتُ ، ثَنَاءً وَشُكْرًا لَصْنَعِهِ الْجَمِيلِ .

**قوله تعالى :** « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ » الْخِ السَّلَامُ هُوَ السَّلَامَةُ أَوْ التَّحِيَّةُ غَيْرُ أَنْ ذَكَرَ مَسَّ الْعَذَابِ فِي آخِرِ الْآيَةِ يُؤَيِّدُ كَوْنَ الْمُرَادِ بِهِ فِي صَدْرِهَا السَّلَامَةُ مِنَ الْعَذَابِ وَ كَذَا تَبْدِيلُ الْبَرَكَاتِ فِي آخِرِ الْآيَةِ إِلَى التَّمَتُّعِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَرَكَاتِ لَيْسَ مُطْلَقُ النِّعَمِ وَ أَمْتَعَةُ الْحَيَاةِ بَلِ النِّعَمِ مِنْ حَيْثُ تَسُوقُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ وَ الْعَاقِبَةِ الْمَحْمُودَةِ .

فَقَوْلُهُ : « قِيلَ - وَلَمْ يَذْكُرِ الْقَائِلُ وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُعْظِمِ - يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ » مَعْنَاهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - يَا نُوحُ أَنْزَلَ مَعَ سَلَامَةٍ مِنَ الْعَذَابِ - الطُّوفَانَ - وَنَعَمَ ذَوَاتِ بَرَكَاتٍ وَخَيْرَاتٍ نَازِلَةً مِنَّا عَلَيْكَ ، أَوْ أَنْزَلَ بِتَحِيَّةٍ وَبَرَكَاتٍ نَازِلَةً مِنَّا عَلَيْكَ .

وَقَوْلُهُ : « وَعَلَى أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ » مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : « عَلَيْكَ » وَتَنْكِيرُ أُمَّمٍ يَدُلُّ عَلَى تَبْعِيضِهِمْ لِأَنَّ مِنَ الْأُمَّمِ مَنْ يَذْكُرُهُ تَعَالَى بَعْدَ فِي قَوْلِهِ : « وَأُمَّمٍ سَنُمَتِّعُهُمْ » . وَالْخُطَابُ أَغْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : « يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى ظَرْفِ صَدُورِهِ وَ لَيْسَ وَ قَتْمُذُ مُتَنَفِّسٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانَ وَقَدْ أُغْرِقُوا جَمِيعًا وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا جَمَاعَةٌ قَلِيلَةٌ فِي السَّفِينَةِ وَقَدَّرَتْ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَ قَدْ قُضِيَ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَيَعْمُرُوهَا وَيَعِيشُوا فِيهَا إِلَى حِينٍ -

خُطَابُ عَامٍّ شَامِلٍ لِلْبَشَرِ مِنْ لَدُنْ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ نَظِيرُ مَا صَدَرَ مِنَ الْخُطَابِ الْإِلَهِيِّ يَوْمَ اهْبِطَ آدَمُ ﷺ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ وَ قَدْ حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ بِقَوْلِهِ : « وَ قَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ »

و متاع إلى حين - إلى أن قال - قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون « البقرة : ٣٩ و في موضع آخر بقوله : « قال فيها يحيون و فيها تموتون و منها تخرجون » الأعراف : ٢٥ .

وهذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذاك الخطاب الأول موجه إلى نوح عليه السلام و من معه من المؤمنين - و إليهم ينتهي نسل البشر اليوم - متعلق بهم و بمن يلحق بهم من ذرائعهم إلى يوم القيامة ، وهو يتضمن تقدير حياتهم الأرضية و الإذن في نزولهم إليها و استقرارهم فيها و إيوائهم إيّاها .

و قد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبّر عن إذنه لطائفة منهم بالسلام و البركات وهم نوح عليه السلام و أمم ممن معه ، و لطائفة أخرى بالتمتع ، و عقّب التمتع بمسّ العذاب لهم كما أن كلمتي السلام و البركات لا تخلوان من بشرى الخير و السعادة بالنسبة إلى من تعلّقابه .

فقد بان من ذلك أن الخطاب بالهبوط في هذه الآية مع ما يرتبط به من سلام و بركات و تمتع موجه إلى عامّة البشر من حين هبوط أصحاب السفينة إلى يوم القيامة ، و وزانه وزان خطاب الهبوط الموجه إلى آدم و زوجته عليهما السلام ، و في هذا الخطاب إذن في الحياة الأرضية و وعد لمن أطاع الله سبحانه و وعيد لمن عصاه كما أن في ذلك الخطاب ذلك طابق النعل بالنعل .

و ظهر بذلك أن المراد بقوله : « و على أمم ممن معك » الأمم الصالحون من أصحاب السفينة و من سيظهر من نسلهم من الصالحين ، و الظاهر على هذا أن يكون « من » في قوله : « ممن معك » ابتدائية لبيانية ، والمعنى و على أمم مبتدي تكونهم ممن معك ، وهم أصحاب السفينة و الصالحون من نسلهم .

و ظاهر هذا المعنى أن يكون أصحاب السفينة كلّهم سعداء ناجين ، و الاعتبار يساعد ذلك فإنهم قد تحصّوا بالبلاء تمحيصا و آثروا ما عند الله من زلفى و قد صدّق الله سبحانه إيمانهم مرتين في أثناء القصة حيث قال عزّ من قائل : « إلا من قد آمن »

آية ٣٦ من السورة ، و قال : « ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » آية ٤٠ من السورة .  
 و قوله : « و أمم سمنتهم ثم يمسه منّا عذاب أليم » كأنّه مبتدأ لخبر  
 محذوف و التقدير : و ممن معك أمم أو هناك أمم سمنتهم الخ و قد أخرجهم الله  
 سبحانه من زمرة المخاطبين بخطاب الإذن فلم يقل : و متاع لأمم آخرين سيعذبون  
 طرداً لهم من موقف الكرامة ، فأخبر أنّ هناك أممًا آخرين سمنتهم ثمّ نعدّ بهم و  
 هم غير ما ذن لهم في التصرف في أمتعة الحياة إذن كرامة و زلفى .

و في الآية جهات من تعظيم القائل لا تخفى كالبناء للمفعول في « قيل » و  
 تخصيص نوح ﷺ بخطاب الهبوط ، و التكلّم مع الغير في قوله : « منّا » في موضعين  
 و « سمنتهم » و غير ذلك .

و ظهر أيضاً : أنّ ما فسّروا به قوله : « على أمم ممن معك » أنّ معناه : على  
 أمم من ذريّة من معك ليس على ما ينبغي مع ما فيه من خروج من معه من الخطاب  
 و كذا قول من قال : يعني بالأمم سائر الحيوان الذين كانوا معه لأنّ الله جعل فيهم  
 البركة . و فساده أظهر .

**قوله تعالى :** « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك » أي هذه القصص أو هذه  
 القصّة من أنباء الغيب نوحيها إليك .

و قوله : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » أي كانت وهي على  
 محوضة الصدق و الصحة مجهولة لك و لقومك من قبل هذا ، و الذي عند أهل الكتاب  
 منها محرّف مقلوب عن وجه الصواب كما سيوافيك ما في التوراة الحاضرة من  
 قصّته ﷺ .

و قوله : « فاصبر إنّ العاقبة للمتّقين » أمر منتزع عن تفصيل القصّة أي إذا  
 علمت ما آل إليه أمر نوح ﷺ و قومه من هلاك قومه و نجاته و نجاة من معه  
 من المؤمنين و قدورّتهم الله الأرض على ما صبروا ، و نصر نوحا على أعدائه على ما  
 صبر فاصبر على الحقّ فإنّ العاقبة للمتّقين ، وهم الصابرون في جنب الله سبحانه .

## ﴿بحث روائي﴾

في الدر المنثور أخرج إسحاق بن بشر و ابن عساكر عن ابن عباس قال :  
 إن نوحاً عليه السلام كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يخرج  
 فيدعوهم حتى إذا أيس من إيمان قومه جاءه رجل و معه ابنه و هو يتوكأ على عصا  
 فقال : يا بني أنظر هذا الشيخ لا يغرنك قال : يا أبت أمكنني من العصا ثم أخذ  
 العصا ثم قال : ضعني في الأرض فوضعه فمشى إليه فضربه فشجته موضحة في رأسه و  
 سالت الدماء .

قال نوح عليه السلام : رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فان يكن لك في عبادك حاجة  
 فاهداهم ، و إن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين فأوحى  
 الله إليه و آيسه من إيمان قومه و أخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام  
 النساء مؤمن قال : يا نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما  
 كانوا يفعلون يعني لا تحزن عليهم واصنع الفلك . قال : يا رب و ما الفلك ؟ قال :  
 بيت من خشب يجري على وجه الماء فأغرق أهل معصيتي و أظهر أرضي منهم . قال :  
 يا رب و أين الماء ؟ قال : إنني على ما أشاء قدير .

و في الكافي بإسناده عن المفضل قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة  
 أيام قدم على أبي العباس فلمّا انتهينا إلى الكناسة قال : ههنا صلب عمي زيد رحمه  
 الله ، ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين و هو آخر السراحين فنزل و قال :  
 انزل فإنّ هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأوّل الذي كان خطبه آدم و أنا أكره  
 أن أدخله راكباً . قلت : فمن غيره عن خطبه ؟ قال : أمّا أوّل ذلك فالطوفان في  
 زمن نوح ثم غيره أصحاب كسرى و النعمان ثم غيره بعد زياد بن أبي سفيان  
 فقلت : و كانت الكوفة و مسجدّها في زمن نوح ؟ فقال لي : نعم يا مفضل و كان  
 منزل نوح و قومه في قرية على منزل من الفرات ممّا يلي غربي الكوفة .

قال : و كان نوح رجلاً نجّاراً فجعله الله عزّ و جلّ نبياً و انتجبه ، و نوح أوّل من عمل سفينة تجري على ظهر الماء . قال : و لبث نوح في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عزّ و جلّ فيهنّون به و يسخرون منه فلمّا رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال : يا ربّ لا تذّر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنّك إنّ تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً فأوحى الله عزّ و جلّ إلى نوح أن اصنع سفينة و أوسّها و عجل عملها فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده فأتى بالخشب من بعد حتّى فرغ منها .

قال المفضّل : ثمّ انقطع حديث أبي عبد الله عليه السلام عند زوال الشمس فقام أبو عبد الله عليه السلام فصلّى الظهر و العصر ثمّ انصرف من المسجد فالتفت عن يساره و أشار بيده إلى موضع دار الدارين وهي موضع دار ابن حكيم وذلك فرات اليوم فقال : يا مفضّل وههنا نصبت أصنام قوم نوح : يعبوث و يعوق و نسر . ثمّ مضى حتّى ركب دابّته .

فقلت : جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته ؟ قال : في دورين . قلت : و كم الدوران ؟ قال : ثمانين<sup>(١)</sup> سنة . قلت : فإنّ العامّة يقولون عملها في خمس مائة سنة ؟ فقال : كلا . كيف ؟ والله يقول : « و وحينا » قال : قلت : فأخبرني عن قول الله عزّ و جلّ : « حتّى إذا جاء أمرنا و فار التّسّور » فأين كان موضعه ؟ و كيف كان ؟ فقال : كان التّسّور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد . قلت له : فأين ذلك ؟ قال : موضع زاوية باب الفيل اليوم . ثمّ قلت له : و كان بدؤ خروج الماء من ذلك التّسّور ؟ فقال : نعم إنّ الله عزّ و جلّ أحبّ أن يري قوم نوح آية ثمّ إنّ الله تبارك و تعالى أرسل عليهم المطر فيفيض فيضا و العيون كلّهنّ فيضا فغرقهم الله و أنجنا نوحا و من معه في السفينة - الحديث .

**أقول :** و الرواية على طولها غير متعلّقة بالتفسير غير أنّا أوردناها لتكون كلاً نموذجاً من روايات كثيرة وردت في هذه المعاني من طرق الشيعة و أهل السنة

و لتكون عوناً لفهم قصص الآيات من طريق الروايات .

وفي الرواية استفادة التعجيل في صنع السفينة من قوله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » الآية . وفي الرواية نسبة زياد إلى أبي سفيان و لعلّ الوارد في لفظ الإمام « زياد » فأضيف إليه « ابن أبي سفيان » في لفظ بعض الرواة .

و فيه باسناده عن أبي رزين الأسديّ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إن نوحاً صلى الله عليه لمّا فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربّه في إهلاك قومه أن أن يفور التنّور ففار التنّور في بيت امرأة فقالت : إنّ التنّور قد فار فقام إليه فختمه فقام الماء و أدخل من أراد أن يدخل و أخرج من أراد أن يخرج ثمّ جاء إلى خاتمه فزعه يقول الله عزّ وجلّ : ففتحنّا أبواب السماء بماء منهمر و فجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر و حملناه على ذات ألواح و دسر .

قال : و كان نجره في وسط مسجدكم . ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع .  
**اقول :** و كون فوران التنّور علامة له عليه السلام يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع في عدّة من روايات الخاصّة و العامّة و سياق الآية : « فلمّا جاء أمرنا و فار التنّور قلنا احمل » الآية لا يخلو من ظهور في كونه ميعاداً .

وفيه باسناده عن إسماعيل الجعفيّ عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد و هي الفطرة التي فطر الناس عليها و أخذ الله ميثاقه على نوح و النبيّين أن يعبدوا الله تبارك و تعالى و لا يشركوا به شيئاً و أمر بالصلاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الحلال و الحرام ، و لم يفرض عليه أحكام حدود و لا فرائض و مواريث فذهه شريعته . فلبث فيهم نوح ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم سرّاً و علانية فلمّا أبوا و اعتوا قال : « ربّ إنّي مغلوب فانتصر » فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : « لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » فذلك قول نوح : « فلا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً » فأوحى الله إليه : أن أصنع الفلك .

**اقول :** و رواه العياشيّ عن الجعفيّ مرسلًا و ظاهر الرواية أنّ له عليه السلام دعاءين

على قومه أحدهما وهو أولهما قوله : « ربّ إنّي مغلوب فانتصر » الواقع في سورة القمر ، وثانيهما بعدما أيّأسه الله من إيمان قومه وهو قوله : « ربّ لا تذرعلى الأرض من الكافرين ديارا إنّك إنّ تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجرا كفّارا » الواقع في سورة نوح .

وفي معاني الأخبار باسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ « وما آمن معه إلّا قليل » قال : كانوا ثمانية .

أقول : ورواه العياشيّ أيضاً عن حمران عنه عليه السلام ، و للناس في عددهم أقوال أخر : ستمّة أو سبعة أو عشرة أو اثنان وسبعون أو ثمانون ولا دليل على شيء منها .

وفي العيون باسناده عن عبد السلام بن صالح الهرويّ قال : قال الرضا عليه السلام لمّا هبط نوح إلى الأرض كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفساً فبنى حيث نزل قرية فسمّاها قرية الثمانين .

**أقول :** ولا تنافي بين الروایتين لجواز كون ما عدا الثمانية من أهل نوح عليه السلام وقد عمّر ما يقرب من ألف سنة يومئذ .

وفيه باسناده عن الحسن بن عليّ الوشاء عن الرضا عليه السلام قال : سمعته يقول : قال أبي : قال أبو عبد الله عليه السلام : إنّ الله عزّ وجلّ قال لنوح : « إنّك ليس من أهلک » لأنّه كان مخالفاً له ، وجعل من اتّبعه من أهله .

قال : وسألني كيف يقرؤون هذه الآية في ابن نوح ؟ فقلت : يقرؤها الناس على وجهين : إنّهم عمل غير صالح ، وإنّهم عمل غير صالح . فقال : كذبوا هو ابنه ولكن الله نفاه عنه حين خالفه في دينه .

**أقول :** ولعلّه عليه السلام يشير بقوله : « وجعل من اتّبعه من أهله » إلى قوله تعالى « فنجّينا و أهله من الكرب العظيم » الأنبياء والصافات : ٧٦ . فإنّ الظاهر أنّ المراد بأهله جميع من نجا معه .

و كأنّ المراد من قراءة الآية تفسيرها و الراوي يشير بإيراد القراءتين إلى تفسير من فسّر الآية بأنّ المراد أنّ امرأة نوح حملت الابن من غيره فألحقه بفراشه

ولذلك قرأ بعضهم : « ونادى نوح ابنها » أو « ونادى نوح ابنه » بفتح الـها مخفّف ابنها ونسبوا القراءتين إلى عليّ وبعض الأئمّة من ولده عليه السلام.

قال في الكشف : وقرأ عليّ رضي الله عنه « ابنها » والضمير لامرأته ، وقرأ محمد بن عليّ وعروة بن الزبير « ابنه » بفتح الـها يريدان « ابنها » فاكْتفيا بالفتحة عن الألف وبه ينصر مذهب الحسن قال قتادة : سألتَه فقال : والله ما كان ابنه فقلت : إنَّ الله حكى عنه « إنَّ ابني من أهلي » وأنت تقول : لم يكن ابنه ، وأهل الكتاب لا يختلفون أنَّه كان ابنه ! فقال : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ؟ واستدلَّ بقوله من أهلي ولم يقل : منِّي . انتهى .

واستدلّاله بما استدلَّ به سخيّف فإنَّ الله وعده بنجاة أهله ولم يعده بنجاة من كان منه حتّى يضطرَّ إلى قول : إنَّ ابني منِّي عند سؤال نجاته ، وقد تقدّم بيان أنَّ لفظ الآيات لا يلائم هذا الوجه .

وفيما ذكر من عدم الخلاف بين أهل الكتاب منظور فيه فإنَّ التوراة ساكنة عن قصّة ابن نوح هذا الغريق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن عليّ رضي الله عنه أنَّه قرأ : « ونادى نوح ابنها » .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن عليّ في قوله : « ونادى نوح ابنه » قال هي بلغة طيء لم يكن ابنه وكان ابن امرأته .  
**أقول :** ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام .

وفي تفسير العياشي عن موسى عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « ونادى نوح ابنه » قال ليس بابنه إنّما هو ابن امرأته وهي لغة طيء يقولون لابن امرأته : ابنه . الحديث .

وفيه عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول نوح : « يا بنيّ اركب معنا » قال : ليس بابنه . قال : قلت : إنَّ نوحاً قال : يا بنيّ ؟ قال : فإنَّ نوحاً قال ذلك وهو لا يعلم .



**أقول :** و المعتمد ما تقدم من رواية الوشاء عن الرضا عليه السلام .

وفيه عن إبراهيم بن أبي العلاء عن أحدهما عليهما السلام قال : لما قال الله : « يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي » قالت الأرض : إنما أمرت أن أبلع مائي أنا فقط ، ولم أؤمر أن أبلع ماء السماء فبلعت الأرض ماءها و بقي ماء السماء فصيّر بحراً حول الدنيا .

وفيه عن أبي بصير عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديث ذكر فيه الجودي قال : وهو جبل بالموصل .

و فيه عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام « استوت على الجودي » هو فرات الكوفة .

**أقول :** و يؤيد الرواية السابقة روايات أخر .

و فيه عن عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما ركب نوح عليه السلام في السفينة قيل : بعداً للقوم الظالمين .

و في المجمع في قوله تعالى : « قيل يا أرض ابلعي ماءك » الآية قال : و يروى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية فقال بعضهم لبعض : هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام ، ولا يشبه كلام المخلوقين وتركوا ما أخذوا فيه و افترقوا .

✽ ( أبحاث حول قصة نوح في فصول وهي أبحاث قرآنية وروائية ) ✽

✽ ( و تاريخية و فلسفية ) ✽

١ - الإشارة الى قصته . ذكر اسمه عليه السلام في القرآن في بضع و أربعين موضعاً يشار فيها إلى شيء من قصته إجمالاً أو تفصيلاً ، ولم تستوف قصته عليه السلام في شيء منها استيفاءً على نهج الاختصاص التاريخي بذكر نسبه و بيته و مولده ومسكنه و نشوئه و شغله و عمره و وفاته و مدفنه و سائر ما يتعلق بحياته الشخصية لما أن

القرآن لم ينزل كتاب تاريخ يقتصّ تواريخ الناس من برٍّ أو فاجر .

وإنّما هو كتاب هداية يصف للناس ما فيه سعادتهم ، ويبيّن لهم الحقّ الصريح ليأخذوا به فيفوزوا في حياتهم الدنيا والآخرة ، وربما أشار إلى طرف من قصص الأنبياء والأئمّ لنظهر به سنّة الله في عباده ، ويعتبر به من شملته العناية ووفّق للكرامة ، وتتمّ به الحجّة على الباقيين .

وقد فصّلت قصّة نوح عليه السلام في ستّ من السور القرآنيّة وهي سورة الأعراف وسورة هود ، وسورة المؤمنون ، وسورة الشعراء ، وسورة القمر ، وسورة نوح وأكثرها تفصيلا سورة هود التي ذكرت قصّته عليه السلام فيها في خمس وعشرين آية ( ٢٥ - ٤٩ ) .

## ٢ - قصته عليه السلام في القرآن .

### بعثه ورساله :

كان الناس بعد آدم عليه السلام يعيشون أمة واحدة على بساطة وسذاجة ، وهم على الفطرة الانسانيّة حتّى فشا فيهم روح الاستكبار وآل إلى استعلاء البعض على البعض تدريجا واتّخاذ بعضهم بعضا أربابا وهذه هي النواة الأصليّة التي لونسأت واخضرت وأينعت لم تثمر إلّا دين الوثنيّة والاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعيّة باستخدام القويّ للضعيف ، واسترقاق العزيز واستدراجه للذليل ، وحدوث المنازعات والمشاجرات بين الناس .

فشاع في زمن نوح عليه السلام الفساد في الأرض ، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنّة العدل الاجتماعيّ وأقبلوا على عبادة الأصنام ، وقد سمّى الله سبحانه منها ودّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ( سورة نوح ) .

وتباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء والجبايرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهووا أنفسهم ( الأعراف هود - نوح ) .

فبعث الله نوحا عليه السلام وأرسله إليهم بالكتاب والشرية يدعوهم إلى توحيد

الله سبحانه و خلع الأنداد و المساواة فيما بينهم ( البقرة آية ٢١٣ ) بالتبشير و الإنذار .

### دينه و شريعته عليه السلام :

كان ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه و رفض الشركاء ( كما يظهر من جميع قصصه القرآنية ) و الإسلام لله ( كما يظهر من سورتي نوح و يونس و سورة آل عمران آية ١٩ ) و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ( كما يظهر من سورة هود آية ٢٧ ) و الصلاة ( كما يظهر من آية ١٠٣ من سورة النساء و آية ٨ من سورة الشورى ) و المساواة و العدالة و أن لا يقربوا الفواحش و المنكرات و صدق الحديث و الوفاء بالعهد ( سورة الأنعام آية ١٥١ - ١٥٢ ) و هو ﷺ أول من حكي عنه في القرآن التسمية باسم الله في الأمور الهامة ( سورة هود آية ٤١ ) .

### اجتهاده عليه السلام في دعوته :

و كان ﷺ يدعو قومه إلى الإيمان بالله و آياته ، و يبذل في ذلك غاية وسعه فيندبهم إلى الحق ليلا و نهارا و إعلانا و إسرا فلا يجيبونه إلا بالعناد والاستكبار و كلما زاد في دعائهم زادوا في عتوهم و كفرهم ، ولم يؤمن به غير أهله وعدة قليلة من غيرهم حتى أيس من إيمانهم و شكى ذلك إلى ربه و طلب منه النصر « سورة نوح و القمر و المؤمنون » .

### لبثه في قومه :

لبث ﷺ في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزء و السخرية و رميه بالجنون وأنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر ربه ( سورة العنكبوت ) فأوحى إليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن و عزاه فيهم ( سورة هود ) فدعا عليهم بالتبار و الهلاك ، و أن يطهر الله الأرض منهم عن آخرهم ( سورة نوح ) فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا و وحينا ( سورة هود ) .

### صنعه عليه السلام الفلك :

أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه وتسديده فأخذ في صنعها وكان القوم يمرّون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء ، ويقول عليه السلام : إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم (سورة هود) وقد نصب الله لنزول العذاب علما وهو أن يفور الماء من المنّور (سورتا هود والمؤمنون) .

### نزول العذاب و مجيئ الطوفان :

حتّى إذا تمتّ صنعة الفلك وجاء أمر الله و فار التنّور أوحى الله تعالى إليه أن يحمل في السفينة من كلّ من الحيوان زوجين اثنين و أن يحمل أهله إلّا من سبق عليه القول الإلهي بالغرق وهو امرأته الخائنة وابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة ، و أن يحمل الذين آمنوا (سورتا هود والمؤمنون) فلمّا حملهم و ركبوا جميعا فتح الله أبواب السماء بماء منهمر و فجّر الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (سورة القمر) وعلا الماء و ارتفعت السفينة عليه وهي تسير في موج كالجبال (سورة هود) فأخذ الناس الطوفان و هم ظالمون و قد أمره الله تعالى إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يحمدا الله على ما نجاه من القوم الظالمين و أن يسأله البركة في نزوله فيقول : الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين ، و يقول : ربّ أنزلني منزلا مباركا و أنت خير المنزلين .

### قضاء الامر و نزوله و من معه الى الارض:

فلمّا عمّ الطوفان و أغرق الناس ( كما يظهر من سورة الصافات آية ٧٧ ) أمر الله الأرض أن تبلع ماءها و السماء أن تقلع و غيض الماء و استوت السفينة على جبل الجودي و قيل بعداً للقوم الظالمين ، و أوحى إلى نوح عليه السلام أن اهبط إلى الأرض بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمّ ممّن معك فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام ، و منهم أمّ سيمتّعهم الله بأمّعة الحياة ثمّ يمسخهم عذاب أليم فخرج هو و من معه ونزلوا الأرض يعبدون الله بالتوحيد والإسلام ، و توارثت ذريّته عليه السلام الأرض

و جعل الله ذريته هم الباقين (سورتا هود و الصافات) .

### قصة ابن نوح الغريق :

كان نوح عليه السلام عندما ركب السفينة لم يركبها واحد من أبنائه ، و كان لا يصدق أباه في أن من تخلف عنها فهو غريق لا محالة فرآه أبوه وهو في معزل فناداه : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فردّ على أبيه قائلاً : سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال نوح عليه السلام : لا عاصم اليوم من الله إلا من رحم - يريد أهل السفينة - فلم يلتفت الابن إلى قوله و حال بينهما الموح فكان من المغرقين .

ولم يكن نوح عليه السلام يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته و لو كان علم ذلك لم يحزنه أمره وهو القائل في دعائه : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً » الدعاء وهو القائل : « فافتح بيني و بينهم فتحة و نجّني و من معي من المؤمنين » الشعراء : ١١٨ و قد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » هود : ٣٧ .

فوجد نوح عليه السلام و حزن فنادى ربّه من وجده قائلاً : رب إن ابني من أهلي و إنّ وعدك الحقّ وعدتني بأنّ نجّاء أهلي و أنت أحكم الحاكمين لا تجور في حكمك ولا تجهل في قضائك ، فما الذي جرى على ابني ؟ فأخذته العناية الإلهية و حالت بينه و بين أن يصرّح بالسؤال في نجات ابنه - وهو سؤال لما ليس له به علم - وأوحى الله إليه : يا نوح إنّه ليس من أهلِكَ إنّه عمل غير صالح فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين .

فانكشف الأمر لنوح عليه السلام و التّجأ إلى ربّه تعالى قائلاً ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم أسألك أن تشملني بعنايتك و تستر عليّ بمغفرتك ، و تعطف عليّ برحمتك ، و لولا ذلك لكنت من الخاسرين .

٣ - خصائص نوح عليه السلام : هو عليه السلام أوّل أولي العزم سادة الأنبياء

أرسله الله إلى عامّة البشر بكتاب و شريعة فكتابه أوّل الكتب السماوية المشتملة

على شرائع الله ، و شريعته أوّل الشرائع الإلهية .

و هو ﷺ الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهي أنسابهم و الجميع ذريّته لقوله تعالى : « وجعلنا ذريّته هم الباقين » الصافات : ٧٧ و هو ﷺ أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ماعدا آدم و إدريس عليهما السلام قال تعالى : « و تر كُنا عليه في الآخرين » الصافات : ٧٨ .

و هو ﷺ أوّل من فتح باب التشريع و أتى بكتاب و شريعة و كلّم الناس بمنطق العقل و طريق الاحتجاج مضافاً إلى طريق الوحي فهو الأصل الذي ينتهي إليه دين التوحيد في العالم فله المنّة على جميع الموحّدين إلى يوم القيامة ، ولذلك خصّه الله تعالى بسلام عامّ لم يشار كه فيه أحد غيره فقال عزّ من قائل : «سلام على نوح في العالمين » الصافات : ٧٩ .

و قد اصطفاه الله على العالمين ( آل عمران آية ٣٣ ) وعدّه من المحسنين ( الأنعام ٨٤ الصافات ٨٠ ) و سمّاه عبداً شكورا ( أسرى آية ٣ ) وعدّه من عباده المؤمنين ( الصافات ٨١ ) و سمّاه عبداً صالحاً ( التحريم ١٠ ) .

و آخر ما نقل من دعائه قوله : « ربّ اغفر لي و لوالديّ و لمن دخل بيتي مؤمناً و للمؤمنين و المؤمنات و لا تزدا الظالمين إلاّ تباراً » نوح : ٢٨ .

٤ - قصته عليه السلام في النوراة الحاضرة : وحدث<sup>(١)</sup> لمّا ابتدأ الناس يكثرون على الأرض و ولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهنّ حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كلّ ما اختاروا . فقال الربّ لا يدين روعي في الإنسان إلى الأبد . لزيغانه هو بشر و تكون أيامه مائة و عشرين سنة . كان في الأرض طغاة في تلك الأيام . و بعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس و ولدن لهم أولادا . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم .

و رأى الربّ أنّ شرّ الإنسان قد كثر في الأرض . و أنّ كلّ تصوّر أفكار

قلبه إنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض . وتأسف في قلبه . فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم و دبابات و طيور السماء . لأنني حزنت أنني عملتهم . و أما نوح فوجد نعمة في عين الرب .

هذه مواليد نوح . كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله . و سار نوح مع الله . و ولد نوح ثلاثة بنين ساما وحاماً و يافث . و فسدت الأرض أمام الله و امتلأت الأرض ظلماً . و رأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي . لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم . فها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر . تجعل الفلك مساكن . و تطلبيه من داخل و من خارج بالقار . و هكذا تصنعه . ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك و خمسين ذراعاً عرضه و ثلاثين ذراعاً ارتفاعه . و تصنع كواً للفلك و تكمله إلى حد ذراع من فوق . و تضع باب الفلك في جانبه . مساكن سفلية و متوسطة و علوية تجعله . فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدي معك . فتدخل الفلك أنت و بنوك و امرأتك و نساء بنيك معك . و من كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً و أنثى . من الطيور كأجناسها . و من البهائم كأجناسها و من كل دبابات الأرض كأجناسها . اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها . و أنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل و اجمعه عندك . فيكون لك ولها طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله . هكذا فعل .

و قال <sup>(١)</sup> الرب لنوح : ادخل أنت و جميع بنيك إلى الفلك . لأنني إياك

(١) الاصحاح السابع من سفر التكوين .

رأيت باراً لديّ في هذا الجيل . من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى . ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى . ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى . لاستبقاء نسل على وجه كلّ الأرض . لأنّي بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . وأمحو عن وجه الأرض كلّ قائم عملته . ففعل نوح حسب كلّ ما أمره به الربّ .

ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض . فدخل نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان . ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكلّ ما يدبّ على الأرض . دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى . كما أمر الله نوحاً .

وحدث بعد السبعة الأيام أنّ مياه الطوفان صارت على الأرض . في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفتحت كلّ ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء . و كان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافت بنو نوح و امرأة نوح و ثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك . هم وكلّ الوحوش كأجناسها وكلّ الدبابات التي تدبّ على الأرض كأجناسها وكلّ الطيور كأجناسها كلّ عصفور ذى جناح . ودخل إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كلّ جسد فيه روح حياة . والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كلّ ذى جسد كما أمره الله . وأغلق الربّ عليه .

و كان الطوفان أربعين يوماً على الأرض . وتكاثرت المياه و رفعت الفلك فارتفع عن الأرض . و تعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه . وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطّت جميع الجبال الشاخة التي تحت كلّ السماء . خمسة عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطّت الجبال . فمات كلّ ذى جسد كان يدبّ على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكلّ الزحافات التي كانت تزحف على الأرض و جميع الناس . كلّ ما في أنفه نسمة روح حياة من كلّ ما في اليابسة مات . فمحا الله كلّ قائم كان على وجه الأرض . الناس



والبهائم و الدبّابات وطيور السماء فانمحّت من الأرض . وتبقّى نوح والّذين معه في الفلك فقط . وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً .

ثمّ <sup>(١)</sup> ذكر الله نوحاً و كلّ الوحوش و كلّ البهائم الّتي معه في الفلك وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه . و انسدتّ ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً و بعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه . و استقرّ الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراط . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر وفي العاشر في أوّل الشهر ظهرت رؤس الجبال .

وحدث من بعد أربعين يوماً أنّ نوحاً فتح طاقة الفلك الّتي كان قد عملها . و أرسل الغراب فخرج متردّداً حتّى نشفت المياه عن الأرض . ثمّ أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياه عن وجه الأرض . فلم يجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأنّ مياهها كانت على وجه كلّ الأرض فمدّ يده و أخذها و أدخلها عنده إلى الفلك . فلبث أيضاً سبعة أيّام آخر و عاد فأرسل الحمامة من الفلك . فأنتت إليها الحمامة عند المساء و إذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أنّ المياه قد قلّت عن الأرض . فلبث أيضاً سبعة أيّام آخر فأرسل الحمامة فلم يعد يرجع إليه أيضاً .

وكان في السنة الواحدة والستّمائة في الشهر الأوّل في أوّل الشهر أنّ المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك و نظر فاذا وجه الأرض قد نشف . وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفّت الأرض .

و كلّّم الله نوحاً قائلاً . اخرج من الفلك أنت و امرأتك و بنوك و نساء بنيك معك . و كلّ الحيوانات الّتي معك من كلّ ذي جسد الطيور و البهائم و كلّ الدبّابات الّتي تدبّ على الأرض أخرجها معك و لتتوالد في الأرض و تنمر و تكثر على الأرض . فخرج نوح و بنوه و امرأته و نساء بنيه معه ، و كلّ الحيوانات و كلّ

الدَّبَابَاتِ وَكُلِّ الطَّيُورِ كُلِّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ كَأَنْوَاعِهَا خَرَجْتَ مِنَ الْفَلَكَ .  
وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ . وَ أَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَ مِنْ كُلِّ الطَّيُورِ  
الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحَرَّرَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ . فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا وَقَالَ الرَّبُّ فِي قَلْبِهِ :  
لَا أَعُودُ أَلْعَنُ الْأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ لِأَنِّ تَصَوَّرَ قَلْبَ الْإِنْسَانِ شَرًّا يَرِ مِنْذُ  
حَدَاتِهِ وَلَا أَعُودُ أَيْضًا أُمِيتُ كُلَّ حَيٍّ كَمَا فَعَلْتُ . مَدَّةَ كُلِّ أَيَّامِ الْأَرْضِ زَرْعٌ وَحَصَادٌ  
وَبَرْدٌ وَحَرٌّ وَصَيْفٌ وَشِتَاءٌ وَ نَهَارٌ وَ لَيْلٌ لَا يَزَالُ .

وَبَارَكَ اللَّهُ<sup>(١)</sup> نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ أَثْمَرُوا وَ اكْثَرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ وَلْتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ  
وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الْأَرْضِ وَ كُلِّ طَيُورِ السَّمَاءِ مَعَ كُلِّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ  
وَ كُلِّ أَسْمَاكِ الْبَحْرِ قَدْ دَفَعْتُ إِلَى أَيْدِيكُمْ . كُلِّ دَابَّةٍ حَيَّةٍ تَكُونُ لَكُمْ طَعَامًا كَالْعُشْبِ  
الْأَخْضَرِ دَفَعْتُ إِلَيْكُمْ الْجَمِيعَ . غَيْرَ أَنَّ لَحْمًا بِجَنَابَةِ دَمِهِ لَا تَأْكُلُوهُ . وَأَطْلُبْ أَنَا دَمَكُمْ  
لَأَنْفُسِكُمْ فَقَطْ مِنْ يَدِ كُلِّ حَيَوَانٍ أَطْلَبُهُ وَمَنْ يَدِ الْإِنْسَانِ أَطْلُبْ نَفْسَ الْإِنْسَانِ مِنْ  
يَدِ الْإِنْسَانِ أَخِيهِ . سَافَكَ دَمَ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ يَسْفِكُ دَمَهُ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَى صَوْرَتِهِ عَمَلُ  
الْإِنْسَانِ . فَأَثْمَرُوا أَنْتُمْ وَ اكْثَرُوا وَ تَوَالِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَكَاثَرُوا فِيهَا .

وَ كَلَّمَ اللَّهُ نُوحًا وَ بَنِيهِ مَعَهُ قَائِلًا . وَهَا أَنَا مُقِيمٌ مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعَ نَسْلِكُمْ مِنْ  
بَعْدِكُمْ . وَمَعَ كُلِّ ذَوَاتِ الْأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الَّتِي مَعَكُمْ الطَّيُورَ وَ الْبَهَائِمَ وَ كُلَّ وَحْشٍ  
الْأَرْضِ الَّتِي مَعَكُمْ مِنْ جَمِيعِ الْخَارِجِينَ مِنَ الْفَلَكَ حَتَّى كُلِّ حَيَوَانِ الْأَرْضِ . أَقِيمُ  
مِيثَاقِي مَعَكُمْ فَلَا يَنْقُرُضُ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَيْضًا بِمَيَاهِ الطُّوفَانِ وَلَا يَكُونُ أَيْضًا طُوفَانٌ  
لِيُخَرِّبَ الْأَرْضَ . وَ قَالَ اللَّهُ هَذِهِ عَلَامَةُ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَنَا وَاضِعُهُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ  
كُلِّ ذَوَاتِ الْأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الَّتِي مَعَكُمْ إِلَى أَجْيَالِ الدَّهْرِ . وَضَعْتُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ  
فَتَكُونُ عَلَامَةً مِيثَاقٍ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَرْضِ . فَيَكُونُ مَتَى أَنَشُرَ سَحَابًا عَلَى الْأَرْضِ وَتَظْهَرُ  
الْقُوسُ فِي السَّحَابِ . أَنِّي أَذْكَرُ مِيثَاقِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي  
كُلِّ جَسَدٍ فَلَا يَكُونُ أَيْضًا الْمَيَاهُ طُوفَانًا لَتَهْلِكَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ . فَمَتَى كَانَتْ الْقُوسُ فِي  
السَّحَابِ أَبْصَرَهَا لِأَذْكَرِ مِيثَاقًا أَبَدِيًّا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي كُلِّ جَسَدٍ عَلَى

(١) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

الأرض . وقال الله لنوح : هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض .

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك، ساما وحاما ويافت وحام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض .

و ابتدأ نوح يكون فلاّحا و غرس كرما . و شرب من الخمر فسكر و تعرّى داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . فأخذ سام و يافت الرداء ووضعهما على أكتافهما ومشيا إلى الورا و سترتا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الورا فلم يبصرا عورة أبيهما .

فلمّا استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير . فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته . و قال : مبارك الربّ إله سام وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافت فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم .

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مائة وخمسين سنة . فكانت كل أيام نوح تسع مائة وخمسين سنة ومات . انتهى ما قصدنا إيراده .

وهو - كما ترى - يخالف ما جاء في القرآن الكريم من وجوه :

**منها :** أنّه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأة نوح بل صرّح بدخولها الفلك و نجاتها مع بعليها ، وقد اعتذر عنه بعض : أنّ من الجائز أن يكون لنوح زوجان أغرقت إحداهما ونجت الأخرى .

**ومنها :** أنّه لم يذكر فيه ابن نوح الغريق وقد قصّه القرآن .

**ومنها :** أنّه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح وأهله بل اقتصر عليه وعلى بنيهِ وامراته ونساء بنيهِ .

**ومنها :** أنّه ذكر فيه جملة عمر نوح تسعمائة وخمسين سنة ، وظاهر الكتاب العزيز أنّها المدّة التي لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان . قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » العنكبوت : ١٤ .

**ومنها :** ما ذكر فيه من حديث قوس قزح و قصة إرسال الغراب و الحمامة للاستخبار و خصوصيات السفينة من عرضها و طولها و ارتفاعها و طبقاتها الثلاث و مدة الطوفان و ارتفاع الماء و غير ذلك فهي خصوصيات لم تذكر في القرآن الكريم وبعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس ، وقد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعاني في قصة نوح عليه السلام في لسان الصحابة و التابعين ، و أكثرها بالاسرائيليات أشبه .

**٥ - ما جاء في أمر الطوفان في أخبار الامم و أساطيرهم .** قال صاحب المنار في تفسيره : قد ورد في تواريخ الأمم القديمة ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلا و منها المخالف له إلا قليلا .

وأقرب الروايات إليه رواية الكلدانيين ، وهم الذين وقع الطوفان في بلادهم فقد نقل عنهم «برهوشع» و «يوسيفوس» أن « زينستروس » رأى في الحلم بعد موت والده «أوتيرت» أن المياه ستطغى و تغرق جميع البشر ، وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو و أهل بيته و خاصة أصدقائه ففعل . و هو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبارين طغوا فيها و أكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان .

وقد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الآجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسماوية في عصر آشور بانيبال من نحو ستمائة وستين سنة قبل ميلاد المسيح ، و أنها منقولة من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهي أقدم من سفر التكوين .

وروى اليونان خبرا عن الطوفان أورده أفلاطون وهو أن كهنة المصريين قالوا لسولون - الحكيم اليوناني - أن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض فهلك البشر مراراً بطرق مختلفة فلم يبق للمجبل الجديد شيء من آثار من قبله ومعارفهم .

و أورد ما نيتون خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذي كان بعد ميناس الأول ، وهذا أقدم من تاريخ التوراة أيضاً ، وروي عن قدماء اليونان خبر طوفان عم الأرض كلها إلا «دوكاليون» وامرأته «بيرا» فقد نجوا منه .

وروي عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد و

الشرور بفعل أهريمان إله الشر ، وقالوا : إنَّ هذا الطوفان فار أَوْلاً من تتَّور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه ، ولكنَّ المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا : إنَّه كان خاصاً باقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان .

وكذا قدماء الهندوث يثبتون وقوع الطوفان سبع مرَّات في شكل خرافي آخرها أن ملكهم نجا هو و امرأته في سفينة عظيمة أمره بصنعها إله فشنو و سدَّها بالدر حثي استوت على جبل جيمافات - همالايا- ولكنَّ البراهمة كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها ، وروي تعدد الطوفان عن اليابان والصين وعن البرازيل والمكسيك وغيرهما ، و كلَّ هذه الروايات تتَّفَق في أنَّ سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم وشرورهم . انتهى .

وقد<sup>(١)</sup> وقع في «أوستا» وهو كتاب المجوس المقدس أن «أهورامزدا» أوحى إلى «إيما» (وتعتقد المجوس أنَّهُ جمشيد الملك) أنَّهُ سيقع طوفان يغرق الأرض ، وأمره أن يبني حائطا مرتفعا غايته يحفظ من في داخله من الغرق ، و أن يجمع في داخله جماعة من الرجال والنساء صالحة للنسل ، و يدخل فيه من كلَّ جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين ، و يبني في داخل السور بيوتا و قبايا في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك ويأوي إليها الدواب والطيور ، وأن يغرس في داخله ما ينفع في حياة الناس من الأشجار المثمرة ، ويحرث ما يرتزق به الناس من الحبوب الكريمة فيحفظ بذلك ما به حياة الدنيا وعمارتها .

وفي تاريخ الأدب الهندي<sup>(٢)</sup> في قصَّة الطوفان : أنَّهُ بين ما كان «مانو» (هو ابن الاله عند الوثنيين ) يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة ، ومما اندهش به أن السمكة كلَّمته وطلبت إنقاذها من الهلاك و وعدته جزاء عليه أنَّها ستُنقذ «مانو» في المستقبل من خطر عظيم ، والخطر العظيم المحقق الذي أنبأت به السمكة كان طوفانا سيجرف جميع المخلوقات ، وعلى ذلك حفظ «مانو» السمكة في المرتبان .

(١) ترجمة كتاب أوستا بالفرنسية المطبوعة بباريس .

(٢) على ما في قصص الانبياء لعبد الوهاب النجار .

فلما كبرت أخبرت «مانو» عن السنة التي سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على مانو أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طوفان الماء قائلة : أنا أنقذك من الطوفان فمانو صنع السفينة والسمكة كبرت أكثر من سعة المربعان لذلك ألقاها في البحر . ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة ، وحين دخل «مانو» السفينة عامت السمكة إليه فربط السفينة بقرن على رأسها فجرّتها إلى الجبال الشماليّة ، وهنا ربط «مانو» السفينة بشجرة ، وعندما تراجع الماء وجفّ بقي «مانو» وحده . انتهى .

٦ - هل كانت نبوته عليه السلام عامة للبشر ؟ مسألة اختلفت فيها آراء العلماء فالعزوف عند الشيعة عموم رسالته ، وقد ورد من طرق أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ عليه ، وعلى أن أولي العزم من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله كانوا مبعوثين إلى الناس كافة .

وأما أهل السنة فمنهم من قال بعموم رسالته مستندا إلى ظاهر الآيات الناطقة بشمول الطوفان لأهل الأرض كلّهم كقوله : «رب لا تنذر على الأرض من الكافرين ديارا» نوح : ٢٦ وقوله : «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم» هود : ٤٣ ، وقوله : «وجعلنا ذريّته هم الباقين» الصافات ٧٧ وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ولازمه كونه مبعوثا إليهم كافة .

ومنهم من أنكر ذلك مستندا إلى ما ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله : «وكان كلّ نبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الناس كافة» وأجابوا عن الآيات أنها قابلة للتأويل فمن الجائز أن يكون المراد بالأرض هي التي كانوا يسكنونها وهي وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون : «وتكون لكما الكبرياء في الأرض» يونس : ٧٨ . فمعنى الآية الأولى : لا تنذر على هذه الأرض من كافري قومي ديارا ، وكذا المراد بالثانية : لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله ، والمراد بالثالثة : وجعلنا ذريّته هم الباقين من قومه .

والحق أن البحث لم يستوف حقه في كلامهم ، والذي ينبغي أن يقال : أن النبوة إنّما ظهرت في المجتمع الإنساني عن حاجة واقعيّة إليها ورابطة حقيقيّة بين

الناس وبين ربهم وهي تعتمد على حقيقة تكوينية لاعتبارية جزافية فإن من القوانين الحقيقية الحاكمة في نظام الكون ناموس تكميل الأنواع و هدايتها إلى غاياتها الوجودية ، وقد قال تعالى : «الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى» الأعلى : ٣ ، وقال : «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» طه : ٥١ .

فكل نوع من أنواع الكون متوجّه منذ أوّل تكوّنه إلى كمال وجوده وغاية خلقه الذي فيه خيره وسعاده ، والنوع الانسانيّ أحد هذه الأنواع غير مستثنى من بينها فله كمال وسعادة يسير إليها ويتوجّه نحوها أفرادى و مجتمعين .

و من الضروريّ عندنا أنّ هذا الكمال لا يتمّ للإنسان وحده لوفور حوائجه الحيويّة وكثرة الأعمال التي يجب أن يقوم بها لأجل رفعها فالعقل العمليّ الذي يبعثه إلى الاستفادة من كلّ ما يمكنه الاستفادة منه واستخدام الجماد وأصناف النبات والحيوان في سبيل منافعه يبعثه إلى الانتفاع بأعمال غيره من بني نوعه .

غير أنّ الأفراد أمثال وفي كلّ واحد منهم من العقل العمليّ والشعور الخاصّ الإنسانى ما في الآخر ويبعثه من الانتفاع إلى مثل ما يبعث إليه الآخر ما عنده من العقل العمليّ ، واضطرّهم ذلك إلى الاجتماع التعاونيّ بأن يعمل الكلّ للكلّ و ينتفع من عمل الغير بمثل ما ينتفع الغير من عمله فيتسخّر كلّ لغيره بمقدار ما يسخّره كما قال تعالى : «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً» الزخرف : ٣٢ .

وهذا الذي ذكرناه من بناء الإنسان على الاجتماع التعاونيّ اضطراريّ له ألزمه عليه حاجة الحياة وقوّة الرقبا فهو في الحقيقة مدنيّ تعاونيّ بالطبع الثانيّ وإلاّ فطبعه الأوّليّ أن ينتفع بكلّ ما يتيسّر له الانتفاع حتّى أعمال أبناء نوعه ، ولذلك مهمما قويّ الإنسان واستغنى واستضعف غيره عدا عليه و أخذ يسترقّ الناس و يستثمرهم من غير عوض قال تعالى : «إنّ الإنسان لظّلم كفاً» إبراهيم : ٣٤ وقال : «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إنّ إلى ربّك الرجعى» العلق : ٨ .

و من الضروريّ أنّ الاجتماع التعاونيّ بين الأفراد لا يتمّ إلاّ بقوانين يحكم

فيها وحفاظاً تقوم بها ، وهذا مما استمرت سيرة النوع عليه فما من مجتمع من المجتمعات الإنسانية كاملاً كان أو ناقصاً راقياً كان أو منحطاً إلا ويجري فيه رسوم وسنن جريانا كلياً أو أكثرىاً ، والتاريخ والتجربة والمشاهدة أعدل شاهد في تصديقه وهذه الرسوم والسنن وإن شئت فسمها القوانين هي مواد وقضايا فكرية تطبق عليها أعمال الناس تطبيقاً كلياً أو أكثرىاً في المجتمع فينتج سعادتهم حقيقة أو ظناً فهي أمور متخللة بين كمال الإنسان ونقصه ، وأشياء متوسطة بين الإنسان وهو في أول نشأته وبينه وهو مستكمل في حياته عائش في مجتمعه تهدي الإنسان إلى غاية وجوده فافهم ذلك .

وقد علم أن من الواجب في رعاية الله أن يهدي الإنسان إلى سعادة حياته وكمال وجوده على حد ما يهدي سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقة والفطرة إلى ما فيه خيره وسعادته وهو الذي يبعثها إليه نظام الكون والجهازات التي جهز بها إلى أن يشعر بما فيه نفعه ويميز خيره من شره وسعادته من شقائه كما قال تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها » الشمس : ١٠ .

يهديه بواجب عنايته إلى أصول وقوانين اعتقادية وعملية يتم له بتطبيق شؤون حياته عليها كماله وسعادته فإن العناية الإلهية بتكميل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع من الهداية كما توجب الهداية التكوينية المحضة . ولا يكفي في ذلك ما جهز به الإنسان من العقل - وهو ههنا العملي منه - فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام ويدعو إلى الاختلاف ، ومن المحال أن يفعل شيء من القوى الفعالة فعلين متقابلين ويفيد أثرين متناقضين ، على أن المتخلفين من هذه القوانين والمجرمين بأنواع الجرائم المفسدة للمجتمع كلهم عقلاء متمتعون بمتاع العقل مبتهزون به .

فظهر أن هناك طريقاً آخر لتعليم الإنسان شريعة الحق ومنهج الكمال والسعادة غير طريق التفكير والتعقل وهو طريق الوحي ، وهو نوع تكليم إلهي يعلم



الإنسان ما يفوز بالعمل به والاعتقاده في حياته الدنيوية والأخروية .

فإن قلت : الأمر سواء فإن شرع النبوة لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لا تى به فإن العالم الإنساني لم يخضع لشرائع الأنبياء كما لم يصغ إلى نداء العقل ، ولم يقدر الوحي أن يدير المجتمع الإنساني ويركبه صراط الحق فما هي الحاجة إليه ؟

قلت : لهذا البحث جهتان : جهة أن العناية الإلهية من واجبها أن تهدي المجتمع الإنساني إلى تعاليم تسعده وتكمّله لو عمل بها وهي الهداية بالوحي ولا يكفي فيها العقل ، وجهة أن الواقع في الخارج والمنحقق بالفعل ماهو ؟ وإنما نبحت في المقام من الجهة الأولى دون الثانية ، ولا يضرّ بها أن هذه الطريقة لم تجربين الناس إلى هذه الغاية إلا قليلا . وذلك كما أن العناية الإلهية تهدي أنواع النبات والحيوان إلى كمال خلقها وغاية وجودها ومع ذلك يسقط أكثر أفراد كل نوع دون الوصول إلى غايته النوعية ويفسد ويموت قبل البلوغ إلى عمره الطبيعي .

و بالجملة فطريق النبوة مما لا مناص منه في تربية النوع بالنظر إلى العناية الإلهية وإلا لم تتمّ الحجّة بمجرّد العقل لأن له شغلا غير الشغل وهو دعوة الإنسان إلى مافيه صلاح نفسه ، ولودعاه إلى شيء من صلاح النوع فإنما يدعوه إليه بمافيه صلاح نفسه فافهم ذلك وأحسن التدبّر في قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتيناداد زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين أمثلاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً النساء : ١٦٥ .

فمن الواجب في العناية أن ينزل الله على المجتمع الإنساني ديناً يدينون به و شريعة يأخذون بها في حياتهم الاجتماعية دون أن يخصّ بها قوماً ويترك الآخرين سدى لا عناية بهم ، ولازمه الضروري أن يكون أوّل شريعة نزلت عليهم شريعة عامّة . وقد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعة بقوله عزّ من قائل : « كان الناس أمة

واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» البقرة : ٢١٣ فبيّن أن الناس كانوا أوّل مانشأوا وتكاثروا على فطرة ساذجة لا يظهر فيهم أثر الاختلافات والمنازعات الحيويّة ثمّ ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعة وكتاب يحكم بينهم بالحقّ فيما اختلفوا فيه ، ويحسم مادّة الخصومة والنزاع .

ثمّ قال تعالى فيما امتنّ به على محمد ﷺ : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الشورى : ١٣ . ومقام الامتنان يقضي بأن الشرائع الإلهيّة المنزلة على البشري هذه التي ذكرت لاغير ، وأوّل ما ذكره الشريعة هي شريعة نوح ، ولولم يكن عامّة للبشر كلّهم وخاصة في زمنه ﷺ لكن هناك إمّا نبيّ آخردو شريعة أخرى لغير قوم نوح ولم يذكر في الآية ولا في موضع آخر من كلامه تعالى ، وإمّا إهمال سائر الناس غير قومه ﷺ في زمنه وبعده إلى حين .

فقد بان أن نبوّة نوح ﷺ كانت عامّة ، وأنّ له كتابا وهو المشتمل على شريعته الرافعة للاختلاف ، وأنّ كتابه أوّل الكتب السماويّة المشتملة على الشريعة ، وأنّ قوله تعالى في الآية السابقة « وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » هو كتابه أو كتاب غيره من أولي العزم : إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم .

وظهر أيضا أنّ ما يدلّ من الروايات على عدم عموم دعوته ﷺ مخالف للكتاب وفي حديث الرضا ﷺ أنّ أولي العزم من الأنبياء خمسة لكلّ منهم شريعة وكتاب ونبوّةهم عامّة لجميع من سواهم نبيا أو غير نبيّ ، وقد تقدّم الحديث في ذيل قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » البقرة : ٢١٣ في الجزء الثاني من الكتاب .

**٧ - هل الطوفان كانت عامّة لجميع الارض ؟** تبينّ الجواب عن هذا السؤال في الفصل السابق فإنّ عموم دعوته ﷺ يقضي بعموم العذاب ، وهو نعم القرينة على أنّ المراد بسائر الآيات الدالّة بظاهاها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح

عليه السلام: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» نوح : ٢٦ ، وقوله حكاية عنه :  
«لأعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم» هود : ٤٣ ، وقوله : «وجعلنا ذريتهم الباقين»  
الصافات : ٧٧ .

ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين  
من كلامه تعالى أنه أمر نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه  
لو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض و ناحية من نواحيها كالعراق - كما  
قيل - لم يكن أي حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان  
زوجين اثنين . و هو ظاهر .

و اختار بعضهم كون الطوفان خاصاً بأرض قوم نوح عليه السلام قال صاحب المنار  
في تفسيره : أمّا قوله في نوح عليه السلام بعد ذكر تنجيته وأهله : « وجعلنا ذريته هم  
الباقيين » فالحصر فيهم يجوز أن يكون إضافياً أي الباقيين دون غيرهم من قومه ، و  
أمّا قوله : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » فليس نصّاً في  
أن المراد بالأرض هذه الكرة كلّها فإن المعروف من كلام الأنبياء و الأقوام و في  
أخبارهم أن تذكر الأرض و يراد بها أرضهم و وطنهم كقوله تعالى حكاية عن خطاب  
فرعون لموسى و هارون : « و تكون لكما الكبرياء في الأرض » يعني أرض مصر ، و  
قوله : « و إن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها » فالمراد بها مكّة ، و  
قوله : « و قضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين » والمراد بها  
الأرض التي كانت وطنهم ، و الشواهد عليه كثيرة .

ولكن ظواهر الآيات تدلّ بمعونة القرائن و التقاليد الموروثة عن أهل الكتاب  
على أنه لم يكن في الأرض كلّها في زمن نوح إلّا قومه وأنهم هلكوا كلّهم بالطوفان  
ولم يبق بعده فيها غير ذريته ، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا  
فيها من الأرض سهلها و جبلها لا في الأرض كلّها إلّا إذا كانت اليابسة منها في ذلك  
الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين و بوجود البشر عليها فإن علماء التكوين و  
طبقات الأرض - الجيو لوجيّة - يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها من الشمس

كرة نارية ملتهبة ثم صارت كرة مائية ثم ظهرت فيها اليابسة بالتدريج .  
 ثم أشار إلى ما استدلّ به بعض أهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض  
 من أننا نجد بعض الأصداف و الأسماك المتحجرة في أعالي الجبال و هذه الأشياء  
 مما لا تتكوّن إلا في البحر فظهورها في رؤس الجبال دليل على أن الماء قد صعد إليها  
 مرّة من المرات ، ولن يكون ذلك حتّى يكون قد عمّ الأرض هذا .  
 و ردّ عليه بأنّ وجود الأصداف و الحيوانات البحرية في قلع الجبال لا يدلّ  
 على أنّه من أثر ذلك الطوفان بل الأقرب أنّه من أثر تكوّن الجبال و غيرها من  
 اليابسة في الماء كما قلنا آنفاً فإنّ صعود الماء إلى الجبال أيّاماً معدودة لا يكفي  
 لحدوث ما ذكر فيها .

ثمّ قال ما ملخصه : أنّ هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن  
 و لذلك لم يبيّن بها بنصّ قطعيّ فنحن نقول بما تقدّم إنّّه ظاهر النصوص ولا نتخذة  
 عقيدة دينية قطعية فإنّ أثبت علم الجيولوجية خلافه لا يضرّنا لأنّه لا ينقض نصّاً  
 قطعياً عندنا . انتهى .

**اقول :** أما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل ، و  
 أمّا قوله في ردّ قولهم بوجود الأصداف و الأسماك في قلع الجبال : إنّ صعود الماء  
 إليها في أيّام معدودة لا يكفي في حدوثها ! ففيه أنّ من الجائز أن تحملها أمواج  
 الطوفان العظيمة إليها ثمّ تبقى عليها بعد الذشف فإنّ ذلك من طوفان يغمر الجبال  
 الشاخطة في أيّام معدودة غير عزيز .

و بعد ذلك كلّه قد فاتته ما ينصّ عليه الآيات أنّه **يَكُونُ** أمر أن يحمل من  
 كلّ جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين فإنّ ذلك كالنصّ في أنّ الطوفان عمّ  
 البقاع اليابسة من الأرض جميعاً أو معظمها الذي هو بمنزلة الجميع .

فالحقّ أنّ ظاهر القرآن الكريم - ظهوراً لا ينكر - أنّ الطوفان كان عامّاً  
 للأرض ، و أنّ من كان عليها من البشر أغرقوا جميعاً ، ولم يبق لهذا الحين حجة  
 قطعية تصرفها عن هذا الظهور .

و قد كنت سألت صديقي الفاضل الدكتور سحابي المحترم أستاذ الجيولوجيا بكلية طهران أن يفيدني بما يرشد إليه الأبحاث الجيولوجية في أمر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلي فأجابني بإيفاد مقال محصّله ما يأتي مفصّلاً في فصول :

١ - **الأراضي الرسوبية** . تطلق الأراضي الرسوبية في الجيولوجيا على الطبقات الأرضية التي كوّنتها رسوبات المياه الجارية على سطح الأرض كالبطائح والمسيلات التي غطّتها الرمال ودقاق الحصى .

تعرف الأراضي الرسوبية بما تراكم فيها من الرمال ودقاق الحصى الكروية المدوّرة فإنّها كانت في الأصل قطعاً من الحجارة حادة الأطراف والزوايا حولتها إلى هذه الحالة الاصطكاكات الواقعة بينها في المياه الجارية والسيول العظيمة ثم إنّ الماء حملها وبسطها على الأرض في غايات قريبة أو بعيدة بالرسوب .

و ليست تنحصر الأراضي الرسوبية في البطائح فغالب الأراضي الترابية من هذا القبيل تتخلطها أو تكوّن رمال بالغة في الدقّة ، وقد حملها لدقّتها وخفّتها إليها جريان المياه والسيول .

نجد الأراضي الرسوبية وقد غطّتها طبقات مختلفة من الرمل والتراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب ونظم ، وذلك - أوّلاً - أمانة أنّ تلك الطبقات لم تتكوّن في زمان واحد بعينه و - ثانياً - أنّ مسير المياه والسيول أو شدّة جريانها قد تغيّر بحسب اختلاف الأزمنة .

و يتّضح بذلك أنّ الأراضي الرسوبية كانت مجاري ومسايل في الأزمنة السابقة لمياه و سيول هائلة وإن كانت اليوم في معزل من ذلك .

وهذه الأراضي التي تحكي عن جريان مياه كثيرة جدّاً وسيول هائلة عظيمة توجد في أغلب مناطق الأرض منها أغلب نقاط إيران كأراضي طهران وقزوین و سمنان و سبزوار و یزد و تبریز و کرمان و شیراز وغيرها ، ومنها مركزين النهرين وجنوبه ، و ما وراء النهر ، و صحراء الشام ، و الهند ، و جنوب فرنسا ، و شرقيّ

الصين ، مصر ، و أكثر قطعات أمريكا ، و تبلغ ضخامة الطبقة الرسوبية في بعض الأماكن إلى مآت الأمتار كما أنها في أرض طهران تجاوزت أربعمائة مترا .

و ينتج مما مرّ أولا : أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد ( على ما سيأتي توضيحه ) كان مجرى سيول هائلة عظيمة ربّما غطّت معظم بقاعها .

و ثانيا : أن الطغيان و الطوفان - بالنظر إلى ضخامة القشر الرسوبي في بعض الأماكن - لم يحدث مرّة واحدة ولا في سنة أو سنين معدودة بل دام أوتكرّر في مآت من السنين كلّما حدث مرّة كوّن طبقة رسوبية ثم إذا انقطع غطتها طبقة ترابية ثم إذا عاد كوّن أخرى وهكذا وكذلك اختلاف الطبقات الرسوبية في دقّة رمالها و عدمها يدلّ على اختلاف السيلان بالشدة و الضعف .

### ٢ - الطبقات الرسوبية أحدث القشور و الطبقات الجيولوجية .

ترسب الطبقات الرسوبية عادة رسوبا أفقيّا ولكن ربّما وقعت أجزاءها المتراكمة تحت ضغوط جانبية قوية شديدة على ما بها من الدفع من فوق ومن تحت فتخرج بذلك تدريجا عن الأفقية إلى التدوير و الالتواء ، و هذا غير ظاهر الأثر في الأزمنة القصيرة المحدودة لكن إذا تمادى الزمان بطوله كمرور الملايين من السنين ظهر الأثر و تكوّن بذلك الجبال بسلاسلها الملتوية بعض تلالها في بعض و ترتفع بقللها من سطوح البحار .

و يستنتج من ذلك أن الطبقات الرسوبية والقشور الأفقية الباقية على حالها من أحدث الطبقات المتكوّنة على البسيط ، و الدلائل الفنية الموجودة تدلّ على أن عمرها لا يجاوز عشرة آلاف إلى خمس عشرة ألف سنة من زماننا هذا <sup>(١)</sup> .

### ٣ - انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها . كان تكوّن القشور

الرسوبية الجديدة عاملا في انبساط أكثر بحار الكرة و اتساعها بأطرافها فارتفعت

(١) و يستثنى من ذلك بعض ما في أطراف بالتيك و سائر المناطق الشمالية من طبقات

رسوبية افقية باقية على حالها من أقدم العهود الجيولوجية لجهات مذكورة في محلها .

مياها و غطت أكثر سواحلها ، و عملت جزائر في السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها .

فمن ذلك جزيرة بريطانية انقطعت في هذا الحين من فرنسا و انفصلت من أوربه بالكلمية ، و كانت أوربه من ناحية جنوبها و إفريقيا من ناحية شمالها مرتبطين برابط برّي إلى هذا الحين فانفصلتا باتساع البحر المتوسط ( مديترانه ) و تكون بذلك شبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة تونس من شمالها الشرقي و جزائر صقلية و سردينيا و غيرها و كانت جزائر أندنيسيا من ناحية جاوا و سوماترا إلى جنوبي جزيرة اليابان متصلة بآسيا من جهة الجنوب الشرقي إلى هذا الحين فانفصلت و تحولت إلى صورتها الفعلية ، و كذا انقطاع إمريكا الشمالية من جهة شمالها عن شمال أوربه أحد الآثار الباقية من هذا العهد عهد الطوفان .

و للحركات و التحولات الأرضية الداخلية آثار قويّة في سير هذه المياه و استقرارها في البقاع الخافضة المنحدرة و لذلك كان ينكشف الماء عن بعض البقاع الساحلية المغمورة بماء البحار في حين كان الطوفان مستوليا على أكثر البسيط يكون بحيرات و يوسع بحارا ، و من هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبية انكشف عنها ماء الخليج (١) .

#### ٤ - العوامل المؤثرة في ازدياد المياه و غزارة عملها في عهد الطوفان .

الشواهد الجيو لوجية التي أشرنا إلى بعضها تؤيد أنّ النزولات الجوية كانت غير عادية في أوائل الدور الحاضر من أدوار الحياة الإنسانية و هو عهد الطوفان ، و قد كان ذلك عن تغييرات جوية هامة خارقة للمعادة قطعاً . فكان الهواء حاراً في هذه الدورة نسبة لكن كان ذلك مسبوقاً ببرد شديد و قد غطى معظم النصف الشمالي من الكرة الثلج و الجمد و الجليد فمن المحتمل قوياً أنّ المتراكم من جمد الدورة السابقة عليه كان باقياً لم يذوب بعد في النجود في أكثر بقاع المنطقة المعتدلة الشمالية .

(١) و قد كانت مدينة شوش و قصر الكرخة في زمن الملوك الهخامنشية بإيران على ساحل البحر و كانت السفن الشراعية الجارية في خليج فارس تلقى مراسيها امام القصر .

فعمل الحرارة في سطح الأرض في دورتين متواليتين على ما به من متراكم الجمد و الجليد يوجب تغييراً شديداً في الجوّ وانقلاباً عظيماً مؤثراً في ارتفاع بخار الماء إليه و تراكمه فيه تراكما هائلاً غير عاديّ و تعقبه نزولات شديدة و أمطار غزيرة غير معهودة .

نزول هذه الأمطار الغزيرة الهائلة ثمّ استدامتها النزول على الارتفاعات و النحود و خاصّة على سلاسل الجبال الجديدة الحدوث في جنوب آسيا و مغربها و جنوب أوروبا و شمال إفريقيا كجبال <sup>(١)</sup> ألبرز و هيماليا و آلپ و في مغرب إفريقيا عقب جريان سيول عظيمة هائلة عليها تنحت الصخور و تنقلع أحجاراً و تحملها إلى الأراضي و البقاع المنحدرة و تحدث أودية جديدة و تعمّق أخرى قديمة و توسّعها ثمّ تبسط ماتحملها من الحجارة و الحصى و الرمل تجاهها قشورا رسوبية جديدة .

و ممّا كان يمدّ الطوفان السماويّ في شدّة عمله ويزيد في حجم السيول الجارية أنّ حفر الأودية الجديدة كان يكشف عن ذخائر مائيّة في بطن الأرض هي منابع الآبار و العيون الجارية فيزيل القشور الحافظة لها المانعة من سيلانها فيفجر العيون و يجريها مع السيول المطريّة ، و يزيد في قوّة تخريبها و يعينها في إغراق ما على الأرض من سهل و جبل و غمره .

غير أنّ الذخائر الأرضيّة متناهية محدودة تنفد بالسيلان و بنفادها و إمساك السماء عن الإمطار ينقضي الطوفان و تنحدر المياه إلى البحار و الأراضي المنخفضة و إلى بعض الخلاء و السرب الموجود في داخل الأرض الذي أفرغته السيول بالتفجير و المصّ .

٥ - نتيجة البحث . و على ما قدّمناه من البحث الكلّي يمكن أن ينطبق ما قصّه الله تعالى من خصوصيّات الطوفان الواقع في زمن نوح عليه السلام كقوله تعالى :

(١) فهي أقلّ عمراً من سائر جبال الأرض لم تعمر أكثر من مليوني سنة و لذلك كانت أشبه جبال الأرض و أعلى قللاً من غيرها لقلّة ما ورد عليها من اسباب النحت كالامطار و الرياح .



« ففتحن أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر » القمر : ١٢ ، وقوله : « حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنّور » هود : ٤٠ . وقوله : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أفلعي وغيض الماء وقضي الأمر » هود : ٤٤ . انتهى .

ومما يناسب هذا المقام ما نشره بعض جرائد<sup>(١)</sup> طهران في هذه الأيام و ملخصه : أنّ جماعة من رجال العلم من إمرىكا بهداية من بعض رجال الجندالتركيّ عثروا في بعض قلال جبل آراراط في شرقيّ تركيا في مرتفع ١٤٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطي القياس أنّها قطعات متلاشمة من سفينة قديمة وقعت هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمة ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

والقياس يعطي أنّها قطعات من سفينة يعادل حجمه ثلثي حجم مركب « كوئين ماري » الانجليزىّة التي طولها ١٠١٩ قدما وعرضها ١١٨ قدما ، وقد حملت الأخشاب إلى سانفراسيسكو لتحقيق أمرها وأنّها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينة نوح ؟ ﷺ .

**٨ - عمره عليه السلام الطويل .** القرآن الكريم يدلّ على أنّه ﷺ عمر طويلا ، وأنّه دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه ، وقد استبعده بعض الباحثين لما أنّ الأعمار الانسانية لا تتجاوز في الأغلب المائة أو المائة والعشرين سنة حتّى ذكر بعضهم أنّ القدماء كانوا يعدّون كلّ شهر من الشهور سنة فالألف سنة إلا خمسين عاما يعدل ثمانين سنة إلا عشرة شهور . وهو بعيد غايته .

وذكر بعضهم أنّ طول عمره ﷺ كان كرامة له خارقة للعادة قال الثعلبيّ في قصص الأنبياء في خصائصه ﷺ : وكان أطول الأنبياء عمرا وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين ، وجعل معجزته في نفسه لأنّه عمّر ألف سنة ولم ينقص له سنّ ولم تنقص له قوّة . انتهى .

(١) جريدة كيهان المنشرة اول سبتمبر ١٩٦٢ المطابق لغرة ربيع الاول ١٣٨٢ الهجرية القمرية عن لندن . آسوشيتد پرس .

و الحقّ أنّه لم يَقم حتّى الآن دليل على امتناع أن يعمّر الإنسان مثل هذه الأعمار بل الأقرب في الاعتبار أن يعمّر البشر الأوّلين بأزيد من الأعمار الطبيعيّة اليوم بكثير لما كان لهم من بساطة العيش وقلة الهموم وقلة الأمراض المسلّطة علينا اليوم وغير ذلك من الأسباب الهادمة للحياة ، ونحن كلّما وجدنا معمرًا عمّر مائة و عشرين إلى مائة وستين وجدناه بسيط العيش قليل الهمّ ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقي بعض الأعمار في السابقين إلى مآت من السنين .

على أنّ الاعتراض على كتاب الله في مثل عمر نوح عليه السلام وهو يذكّر من معجزات الأنبياء الخارقة للمعادة شيئاً كثيراً لعجيب . وقد تقدّم كلام في المعجزة في الجزء الأوّل من الكتاب .

**٩ - أين هو جبل الجودي ؟** ذكر وأنّه بديار بكر من موصل في جبال تتصل بجبال أرمينية ، وقد سمّاه في التوراة أراط . قال في القاموس : و الجوديّ جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، و يسمّى في التوراة « أراط » انتهى ، و قال في مرصد الاطّلاع : الجوديّ مشدّة جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في شرقيّ دجلة من أعمال الموصل استوت عليه سفينة نوح لما نضب الماء .

**١٠ - ربما قيل :** هب إنّّه أغرق قوم نوح بذنوبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذي على الأرض حيث هلك ببطاغية المياه ؟ وهذا من أسقط الاعتراض فما كلّ هلاك ولو كان عامّاً عقوبة وانتقاماً ، والحوادث العامّة التي تهلك الألوف ثمّ الألوف مثل الزلازل و الطوفانات والوباء و الطاعون كثير الوقوع في الدهر ، و لله فيما يقضي حكم .

## ﴿ كلام في عبادة الاصنام في فصول ﴾

**١ - الانسان و اطمئنا نه الى الحس .** الإنسان يجري في حياته الاجتماعيّة على اعتبار قانون العلبيّة والمعلوليّة الكلّي وسائر القوانين الكلبيّة التي أخذها من هذا النظام العامّ المشهود ، و هو على خلاف ما نشاهده من أعمال سائر الحيوان و

أفعاله يجري في التفكير والاستدلال أعني القياس والاستنتاج إلى غايات بعيدة .  
وهو مع ذلك لا يستقر في فحصه وبحثه على قرار دون أن يحكم في علّة هذا العالم  
المشهود الذي هو أحد أجزائه بشي، من الإثبات والنفي لما يرى أن سعادة حياته  
التي لا بغية عنده أحبّ منها تختلف على تقديري إثبات هذه العلّة الفاعلة المسماة  
بالإله عزّ اسمه ونفيه اختلافاً جوهرياً فمن المبيّن أن لامضاهة بين حياة الإنسان  
المتألّه الذي يثبت للعالم إلهاً حياً عليمًا قديرًا لا مناص من الخضوع لعظمته و  
كبريائه والجري على ما يحبّه ويرضاه ، و بين حياة الإنسان الذي يرى العالم  
سدى لا مبدء له ولا غاية ، وليس فيه للإنسان إلاّ الحياة المحدودة التي تنفئ بالموت  
و تبطل بالفوت ، ولا موقف للإنسانية فيه إلاّ ما للحيوان العجم من موقف الشهوة  
والغضب وبغية البطن والفرج .

فهذه نزعة فكرية أولى للإنسان إلى الحكم بأنّه : هل للوجود من إله ؟  
تتلوه نزعة ثانية وهي القضاء الفطريّ بالإثبات ، و الحكم بأنّ للعالم إلها خلق  
كلّ شيء بقدرته وأجرى النظام العامّ برؤيته فهدى كلّ شيء إلى غايته وكمال  
وجوده بمشيئته وسيعود كلّ إلى ربّه كما بدى . هذا .

ثمّ إنّ مزاوله الإنسان للحسّ والمحسوس مدى حياته و انكبابه على المادّة  
و إخلاذه إلى الأرض عوّده أن يمثّل كلّ ما يعقله و يتصوره تمثيلاً حسيّاً وإن  
كان ممّا لا طريق للحسّ والخيال إليه البتّة كالكليات و الحقائق المنزّهة عن المادّة  
على أنّ الإنسان إنّما ينتقل إلى المعقولات من طريق الإحساس و التخيل فهو  
أنيس الحسّ و أليف الخيال .

وقد قضت هذه العادة اللازمة على الإنسان أن يصوّر لربّه صورة خيالية على  
حسب ما يألّفه من الأمور المادّية المحسوسة حتّى أن أكثر الموحّدين ممّن يرى  
تنزّه ساحة ربّ العالمين تعالى و تقدّس عن الجسميّة و عوارضها يثبت في ذهنه له  
تعالى صورة مبهمّة خيالية معتزلة للعالم تبادر ذهنه إذا توجه إليه في مسألة أو حدث  
عنه بحديث غير أنّ التعليم الدينيّ أصلح ذلك بما قرّر من الجمع بين النفي والإثبات

والمقارنة بين التشبيه والتنزيه يقول الموحّد المسلم : إنّه تعالى شيء ليس كمثله شيء له قدرة لا كقدرة خلقه ، وعلم لا كالعلوم وعلى هذا القياس .

وقلّ أن يتفق لا نسان أن يتوجّه إلى ساحة العزّة والكبرياء ونفسه خالية عن هذه المحاكاة ، وما أشدّ أن يسمح الوجود برجل قد أخلص نفسه لله سبحانه غير متعلّق القلب بمن دونه ، ولا ممسوس بالتسويات الشيطانية قال تعالى : « سبحانه الله عما يصفون إلّا عباد الله المخلصين » الصافات : ١٦٠ ، وقال حكاية عن إبليس : « قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين » ص : ٨٣ .

وبالجملة الإنسان شديد الولوج بتخيّل الأمور غير المحسوسة في صورة الأمور المحسوسة فاذا سمع أن وراء الطبيعة الجسميّة ماهو أقوى وأقدروأعظم وأرفع من الطبيعة وأنّه فعّال فيها محيط بها أقدم منها مدبّر لها حاكم فيها لا يوجد شيء إلّا بأمره ولا يتحوّل عن حال إلى حال إلّا بإرادته ومشيّته لم يتلقّ من جميع ذلك إلّا ما يضاهاى أوصاف الجسمانيّات وما يتحصّل من قياس بعضها إلى بعض .

وكثيراً ما حاكاه في نفسه بصورة إنسان فوق السماوات جالس على عرش الملك يدبّر أمر العالم بالتفكّر ويتمّمه بالإرادة والمشيّة والأمر والنهي ، وقصّرحت التوراة الموجودة بأنّ الله سبحانه كذلك ، وأنّه تعالى خلق الإنسان على صورته ، وظاهر الأنجيل أيضاً ذلك .

فقد تحصّل أن الأقرب إلى طبع الإنسان وخاصّة الإنسان الأوّل الساذج أن يصنع لربّه المنزّه عن الشبه والمثل صورة يضاهاى بها الذوات الجسمانيّة وتناسب الأوصاف والنعوت التي يصفها بها كما يمثّل الثالوث باّنسان ذو وجوه ثلاثة كأنّ كلام النعوت العامّة وجه للربّ يواجه به خلقه .

٢ - الاقبال الى الله بالعبادة . إذا قضى الإنسان أن للعالم إلهاً خلقه بعلمه وقدرته لم يكن له بدّ من أن يخضع له خضوع عبادة أتباعاً للناموس العام الكونيّ وهو خضوع الضعيف للقويّ ومطابقة العاجز للقادر ، وتسليم الصغير الحقير للعظيم الكبير فانه ناموس عامّ جار في الكون حاكم في جميع أجزاء الوجود ، و به يؤثّر

الأسباب في مسبباتها و تنأثر المسببات عن أسبابها .

و إذا ظهر الذاмос المذكور لذوات الشعور و الإرادة من الحيوان كان مبدءاً للخضوع و المطاوعة من الضعيف للمقوي كما نشاهده من حال الحيوانات العجم إذا شعر الضعيف منها بقوة القوي آتسأ من الظهور عليه و القدرة على مقاومته .

و ظهوره في العالم الإنساني أوسع و أبين من سائر الحيوان لما في هذا النوع من عمق الإدراك و خصيصة الفكر فهو متفنت في إجراءاته في غالب مقاصده و أعماله جلباً للنفع أودفعاً للضرر كخضوع الرعيّة للسلطان و الفقير للغني و المرؤس للرئيس و المأمور للأمر و الخادم للمخدوم و المتعلم للعالم و المحب للمحبوب و المحتاج للمستغني والعبد للسيد و المربوب للرب .

و جميع هذه الخضوعات من نوع واحد و هوتدلل و هوان نفساني قبال عزّة و قهر مشهود ، و العمل البدني الذي يظهر هذا التدلل و الهوان هي العبادة أيّاماً كانت ؟ و مّمن و لمن تحققت ؟ ولا فرق في ذلك بين الخضوع للرب تعالى و بينه إذا تحقّق من العبد بالنسبة إلى مولاة أو من الرعيّة بالنسبة إلى السلطان أو من المحتاج بالنسبة إلى المستغني أو غير ذلك فالجميع عبادة .

و على أيّ حال لا سبيل إلى ردع الإنسان عن هذا الخضوع لاستناده إلى قضاء فطري ليس للإنسان أن يتجافى عنه إلا أن يتبيّن له أن الذي كان يظنّه قوياً و يستضعف نفسه دونه ليس على ما كان يظنّه بل هما سواء مثلاً .

و من هنا ما نرى أن الإسلام لم ينه عن اتّخاذ آلهة دون الله و عبادتهم إلا بعد ما بيّن للناس أنهم مخلوقون مربوبون أمثالهم ، وأنّ العزّة والقوّة لله جميعاً قال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » الأعراف : ١٩٤ و قال : « و الذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون و إن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوها و تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » الأعراف : ١٩٨ و قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولّوا فقولوا اشهدوا

بأننا مسلمون» آل عمران : ٦٤ ختم الآية بحديث التسليم لله تعالى بعدما دعاهم إلى ترك عبادة غير الله تعالى من الآلهة ورفض الخضوع لسائر المخلوقين المماثلين لهم وقال تعالى : « أَنْ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » البقرة : ١٦٥ ، وقال : « فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » النساء : ١٣٩ وقال : « مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ » الم السجدة : ٤ إلى غير ذلك من الآيات .

فليس عند غيره تعالى ما يدعو إلى الخضوع له فلا يسوغ الخضوع لأحدهم من دونه إلا أن يؤول إلى الخضوع لله و يرجع تعزيره و تعظيمه و ولايته إلى ناحيته قال تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ - إِلَى أَنْ قَالَ - فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الأعراف : ١٥٧ ، و قال : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا - إِلَى قَوْلِهِ - وَهُمْ رَاكِعُونَ » المائدة : ٥٥ ، و قال : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » التوبة : ٧١ ، و قال : « وَمَنْ يَعِظْكُمْ شُعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » الحج : ٣٢ . فلا خضوع في الإسلام لأحد دون الله إلا ما يرجع إليه تعالى ويقصده .

**٣ - كيف نشأت الوثنية ؟ و بماذا بدأت ؟ اتضح في الفصل المتقدم أن** الإنسان في مزلة من تجسيم الأمور المعنوية وسبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل و التصوير و هو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أي قوة فائقة قاهرة و الاعتناء بشأنها .

و لذا كانت روح الشرك و الوثنية سارية في المجتمع الإنساني سراية تكاد لا تقبل التحرز و الاجتناب حتى في المجتمعات الراقية الحاضرة و حتى في المجتمعات المبنيّة على أساس رفض الدين فترى فيها من النصب و تماثيل الرجال و تعظيمها و احترامها و البلوغ في الخضوع لها ما يمثل لك و ثنية العهود الأولى و الإنسان الأولي . على أن اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مآت الملايين قاطنين في شرقها و غربها .

و من هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتخاذ

تماثيل الرجال العظماء و نصب أصنامهم و خاصّة بعد الموت ليكون في ذلك ذكرى لهم ، و قد ورد في روايات أئمّة أهل البيت ما يؤيّد ذلك ففي تفسير القميّ مضمراو في علل الشرائع مسندا عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : « وقالوا لا تدرن آلهتكم » الآية قال : كانوا يعبدون الله عزّ وجلّ فماتوا فضجّ قومهم وشقّ ذلك عليهم فجاءهم إبليس لعنه الله و قال لهم : أتخذلكم أصناما على صورهم فتنظرون إليهم و تأمنون بهم و تعبدون الله فأعدّ لهم أصناما على مثالهم فكانوا يعبدون الله عزّ وجلّ وينظرون إلى تلك الأصنام فلمّا جاءهم الشتاء و الأمطار أدخلوا الأصنام البيوت . فلم يزالوا يعبدون الله عزّ وجلّ حتّى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم فقالوا : إنّ آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء فعبدوهم من دون الله عزّ وجلّ فذلك قول الله تبارك و تعالى : « ولا تدرنّ ودا ولا سواعا » الآية .

و كان ربّ البيت في الروم و اليونان القديمين - على ما يذكره التاريخ - يعبد في بيته فإذا مات اتّخذ له صنم يعبدّه أهل بيته و كان كثير من الملوك و العظماء معبودين في قومهم ، و قد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لآبراهيم عليه السلام الذي حاجّه في ربّه ، و فرعون موسى .

و هو ذا يوجد في بيوت الأصنام الموجودة اليوم و كذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كصنم بوذا و أصنام كثير من البراهمة و غيرهم .

و اتّخذهم أصنام الموتى و عبادتهم لها من الشواهد على أنّهم كانوا يرون أنّهم لا يبطلون بالموت و أنّ أرواحهم باقية بعده ، لها من العناية و الأثر ما كان في حال حياتهم بل هي بعد الموت أقوى وجودا و أنفذ إرادة و أشدّ تأثيرا لما أنّها خلصت من شوب المادة و نجت من التآثرات الجسمانيّة و الانفعالات الجبرمانيّة ، و كان فرعون موسى يعبد أصناما له و هو إله معبود في قومه قال تعالى : « وقال الملأ من قوم فرعون أتندر موسى و قومه ليفسدوا في الأرض و يذكر و آلهتكم » الأعراف : ١٢٧ .

٤ - اتّخاذ الأصنام لأرباب الانواع و غيرهم . كأنّ اتّخاذ تماثيل

الرجال هو الذي نبّه الناس على اتّخاذ صنم الإله إلا أنّه لم يعهد منهم أن يتّخذوا تمثالا لله سبحانه المتعالي أن يحيط به حدّ أو يناله وهم ، و كأنّ هذا هو الذي صرفهم عن اتّخاذ صنمه بل تفرّقوا في ذلك فأخذ كلّ ما يهّمّه من جهات التدبير المشهود في العالم فتوسّلوا إلى عبادة الله بعبادة من وكله الله على تدبير تلك الجهة المعنيّ بها بزعمهم .

فالقاطنون في سواحل البحار عبدوا ربّ البحر لينعم عليهم بفوائدها ويسلموا من الطوفان والطغيان ، و سكّان الأودية ربّ الوادي ، و أهل الحرب ربّ الحرب وهكذا .

ولم يلبثوا دون أن اتّخذ كلّ منهم ما يهواه من إله فيما يتوهّمه من الصورة و الشكل ، و ممّا يختاره من فلزّ أو خشب أو حجارة أو غير ذلك حتّى روي أنّ بني حنيفة من اليمامة اتّخذوا لهم صنما من أقط ثمّ أصابهم جَدب و شملهم الجوع فهجّموا عليه فأكلوه .

و كان الرجل إذا وجد شجرة حسنة أو حجرا حسنا و هو به عابده ، و كانوا يذبّحون غنما أو ينحرون إبلا فيلطّخونه بدمه فإذا أصاب مواشيهم داء جاؤا بها إليه فمسحوها به ، و كانوا يتّخذون كثيرا من الأشجار أربابا فيتبرّكون بها من غير أن يمسّوها بقطع أو كسر و يتقرّبون إليها بالقرايين ويأتون إليها بالنذورات والهدايا . و ساقهم هذا الهرج إلى أن ذهبوا في أمر الأصنام مذاهب شتى لا يكاد يضبطها ضابط ، ولا يحيط بها إحصاء غير أنّ الغالب في معتقداتهم أنّهم يتّخذونها شفعا يستشفعون بها إلى الله سبحانه ليحبّ إليهم الخير ويدفع عنهم الشرّ ، وربّما أخذها بعض عامّتهم معبودة لنفسها مستقلة بالألوهيّة من غير أن تكون شفعا ، وربّما كانوا يتّخذونها شفعا و يقدّمونها أو يفضّلونها على الله سبحانه كما يحكيه القرآن في قوله تعالى : « فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » الآية الأنعام : ١٣٦ .



وكان بعضهم يعبد الملائكة ، وآخرون يعبدون الجن ، وقوم يعبدون الكواكب الثابتة كشعري ، و طائفة تتخذ بعض السيارات إلها - وقد أشير إلى جميع ذلك في الكتاب الإلهي - كل ذلك طمعا في خيرها أو خوفا من شرّها .

وقلّ أن يتخذ إله من دون الله ولا يتخذ له صنم يتوجّه إليه في العبادات به بل كانوا إذا اتخذوا شيئا من الأشياء إلها شفعاء عملوا له صنما من خشب أو حجر أو فلز ، و مثلوا به ما يتوهمونه عليه من صورة الحياة فيسوّونه في صورة إنسان أو حيوان و إن كان صاحب الصنم على غير الهيئة التي يحكوها بها كالكوكب الثابتة و السيارات و إله العلم و الحب و الرزق و الحرب و نحوها .

و كان الوجه في اتخاذ أصنام الشركاء قولهم : إنّ الإله لتعالیه عن الصورة المحسوسة كأرباب الأنواع و سائر الآلهة غير المادية أولعدم ثباته على حالة الظهور كالكوكب الذي يتحوّل من طلوع إلى غروب يصعب التوجّه إليه كلّما أريد بالتوجّه فمن الواجب أن يتخذ له صنم يمثله في صفاته و نعوته فيصمد إليه بوسيلته كلّما أريد .

**٥ - الوثنية الصابئة .** الوثنية و إن رجعت - بالتقريب - إلى أصل واحد هو اتخاذ الشفعاء إلى الله و عبادة أصنامها و تماثيلها ، و لعلّها استولت على الأرض و شملت العالم البشري مرارا كما يحكيه القرآن الكريم عن الأمم المعاصرة لنوح و إبراهيم و موسى عليهم السلام إلّا أنّ اختلاف المنتحلين بها بلغ من التشعب و اتباع الأهواء و الخرافات مبلغا كان حصر المذاهب الناشئة فيها كالمحال و أكثرها لا تبني على أصول متقرّرة و قواعد منتظمة متلائمة .

و ممّا يمكن أن يعدّ منها مذهبا قريبا من الانتظام و التحصّل مذهب الصابئة و الوثنية البرهمية و البوذية :

أمّا الوثنية الصابئة فهي تبني على ربط الكون و الفساد و حوادث العالم الأرضي إلى الأجرام العلوية كالشمس و القمر و عطارد و الزهرة و مريخ و المشتري

وزحل و أنّها بمالها من الروحانيّات المتعلّقة بها هي المدبّرة للنظام المشهود يدبّر كلّ منها ما يتعلّق به من الحوادث على ما يصفه فنّ أحكام النجوم ، و يتكرّر بتكرّر دوراتها الأ دوار والأ كوار من غير أن تقف أو تنتهي إلى أمد .

فهي وسائط بين الله سبحانه و بين هذا العالم المشهود تقرب عبادتها الإنسان منه تعالى ثمّ من الواجب أن يتّخذ لها أصنام و تماثيل فيتمتّع بها عبادتها تلك الأصنام و التماثيل .

و ذكر المورّخون أنّ الذي أسّس بنيانها و هدّب أصولها و فروعها هو « يوزاسف » المنجم ظهر بأرض الهند في زمن ظهّمورث ملك إيران ، ودعا إلى مذهب الصابئة فاتّبعه خلق كثير ، و شاع مذهبه في أقطار الأرض كالروم و اليونان و بابل و غيرها ، و بنيت لها هياكل و معابد مشتملة على أصنام الكواكب ، و لهم أحكام و شرائع و ذبائح و قرابين يتولّونها كهنتهم . و ربّما ينسب إليهم ذبح الناس .

و هؤلاء يوحدون الله في ألوهيته لافي عبادته ، و ينزّهونه عن النقائص و القبائح ، و يصفونه بالنقي لا بالاثبات كقولهم : لا يعجز ولا يجهل ولا يموت ولا يظلم ولا يجور ، و يسمّون ذلك بالأسماء الحسنى مجازا وليسوا بقاتلين باسم حقيقة و قد قدّمنا شيئا من تاريخهم في تفسير قوله تعالى : « إنّ الذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين » الآية البقرة : ٦٢ في الجزء الأوّل من هذا الكتاب .

**٦ - الوثنية البرهمية .** والبرهمية - على ما تقدّم - من مذاهب الوثنية المتأصّلة ، ولعلّها أقدمها بين الناس فإنّ المدينيّة الهندية من أقدم المدينيّات الإنسانية لا يضبط بدء تاريخي لها على التحقيق ، ولا يضبط بدء تاريخي لوثنيّة الهند غير أنّ بعض المورّخين كالمسعودي وغيره ذكروا أنّ برهمن اسم أوّل ملوك الهند الذي عمّر بلادها و أسّس قواعد المدينيّة فيها وبسط العدل بين أهلها .

و لعلّ البرهمية نشأت بعده باسمه فكثيرا ما كانت الأُمم الماضية يعبدون ملوكهم و الأعظم من أقوامهم لاعتقادهم أنّهم ذوو سلطة غيبية و أنّ اللاهوت ظهر فيهم نوع ظهور ، و يؤيّد بعض التأييد أنّ الظاهر من « ويدا » وهو كتابهم المقدّس

أنّه مجموع من رسائل و مقالات شتّى ألف كلّ شطر منها بعض رجال الدين في أزمنة مختلفة و رثوها من بعدهم فجمعت و ألفت كتابا يشير إلى دين ذي نظام و قد صرّح به علماء سانسكريت و لازم ذلك أن يكون البرهمنية كغيرها من مذاهب الوثنية مبتدئة من أفكار عامية غير قيّمة ، متطورة في مراحل التكامل حتّى بلغت حظّها من الكمال .

ذكر البستانيّ في دائرة المعارف ما ملخصه :

برهم ( بفتح تين فسكون أو بفتح الباء و الهاء و سكون الراء ) هو المعبود الأوّل و الأكبر عند الهنود ، و هو عندهم أصل كلّ الموجودات واحد غير متغيّر و غير مدرك أذليّ مطلق سابق كلّ مخلوق خلق العالم كلّهُ بمجرّد ما أراد دفعة واحدة بقوله : أوّم أي كن .

وحكاية برهم تشبه من كلّ وجه حكاية « اى بوذة » فليس الفرق إلّا في الاسم و الصفات و كثيراً ما يجعلون نفس برهم اسماً للأقانيم الثلاثة المؤلّف منها ثلاث الهنود ، وهي : « برهما ووشنو وسيقوا » ويقال لعبدة برهم : البرهمنيون أو البراهمة . وأمّا برهما فهو نفس برهم معبود الهنود بعد أن شرع في أعماله ( بدليل زيادة الألف في آخره و هو من اصطلاحاتهم ) و هو الأقنوم الأوّل من الثلاث الهنديّ أي إنّ برهم ينبثق في نفسه في ثلاثة أقانيم كلّ مرة في أقنوم فالأقنوم الأوّل الذي يظهر به أوّل مرّة هو برهما ، والثاني وشنو ، والثالث سيقوا .

فلما انبثق برهما لبث مدّة طويلة جالسا على سدرّة تسمّى بالهنديّة « كمالا » و بالسنسكريتيّة بدما ، وكان ينظر من كلّ جهة ، وكان له أربعة رؤس بشمانيّ أعين فلم ير إلّا فضاء واسعاً مظلماً مملوءاً ماءً فارتاع لذلك ولم يقدر أن يدرك سرّ أصله فلبث ساكناً أبكم غارقاً في التأمّلات .

فمضت على ذلك أجيال و إذا بصوت قد طرق أذنيه بغتة و نبّهه من سباته و أشار عليه أن يفزع إلى « باغادان » و هو لقب برهم فظهر برهم بصورة رجل له ألف رأس فسجد له برهما و جعل يسبّحه فانشرح صدر باغادان و أبدع النور و كشف

الظلمات ، و أظهر لعبده حالة كينونته و الكائنات بصور جرائم متحدرة و أعطاه القوة لإخراجها من هذا الخمول .

فبقي برهما يتأمل في ذلك مائة سنة إلهية وهي عبارة عن ستة و ثلاثين ألف سنة شمسية ثم ابتداء بالعمل فأبدع أولاً سبع السماوات المسماة عندهم «سورة» و أنارها بالأجرام المسماة « ديقانة » ثم أبدع « مريثلوكا » أي مقر الموت ثم الأرض و قمرها ، ثم المساكين السبعة السفلى المسماة بتالة ، و أنارها بثمانية جواهر موضوعة على رؤس ثماني حيات .

فالسماوات السبع و المساكين السفلى السبعة هي العوالم الأربعة عشر في الميثولوجيا الهندية .

ثم خلق الأزواج السبعة لكي تعينه في أعماله فامتنع من مساعدته عشرة منها وهي « موني » و الريشة التسعة التي منها « ناريدا أونوردام » و اقتصرت على التأملات الدنيوية فتزوج حينئذ أخته « ساراسواتي » و أولدها مائة ولد ، و كان البكر اسمه « دكشا » فولد لكشاحمسون بنتا فتزوجت ثلث عشرة منهن « كاسيابا » الذي يسمونه أحياناً برهمان الأول ، وهو الذي ولد لبرهما ولدا يسمى « مارتشي » .

وولدت إحدى البنات المذكورات واسمها « أديتي » الأرواح المنيرة المسماة « ديقانة » وهي التي تفعل الخير و تسكن السماوات ، و أمّا أختها « ديتي » فولدت جمهوراً غفيراً من الأرواح الشريرة المسماة « داتينة » أو « اسورة » وهي سكان الظلام و فاعلة كل شر في العالم .

وكانت الأرض إلى ذلك الوقت خالية من السكان فقال بعضهم : إن برهما أخرج من نفسه « ما نوسويا مبوقا » الذي يقول الآخرون : إنه سابق له و أنه نفس برهم المعبود الواحد ثم إن برهما زوجاه « ساتاروبا » و قال لهما أن يكثرَا و ينميا .

و قال آخرون : إن برهما ولد أربعة أولاد وهم برهمان و كشتريا و قايسيا و سودرا فالأول خرج من فمه ، والثاني من ذراعه اليمنى ، والثالث من فخذه اليمنى

و الرابع من رجله اليمنى فكانوا أربع أرومات لأربع فرق أصلية .

وتزوج الثلاثة الآخرون بثلاث نساء منه أيضا خرجت واحدة من ذراعه اليمنى والثانية من فخذ اليسرى ، والثالثة من رجله اليسرى ، وسمين باسم بعولتهن بزيادة علامة التأنيث وهي « نى » ، وتزوج برهمان أيضا زوجة من أبيه ، ولكن كانت من نسل الأسورة الشريرة ، فهذا ما في القيداس عن كيفية خلق العالم .

ثم إن برهما بعد أن كان الإله الخالق القدير سقط عن رتبة وشنو الاقنوم الثاني وسبوا الاقنوم الثالث وذلك أنه انتفخ بالكبرياء والعجب ، وظن نفسه نظير العلي فسقط في ناراك أي الجحيم ، ولم يزل العفو إلا بشرط أن يتجسد مرة في كل من الأجيال الأربعة فتجسد أول مرة بصورة غراب شاعر اسمه « كاكبوسندا » و في الثانية بصورة « باربا قلميكى » فكان أولاً لصاً ثم رجلاً عبوساً رزيناً نادماً ثم ترجماناً مشهوراً للقيداس ومؤلفاً للراميانا ، وفي المرة الثالثة بصورة « قياسا » و هو شاعر ومؤلف « المطهابارانا » و البغاقة وعدة بورانات ، وفي المرة الرابعة وهو العصر الحالي المسمى « كالى يوغ » بصورة « كاليداسا » الشاعر التشخيصي العظيم ومؤلف « ساكنتالا » و متفح مؤلفات « قلميكى » .

ثم إن برهما ظهر في ثلاث أحوال ففي الحال الأولى كان الواحد الصمد و الكل الأعظم العلي ، و في الحال الثانية ظهر منبثقا من الأول أي شارعا في العمل و في الحال الثالثة ظهر متجسدا بصورة إنسان و حكيم .

و ليس لبرهما عبادة عامة في الهند ، و له هناك هيكل واحد فقط غير أن البراهمة يجعلونه موضوع عبادتهم ، ويدعونه مساء و صباحا ، وهم يرمون الماء ثلاث مرات براحة أيديهم على الأرض و نحو الشمس ، ويجدون له عبادتهم وقت الظهر بتقديمهم له زهرة ، و في تقديس النار يقدمون له سمنا مصفى كما يقدمون له النار ، و هذا التقديس أهم و أقدم من كل ما سواه . و اسمه هوم أو هوما و رغب . و يمثل برهما بصورة رجل ذي لحية طويلة باحدى يديه سلسلة الكائنات و

بالأخرى الإله الذي فيه ماء الحياة السماوي راكباً الهمسا وهو الطير الإلهي الذي يشبه اللقلق والنسر .

وأما برهمن فهو ابن برهما المبكر أخرجه من فيه كما تقدم ، وجعل نصيبه أربعة الكتب المقدسة المسماة « قيداس » كناية عن الكلمات الأربع التي نطق بها بأفواه الأربعة .

فلما أراد برهمن أن يتزوج نظير إخوته قال له برهما : إنك ولدت للدرس والصلاة فيجب أن تتبعد عن العلاقات الجسدية فلم يقتنع برهمن بقول أبيه فغضب برهما وزوجه بواحدة من جنسيات الشر المسماة أسورة ، ومن هذا ولد البراهمة وهم الكهنة المقدسون الذين خصّوا بتفسير القيداس ، وكانوا يتولّون أمر كلّ التقديمات التي يقدمها الهنود للإلهة .

و ولد كشميريا صنف الحرييين من البراهمة ، وقايسيا صنف أهل الزراعة منهم ، وسودرا صنف العبيد فالبراهمة أربعة أصناف انتهى ملخصاً من دائرة المعارف للبستاني .

و ذكر غيره أن البرهمنية منقسمة إلى طبقات أربع هم البراهمة ( علماء المذهب ) والحرييون والزراع والتجار ، ولا يعبؤ بغيرهم كالنساء والعبيد ، و قد نقلنا في ذيل قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » الآية المائدة : ١٠٥ في الجزء السادس من الكتاب في بحث علمي عن كتاب مال الهند من مقولة لأبي ريجان البيروني شيئاً من وظائف البراهمة وعبادتهم ، وكذا عن الملل والنحل للشهرستاني شطراً من شرائع الصابئين .

و المذاهب الوثنية الهندية و كأن الصابئين مثلهم أيضاً مطبقون على القول بالتناسخ وهو أن العوالم غير متناهية من ناحيتي الأزل والأبد ولكل منها حظاً من البقاء مؤجلاً فإذا انقضى أمد بقائه بطلت صورته وتولّد منه عالم آخر يعيش فيموت فيحدث ثالث وهكذا ، والنقوس الإنسانية المتعلقة بالأبدان لاموت بموت أبدانها بل موت أبدانها مبدء حياة جديدة لها فإنها تتعلّق بأبدان آخر تعيش فيها

عيشة سعيدة إن كسبت في بدنّها السابق فضائل نفسانيّة وعملت عملا صالحا ، وعيشة شقيّة إن تلبّست بالردائل و اقترفت السيّئات إلّا الكاملون في معرفة البرهم ( الله سبحانه ) فإنّهم أحياء بحياة الأبد آمنون من التولّد الثاني خارجون عن سلطان التناسخ .

## ٧ - الوثنيّة البوذية :

و قد أصلحت الوثنيّة البرهميّة <sup>(١)</sup> بالبوذية منسوبة إلى بوذا «سقياموني» المتوفى سنة خمسمائة وثلاث وأربعين قبل المسيح على ما نقل عن التاريخ السيلانيّ وقيل غير ذلك حتّى أنّ الاختلاف في ذلك ينسحب إلى ألفي سنة ، و لذلك ربّما ظنّ أنّه شخص خرافيّ لا حقيقة له لكنّ الحفريات الأخيرة التي وقعت في غايا الحديثة و آثارا أخرى في بطنة دلّت على صحّة وجوده ، و قد انكشفت بها آثار أخرى من تاريخ حياته و تعاليمه التي ألّفها إلى تلامذته وأتباعه .

و كان بوذا من بيت الملك ابن ملك يدعى «سودودانا» فعزفت نفسه الدنيا و شهواتها و اعتزل الناس في شبابه و لبث في بعض الغابات الموحشة سنين من عمره مكبّا على التزهّد و الارتياض حتّى تنوّرت نفسه بالمعرفة فخرج إلى الناس و هو ابن ستّ و ثلاثين سنة على ما قيل فدعاهم إلى التخلّص عن الشقاء و الآلام و الفوز بالراحة الكبرى و الحياة السماويّة الأبدية السرمديّة ، و وعظهم و جنّهم على التمسك بذيل شريعته بالتخلّق بالأخلاق الكريمة و رفض الشهوات و اجتناب الرذائل .

و كان بوذا - على ما نقل - يقول عن نفسه من دون كبرياء برهميّة : «أنا» <sup>(٢)</sup> متسوّل ، و لا توجد إلّا شريعة واحدة للجميع وهي العقاب الشديد للمجرمين و الثواب العظيم للمصلحين ، و شريعتي شريعة نعمة للجميع ، و فيها كالسماء مكان

(١) ملخص ما في دائرة المعارف للبستاني .

(٢) أيّ تصنيفي التسويات و الوسوس النفسانية و في كلامه هذا نسخ لحكم الطبقات في الشريعة البرهمية القاضي بتفاوت الناس في التشرف بالسعادة الدينية و تحریم بعضهم كالنساء و الصبيان منها .

للرجال والنساء والصبيان والبنات والأغنياء والفقراء على أنه يعسر على الغني أن يسلك طريقها .

و كان تعليمه على ما عند البوذيين : أن الطبيعة ذات فراغ وأنّها وهميّة خداعة ، وأنّ العدم يوجد في كلّ مكان وكلّ زمان ، وهو مملوء من الغش ، و نفس هذا العدم يزيل كلّ الحواجز بين أصناف الناس وجنسيّاتهم وأحوالهم الدنيويّة ، و يجعل أحقر الديدان إخوة للبوذيين .

و هم يعتقدون أنّ آخر عبارة نطق بها سقياموني هي « كلّ مرّكب فان » والغاية القصوى عندهم هي نجاة النفس من كلّ ألم و غرور ، وأنّ دور التناسخ الّذي لانهاية له ينتهي أو ينقطع بمنع النفس أن تولد ثانية ، و يتوصّل إلى ذلك بتطهيرها حتّى من رغبة الوجود .

فهذه القواعد الأساسيّة للبوذيّة موجودة صريحا في أقدم تعليمها المدرّج في « الأرياني ستيناس » وهي أربع حقائق سامية تنسب إلى سقياموني ذكرها في عظته الأولى الّتي قام بها في غابة تعرف بغابة الغزال بالقرب من بنارس .

و تلك الحقائق الأربع تتعلّق بالألم وأصله وملاشاته و بالطريقة المؤدّية إلى الملاشاة فالألم هو الولادة و السنّ و المرض و الموت و مصادفة المكروه و مفارقة المحبوب و العجز عمّا يرام ، و أسباب الألم الشهوات النفسانيّة والجسديّة و الأهواء ، و ملاشاة جميع هذه الأسباب هي الحقيقة الثالثة ، و لطريقة الملاشاة أيضا ثمانية أقسام وهي : نظر صحيح ، و حسّ صحيح ، و نطق صحيح ، و فعل صحيح و مركز صحيح ، و جدّ صحيح ، و ذكر صحيح ، و تأمل صحيح فهذه صورة الإيمان عندهم و قد وجدت محفورة على أبنية كثيرة و مدوّنة في عدّة كتب .

و أمّا خلاصة الأدب البوذيّ فهي اجتناب كلّ شيء رديّ ، و عمل كلّ شيء صالح و تهذيب العقل .

فهذا هو الّذي سلّموه من تعليم بوذا ، و ما عداه من العبادات و الذبائح و الكهنوت و الفلسفة و الأسرار أمور أضيفت إليه بمرور الأيّام و مرور الدهور ،



وهي تشتمل على أقاويل و آراء عجيبة في خلق العالم و نظمه و غير ذلك .  
ومما يقال إنَّ بوذا لم يتكلَّم عن الإله قطّ ، غير أنَّ ذلك لم يكن لإعراض منه  
عن مبدء الوجود ولا لإنكار بل لأنَّ الرجل كان يبذل كلَّ جهده في تجهيز الناس  
بالزهد عن زهرة الحياة الدنيا و تنفيرهم عن هذه الدار الغارّة .

**٨ - و ثنية العرب .** و هم أوّل من عارضهم الإسلام بالدعوة إلى التوحيد  
من عبدة الأوثان ، كان معظم العرب في عهد الجاهليّة بدويّين وأهل الحضارة منهم  
كاليمن في طبع البداوة يحكم فيهم من السنن و الآداب رسوم مخملطة مختلفة مأخوذة  
من جيرانهم الأقوياء كالفرس و الروم و مصر و الحبشة و الهند ، ومنها السنن  
الدينيّة .

و كان أسلافهم الأقدمون وهم العرب العاربة و منهم عاد إرم و ثمود على دين  
الوثنيّة كما يحكيه الله سبحانه في كتابه عن قوم هود و صالح و عن أصحاب مدين  
و عن أهل سبأ في قصّة سليمان والهدد ، حتّى أن جاء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل  
و أمّه هاجر إلى أرض مكّة وهي واد غير ذي زرع و بها قبيلة جرهم ، فأسكنهما هناك  
فنشأ إسماعيل عليه السلام و بنيت بلدة مكّة ، و بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة البيت الحرام  
و دعا الناس إلى دينه الحنيف وهو الإسلام فاستجيب له في الحجاز وما والاها و شرع  
لهم الحجّ كما يدلّ على جملة ذلك قول الله تعالى له فيما يحكيه القرآن : « و  
أذن في الناس بالحجّ يأتوك رجالا و على كلّ ضامر يأتين من كلّ فج عميق »  
الحجّ : ٢٧ .

ثمّ تهوّد بعض الأعراب لمعاشرة كانت بينهم و بين اليهود النازلين بالحجاز ،  
و تسرّبت النصرانيّة إلى بعض أقطار الجزيرة ، و الملحوسيّة إلى بعضها الآخر .  
ثمّ وقعت وقائع بين آل إسماعيل و جرهم بمكّة حتّى آل إلى غلبة آل إسماعيل  
و إجلاء جرهم منها و استولى عمرو بن لُحيّ على مكّة و ما والاها .

ثمّ إنّه مرض مرضا شديدا فقبل له : إنَّ بالبلقاء من أرض الشام حمّة لو استحممت  
بها برئت فقصدها و استحجم بها فبرئ ، و رأى هناك قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها

فقالوا: هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقي فأعجبه ذلك فطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إليه هبل إلى مكة ووضع على الكعبة، وكان معه إساف ونائلة وهما صنمان على شكل زوجين - كما في الملل والنحل - أو شابيين - كما في غيره - فدعا الناس إلى عبادة الأصنام وروج ذلك بين قومه فعادوا يعبدونها بعد إسلامهم وقد كانوا يسمون حنفاء لاتباعهم ملّة إبراهيم عليه السلام فبقي عليهم الاسم وهجرهم المعنى و صار الحنفاء اسما للموثنيين<sup>(١)</sup> منهم .

و كان ممّا يقرّ بهم إلى الوثنيّة أنّ الكعبة المشرفة كان يعظمها اليهود والنصارى والمجوس والوثنيّة جميعاً فكان لا يظعن من مكّة ظاعن إلّا هل معه شيئاً من حجارة الحرم تمرّ كما وصباة ، وحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به تيمناً وحباً للكعبة والحرم .

و عن هذه الأسباب شاعت الوثنيّة بين العرب عاربهم و مستعربهم ولم يبق من أهل التوحيد بينهم إلّا آحاد لا يذكرون ، وكان من الأصنام المعروفة بينهم هبل وإساف ونائلة ، وهي التي أتى بها عمرو بن لُحيّ ودعا إليها الناس ، واللات والعزى ومناة وودّ و سواع و يغوث و يعوق و نسر ، و قد ذكرت هذه الثمان في القرآن و نسبت الخمس الأواخر منها إلى قوم نوح .

وروى في الكافي بإسناده إلى عبد الرحمن بن الأشلّ بياناً عن الصادق عليه السلام أنّ يغوث كان موضوعاً قبالة باب الكعبة ، وكان يعوق عن يمين الكعبة ونسر عن يسارها .

و في الرواية أيضاً أنّ هبل كان على سطح الكعبة وإساف ونائلة على الصفا والمروة .

و في تفسير القميّ قال : كانت ودّ للكلب ، و كانت سواع لهذيل و يغوث لمراد و كانت يعوق لهمدان ، و كانت نسر لحصين .

(١) ولعل هذا هو الوجه في إصرار القرآن على توصيف إبراهيم بالحنيف والاسلام بالحنيفية .

وكانت في الوثنية التي عندهم آثار من وثنية الصابئة كالغسل من الجنابة وغيره .  
 وفيها آثار من البرهمية كالقول بالأنواء والقول بالدهر كما تقدم عن  
 وثنية بوذه قال تعالى : « وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا  
 الدهر » الجاثية : ٢٤ و إن ذكر بعضهم أنه قول الماديين المنكرين لوجود الصانع .  
 وفيها شيء من الدين الحنيف وهو إسلام إبراهيم عليه السلام كالختمنة والحج إلا  
 أنهم خلطوه بسنن وثنية كالمسح بالأصنام التي حول الكعبة والطواف عريانا ،  
 والتلبية بقولهم : لبّيك لبّيك اللهم لبّيك لاشريك لك ، لا شريك هو لك ، تملكه  
 وما ملك .

وعندهم أمور أخر اختلفوه من عند أنفسهم كالقول بالبحيرة والسائبة والوصيلة  
 والحام والقول بالصدى والهام والأنصاب والأزلام وأمر أخر مذكورة في التواريخ  
 وقد تقدم تفسير البحيرة والسائبة والوصيلة والحام في سورة المائدة في ذيل آية ١٠٣  
 وكذا ذكر الأزلام والأنصاب في ذيل آية ٣ وآية ٩٠ .

٩ - دفاع الإسلام عن التوحيد ومنازلته الوثنية . لم تنزل الدعوة الالهية  
 تخاصم الوثنية وتقاومه وتندب إلى التوحيد كما ذكره الله في كتابه فيما يقصّه من  
 دعوة الأنبياء والرسل كنوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام ، وإشير  
 إلى ذلك في قصص عيسى ولوط ويونس عليهم السلام ..

وقد أجمل القول في ذلك في قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا  
 نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ .

وقد بدأ النبي صلى الله عليه وآله في دعوته العامة بدعاء الوثنيين من قومه إلى التوحيد  
 بالحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن فلم يجيبوه إلا بالاستهزاء والأذى  
 وفنة من آمن به منهم وتعذيبه أشدّ العذاب حتى اضطرّ جمع من المسلمين إلى ترك  
 مكة والهجرة إلى الحبشة ؛ ثم مكروا لقتله صلى الله عليه وآله فهاجر إلى المدينة ثم هاجر إليها  
 بعده عدّة من المؤمنين .

ولم يلبثوا حتى تعلّقوا به بالقتال ، وقتلوه ببدر وأحد والخندق وفي غزوات

أخرى كثيرة حتّى أظهره الله تعالى عليهم بفتح مكة فطهر ﷺ البيت والحرم من أوثانهم ، وكسر الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة ، و كان هبل منصوبا على سطح الكعبة فأصعد عليهما ﷺ إليه فرماه إلى الأرض وكان - على ما يقال - أعظم أصنامهم فدفن - على ما ذكره - في عتبة باب المسجد .

والإسلام شديد العناية بحسم مادة الوثنية وتخليمة القلوب عن الخواطر الداعية إليها وصرف النفوس حتّى عن الحومان حولها والإشراف عليها ، وذلك مشهود بما ندب إليه من المعارف الأصلية والأخلاق الكريمة والأحكام الشرعية فتراه يعدّ الاعتقاد الحقّ أنّه لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى يملك كل شيء ، له الوجود الأصيل الذي يستقلّ بذاته وهو الغنيّ عن العالمين ، و كلّ ما هو غيره منه يبتدىء وإليه يعود ، وإليه يفتقر في جميع شؤون ذاته حدوثا وبقاء فمن أسند إلى شيء شيئا من الاستقلال بالقياس إليه تعالى - لا بالقياس إلى غيره - في شيء من ذاته أو صفاته أو أعماله فهم مشرك بحسبه .

وتراه يأمر بالتوكل على الله ، والثقة بالله ، والدخول تحت ولاية الله ، والحبّ في الله ، والبغض في الله ، وإخلاص العمل لله ، وينهى عن الاعتماد بغير الله ، و الركون إلى غيره ، والاطمئنان إلى الأسباب الظاهرة ورجاء من دونه ، والعجب والكبر إلى غير ذلك ممّا يوجب إعطاء الاستقلال لغيره والشرك به .

وتراه ينهى عن السجدة لغيره تعالى ، وينهى عن اتّخاذ التماثيل ذوات الأظلال و عن تصوير ذوي الأرواح ، وينهى عن طاعة غير الله والإصغاء إليه فيما يأمر وينهى إلاّ ما رجع إلى طاعة الله كطاعة الأنبياء وأئمّة الدين ، وينهى عن البدعة واتّباعها و عن اتّباع خطوات الشيطان .

والأخبار الماثورة عن النبي ﷺ و عن أئمّة أهل البيت ﷺ متظافرة في أنّ الشرك ينقسم إلى جلبيّ وخفيّ ، وأنّ الشرك ذو مراتب كثيرة لا يسلم من جميعها إلاّ المخلصون ، وأنّه أخفى من ديب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، و قد روى في الكافي عن الصادق ﷺ في قوله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله

بقلب سليم» الشعراء : ٨٩: «القلب السليم الذي يلقي ربه ليس فيه أحد سواه . قال: وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط و إنما أرادوا بالزهد في الدنيا لنفرغ قلوبهم للآخرة .

و ورد أيضاً أن عبادته تعالى طمعا في الجنة عبادة الأجراء ، و عبادته خوفاً من الله عبادة العبيد ، و حق العبادة أن يعبد تعالى حباً له و تلك عبادة الكرام ، وهذا مقام مكنون لا يمسه إلا المطهرون وقد تقدّمت عدّة من هذه الروايات في بعض الأبحاث السابقة من الكتاب .

١٠ - بناء سيرة النبي على التوحيد ونفي الشركاء . أجل تعالى سيرته ﷺ التي أمره باتخاذها والسير بها في المجتمع البشري في قوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران : ٦٤ ، و قال تعالى يشير إلى ما داخل دينهم من عقائد الوثنيّة : « قل يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل » المائدة : ٧٧ .

و قال أيضاً يذم أهل الكتاب : « اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » التوبة : ٣١ .

و كان ﷺ قد سوّى بين الناس في إجراء الأحكام و الحدود و قارب بين طبقات المجتمع كالحاكم و المحكوم ، و الرئيس و المرؤس ، و الخادم و المخدم ، و الغنيّ و الفقير ، و الرجل و المرأة ، و الشريف و الوضيع فلا كرامة و لا فخر و لا تحكّم لأحد على أحد إلا كرامة التقوى و الحساب إلى الله و الحكم إليه .

و كان ﷺ يقسم بالسوية ، و ينهى عن تظاهر القويّ بقوّته بما يتأثر و ينكسر به قلب الضعيف المهيّن كنظائر الأغنياء بزيّناتهم على الفقير المسكين ، و الحكّام و الرؤساء بشوكتهم على الرعيّة .

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يعيش كأحد من الناس لا يمتاز منهم في مأكل أو مشرب أو مجلس أو مشية أو غير ذلك ، وقد تقدّم جوامع سيرته في آخر الجزء السادس من هذا الكتاب .

## ﴿ كلام آخر ملحق بالكلام السابق ﴾

نزن فيه تعليم القرآن الكريم بقياسه إلى تعاليم ويدا و أوستا و التوراة و الانجيل على نحو الإجمال و الكلّية في فصول وهذا بحث تحليلي شريف .

### ١ - التناسخ عند الوثنيين :

من الأصول الأولية التي تبنتها عليهما البرهمنية ومثلها البوذية والصابئية هو التناسخ وهو أن العالم محكوم بالكون و الفساد دائماً فهذا العالم المشهود لنا و كذا ما فيه من الأجزاء مكوّن عن عالم مثله سابق عليه وهكذا إلى غير النهاية ، و سيفسد هذا العالم كما لا يزال يفسد أجزاءه و يتكوّن منه عالم آخر وهكذا إلى غير النهاية ، و الإنسان يعيش في كلّ من هذه العوالم على ما اكتسبه في عالم يسبقه فمن عمل صالحاً و اكتسب ملكة حسنة فستتعلق نفسه بعد مفارقة البدن بالموت ببدن سعيد و يعيش على السعادة ، و هو ثوابه ، و من أخلد إلى الأرض و اتّبع هواه فسوف يعيش بعد الموت في بدن شقيّ و يقاسي فيه أنواع العذاب إلّا من عرف البرهم و اتّحد به فأنّه ينجوم من الولادة الثانية و يعود ذاتاً أزليّة أبديّة هي عين البهاء و السرور و الحياة و القدرة و العلم لا سبيل للفناء و البطلان إليها .

و لذلك كان من الواجب الدينيّ على الإنسان أن يؤمن بالبرهم ( و هو الله أصل كلّ شيء ) و يتقرّب إليه بالقرايين و العبادات ، و يتحلّى بالأخلاق الكريمة و الأعمال الصالحة فإن عزفت نفسه الدنيا و تخلّق بكرائم الأخلاق و تحلّى بصوالح الأعمال و عرف البرهم بمعرفة نفسه صار برهمنا و اتّحد بالبرهم و صار هو هو ، و هو السعادة الكبرى و الحياة البهجة ، و إلّا فليؤمن بالبرهم وليعمل صالحاً حتّى يسعد

في حياته التالية وهي آخرته .

لكن البرهم لمّا كان ذاتا مطلقة محيطا بكلّ شيء، غير محاط بشيء، كان أعلى وأجلّ من أن يعرفه الإنسان إلّا بنوع من نفي النقائص أو يناله بعبادة أوقربان فمن الواجب علينا أن نتقرّب بالعبادة إلى أوليائه وأقوياء خلقه حتّى يكونوا شفعا لنا عنده ، وهؤلاء هم الآلهة الذين يعبدون من دون الله بعبادة أصنامهم ، وهم على كثرتهم إمّا من الملائكة أو من الجن أو من أرواح الحكماء من البراهمة ، وإنّما يعبد الجن خوفا من شرّهم ، وغيرهم طمعا في رحمتهم وخوفا من سخطهم ومنهم الأزواج والبنون والبنات لله تعالى .

فهذه جمل ما تتضمنه البرهمية ويعلمه علماء المذهب من البراهمة .

لكنّ الذي يتحصّل من «أوپانيشاد»<sup>(١)</sup> وهو القسم الرابع من كتاب «ويدا» المقدّس ربّما لم يوافق ما تقدّم من كليّات عقائدهم وإن أوّله علماء المذهب من البراهمة .

فإنّ الباحث الناقد يجد أنّ رسائل «أوپانيشاد» المعلّمة للمعارف الإلهية وإن كانت تصف العالم الألوهي والشؤون المتعلقة به من الأسماء والصفات والأفعال من إبداء وإعادة وخلق ورزق وإحياء وإماتة وغير ذلك بما يوصف به الأمر الجسمانيّة الماديّة كالانقسام والتبعّض والسكون والحركة والانتقال والحلول والاتّحاد والعظم والصغر وسائر الأحوال الجسمانيّة الماديّة إلّا أنّها تصرّح في مواضع منها أنّ برهم<sup>(٢)</sup> ذات مطلقة متعالية من أن يحيط به حدّ له الأسماء الحسنى والصفات العليا من حياة وعلم وقدرة ، منزّه عن نعوت النقص وأعراض المادّة والجسم ليس كمثله شيء .

(١) أوپانيشاد كالخاتمة لكتب «ويدا» المقدسة وهي رسائل متفرقة ماثورة من كبار رجال الدين من عرفائهم القدماء الأقدمين تحتوى جمل ما حصلوه من المعارف الإلهية بالكشف ويعتبرها البراهمة وحيا سماويا .

(٢) هذا كثير الورد يعثر عليه الراجع في أغلب فصول أوپانيشاد .

و تصرّح <sup>(١)</sup> بأنّه تعالى أحديّ الذات لم يولد من شيء، ولم يلد شيئاً وليس له كفو ومثل البتّة .

وتصرّح <sup>(٢)</sup> بأنّ الحقّ أنّ لا يعبد غيره تعالى ولا يتقرّب إلى غيره بقربان بل الحريّ بالعبادة هو وحده لاشريك له .

وتصرّح <sup>(٣)</sup> كثيراً بالقيامة وأنّه الأجل الذي ينتهي إليه الخلقة ، و تصف ثواب الأعمال وعقابها بعد الموت بما لا يأبى الانطباق على البرزخ من دون أن يتعيّن حمله على التناسخ .

ولا خبر في هذه الأبحاث الإلهيّة الموردة فيها عن الأوثان والأصنام وتوجيه العبادات وتقديم القرابين إليها .

وهذه التي نقلناها من «أوپانيشاد» - وما تركناه أكثر- حقائق سامية ومعارف حقّة تطمئنّ إليها الفطرة الإنسانيّة السليمة ، وهي - كما ترى - تنفي جميع أصول الوثنيّة الموردة في أوّل البحث .

والذي يهدي إليه عميق النظر أنّها كانت حقائق عالية كشفها آحاد من أهل ولاية الله ثمّ أخبروا بما وجدوا : بعض تلامذتهم الآخذين منهم غير أنّهم تكلموا غالباً بالرمز واستعملوا في تعاليمهم الأمثال .

ثمّ جعل ما أخذ من هؤلاء أساساً تبنّني عليه سنّة الحياة التي هي الدين المجتمع عليه عامّة الناس ، وهي معارف دقيقة لا يحتملها إلاّ الآحاد من أهل المعرفة لارتفاع سطحها عن الحسّ والخيال اللذين هما حظّ العامّة من الإدراك وكمال صعوبة إدراكها على العقول الراجلة غير المتدرّبة في المعارف الحقّة .

(١) « لم يولد منه شيء ولم يتولد من شيء و ليس له كفوا أحد » او پانيشاد ( شيت استر ) ادھيا السادس آية ٨ ( السر الاكبر ) .

(٢) قال شيت استر : « اعمل الصالحات لتلك الذات النورانية إلى أي ملك اقدم القربان و أترك تلك الذات الظاهرة ؟ » او پانيشاد شيت استر . ادھيا الرابع آية ١٣ .

(٣) و هذا كثير الورود في فصول او پانيشاد يكثر عليه المراجع .



و اختصاص نيلها بالأقلين من الناس وحرمان الأكثرين من ذلك وهي دين إنسانيٍّ أوَّل المحذور فإنَّ الفطرة أنشأت العالم الإنسانيَّ مغروزة على الاجتماع المدنيّ ، وانفصال بعضهم عن بعض في سنّة الحياة وهي الدين إلغاء لسنّة الفطرة و طريقة الخلقة .

على أنَّ في ذلك تركا لطريق العقل وهو أحد الطرق الثلاث : الوحي والكشف والعقل ، وأهمّها وأهمّها بالنظر إلى حياة الإنسان الدنيويّة فالوحي لا يناله إلا أهل العصمة من الأنبياء المكرمين ، و الكشف لا يكرم به إلا الآحاد من أهل الإخلاص واليقين ، والناس حتّى أهل الوحي و الكشف في حاجة مبرمة إلى تعاطي الحجّة العقلية في جميع شؤون الحياة الدنيويّة ولا غنى لها عن ذلك ، وفي إهمال هذا الطريق تسليط التقليد الإجباري على جميع شؤون المجتمع الحيويّة من اعتقادات وأخلاق وأعمال ، و في ذلك سقوط الإنسانيّة .

على أنَّ في ذلك إنفاذاً لسنّة الاستعباد في المجتمع الإنسانيّ و يشهد بذلك التجارب التاريخيَّة المديد في الأمم البشريّة التي عاشت في دين الوثنيّة أو جرت فيهم سنن الاستعباد باتّخاذ أرباب من دون الله .

#### ٣ - سرّان هذه المحاذير الى سائر الأديان :

الأديان العامّة الأخر على ما فيها من القول بتوحيد الألوهيّة لم تسلم من شرك العبادة فساقهم ذلك إلى الابتلاء بعين ما ابتلت به الوثنيّة البرهميّة من المحاذير التي أهمّها الثلاثة المتقدّمة .

أمّا البوذية والصابئة فذلك فيهم ظاهر و التاريخ يشهد بذلك ، و قد تقدّم شيء ممّا يتعلّق بعقائدهم وأعمالهم .

و أمّا المجوس فهم يوحّدون « أهورا مزدا » بالألوهيّة لكنّهم يخضعون بالتقديس ليزدان و أهريمن و الملائكة الموكّلين بشؤون الربوبيّة و للشمس و النار و غير ذلك ، و التاريخ يتصّ ما كانت تجري فيهم من سنّة الاستعباد واختلاف الطبقات و التدبّر و الاعتبار يقضي أنّه إنّما تسرّب ذلك كلّهم إليهم من ناحية تحريف الدين

الأصيل ، وقد ورد عن النبي ﷺ فيهم « أنه كان لهم نبي فقتلوه وكتاب فأحرقوه .  
 و أما اليهود فالقرآن يقص كثيرا من أعمالهم وتحريفهم كتاب الله واتخاذهم  
 العلماء أربابا من دون الله ، و ما ابتلاهم الله به من انتكاس الفطرة و رداءة السليقة .  
 و أما النصارى فقد فصلنا القول فيما انحرفوا فيه من النظر و العمل في الجزء  
 الثالث من الكتاب فراجع و إن شئت فطبّق مفتتح إنجيل يوحنا و رسائل بوليس  
 على سائر الأناجيل و تمّمه بمراجعة تاريخ الكنيسة فالكلام في ذلك طويل .  
 فالبحت العميق في ذلك كلّهُ ينتج أن المصائب العامّة في المجتمعات الدينية  
 في العالم الإنساني من موارث الوثنيّة الأولى التي أخذت المعارف الإلهيّة والحقائق  
 العالية الحقّة مكشوفة القناع مهتوكة الستر فجعلتها أساس السنن الدينية ، و حملتها  
 على الأفهام العامّة التي لاناؤس إلّا بالحسّ و المحسوس فانتج ذلك ما أنتج .

### ٣ - اصلاح الاسلام لهذه المفاصد :

أما الاسلام فإنّه أصلح هذه المفاصد إذ قلب هذه المعارف العالية في قالب البيان  
 الساذج الذي يصلح لهضم الأفهام الساذجة والعقول العادية فصارت تلامسها من وراء  
 حجاب و تتناولها ملفوفة محفوفة ، وهذا هو الذي يصلح به حال العامّة و أما الخاصّة  
 فإنّهم ينالونها مسفرة مكشوفة في جمالها الرائع و حسنها البديع آمنين مطمئنّين  
 وهم في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيّين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و  
 حسن أولئك رفيقا قال الله تعالى : « والكتاب المبين إنّنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم  
 تعقلون و إنّّه في أمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ ، و قال : « إنّّه  
 لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلّا المطهرون » الواقعة : ٧٨ ، و قال النبيّ  
 ﷺ : « إنّنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم » .

و عالج غائلة الشرك و الوثنيّة في مرحلة التوحيد بنفي الاستقلال في الذات  
 و الصفات عن كلّ شيء ، إلّا الله سبحانه فهو تعالى القيّوم على كلّ شيء ، و ركز  
 الأفهام في معرفة الألوهيّة بين التشبيه و التنزيه فوصفه تعالى بأنّ له حياة  
 لكن لا كحياتنا ، و علما لا كعلمنا ، و قدرة لا كقدرتنا و سمعا لا كسمعنا ، و بصرا

لا كبصرنا ، و بالجملة ليس كمثله شيء ، وأنه أكبر من أن يوصف ، و أمر الناس مع ذلك أن لا يقولوا في ذلك قولاً إلا عن علم ، ولا يركنوا إلى اعتقاد إلا عن حجة عقلية يهضمها عقولهم و أفهامهم .

فوفق بذلك أو لا لعرض الدين على العامة و الخاصة شرعا سواء ، و ثانيا أن استعمل العقل السليم من غير أن يترك هذه الموهبة الإلهية سدى لا ينتفع بها ، و ثالثا أن قرب بين الطبقات المختلفة في المجتمع الانساني غاية ما يمكن فيهما من التقريب من غير أن ينعم على هذا و يحرم ذاك أو يقدم واحدا و يؤخر آخر قال تعالى : « و إن هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاعبدون » الأنبياء : ٩٢ و قال : « يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٣ .

و هذا إجمال من القول يمكنك أن تعثر على تفصيل القول في أطرافه في أبحاث متفرقة تقدمت في هذا الكتاب و الله المستعان .

٤ - ربما يظن أن ما ورد في الأدعية من الاستشفاع بالنبي و آله المعصومين صلوات الله عليهم و مسألته تعالى بحقيهم و زيارة قبورهم و تقبيلها و التبرك بمربتهم و تعظيم آثارهم من الشرك المنهي عنه و هو الشرك الوثني محتجا بأن هذا النوع من التوجه العبادي فيه إعطاء تأثير ربوبي لغيره تعالى و هو شرك و أصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم في أوثانهم : إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله . و قولهم : إنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى ، و لا فرق في عبادة غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبيا أو وليا أو جبارا من الجبابرة أو غيرهم فالجميع من الشرك المنهي عنه . و قد فاتهم أو لا أن ثبوت التأثير سواء كان ماديا أو غيرمادي في غيره تعالى ضروري لا سبيل إلى إنكاره ، و قد أسند تعالى في كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره ، و نفى التأثير عن غيره تعالى مطلقا يستلزم إبطال قانون العلمية و المعلولية العام الذي هو الركن في جميع أدلة التوحيد ، وفيه هدم بنيان التوحيد . نعم المنفي من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال في التأثير ولا كلام لأحد فيه ، و أمّا نفى

مطلق التأثير فيه إنكار بديهة العقل والخروج عن الفطرة الانسانية .

و من يستشفع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله في مثل قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الزخرف : ٨٦ وقوله : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الانبياء : ٢٨ .

أويسأل الله بجاههم و يقسمه بحقهم الذي جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقا : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون و إن جندنا لهم الغالبون » الصافات : ١٧٢ وقوله : « إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا » المؤمن : ٥١ أو يعظمهم و يظهر حبهم بزيارة قبورهم و تقبيلها و التبرك بترابهم بما أنهم آيات الله و شعائره تمسكا بمثل قوله تعالى : « و من يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » الحج : ٣٢ ، و آية القربى و غير ذلك من كتاب و سنة .

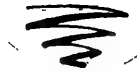
فهو في جميع ذلك يبتغي بهم إلى الله الوسيلة و قد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و ابتغوا إليه الوسيلة » المائدة : ٣٥ فشرع به ابتغاء الوسيلة ، و جعلهم بما شرع من حبهم و تعزيرهم و تعظيمهم وسائل إليه ، و لاه معنى لا يجب حب شيء و تعظيمه و تحريم آثار ذلك فلا مانع من التقرب إلى الله بحبهم و تعظيم أمرهم و ما لذلك من الآثار إذا كان على وجه التوسل و الاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير و العبادة البتة .

و ثانيا أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب إلى الله ، و بين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع و التقرب بهم إليه ففي الصورة الأولى إعطاء الاستقلال و إخلاص العبادة لغيره تعالى و هو الشرك في العبودية و العبادة ، و في الصورة الثانية يتمحض الاستقلال لله تعالى و يختص العبادة به وحده لا شريك له .

و إنما ذمّ تعالى المشركين لقولهم : « إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى » حيث أعطوهم الاستقلال و قصدوهم بالعبادة دون الله سبحانه ، و لو قالوا : إنما نعبد الله وحده و نرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله و أولياؤه بأذنه أو نتوسل

إلى الله بتعظيم شعائره وحبّ أوليائه ، لما كفروا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبة في الإسلام هي وجهة وليست بمعبودة ، وإنما يعبد بالتوجه إليها الله .

وليت شعري ماذا يقول هؤلاء في الحجر الأسود وما شرع في الإسلام من استلامه و تقبيله ؟ و كذا في الكعبة ؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمة ؟ فالحكم حكم ضروري عقلي لا يقبل تخصيصا ولا استثناء ، أو أنّ ذلك من عبادة الله محضا و للحجر حكم الطريق و الجهة ، و حينئذ فما الفرق بينه و بين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال و تمحيض العبادة ، و مطلقات تعظيم شعائر الله و تعزيز النبي ﷺ و حبّه و مودّته و حبّ أهل بيته و مودّتهم و غير ذلك في محلّها .





وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن  
 أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي  
 فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ  
 السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)  
 قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ  
 بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ  
 أَشْهَدُوكُمْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مَن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا  
 تُنْظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ  
 بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ  
 بِهِ إِلَيْكُمْ وَیَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ  
 شَيْءٍ حَافِظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ  
 مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ  
 عَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا  
 لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِّعَادِ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) .

### ﴿بیان﴾

تذکر آیات قصه هود النبیؑ وقومه وهم عاد الأولى ، وهو عليه السلام أول نبیؑ  
 يذكره الله تعالى في كتابه بعد نوح عليه السلام ، ويشكر مسعاه في إقامة الدعوة الحقّة و  
 الانتهاض على الوثنيّة ، ويعقب ذكر قوم نوح بذكر قوم هود قال تعالى في عدّة

مواضع من كلامه : « قوم نوح وعاد وشمود » .

**قوله تعالى :** « و إلى عاد أخاهم هوداً » كان أخاهم في النسب لكونه منهم و أفراد القبيلة يسمّون إخوة لانتسابهم جميعاً إلى أب القبيلة ، والجملة معطوفة على قوله تعالى سابقاً : « نوحاً إلى قومه » والتقدير : « ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً » ولعلّ حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول في المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل : « و إلى عاد أخاهم » الخ ولم يقل : و هودا إلى عاد مثلاً كما قال : « نوحاً إلى قومه » لأنّ دلالة الظرف أعني : « إلى عاد » على تقدير الإرسال أظهر وأوضح .

**قوله تعالى :** « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » الكلام وارد مورد الجواب كأنّ السامع لمّا سمع قوله : « و إلى عاد أخاهم هودا » قال : فما ذا قال لهم ؟ فقيل : « قال يا قوم اعبدوا الله » الخ و لذا جيء بالفصل من غير عطف .

و قوله : « اعبدوا الله » في مقام الحصر أي اعبدوه ولا تعبدوا غيره من آلهة اتخذتموها أرباباً من دون الله تعبدونها لتكون لكم شفعاء عند الله من غير أن تعبدوه تعالى . و الدليل على الحصر المذكور قوله بعد : « ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » حيث يدلّ على أنّهم كانوا قد اتخذوا آلهة يعبدونها افتراء على الله بالشركة والشفاعة .

**قوله تعالى :** « يا قوم لا أسألكم عليه أجراً » إلى آخر الآية قال في المجمع الفطر الشقّ عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر ، ومنه فطر الله الخلق لأنّه بمنزلة ما شقّ منه فطره . انتهى ، و قال الراغب : أصل الفطر الشقّ طولا يقال : فطر فلان كذا فطرا وأفطر هو فطورا و انفطر انقطارا - إلى أن قال - و فطر الله الخلق و هو إيجاد الشيء ، و إبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله : فطرة الله التي فطر الناس عليها إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبداع و ركز في الناس من معرفته ، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان و هو المشار

إليه بقوله : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله . انتهى .

و الظاهر أنَّ الفطر هو الإيجاد عن عدم بحث ، و الخصوصية المفهومة من مثل قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » إنما نشأت من بناء النوع الذي تشتمل عليه فطرة وهي فعلة ، وعلى هذا فتفسير بعضهم الفطرة بالخلقة بعيد من الصواب ، و إنما الخلق هو إيجاد الصورة عن مادة على طريق جمع الأجزاء قال تعالى : « و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير » المائدة : ١١٠ .

والكلام مسوق لرفع التهمة والعبث والممنى ياقوم لا أسألكم على ما أدعوكم أجراً وجزاء حتى تتهموني أني أستدرّ به نفعاً يعود إليّ وإن أضربكم ، و لست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثاً من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذي أوجدني وأبدعني أفلا تعقلون عني ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أنني ناصح لكم في دعوتي ، ما أريد إلا أن أحملكم على الحق ؟ .

**قوله تعالى :** « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً » إلى آخر الآية تقدّم الكلام في معنى قوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » في صدر السورة .

و قوله : « يرسل السماء عليكم مدراراً » في موقع الجزاء لقوله : « استغفروا ربكم » الخ أي إن تستغفروه وتتوبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، والمراد بالسماء السحاب فإنّ كلّ ما علا وأظلم فهو سماء ، وقيل المطر و هو شائع في الاستعمال ، والمدرار مبالغة من الدرّ ، وأصل الدرّ اللبن ثمّ استعير للمطر ولكلّ فائدة و نفع فارسل السماء مدراراً إرسال سحب تمطر أمطاراً متتابعة نافعة تحيي بها الأرض و ينبت الزرع والعشب ، وتنضج بها الجنّات و البساتين .

وقوله : « ويزدكم قوةً إلى قوّتكم » قيل المراد بها زيادة قوّة الايمان على قوّة الأبدان وقد كان القوم أُولي قوّة و شدّة في أبدانهم ولو أنهم آمنوا انضافت قوّة الايمان على قوّة أبدانهم ، وقيل المراد بها قوّة الأبدان كما قال نوح لقومه : « استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً و يمددكم بأموال و



بنين « نوح : ١٢ ولعلّ التعميم أولى .

وقوله : « ولاتتولّوا مجرمين » بمنزلة التفسير لقوله : « استغفروا ربكم ثمّ توبوا إليه » أي إنّ عبادتكم لما اتّخذتموه من الآلهة دون الله إجماع منكم ومعصية توجب نزول السخط الإلهي عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم وارجعوا إليه بالآيمان حتّى يرحكم بإرسال سحب هائلة ممطرة وزيادة قوّة إلى قوتكم .

وفي الآية « أوّلا » إشعار أودلالة على أنّهم كانوا مبتلين بإمساك السماء والجذب والسنة كما ربّما أوّما إليه قوله : « يرسل السماء » وكذا قولهم على ما حكاه الله تعالى في موضع آخر : « فلمّا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » الأحقاف : ٢٤ .

وثانياً : أنّ هناك ارتباطاً تامّاً بين الأعمال الانسانية وبين الحوادث الكونية التي تمسّه فالأعمال الصالحة توجب فيضان الخيرات و نزول البركات ، و الأعمال الطالحة تستدعي تنابح البلايا والمحن ، وتجلب النقمة والشقوة والهلكة كما يشير إليه قوله تعالى : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية الأعراف : ٩٦ ، وقد تقدّم تفصيل الكلام فيه في بيان الآيات ٩٤ - ١٠٢ من سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب ، وفي أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه .

**قوله تعالى :** « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهمنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » سألهم هود في قوله : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » إلى آخر الآيات الثلاث أمرين هما أن يتركوا آلهمهم ويعودوا إلى عبادة الله وحده وأن يؤمنوا به ويطيعوه فيما ينصح لهم فردّوا عليه القول بما في هذه الآية إجمالاً وتفصيلاً :

أمّا إجمالاً فبقولهم : « ما جئتنا ببينة » يعنون أنّ دعوتك خالية عن الحجّة والآية المعجزة ولا موجب للإصغاء إلى ما هذا شأنه .

و أمّا تفصيلاً فقد أجابوا عن دعوته إيتاهم إلى رفض الشركاء بقولهم : « وما

نحن بنار كي آلهتنا عن قولك « وعن دعوته إياهم إلى الإيمان و الطاعة بقولهم :  
« وما نحن لك بمؤمنين » فأيسوه في كلمنا المسألتين .

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأي لييأس من إجابتهم بالمرّة فقالوا : « إن  
نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » و الاعتراء الاعتراض و الاصابة يقولون : إنّما  
نعتمد في أمرك أنّ بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل و الجنون لشتمك إياها وذكرك  
لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبأ بما تفوّت به في صورة الدعوة .

**قوله تعالى :** « قال إنّني أشهد الله واشهدوا أنّي بريء مما تشركون من دونه  
فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » أجاب هود عليه السلام عن قولهم باظهار البراءة من شركائهم  
من دون الله ثمّ التحدّي عليهم بأن يكيدوا به جميعاً ولا ينظروه .

فقوله : « إنّني بريء مما تشركون من دونه » إنشاء وليس باخبار كما هو  
المناسب لمقام التبرّي ، ولا ينافي ذلك كونه بريئاً من أوّل أمره فإنّ التبرّز بالبراءة  
لا ينافي تحقّقها من قبل ، وقوله : « فكيدوني جميعاً ثمّ لا تنظرون » أمر و نهى  
تعجيزيّان .

و إنّما أجاب عليه السلام بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنّها لا تمسّه عليه السلام  
بسوء مع تبرّزه بالبراءة ، ولو كانت آلهة ذات علم وقدرة لقهرته و انتقمته منه لنفسها  
كما ادّعوا أنّ بعض آلهتهم اعتراه بسوء وهذه حجة بيّنة على أنّها ليست بآلهة و على  
أنّهم لم تعتره بسوء كما ادّعوه ، ثمّ يشاهدوا من أنفسهم أنّهم لا يقدرّون عليه بقتل  
أو تنكيل مع كونهم ذوي شدة و قوّة لا يعادلهم غيرهم في الشدة و البطش ، ولولا  
أنّه نبيّ من عند الله صادق في ما يقوله مصون من عند ربّه لقدروا عليه بكلّ ما  
أرادوه من عذاب أو دفع .

و من هنا يظهر وجه إشهداء عليه السلام في تبرّيه ربّه سبحانه و قومه أمّا إشهداء  
الله فليكون تبرّيه على حقيقته و عن ظهر القلب من غير تزريق و نفاق ، و أمّا  
إشهداء إياهم فليعلموا به ثمّ يشاهدوا ما يجري عليه الأمر من سكوت آلهتهم و  
عجز أنفسهم من الانتقام منه و من تنكيله .

و ظهر أيضا صحّة ما احتمله بعضهم أنّ هذا التعجيز هو معجزة هود عليه السلام وذلك أنّ ظاهر الجواب أن يقطع به ما ذكر من الردّ في صورة الحجّة ، وفيها قولهم : « ما جئتنا ببينة » و من المستبعد جدّا أن يهمل النبيّ هود عليه السلام في دعوته و حجّته التعرّض للجواب عنه مع كون هذا التحدّي و التعجيز صالحا في نفسه لأن يتخذ آية معجزة كما أنّ التبرّي من الشركاء من دون الله صالح لأن يكشف عن عدم كونهم آلهة من دون الله و عن أنّ بعض آلهتهم لم يعتره بسوء .

فالحقّ أنّ قوله : « إنّني أشهد الله و أشهدوا » إلى آخر الآيتين مشتمل على حجّة عقلية على بطلان ألوهيّة الشركاء ، وعلى آية معجزة لصحّة رسالة هود عليه السلام . و في قوله : « جميعا » إشارة إلى أنّ مراده تعجيزهم و تعجيز آلهتهم جميعا فيكون أتمّ دلالة على كونه على الحقّ و كونهم على الباطل .

**قوله تعالى :** « إنّني توكلت على الله ربّي و ربكم » إلى آخر الآية . لما كان الأمر الذي في صورة التعجيز صالحا لأن يكون بداعي إظهار عجز الخصم و عدم قدرته ، و صالحا لأن يصدر بداعي أنّ الأمر لا يخاف الخصم و إن كان الخصم قادرا على الإتيان بما يؤمر به لكنّه غير قادر على تخويله و إكراهه على الطاعة و حمله على ما يريد منه كقول السحرة لفرعون : « فاقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا » طه : ٧٢ .

و كان قوله : « فكيدوني جميعا ثمّ لا تنظرون » محتملا لأن يكون المراد به إظهار أنّّه لا يخافهم و إن فعلوا به ما فعلوا ، عقّبه لدفع هذا الاحتمال بقوله : « إنّني توكلت على الله ربّي و ربكم » فذكر أنّه متوكّل في أمره على الله الذي هو يدبّر أمره و أمرهم ثمّ عقّبه بقوله : « ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم » فذكر أنّه ناجح في توكله هذا فإنّ الله محيط بهم جميعا قاهر لهم يحكم على سنّة واحدة هي نصره الحقّ و إظهاره على الباطل إذا تقابلا و تغالبا .

فتبرّيه من أصنامهم و تعجيزهم على ما هم عليه من الحال بقوله : « فكيدوني جميعا ثمّ لا تنظرون » ثمّ لبّثه بينهم في عافية و سلامة لا يمسه بسوء ولا يستطيعون

أن ينالوه بشرّ آية معجزة و حجة سماوية على أنه رسول الله إليهم .

وقوله : « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم »  
الدابة كلّ ما يدبّ في الأرض من أصناف الحيوان ، و الأخذ بالناصية كناية عن  
كمال السلطة و نهاية القدرة ، و كونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنّته في  
الخلق واحدة ثابتة غير متغيّرة و هو تدبير الأمور على منهاج العدل والحكمة فهو  
يحقّ الحقّ و يبطل الباطل إذا تعارضا .

فالمعنى إنّي توكلت على الله ربي وربكم في نجاح حجّتي التي ألقيتها إليكم  
و هو التبرّز بالبراءة من آلهتكم و أنسكم و آلهتكم لا تضرّ وني شيئاً فإنّه المالك  
ذو السلطنة عليّ و عليكم و على كلّ دابة ، و سنّته العادلة ثابتة غير متغيّرة فسوف  
ينصر دينه و يحفظني من شرّكم .

ولم يقل : « إن ربي وربكم على صراط مستقيم » على وزان قوله : « على  
الله ربي وربكم » فإنّه في مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقّع أن يحفظه الله من  
شرّهم ، و هو يأخذه تعالى ربّاً بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعدّه ربّاً لنفسه و  
يستمسك برابطة العبوديّة التي بينه وبين ربه حتّى ينجح طلبته ، وهذا بخلاف مقام  
قوله : « توكلت على الله ربي وربكم » فإنّه يريد هناك بيان عموم السلطة والاحاطة .

**قوله تعالى :** « فان تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » وهذه الجملة  
من كلامه ﷺ ناظر إلى قولهم في آخر جدالهم : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهمنا  
بسوء » الدالّ على أنّهم قاطعون على أن لا يؤمنوا به و دائمون على الجحد ، و  
المعنى إن تتولّوا و تعرضوا عن الإيمان بي و الإطاعة لأمري فقد أبلغتكم رسالة  
ربي و تمّت عليكم الحجّة و لزمتمكم البليّة .

**قوله تعالى :** « و يستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرّونه شيئاً إن ربي على  
كلّ شيء حفيظ » هذا وعيد و إخبار بالمتبعة التي يستتبعها إجرامهم ، فإنّه كان  
وعدهم إن يستغفروا الله ويتوبوا إليه أن يرسل السماء عليهم مدرارا و يزيد قوّة إلى  
قوتهم ، و نهاهم أن يتولّوا مجرمين ففيه العذاب الشديد .

و قوله : « و يستخلف ربّي قوما غير كم » أي يجعل قوما غير كم خلفاء في الأرض مكانكم فإنّ الإنسان خليفة منه في الأرض كما قال تعالى : « إنّني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ ، و قد كان عليه السلام بين لهم أنّهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه : « و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزاد كم في الخلق بسطة » الآية الأعراف : ٦٩ .

و ظاهر السياق أنّ الجملة الخبريّة معطوفة على أخرى مقدّرة ، و التقدير و سيذهب بكم ربّي و يستخلف قوما غير كم على حدّ قوله : « إن يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء » الأنعام : ١٣٣ .

و قوله : « ولا تضرّ و نه شيئا » ظاهر السياق أنّه تتمّة لما قبله أي لا تقدرون على إضراره بشي من القوت و غيره إن أراد أن يهلككم و لأنّ تعذيبكم وإهلاككم يفوتّ منه شيئا ممّا يريدّه فإنّ ربّي على كلّ شي حفيظ لا يعزب عن علمه عازب ولا يفوت من قدرته فائت ؛ و للمفسّرين في الآية وجوه أخر بعيدة عن الصواب أعرضنا عنها .

**قوله تعالى :** « و لما جاء أمرنا نجّينا هودا و الذين آمنوا معه برحمة منّا و نجّيناهم من عذاب غليظ » المراد بمجيء الأمر نزول العذاب و بوجه أدقّ صدور الأمر الإلهي الذي يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول و بين قومه كما قال تعالى : « و ما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحقّ و خسّر هنالك المبطلون » المؤمن : ٧٨ .

و قوله : « برحمة منّا » الظاهر أنّ المراد بها الرحمة الخاصّة بالمؤمنين المستوجبة نصرهم في دينهم وإنجاءهم من شمول الغضب الإلهي و عذاب الاستئصال قال تعالى : « إنّنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأّشهاد » المؤمن : ٥١ . و قوله : « و نجّيناهم من عذاب غليظ » ظاهر السياق أنّه العذاب الذي شمل الكفّار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبة إلى ما قبله ، و قيل المراد به عذاب الآخرة و ليس بشي .

**قوله تعالى :** « و تلك عاد جحدوا بآيات ربهم و عصوا رسله و اتبعوا أمر كل جبار عنيد » الآية و ما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصة عاد فأول التلخيص قوله : « و تلك عاد - إلى قوله - و يوم القيامة » يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة و الموعدة و الآية المعجزة التي أبانت لهم طريق الرشد و ميز لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم .

و عصوا رسل ربهم و هم هود و من قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلمهم يدعون إلى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود و عصوا بعصيانه سائر رسل الله و هو ظاهر قوله في موضع آخر : « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون » الشعراء : ١٢٤ . و يشعر به أيضا قوله : « و اذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحتماف و قد خلت النذر من بين يديه و من خلفه » الأحقاف : ٢١ و من الممكن أن يكون لهم رسل آخرون بعثوا إليهم فيما بين هود و نوح عليه السلام لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك .

و اتبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود و ما كان يدعو إليه ، و الجبار العظيم الذي يقهر الناس بأرادته و يكرههم على ما أراد و العنيد الكثير العناد الذي لا يقبل الحق ، فهذا ملخص حالهم و هو الجحد بالآيات و عصيان الرسل و طاعة الجبابرة .

ثم ذكر الله و بال أمرهم بقوله : « و اتبعوا في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة » أي و اتبعهم الله في هذه الدنيا لعنة و إبعادا من الرحمة ، و مصداق هذا اللعن العذاب الذي عقبهم فلحق بهم ، أو الآثام و السيئات التي تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنبوا سنة الإشرار و الكفر لمن بعدهم قال تعالى : « و نكتب ما قدّموا و آثارهم » يس : ١٢ .

و قيل المعنى لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم ، و من أدرك آثارهم ، و كل من بلغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم . و أمّا اللعنة يوم القيامة فمصداقه العذاب الخالد الذي يلحق بهم يومئذ فإن

يوم القيامة يوم جزاء لا غير .

و في تعقيب قوله في الآية : « و اتَّبِعُوا » بقوله : « و اتَّبِعُوا » لطف ظاهر .

**قوله تعالى :** « أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ لَعَادِ قَوْمِ هُودَ » أي كفروا برَبِّهم فهو منصوب بمنزِع الخافض وهذا هو التلخيص الثاني الذي أشرنا إليه لنخص به التلخيص الأول فقوله : « أَلَا إِنَّ عَادًا » الخ يحاذي به وصف حالهم المذكور في قوله : « و تلك عاد جحدوا » الخ ؛ وقوله : « أَلَا بَعْدَ لَعَادِ » الخ يحاذي به قوله : « و اتَّبِعُوا في هذه الدنيا لعنة » الخ .

و يتأيّد من هذه الجملة أن المراد باللّعة السابقة اللّعة الإلهيّة دون لعن الناس ، والأنسب به أحد الوجهين الأوّلين من الوجوه الثلاثة السابقة وخاصّة الوجه الثاني دون الوجه الثالث .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير العيّاشيّ عن أبي عمرو السعديّ قال : قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قوله : « إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » يعني أنّه على حقّ يجزي بالاحسان إحساناً ، و بالسيّئ سيّئاً ، و يعفو عمن يشاء و يغفر ، سبحانه و تعالى .

**اقول :** و قد تقدّم توضيحه ، و قد ورد في الرواية عنهم عليهم السلام : أن عاداً كانت بلادهم في البادية ، و كان لهم زرع و نخيل كثيرة ، و لهم أعمار طويلة و أجساد طويلة فعبدوا الأصنام ، و بعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام و خلع الأنداد فأبوا ولم يؤمنوا بهود و آذوه فكفّرت عنهم السماء سبع سنين حتّى قحطوا . الحديث .

و روي إمساك السماء عنهم من طريق أهل السنّة عن الضحاك أيضاً قال : أمسك عن عاد القطر ثلاث سنين فقال لهم هود : « استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً » فأبوا إلاّ تماديا ، و قد تقدّم أن الآيات لا تخلو من إشارة إليه . و اعلم أن الروايات في قصّة هود و عاد كثيرة إلاّ أنّها تشتمل على أمور لا

سبيل إلى تصحيحها من طريق الكتاب ولا إلى تأييدها بالاعتبار ولذلك طوينا ذكرها .  
 و ورد أيضا أخبار آخر من طرق الشيعة وأهل السنة في وصف جنة عاد التي  
 تنسب إلى شداد الملك وهي المذكورة في قوله تعالى : « إرم ذات العماد التي لم  
 يخلق مثلها في البلاد » الفجر : ٨ ، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في تفسير  
 سورة الفجر .

## ﴿ كلام في قصة هود ﴾

### ١ - عاد قوم هود :

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت  
 أخبارهم و انمحت آثارهم لا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يطمئن إليها  
 و ليس في التوراة الموجودة منهم ذكر .

و الذي يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو أن عاد - و ربما يسميهم  
 عاد الأولى ( النجم : ٥٠ ) وفيه إشارة إلى أن هناك عاداً ثانية - كانوا قوماً يسكنون  
 الأحقاف<sup>(١)</sup> من شبه جزيرة العرب ( الأحقاف : ٢١ ) بعد قوم نوح ( الأعراف : ٦٩ ) .  
 كانت لهم أجساد طويلة ( الذاريات : الحاقة : ٧ ) وكانوا ذوي بسطة في الخلق  
 ( الأعراف : ٦٩ ) أولي قوة و بطش شديد ( حم السجدة : ١٥ الشعراء : ١٣٠ ) و  
 كان لهم تقدم و رقي في المدنية والحضارة ، لهم بلاد عامرة و أراض خصبة ذات جنات  
 و نخيل و زروع و مقام كريم ( الشعراء وغيرها ) ، و ناهيك في رقيهم و عظيم مدنيّتهم  
 قوله تعالى في وصفهم : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق  
 مثلها في البلاد » الفجر : ٨ .

لم يزل القوم يتنعمون بنعمة الله حتى غيروا ما بأنفسهم فتعزّزت فيهم الوثنيّة  
 و بنوا بكل ريع آية يعبثون و اتخذوا مصانع لعلّهم يخلدون و أطاعوا طغاتهم  
 المستكبرين فبعث الله إليهم أخاهم هوداً يدعوهم إلى الحق و يرشدهم إلى أن يعبدوا

(١) الأحقاف جمع حقف و هو الرمل المعوج ، و الأحقاف المذكور في الكتاب العزيز واد  
 بين عمان و أرض مهرة و قيل من عمان إلى حضرموت و هي رمال مشرفة على البحر بالشحروقال  
 الضحاك الأحقاف جبل بالشام ( المراصد ) .



الله و يرفضوا الأوثان ، و يعملوا بالعدل و الرحمة ( الشعراء : ١٣٠ ) فبالغ في وعظهم و بثّ النصيحة فيهم ، و أنار الطريق و أوضح السبيل ، و قطع عليهم العذر فقابلوه بالاباء و الامتناع ، و واجهوه بالجحد و الإنكار ولم يؤمن به إلا شذمة منهم قليلون و أصرت جمهورهم على البغي و العناد ، و رموه بالسفه و الجنون ، و ألحوا عليه بأن ينزل عليهم العذاب الذي كان يندرهم و يتوعددهم به قال : إنّما العلم عند الله و أبلغكم ما أرسلت به ولكنني أراكم قوما تجهلون ( الأحقاف : ٢٣ ) .

فأنزل الله عليهم العذاب و أرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أثت عليه إلا جعلته كالرميم ( الذاريات : ٤٢ ) ريحاصصرا في أيام نحسات سبع ليال و ثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية ( الحاقة : ٧ ) و كانت تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر ( القمر : ٢٠ ) .

و كانوا باديء مارأوه عارضا مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا : عارض ممطرنا و قد أخطأوا بل كان هو الذي استعجلوا به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربّها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ( الأحقاف : ٢٥ ) فأهلكهم الله عن آخرهم و أنجى هودا و الذين آمنوا معه برحمة منه ( هود : ٥٨ ) .

### شخصية هود المعنوية :

و أمّا هود عليه السلام فهو من قوم عاد و ثاني الأنبياء الذين انتهضوا للدفاع عن الحقّ و دحض الوثنيّة ممّن ذكر الله قصّته و ما قاساه من المحنة و الأذى في جنب الله سبحانه ، و أثنى عليه بما أثنى على رسله الكرام و أشركه بهم في جميل الذكر عليه سلام الله .





وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي  
قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهِينَا أَنْ  
نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا  
قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ  
اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ  
آيَةٌ فَذَرُوهَا تَاكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ  
قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرِ  
مُكَذِّبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ  
مِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَآخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ  
كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لثَمُودَ (٦٨) .

### ﴿بيان﴾

تذكر الآيات الكريمة قصة صالح النبي ﷺ وقومه وهم ثمود، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ  
ثالث الأنبياء القائمين بدعوة التوحيد الناهضين على الوثنية . دعا ثمود إلى التوحيد  
و تحمّل الأذى والمحنة في جنب الله حتّى قضى بينه وبين قومه بهلاكهم و نجاته و  
نجاة من معه من المؤمنين .

قوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره « تقدّم الكلام في نظيرة الآية في قصّة هود .

**قوله تعالى :** « هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها » إلى آخر الآية . قال الراغب الإشبيلي إنشاء إيجاد الشيء ، وتربيته وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان قال : « هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار » . انتهى وقال : العمارة ضد الخراب يقال : عمر أرضه يعمرها عمارة قال : « و عمارة المسجد الحرام » يقال : عمرته فعمر فهو معمور قال : « وعمرها أكثر مما عمرها » « والبيت المعمور » و عمرته الأرض واستعمرته إذا فوّضت إليه العمارة قال : « واستعمركم فيها » انتهى فالعمارة تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترتبة منها كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتماع فاكهتها والتنزه فيها والاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها .

وعلى ما مرّ يكون معنى قوله : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » - والكلام يفيد الحصر - أنه تعالى هو الذي أوجد على المواد الأرضية هذه الحقيقة المسماة بالإنسان ثم كملها بالتربية شيئاً فشيئاً وأفطره على أن ينصرف في الأرض بتحويلها إلى حال ينتفع بها في حياته ، ويرفع بها ما يتنبّه له من الحاجة والنقيصة أي إنكم لا تقتفرون في وجودكم وبقائكم إلا إليه تعالى وتقدّس .

فقول صالح : « هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » في مقام التعليل وحجّة يستدلّ بها على ما ألقاه إليهم من الدعوة بقوله : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ولذلك جيء بالفصل كأنه قيل له : لم نعبده وحده ؟ فقال : لأنّه هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها .

وذلك لأنهم إنما كانوا يعبدون الأوثان ويتخذونها شركاء لله تعالى لأنهم كانوا يقولون - على مزعمتهم - إن الله سبحانه أعظم من أن يحيط به فهم وأرفع وأبعد من أن تناله عبادة أو ترتفع إليه مسألة ، ولا بدّ للإنسان من ذلك فمن الواجب أن نعبد بعض مخلوقاته الشريفة التي فوّض إليه أمر هذا العالم الأرضي و تدبير النظام

الجاري فيه ونتقرب بالتضرع إليه حتى يرضى عنا فينزل علينا الخيرات ، ولا يسخط علينا ونأمن بذلك الشرور ، وهذا الإله الرب بالحقيقة شفيعنا عند الله لأنه إله الآلهة ورب الأرباب ، وإليه يرجع الأمر كله .

فدين الوثنية مبني على انقطاع النسبة بين الله سبحانه وبين الإنسان واستقرارها بينه وبين تلك الوسائط الشريفة التي يتوجهون إليها مع استقلال هذه الوسائط في التأثير ، وشفاعتها عند الله .

ولما كان الله تعالى هو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها فهو تعالى ذو نسبة إلى الإنسان قريب منه ، ولا استقلال لشيء من هذه الأسباب التي نظمها وأجرها في هذا العالم حتى يرجي منها خير بالأرضاء أو يترقب شرّاً بالاستخاط .

فالله سبحانه هو الذي يجب أن يعبد فيرجى بذلك رضاه ، ويتقنى بذلك سخطه لمكان أنه هو الخالق للإنسان ولكل شيء ، المدبّر أمره وأمر كل شيء ، فقوله : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » مسوق لتعليل سابقه والاحتجاج عليه من طريق إثبات النسبة بينه تعالى وبين الإنسان ونفي الاستقلال من الأسباب .

ولذلك عقبه بقوله : « فاستغفروه ثم توبوا إليه » على وجه التثنية أي فإذا كان الله تعالى هو الذي يجب عليكم أن تعبدوه وتتركوا غيره لكونه هو خالقكم المدبّر لأمر حياتكم فاسألوه أن يغفر لكم معصيتكم بعبادة غيره ، وارجعوا إليه بالإيمان به وعبادته . إنه قريب مجيب .

وقد علّل قوله : « فاستغفروه » الخ بقوله : « إن ربّي قريب مجيب » لأنه استنتج من حجته المذكورة أنه تعالى يقوم بإيجاد الإنسان وتربيته وتدبير أمر حياته ، وأنه لا استقلال لشيء من الأسباب العمالة في الكون بل الله تعالى هو الذي يسوق هذا إلى هنا ، ويصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الإنسان وبين حوائجه وجميع الأسباب العمالة فيها ، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا يدرّكه فهم ولا يناله عبادة وقربان ، وإذا كان قريباً فهو مجيب ، وإذا كان قريباً مجيباً وهو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا إليه .

**قوله تعالى :** « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » الخ الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لامن جهة ذاته بل جهة من أفعاله و آثاره ، ولا يرجى منها إلا الخير و النفع فكونه مرجواً هو أن يوجد ذا رشد و كمال في شخصه و بيته فيستهل منه الخير و يترقب منه النفع ، وقوله : « قد كنت فينا » دليل على كونه مرجواً لعاملتهم و جمهورهم .

فقولهم : « يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا » معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحة تنفع بخدماتك مجتمعهم و تحمل الأمة على صراط الترتقي والتعالي لما كانت تشاهد فيك من أمارات الرشد والكمال لكنهم يؤسوا منك ومن رزاة رأيك اليوم بما أبدعت من القول وأقامت من الدعوة .

و قولهم : « أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » استفهام إنكاري بداعي المذمة و الملامة ، و الاستفهام في مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب بأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنة من سنن مليتهم و تمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسة ، واستمرار إقامة السنن المقدسة من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت ، و وحدة قوميتهم لها استقامة في الرأي و الإرادة .

و الدليل على ما ذكرنا قوله : « أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » الدال على معنى العبادة المستمرة بالتصال عبادة الأبناء بعبادة الآباء و لم يقل : أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ؟ والفرق بين التعبيرين من جهة المعنى واضح .

ومن هنا يظهر أن تفسير بعض المفسرين كصاحب المنار وغيره قوله : « أن نعبد ما يعبد آباؤنا » بقولهم : « أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا » من الخطأ .

وقوله : « وإننا لنفي شكاً مما تدعونا إليه مريب » حجة ثانية لهم في رد دعوة صالح عليه السلام ، و حجيتهم الأولى ما يتضمنه صدر الآية ومحصلها أن ما تدعو إليه من رفض عبادة الأصنام بدعة منكرة تذهب بسنة ثمود المقدسة وتهدم بنيان مليتهم ، و تميت ذكرهم فعلياً أن نردّه ، و الثانية أنك لم تأت بحجة بيّنة على ماتدعو إليه

تورث اليقين و تميط الشكّ عنا فنحن في شكّ مريب ممّا تدعوننا إليه و ليس لنا أن نقبل ما تندب إليه على شكّ منّا فيه .

و الإراة الاتّهام و إساءة الظنّ يقال : رايني منه كذا إذا أوجب فيه الشكّ و أرايني كذا إراة إذا حملك على اتّهامه و سوء الظنّ به .

**قوله تعالى :** « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي و آتاني منه رحمة » إلى آخر الآية . المراد بالبينّة الآية المعجزة و بالرحمة النبوة ، و قد تقدّم الكلام في نظير الآية من قصّة نوح عليه السلام في السورة .

وقوله : « فمن ينصري من الله إن عصيته » جواب الشرط ، و حاصل المعنى : أخبروني إن كنت مؤيّدأ بآية معجزة تنبيء عن صحّة دعوتي و أعطاني الله الرسالة فأمرني بتبليغ رسالته فمن ينجيني من الله و يدفع عنيّ إن أطعتمكم فيما تسألون و وافقتمكم فيما يريدونه منّي و هو ترك الدعوة .

ففي الكلام جواب عن كلّنا حجّتهم و اعتذار عمّا لا موه عليه من الدعوة المبتدعة .

وقوله : « فما تزيدوني غير تخسير » تفريع على قوله السابق الذي ذكره في مقام دحض الحجّتين و الاعتذار عن مخالفتهم و القيام بدعوتهم إلى خلاف سنّتهم القوميّة فالمعنى فما تزيدوني في حرصكم على ترك الدعوة و الرجوع إليكم و اللّحق بكم غير أن تخسروني فما مخالفة الحقّ إلاّ خسارة .

و قيل : المراد أنكم ما تزيدوني في قولكم : أنهنّا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ غير نسبتي إياكم إلى الخسارة . و قيل : المعنى ما تزيدوني إلاّ بصيرة في خسارتكم والوجه الأوّل أوجه .

**قوله تعالى :** « يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » إضافة الناقة إلى الله إضافة تشريف كبيت الله و كتاب الله . و كانت الناقة آية معجزة له عليه السلام تؤيّد نبوّته ، و قد أخرجهما عن مسائلهم من صخر الجبل بأذن الله ، و قال لهم : إنّها تأكل في أرض الله محرّرة ، و حدّّ رهم

أن يمسّوها بسوء أي يصيبوها بضرب أو جرح أو قتل ، و أخبرهم أنّهم إن فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجّل ، وهذا معنى الآية .

**قوله تعالى :** « ففقروها فقال تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب » عقر الناقة نحرها ، والدار هي المكان الذي يبنيه الإنسان فيسكن فيه و يأوى إليه هو وأهله ، والمراد بها في الآية المدينة سمّيت داراً لأنّها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها ، وقيل المراد بالدار الدنيا ، وهو بعيد .

والمراد بتمتّعهم في مدينتهم العيش والتنعمّ بالحياة لأنّ الحياة الدنيا متاع يتمتّع به ، أو الالتذاذ بأنواع النعم التي هيّؤوها فيها من مناظر ذات بهجة والأثاث والمأكول والمشروب والاسترسال في أهواء أنفسهم .

وقوله : « ذلك وعد غير مكذوب » الإشارة إلى قوله : « تمتّعوا » الخ و « وعد غير مكذوب » بيان له .

**قوله تعالى :** « و لما جاء أمرنا نجّينا صالحاً » إلى آخر الآية . أمّا قوله : « و لما جاء أمرنا نجّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا » فقد تقدّم الكلام في مثله في قصّة هود .

و أمّا قوله : « ومن خزي يومئذ » فمعطوف على محذوف والتقدير نجّيناهم من العذاب ومن خزي يومئذ ، والخزي العيب الذي تظهر فضيخته ويستحيى من إظهاره أو أنّ التقدير : نجّيناهم من القوم و من خزي يومئذ على حدّ قوله : « و نجّني من القوم الظالمين » .

وقوله : « إنّ ربّك هو القويّ العزيز » في موضع التعليل لمضمون صدر الآية وفيه النفات من التكلم بالغير إلى الغيبة ، وقد تقدّم نظيره في آخر قصّة هود في قوله : « ألا إنّ عاداً كفروا ربّهم » والوجه فيه ذكر صفة الربوبية ليدلّ به على خروجهم من زيّ العبوديّة وكفرهم بالربوبية وكفرانهم نعم ربّهم .

**قوله تعالى :** « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين » يقال : جثم جثوما إذا وقع على وجهه ، والباقي ظاهر .

**قوله تعالى :** « كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » غني بالمكان أي أقام فيه ، و الضمير راجع إلى الديار .

**قوله تعالى :** « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ لَثُمُودَ » الجملتان تلخيص ما تقدم تفصيله من القصة فالجملة الأولى تلخيص ما انتهى إليه أمر ثمود و دعوة صالح عليه السلام ، و الثانية تلخيص ما جازاهم الله به ، وقد تقدم نظيرة الآية في آخر قصة هود .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي مسندا عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشراً منا واحدا نتبعه إننا إذا لفي ضلال وسعر « قال : هذا فيما كذبوا صالحاً ، وما أهلك الله عز وجل قوما قط حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم .

فبعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه و عتوا عليه ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء و كانت الصخرة يطمونها و يعبدونها و يذبحون عندها في رأس كل سنة و يجتمعون عندها ، فقالوا : إن كنت كما تزعم نبينا رسولا فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها الله كما طلبوا منه .

ثم أوحى الله تبارك و تعالى إليه أن يا صالح قل لهم : إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم فيحبسونها فلا يبقى صغير و كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فإذا كان الليل أصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله .

ثم إنهم عتوا على الله و مشى بعضهم إلى بعض قال : اعقروا هذه الناقة و استريحوا منها لانرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم . ثم قالوا : من الذي



يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحبّ ؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زناً لا يعرف له أب يقال له : قد ار شقيّ من الأ شقياء مشؤم عليهم فجعلوا له جعلاً .

فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضر بها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئاً فضر بها ضربة أخرى فقتلها وخرت على الأرض على جنبها ، وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرّات إلى السماء ، وأقبل قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلا شر كه في ضربته ، واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها .

فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم وقال : يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم ؟ أعصيتم أمر ربكم ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام : إن قومك قد طغوا وبغوا و قتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم ولم يكن لهم فيها ضرر و كان لهم أعظم المنفعة فقل لهم : إنني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصدت عنهم ، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث .

فأتاهم صالح و قال : يا قوم إنني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم : إن تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم ؛ فلما قال لهم ذلك [قالوا] كانوا أعتى ما قالوا وأخبث و قالوا : يا صالح اثبتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

قال : يا قوم إنكم تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني وجوهكم حمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة فلما أن كان أول يوم أصبحوا وجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض و قالوا : قد جاءكم ما قال صالح فقال العناة منهم : لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً . فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم حمرة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العناة منهم لو أهلكننا جميعاً ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ولم يتوبوا ولم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قوم أتأكلكم ما قال لكم صالح فقال العناة منهم : قد

أَتَانَا مَا قَالَ لَنَا صَالِح .

فلَمَّا كَانَ نِصْفَ اللَّيْلِ أَتَاهُمْ جِبْرِئِيلُ فَصَرَخَ لَهُمْ صَرْخَةً خَرَقَتْ تِلْكَ الصَّرِخَةُ أَسْمَاعَهُمْ وَفَلَقَتْ قُلُوبَهُمْ وَصَدَعَتْ أَكْبَادَهُمْ وَقَدْ كَانُوا فِي تِلْكَ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ قَدْ تَحَنَّنُوا وَتَكَفَّنُوا وَعَلِمُوا أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ : صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ نَاعِقَةٌ وَلَا رَاعِيَةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا أَهْلَكَهُ اللَّهُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ وَمُضَاجِعِهِمْ مَوْتَى فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَعَ الصَّيْحَةِ النَّارَ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَكَانَتْ هَذِهِ قِصَّتُهُمْ .

**أَقُول :** وَاشْتِمَالُ الْحَدِيثِ عَلَى أُمُورٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ كَشَرْبِ النَّاسِ جَمِيعًا مِنْ لَبَنِ النَّاقَةِ وَكَذَا تَغْيِيرِ أَلْوَانِ وَجُوهِهِمْ يَوْمًا فِيَوْمًا لِاضْطِرْفِهِ بَعْدَ مَا كَانَ أَصْلُ وجودِهَا عَنْ إِعْجَازٍ ، وَقد نَصَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِذَلِكَ ، وَبَآئِنِهَا كَانَتْ لَهَا شَرْبٌ يَوْمٌ وَلِأَهْلِ الْمَدِينَةِ كُلِّهِمْ شَرْبٌ يَوْمٌ مَعْلُومٌ .

وَأَمَّا كَوْنُ الصَّيْحَةِ مِنْ جِبْرِئِيلٍ فَلَا يَنَافِي كَوْنُهَا صَاعِقَةً سَمَاوِيَّةً نَازِلَةً عَلَيْهِمْ أَمَاتَتْهُمْ بِصَوْتِهَا وَأَحْرَقَتْهُمْ بِنَارِهَا إِذْ لَا مَانِعَ مِنْ نِسْبَةِ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ أَوْ جَارٍ عَلَيْهَا إِلَى مَلِكٍ رُوحَانِيٍّ إِذَا كَانَ هُوَ فِي مَجْرَى صُدُورِهِ كَمَا أَنَّ سَائِرَ الْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ مِنَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْعَمَّالَةِ .

وَقَوْلُهُ **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** : إِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا فِي الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ قَدْ تَحَنَّنُوا وَتَكَفَّنُوا كَأَنَّهُ كُنَايَةٌ عَنْ تَهَيُّؤِهِمْ لِلْمَوْتِ .

وَقَدْ وَقَعَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ فِي وَصْفِ النَّاقَةِ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَ جَنْبَيْهَا مَسَافَةٌ مِثْلُ وَهُوَ مِمَّا يُوْهِنُ الرِّوَايَةَ لَا لِاسْتِحَالَةِ وَقُوعِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مُمْكِنُ الدَّفْعِ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ كَيْنُونَتَهَا كَانَتْ عَنْ إِعْجَازٍ لِأَنَّ اعْتِبَارَ النِّسْبَةِ بَيْنَ أَعْضَائِهَا حَيْثُ يُدْعَى بِوُجُوبِ بُلُوغِ ارْتِفَاعِ سَنَامِهَا مِمَّا يَقْرُبُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ وَلَا يَتَصَوَّرُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ يَتِمَكَّنُ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ قَتْلِهِ بِسَيْفِهِ وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ عَنْ إِعْجَازٍ مِنْ عَاقِرِ النَّاقَةِ قِطْعًا ، وَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَهَا شَرْبٌ يَوْمٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمٌ مَعْلُومٌ » مِنْ دَلَالَةِ أَوْ إِشْعَارِ عَلَى كَوْنِ جَسَدِهَا عَظِيمَةً جَدًّا .

## ﴿ كلام في قصة صالح في فصول ﴾

١ - **ثمود قوم صالح عليه السلام :** ثمود قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام ، وهم من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئاً يسيراً من أخبارهم ، ولقد غفت الدهور آثارهم فلا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم .

والذي يقصّه كتاب الله من أخبارهم أنّهم كانوا أُمّة من العرب على ما يدلّ عليه اسم نبيّهم وقد كان منهم ( هود : ٦١ ) نشؤوا بعد قوم عاد ولهم حضارة ومدنية يعمرّون الأرض ويتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً آمين ( الأعراف : ٧٤ ) ومن شغلهم الفلاحة بأجرء العيون وإنشاء الجسّات والنخيل والحِث ( الشعراء : ١٤٨ ) .

كانت ثمود تعيش على سُنّة الشعوب والقبائل يحكم فيهم سادتهم و شيوخهم وقد كانت في المدينة النبيّ بعث فيها صالح تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ( النمل : ٤٨ ) فطغوا في الأرض و عبدوا الأصنام و أفرطوا عتواً وظلماً .

٢ - **بعثة صالح عليه السلام .** لما نسيت ثمود ربّها وأسرفوا في أمرهم أرسل الله إليهم صالحاً النبيّ ﷺ وكان من بيت الشرف والفخار معروف بالعقل والكفاية ( هود ٦٢ - النمل ٤٩ ) فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وأن يتركوا عبادة الأصنام وأن يسيروا في مجتمعهم بالعدل والإحسان ، ولا يعلوا في الأرض ولا يسرفوا ولا يظغوا وأنذرهم بالعذاب ( هود - الشعراء - الشمس وغيرها ) .

فقام ﷺ بالدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر على الأذى في جنب الله فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة من ضعفاءهم ( الأعراف : ٧٥ ) وأمّا الطغاة المستكبرون وعامة من تبعهم فأصرّوا على كفرهم واستذلّوا الذين آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر ( الأعراف ٦٦ الشعراء ١٥٣ النمل ٤٧ ) .

و طلبوا منه البيّنة على مقاله ، و سألوه آية معجزة تدلّ على صدقه في دعوى الرسالة ، و اقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة فأتاهم بناقّة على ما وصفوها به ، و قال لهم : إنّ الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوما و تكفّوا عنها يوما فتشربها الناقة فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، وأن تذروها تأكل في أرض الله كيف شاءت ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ( الأعراف ٧٢ هود ٦٤ الشعراء ١٥٦ ) .

و كان الأمر على ذلك حينما ثمّ إنّهم طغوا ومكروا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فقهرها ، و قالوا لصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال صالح عليه السلام : تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب ( هود ٦٥ ) .

ثمّ مكرت شعوب المدينة و أرهاطها بصالح و تقاسموا بينهم لنبيّته و أهله ثمّ نقولنّ لوليّه ما شهدنا مهلك أهله و إنّنا لصادقون ، و مكروا مكرا و مكر الله مكراوهم لا يشعرون ( النمل ٥٠ ) فأخذتهم الصاعقة و هم ينظرون ( الذاريات ٤٤ ) و الراجفة و الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين فتولّى عنهم و قال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي و نصحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين ( الأعراف ٧٩ - هود ٦٧ ) و أنجى الله الذين آمنوا و كانوا يتسّقون ( حم السجدة ١٨ ) و نادى بعدهم المنادي الإلهي : ألا إنّ ثمود كفروا ربّهم ألا بعداً لثمود .

**٣ - شخصية صالح عليه السلام .** لم يرد لهذا النبيّ الصالح في التوراة الحاضرة ذكر . كان عليه السلام من قوم ثمود ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن بالقيام بأمر الله و النهضة للتوحيد على الوثنيّة يذكره الله تعالى بعد نوح و هود ، و يحمدّه و يثني عليه بما أثنى به على أنبيائه و رسله ، و قد اختاره و فضّله كسائرهم على العالمين عليه و عليهم السلام .



وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ فَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا اتَّبِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرِىَ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَانْهَمِ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦).

### ﴿بيان﴾

تتضمن الآيات قصة بشرى إبراهيم عليه السلام بالولد ، وإنها كالتوطئة لماسيد كرم بعده من قصة ذهاب الملائكة إلى لوط النبي عليه السلام لإهلاك قومه فإن تلك القصة ذيل هذه القصة وفي آخر قصة البشرى ما يتبين به وجه قصة الإهلاك وهو قوله : « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَانْهَمِ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » الآية .

قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ » إلى آخر الآية البشرى هي البشارة ، والعجل ولد البقرة ، والحنيذ فعيل بمعنى المفعول أي المحنوذ وهو اللحم المشوي على حجارة محماة بالنار كما أن القديد هو المشوي على حجارة

حماة بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين ، و ذكر بعضهم أنه المشوي الذي يقطر ماءً وسمناً ، وقيل : هو مطلق المشوي ، و قوله تعالى في سورة الذاريات في القصة : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » لا يخلو من تأييد ما للمعنى الثاني .

و قوله : « و لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » معطوف على قوله سابقاً : « و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه » قال في المجمع : وإنما دخلت اللام لنا كيد الخبر و معنى قد ههنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة ، و قد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع . انتهى .

و الرسل هم الملائكة المرسلون إلى إبراهيم للبشارة وإلى لوط لهلاك قومه و قد اختلفت كلمات المفسرين في عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلالة لفظ الجمع - الرسل - على ذلك ، و في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام ، وسيأتي نقلها إن شاء الله في البحث الروائي . والبشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السلام لم يذكر بلفظها في القصة ، و التي ذكرت فيها منها هي البشارة لامراته ، و إنما ذكرت بشارة إبراهيم نفسه في غير هذا المورد كسورتي الحجر و الذاريات ، ولم يصرح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أهو إسحاق أم إسماعيل عليه السلام أو أنهم بشروه بكليهما ؟ و ظاهر سياق القصة في هذه السورة أنها البشارة بإسحاق ، و سيأتي البحث المستوفى عن ذلك في آخر القصة .

و قوله : « قالوا سلاماً قال سلام » أي تساموا هم وإبراهيم فقالوا : سلاماً أي سلمنا عليك سلاماً ، و قال إبراهيم : سلام أي عليكم سلام .

و السلام الواقع في تحية إبراهيم عليه السلام نكرة ووقوعه نكرة في مقام التحية دليل على أن المراد به الجنس أو أن له وصفاً محذوفاً للتفخيم و مزيد التكریم و التقدير : عليكم سلام ذاك طيب أو ما في معناه ، و لذا ذكر بعض المفسرين : أن رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حييهم بأحسن من تحيتهم فبالغ في إكرامهم ظناً منه أنهم ضيف .

و قوله : « فما لبث أن جاء بعجل حنيد » أي ما أبطأ في أن قدّم إليهم عجلاً مشوياً يقطر ماء و سمناً و أسرع في ذلك .

**قوله تعالى :** « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » عدم وصول أيديهم إليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدّون أيديهم إلى الطعام ، و ذلك أماراة العداوة و إضرار الشرّ ، و نكرهم و أنكرهم بمعنى واحد وإنّما كان أنكرهم لأنكره ما شاهد منهم من فعل غير معهود .

والإيهناس الخطور القلبيّ قال الراغب : الوجس الصوت الخفيّ و التوجّس التسمّع والإيهاس وجود ذلك في النفس قال : فأوجس منهم خيفة فالوجس قالوا : هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأنّ الهاجس مبتدئ التفكير ثمّ يكون الواجس الخاطر . انتهى . فالجملة من الكناية كأنّ لطروق الخيفة - وهو النوع من الخوف - وخطوره في النفس صوتاً تسمع بالسمع القلبيّ ، والمراد أنّه استشعر في نفسه خوفاً و لذلك أمّنوه وطيّبوا نفسه بقولهم : « لا تخف إنّنا أرسلنا إلى قوم لوط » .

و معنى الآية : أنّ إبراهيم عليه السلام قدّم إليهم العجل المشويّ رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل - و ذلك أماراة الشرّ - استشعر في نفسه منهم خوفاً قالوا تأمّيناً له و تطيباً لنفسه : لا تخف إنّنا أرسلنا إلى قوم لوط فعلم أنّهم من الملائكة الكرام المنزّهين من الأكل و الشرب و ما ينظر ذلك من لوازم البدن الماديّة ، و أنّهم مرسلون لخطب جليل .

و نسبة استشعار الخوف إلى إبراهيم عليه السلام لا ينافي ما كان عليه من مقام النبوة الملازم للمعصية الإلهيّة من المعصية و الرذائل الخلقيّة فإنّ مطلق الخوف و هو تأثّر النفس عن مشاهدة المكروه التي تبعثها إلى التحذّر منه و المبادرة إلى دفعه ليس من الرذائل ، و إنّما الرذيلة هي التأثّر الذي يستوجب بطلان مقاومة النفس و ظهور العي و الفزع و الذهول عن التدبّر لدفع المكروه و هو المسمّى بالجبن كما أنّ عدم التأثّر عن مشاهدة المكروه مطلقاً هو المسمّى تهوّر أو ليس من الفضيلة في شيء .

وذلك أن الله سبحانه لم يخلق هذه الحالات النفسانية التي تظهر في النفوس ومنها التأثير والانفعال عند مشاهدة المكروه والشر كالشوق والميل والحب وغير ذلك عند مشاهدة المحبوب والخير عبثاً باطلاً فإن جلب الخير والنفع ودفع الشر والضرر مما فطر على ذلك أنواع الموجودات على كثرتها ، وعليه يدور رحي الوجود في نظامه العام .

ولما كان هذا النوع المسمى بالإنسان إنما يسير في مسير بقائه بالشعور والارادة كان عمل الجلب والدفع فيه مترشحا عن شعوره وإرادته ، ولا يتم إلا عن تأثير نفسياني يسمى في جانب الحب ميلا وشهوة وفي جانب البغض والكراهة خوفاً وجلالاً .

ثم لما كانت هذه الأحوال النفسانية الباطنة ربما ساقطت الإنسان إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط كان من الواجب على الإنسان أن يقوم من الدفع على ما ينبغي وهو فضيلة الشجاعة كما أن من الواجب عليه أن يبادر من الجلب إلى ما ينبغي على ما ينبغي ، وهو فضيلة العفة وهما حد الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، وأما انتفاء التأثير بأن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة الصريحة في باب الدفع وهو التهور أولاً تنزع نفسه إلى شيء مطلوب قط في باب الجلب والشهوة وهو الخمول وكذا بلوغ التأثير من القوة إلى حيث ينسى الإنسان نفسه ويذهل عن واجب رأيه وتدبيره فيجزع عن كل شبح يترآى له في باب الدفع وهو الجبن أو ينكب على كل ما تهواه نفسه وتشتهيه كالبهيمة على عليها في باب الشهوة وهو الشره فجمع هذه من الرذائل . والذي آثر الله سبحانه به أنبياءه من العصمة إنما يثبت في نفوسهم فضيلة الشجاعة دون التهور ، وليست الشجاعة تقابل الخوف الذي هو مطلق التأثير عن مشاهدة المكروه ، وهو الذي يدعو النفس إلى القيام بواجب الدفع ، وإنما يقابل الجبن الذي هو بلوغ التأثير النفسي إلى حيث يبطل الرأي والتدبير ويستتبع العي والانهزام .

قال تعالى : «الَّذِينَ يَبُلَّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ» الأحراب: ٣٩



وقال مخاطبا لموسى عليه السلام : «لاتخف إنك أنت الأعلى » طه : ٦٨ ، وقال حكاية عن قول شعيب له عليه السلام : «لاتخف نجوت من القوم الظالمين » القصص : ٢٥ ، وقال مخاطبا لنبيه عليه السلام : «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » الأنفال : ٥٨ .  
والخليل عليه السلام هو النبي الكريم الذي قام بالدعوة الحقّة إذ لا يذ كر اسم الله وحده ، ونازع وثنيّة قومه فحاجّ أباه آزر وقومه وحاجّ الملك الجبار نمرود و كان يدّعي الألوهيّة ، و كسر أصنام القوم حتّى ألقوه في النار فأنجاه الله من النار فلم يجبهه شيء من تلك المهاول ، ولا هزمه في جهاده في سبيل الله هازم ، و مثل هذا النبيّ على ماله من الموقف الروحيّ إن خاف من شيء أو وجل من أحد أو ارتاعه أمر - على اختلاف تعبير الآيات - فإنّما يخافه خوف حزم ولا يخافه خوف جبن ، وإذا خاف من شيء على نفسه أو عرضه أو ماله فإنّما يخاف الله لا لهوى من نفسه .

**قوله تعالى :** « وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » ضحكت من الضحك بفتح الصاد أي حاضت ، و يؤيّدته تفريع البشارة عليه في قوله عقيبته : « فبشّرناها » الخ ويكون ضحكها أمانة تقرّب البشرى إلى القبول ، و آية تهيبّي نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشّرون به ، و يكون ذكر قيامها لتمثيل المقام وأنّها ما كانت تتخطر ببالها أنّها ستحيض وهي عجوز ، و إنّما كانت قائمة تنظر ما يجري عليه الأمر بين بعلها وبين الضيفان النازلين به وتحدثهم .

والمعنى أنّ إبراهيم عليه السلام كان يكلمهم ويكلّمونه في أمر الطعام و الحال أنّ امرأته قائمة هناك تنظر إلى ما يجري بين الضيفان وبين إبراهيم وما كان يخاطر ببالها شيء دون ذلك ففاجأها أنّها حاضت فبشّرتهم الملائكة بالولد .

و أكثر المفسّرين أخذوا الكلمة من الضحك بكسر الصاد ضد البكاء ثمّ اختلفوا في توجيه سببه ، وأقرب الوجوه هو أن يقال : إنّها كانت قائمة هناك وقد ذعرت من امتناع الضيوف من الأكل وهويتهف بالشرّ فلمّا لاحت لها أنّهم ملائكة مكرمون نزلوا ببيتهم وأن لا شرّ في ذلك يتوجّه إليهم سرّت و فرحت فضحكت فبشّروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

وهناك وجوه أخر ذكروها خالية عن الدليل كقولهم : إنها ضحكت تعجباً من غفلة قوم لوط ، وقولهم : إنها ضحكت تعجباً من امتناع الضيوف من الأكل و الحال أنها تخدمهم بنفسها ، وقولهم : إنها كانت أشارت إلى إبراهيم أن يضم إليه لوطاً لأنّ فحشاء قومه سيعقّبهم العذاب والهلاك فلمّا سمعت من الملائكة قولهم : إنّنا أرسلنا إلى قوم لوط سرّاً وضحكت لا صابتها في الرأي ، وقولهم : إنها ضحكت تعجباً بما بشرّوها به من الولد وهي عجوز عقيم ، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير والتقدير : فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت .

وقوله : « فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » إسحاق هو ابنها من إبراهيم ، ويعقوب هو ابن إسحاق ﷺ فالمراد أنّ الملائكة بشرّوها بأنّها ستلد إسحاق وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد . هذا على قراءة يعقوب بالفتح وهو منزوع الخافض وقرىء برفع يعقوب وهو بيان لتتمّة البشارة ، والأولى أرجح .

وكان في هذا التعبير : « ومن وراء إسحاق يعقوب » إشارة إلى وجه تسمية يعقوب ﷺ بهذا الاسم ، وهو أنّه كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنّه وراءه ، ويكون فيها تخطئة لما في التوراة من السبب في تسمية يعقوب به . قال في التوراة الحاضرة : وكان إسحاق ابن أربعين سنة لمّا اتّخذ لنفسه زوجة « رفقة » بنت بنوئيل الأراميّ أخت لابان الأراميّ من فدّان الأرام ، وصلى إسحاق إلى الربّ لأجل امرأته لأنّها كانت عاقراً فاستجاب له الربّ فحملت رفقة امرأته و تزاحم الولدان في بطنها فقالت : إن كان هكذا فلماذا أنا فمضت لتسأل الربّ فقال لها الربّ : في بطنك أمّتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير .

فلمّا كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمين فخرج الأوّل أحمر كلّه كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب . انتهى موضع الحاجة وهذا من لطائف القرآن الكريم .

**قوله تعالى :** « قالت يا ويلتي ، ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيء

عجيب « الوليل القبح وكل مساء توجب التحسّر من هلكة أو مصيبة أو فجيعة أو فضيحة ، ونداؤه كناية عن حضوره وحلوله يقال : ياويلي أي حضرنى وحل بي مافيه تحسّري ، وياويلتا بزيادة التاء عند النداء مثل ياأبتا .

والعجوز الشيخة من النساء ، والبعل زوج المرأة والأصل في معناه القائم بالأمر المستغني عن الغير يقال للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون بعل ، ويقال للمصاحب وللرب : بعل . ومنه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم . والعجيب صفة مشبهة من العجب وهو الحال العارض للإنسان من مشاهدة ما لا يعلم سببه ، ولذا يكثر في الأمور الشاذة النادرة للجهل بسببها عادة وقولها : «ياويلتى ، ألد» الخ وارد مورد التعجب والتحسّر فإنّها لما سمعت بشاراة الملائكة تمثّل لها الحال بتولّد ولد من عجوز عقيم و شيخ هرم بالغين في الكبر لا يعهد من مثلها الاستيلاء فهو أمر عجيب على مافيه من العار والشين عند الناس فيضحكون منهما ويهزّون بهما وذلك فضيحة .

**قوله تعالى :** « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد » المجد هو الكرم والمجيد الكريم كثير النوال وقد تقدّم معنى بقيّة مفردات الآية .

وقولهم : « أتعجبين من أمر الله » استفهام إنكاري أنكرت الملائكة تعجبها عليها لأنّ التعجب إنّما يكون للجهل بالسبب واستغراب الأمر ، والأمر المنسوب إلى الله سبحانه وهو الذي يفعل ما يشاء وهو على كلّ شيء قدير لا وجه للتعجب منه .

على أنّه تعالى خصّ بيت إبراهيم بعنايات عظيمة و مواهب عالية يتفرّدون بها من بين الناس فلاضير إن ضمّ إلى ماضى من نعمه النازلة عليهم نعمة أخرى مختصة بهم من بين الناس وهو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلها ولد عادة .

ولهذا الذي ذكرنا قالت الملائكة لها في إنكار ما رأوا من تعجبها أوّلاً : « أتعجبين من أمر الله » فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كلّ استعجاب واستغراب لأنّ ساحة الألوهيّة لا يشقّ شيء عليها وهو الخالق لكلّ شيء .

وثانيا : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » فنبهوها بذلك أن الله أنزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت ، وألزمهم ذلك فليس من البعيد أن يكون من ذلك تولد مولود من والدين في غير سنهما العادي المألوف لذلك .

وقوله : « إنه حميد مجيد » في مقام التعليل لقوله : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » أي إنه تعالى مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجود فيفيض من رحمته وبركاته على من يشاء من عباده .

**قوله تعالى :** « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط » الروع الخوف والرعب و المجادلة في الأصل الإلحاح في البحث والمساءلة للغلبة في الرأي ، والمعنى أنه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفة بتبيين أن النازلين به لا يريدون به سوءاً ولا يضمرون له شراً . وجاءته البشرى بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب أخذ يجادل الملائكة في قوم لوط يريد بذلك أن يصرف عنهم العذاب .

فقوله : « يجادلنا في قوم لوط » لحكاية الحال الماضية أو بتقدير فعل ماض قبله و تقديره : أخذ يجادلنا الخ لأن الأصل في جواب لما أن يكون فعلا ماضيا . ويظهر من الآية أن الملائكة أخبروه أولا بأنهم مرسلون إلى قوم لوط ثم ألقوا إليه البشارة ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم ، و العذاب نازل لأمرد له .

والذي ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنما مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لمنجيتهم وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » العنكبوت : ٣٢ .

**قوله تعالى :** « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » الحليم هو الذي لا يعاجل العقوبة والانتقام ، والأواه كثير التأوه مما يصيبه أو يشاهده من سوء ، و المنيب من

الإجابة وهو الرجوع والمراد الرجوع في كل أمر إلى الله .

والآية مسوقة لتعليل قوله في الآية السابقة : « يجادلنا في قوم لوط » وفيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام و بيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا ، و كان كثير التأثير من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مراجعاً إلى الله في نجاتهم . لأنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك .

**قوله تعالى :** « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام وبذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمراً فإن القضاء حتم والعذاب واقع لا محالة . فقولهم : « يا إبراهيم أعرض عن هذا » أي انصرف عن هذا الجدل ولا نطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه .

وقولهم : « إنه قد جاء أمر ربك » أي بلغ أمره مبلغاً لا يدفع بدافع ولا يتبدل بمبدل ويؤيده قوله في الجملة التالية : « وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » فإن ظاهره المستقبل ولو كان الأمر صادراً لم يتخلف القضاء عن المقضي البتة ويؤيده أيضاً قوله في ماسياتي من آيات قصة قوم لوط : « فلمّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها » الخ آية ٨٢ من السورة .

وقولهم : « وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » أي غير مدفوع عنهم بدافع فلله الحكم لا معقب لحكمه ، والجملة بيان لما أمر به جبرئيل بهاتاً كيدا للجملة السابقة ، والمقام مقام التأكيد ، و لذلك جيء في الجملة الأولى بضمير الشأن وقد المفيد للتحقيق ، وصدّرت الجملتان معاً بأن ، وأضافوا الأمر إلى رب إبراهيم عليه السلام دون أمر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدل .

## ﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله بعث أربعة أملاك في إهلاك قوم لوط: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكرّوبيل فمروا بأبراهيم فسلموا عليه وهم معتمّون فلم يعرفهم، ورآى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسى وكان صاحب ضيافة فشوى لهم عجلا سمينا حتّى أنضجه فقرّبه إليهم فلمّا وضع بين أيديهم رآى أيديهم لا تصل إليه فنكرهم وأوجس منهم خيفة فلمّا رآى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرّفه إبراهيم فقال: أنت هو؟ قال: نعم. فمرت به امرأته فبشّرها بأسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقالت: ما قال الله عزّ وجلّ وأجابوها بما في الكتاب.

فقال لهم إبراهيم: لماذا جئتم؟ فقالوا في إهلاك قوم لوط. قال: إن كان فيها مائة من المؤمنين أنهلكونهم؟ قال جبرئيل: لا. قال: وإن كان فيهم خمسون؟ قال: لا. قال: وإن كان فيهم ثلاثون؟ قال: لا. قال: وإن كان فيهم عشرون؟ قال: لا. قال: وإن كان فيهم عشرة؟ قال: لا. قال: وإن كان فيهم خمسة؟ قال: لا. قال: وإن كان فيهم واحد؟ قال: لا، قال: فإنّ فيها لوطا. قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ثم مضوا..

قال: وقال الحسن بن عليّ: لا أعلم هذا القول إلاّ وهو يستبقيهم وهو قول الله عزّ وجلّ: «يجادلنا في قوم لوط» الحديث وله تتمّة ستوافيك في قصّة لوط.

**أقول:** وقوله: «لا أعلم هذا القول إلاّ وهو يستبقيهم» يمكن استفادته من قوله تعالى: «إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب» فإنّه أنسب بكون غرضه استبقاء القوم لا استبقاء نبيّ الله لوط. على أنّ قوله: «يجادلنا في قوم لوط» وقوله: «إنّهم آتيتهم عذاب غير مردود» إنّما يناسب استبقاء القوم.

وفي تفسير العيّاشيّ عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

جاء بعجل حنيد مشويًا نضيجا .

وفي معاني الأخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : فضحكت فبشّرناها بإسحاق قال : حاضت .

وفي الدر المنثور أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويهر عن الضحّاك عن ابن عباس قال : لما رأى إبراهيم أنّه لا تصل إلى العجل أيديهم فكبرهم وخافهم ، وإنّما كان خوف إبراهيم أنّهم كانوا في ذلك الزمان إذا همّ أحدهم بامرء سوء لم يأكل عنده يقول : إذا أكرمت بطعامه حرم عليّ أذاه ، فخاف إبراهيم أن يريدوا به سوءاً فاضطربت مفاصله .

وامرأته سارة قائمة تخدمهم ، وكان إذا أراد أن يكرم ضيفاً أقام سارة لخدمهم فضحكت سارة ، وإنّما ضحكت أنّها قالت : يا إبراهيم وما تخاف ؟ إنّهم ثلاثة نفر وأنت وأهلك وغلمانك . قال لها جبرئيل : أيتها الضاحكة أما إنّك ستلدين غلاماً يقال له : إسحاق ومن ورائه غلام يقال له : يعقوب فأقبلت في صرّة فصكّت وجهها فأقبلت والهة تقول : واويلناه ووضعت يدها على وجهها استحياء فذلك قوله : فصكّت وجهها ، وقالت : ألدوا ناعجوز وهذا بعلي شيخا .

قال : لما بشّر إبراهيم يقول الله : فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشري بإسحاق يجادلنا في قوم لوط ، وكان جداله أنّه قال : يا جبرئيل أين تريدون ؟ وإلى من بعثتم ؟ قال : إلى قوم لوط وقد أمرنا بعذابهم .

فقال إبراهيم إنّ فيها لوطا . قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجيّنّه وأهله إلّا امرأته ، وكانت فيما زعموا تسمّى والقة . فقال إبراهيم : إنّ كان فيهم مائة مؤمن أتعدّ بونهم ؟ قال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيهم تسعون مؤمنون تعدّ بونهم ؟ قال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون تعدّ بونهم ؟ قال جبرئيل : لا . حتّى انتهى في العدد إلى واحد مؤمن قال جبرئيل : لا . فلمّا لم يذكرُوا لإبراهيم أنّ فيها مؤمناً واحداً قال : إنّ فيها لوطا . قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيّنّه وأهله إلّا امرأته .

**أقول :** و في متن الحديث اضطرابٌ ما من حيث ذكره قول إبراهيم : إنَّ فيها لوطاً أوّلاً و ثانياً لكنّ المراد واضح .

و في تفسير العيّاشيّ عن أبي حمزة الثماليّ عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنَّ الله تبارك و تعالى لمّا قضى عذاب قوم لوط و قدره أحبّ أن يعوّض إبراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليم يسلم به مصابه بهلاك قوم لوط .

قال : فبعث الله رسلاً إلى إبراهيم يبشّرونه بإسماعيل . قال : فدخلوا عليه ليلاً ففزع منهم و خاف أن يكونوا سرّاً فلما رأته الرسل فزعاً مذعوراً قالوا سلاماً قال : سلام إنّنا منكم و جلون . قالوا : لا توجل إنّنا نبشّرك بغلام عليم . قال أبو جعفر عليه السلام : و الغلام العليم إسماعيل من هاجر فقال إبراهيم للرسل : أبشّرتُموني على أن مسنيّ الكبر فبم تبشّرون . قالوا : بشّرناك بالحقّ فلا تكن من القانطين . قال إبراهيم للرسل : فما خطبكم بعد البشارة ؟ قالوا : إنّنا أرسلنا إلى قوم مجرمين قوم لوط إنّهم كانوا قوماً فاسقين لننذرهم عذاب ربّ العالمين قال أبو جعفر عليه السلام : قال إبراهيم : إنّ فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجيّنّه و أهله إلّا امرأته قدرنا إنّها لمن الغابرين .

فلما عدّ بهم الله أرسل الله إلى إبراهيم رسلاً يبشّرونه بإسحاق و يعزّونه بهلاك قوم لوط ، و ذلك قوله : و لمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون فما لبث أن جاء بعجل حنيذ يعني زكيّاً مشويّاً نضيجاً فلمّا رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم و أوّجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّنا أرسلنا إلى قوم لوط و امرأته قائمة . قال أبو جعفر عليه السلام : إنّما عنوا سارة قائمة فبشّروها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب فضحكت يعني فعجبت من قولهم .

**أقول :** و الرواية - كما ترى - تجعل قصّة البشارة قصّتين : البشارة بإسماعيل و البشارة بإسحاق و قد ولد بعد إسماعيل بسنين . ثمّ تحمل آيات سورة الحجر - ولم يذكر فيها تقديم العجل المشويّ إلى الضيوف - على البشرى بإسماعيل و لمّا يقع العذاب على قوم لوط حين ذاك ، و تحمل آيات سورتي الذاريات و هود - و قد اختلطتا



في الرواية - على البشرى لسارة باسحاق ويعقوب ، وأنها إنما كانت بعد هلاك قوم لوط فراجعوا إبراهيم وأخبروه بوقوع العذاب وبشرّوه البشارة الثانية .

أما آيات سورة الحجر فإنّها في نفسها تحتمل الحمل على البشارة بإسماعيل وكذا الآيات الواقعة في سورة الذاريات تحتمل أن تقصّ عمّا بعد هلاك قوم لوط وتكون البشرى باسحاق ويعقوب عند ذلك .

وأما آيات سورة هود فإنّها صريحة في البشرى باسحاق ويعقوب ، ولكنّ ما في ذيلها من قوله : « يجادلنا في قوم لوط إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب » إلى آخر الآيات تأبى أن تنطبق على ما بعد هلاك قوم لوط ، وإن كان ما في صدرها من قوله : « إنّنا أرسلنا إلى قوم لوط » لآبى وحده الحمل على ما بعد الهلاك ، وكذا جملة « إنّّه قد جاء أمر ربك » لولا ما يحقّها من قيود الكلام .

وبالجملة مفاد الآيات في سورة هود هو وقوع البشرى باسحاق قبل هلاك قوم لوط ، وعند ذلك كان جدال إبراهيم عليه السلام ، ومقتضى ذلك أن تكون ما وقع من القصّة في سورة الذاريات هي الواقعة قبل هلاك القوم لا بعد الهلاك ، وكذا كون ما وقع من القصّة في سورة الحجر وفيه التصريح بكونه قبل هلاكهم وفيه جدال إبراهيم عليه السلام خاليا عن بشرى إسحاق ويعقوب لا بشرى إسماعيل .

والحاصل أنّ اشتمال آيات هود على بشرى إسحاق وجدال إبراهيم عليه السلام الظاهر في كونها قبل هلاك قوم لوط يوجب أن يكون المذكور من البشرى في جميع السور الثلاث : هود والحجر والذاريات قصّة واحدة هي قصّة البشرى باسحاق قبل وقوع العذاب ، وهذا ممّا يوهن الرواية جدّا .

وفي الرواية شيء آخر وهو أنّها أخذت الضحك بمعنى العجب وأخذت قوله : « فضحكت فبشرّناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » من التقديم التأخير ، وأنّ التقدير : فبشرّناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت وهو خلاف الظاهر من غير نكتة ظاهرة .

وفي تفسير العيّاشيّ أيضا عن الفضل بن أبي قرّة قال : سمعت أبا عبد الله

عليه السلام يقول : أوحى الله إلى إبراهيم أنه سيولد لك فقال لسارة فقالت : ألدو أنا عجوز ؟ فأوحى الله إليه : أنها ستلد و يعذب أولادها أربعمائة سنة بردها الكلام عليّ .

قال : فلمّا طال على بني إسرائيل العذاب ضجّوا وبكوا إلى الله أربعين صباحا فأوحى الله إلى موسى وهارون أن يخلّصهم من فرعون فحطّ عنهم سبعين و مائة سنة . قال : و قال أبو عبد الله عليه السلام : هكذا أنتم . لو فعلتم فرج الله عنّا فأما إذا لم تكونوا فإنّ الأمر ينتهي إلى منتهاه .

**أقول** وجود الرابطة بين أحوال الإنسان وملكوته وبين خصوصيات تركيب بدنه ممّا لا شكّ فيه فلكلّ من جانبي الرابط استدعاء و تأثيرا خاصّا في الآخر ثمّ النطفة مأخوذة من المادّة البدنيّة حاملّة لما في البدن من الخصوصيّات الماديّة و الروحيّة طبعاً فمن الجائز أن يرث الأَخلاف بعض خصوصيّات أخلاق أسلافهم الماديّة و الروحيّة .

و قد تقدّم كرارا في المباحث السابقة أنّ بين صفات الإنسان الروحيّة و أعماله و بين الحوادث الخارجيّة خيرا و شرّا رابطة تامّة كما يشير إليه قوله تعالى : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض » الاعراف : ٩٦ ، و قوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الشورى : ٣٠ .

فمن الجائز أن يصدر عن فرد من أفراد الإنسان أو عن مجتمع من المجتمعات الانسانيّة عمل من الأعمال صالح أو طالح أو تظهر صفة من الصفات فضيلة أو ذيلة ثمّ يظهر أثره الجميل أو وباله السيّئ في أعقابه ، و الملاك في ذلك نوع من الوراثة كما مرّ ، و قد تقدّم في ذيل قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريّة ضعافا خافوا عليهم » النساء : ٩ كلام في هذا المعنى في الجزء الرابع من الكتاب . و فيه عن زرارة و حران و محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام وعن عبد الرحمن عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب » قال : دعاه .

**أقول** : و روى في الكافي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام مثله .

و فيه عن أبي بصير عن أحدهما عليه السلام قال : إن إبراهيم جادل في قوم لوط  
و قال : إن فيها لوطا . قالوا : نحن أعلم بمن فيها فزاده إبراهيم فقال جبرئيل :  
يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك و إنهم آتيهم عذاب غير مردود .  
و في الدر المنثور أخرج ابن الأثير في كتاب الوقف و الابتداء عن حسان  
بن أبجر قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس : ما  
فعل فلان ؟ قال : مات و ترك أربعة من الولد و ثلاثة من الورا . فقال ابن عباس :  
« فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب » قال : ولد الولد .

### ﴿ كلام في قصة البشرى ﴾

قصة البشرى و سمّاها الله تعالى حديث ضيف إبراهيم عليه السلام وقعت في خمس  
من السور القرآنية كلّها مكّية وهي على ترتيب القرآن سورة هود و الحجر و  
العنكبوت و الصافات و الذاريات .

فالأولى ما في سورة هود ٦٩ - ٧٦ قوله تعالى : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم  
بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا  
تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّنا أرسلنا إلى قوم لوط . و  
امرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب . قالت يا ويلتي  
أألد و أنا عجوز و هذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة  
الله و بركانه عليكم أهل البيت إنّّه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع و  
جاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض  
عن هذا إنّّه قد جاء أمر ربك و إنهم آتيهم عذاب غير مردود » .

و الثانية ما في سورة الحجر : ٥١ - ٦٠ قوله تعالى : « و نبئهم عن ضيف  
إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنّنا منكم و جلون .

قالوا لا توجل إنّنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشّر تموني على أن مسني  
الكبر فبم تبشرون . قالوا بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال و من يقنط

من رحمة ربّه إلّا الضالّون . قال فما خطبكم أيّها المرسلون . قالوا إنّنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلّا آل لوط إنّنا لمنجّوهم أجمعين . إلّا أمرأته قدّ رنا إنّها لمن الغابرين .  
و الثالثة ما في سورة العنكبوت : ٣١ - ٣٢ قوله تعالى : « ولمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنّنا مهلكوا أهل هذه القرية إنّ أهلها كانوا ظالمين . قال إنّ فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لمنجّينّه وأهله إلّا أمرأته كانت من الغابرين .  
و الرابعة ما في سورة الصافات : ٩٩ - ١١٣ قوله تعالى : « وقال إنّني ذاهب إلى ربّي سيّدين . ربّ هب لي من الصالحين . فبشّرناه بغلام حليم . فلمّا بلغ معه السعي قال يا بنيّ إنّني أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إنّ شاء الله من الصابرين . فلمّا أسلما وتلّه للجبين . و ناديناه أن يا إبراهيم . قد صدّقت الرؤيا إنّنا كذلك نجزي المحسنين . إنّ هذا لهو البلاء المبين . و فديناه بذبح عظيم . و تركنا عليه في الآخريّن . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنّّه من عبادنا المؤمنين . و بشّرناه بإسحاق نبيّا من الصالحين . و باركنا عليه وعلى إسحاق و من ذريّتهما محسن وظالم لنفسه مبين .  
و الخامسة ما في سورة الذاريات ٢٤ - ٣٠ قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقرّبّه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف و بشّروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربّك إنّّه هو الحكيم العليم . »

و يقع البحث في قصّة البشرى من وجوه :

أحدها : أنّها هل هي بشرى واحدة وهي المشتملة على بشرى إبراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب و قد وقعت قبيل هلاك قوم لوط أو أنّها قصّتان : إحداهما تشتمل على البشرى بإسماعيل و الأخرى تنضمّن البشرى بإسحاق ويعقوب .

ربّما رجّح الثاني بناء على أنّ ما وقع من القصّة في سورة الذاريات صريح في تقديم العجل المشويّ ، و أنّ إبراهيم خافهم لمّا امتنعوا من الأكل ثمّ بشّروه

و امرأته العجوز العقيم وهي سارة أمّ إسحاق قطعاً ، و ذيل الآيات ظاهر في كون ذلك بعد إهلاك قوم لوط حيث يقول الملائكة : **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مَّجْرِمِينَ - إِلَى أَنْ قَالُوا - فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين و تركنا فيها آيةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » الآيات و نظير ذلك ما في سورة هود و قد قال فيها الملائكة لا زالة الروع عن إبراهيم ابتداء : **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطَ .**

و أمّا ما في سورة الحجر فليس يتضمّن حديث تقديم العجل المشوّي بل ظاهره أن إبراهيم و أهله خافوهم لدى دخولهم عليه فأسكنوا رعبه بالبشارة كما يقول تعالى : **« إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَ جُلُونَ قَالُوا لَا تَؤْجِلُنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ »** و ذيل الآيات ظاهر في كون ذلك قبل هلاك قوم لوط .

و نظيره ما في سورة العنكبوت من القصّة وهي أظهر في كون ذلك قبل الهلاك و يتضمّن جدال إبراهيم في قوم لوط ، و قد تقدّمت في البحث الروائيّ السابق حديث العيّاشيّ في هذا المعنى .

لكنّ الحقّ أنّ الآيات في جميع السور الأربع سورة هود و الحجر و العنكبوت و الذاريات إنّما تقصّ قصّة البشارة بإسحاق و يعقوب دون إسماعيل .

و أمّا ما في ذيل آيات الذاريات من قوله : **« قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا »** الظاهر في الماضيّ و الفراغ عن الأمر فنظيره واقع في آيات الحجر مع تسليمهم أنّها تقصّ ما قبل الفراغ .

على أنّ قول الملائكة المرسلين وهم بعد في الطريق : **« إِنَّا أَرْسَلْنَا »** لا مانع منه بحسب اللغة و العرف .

و أمّا قوله : **« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »** إلى آخر الآيات فهو من كلامه تعالى و ليس من تمّة كلام الملائكة لإبراهيم كما يدلّ عليه سياق القصص الواردة في سورة الذاريات .

و أمّا ذكر الوجل في آيات الحجر في أوّل القصّة بخلاف سورتي الذاريات و هود فالوجه فيه عدم ذكر تقديم العجل المشويّ في آيات الحجر بخلافهما ، على أنّ الارتباط التامّ بين أجزاء قصّة ممّايجوز أن يقدّم بعضها على بعض حيناً ويعكس الأمر حيناً آخر كما أنّه تعالى يذكر إنكار إبراهيم في آيات الذاريات في صدر القصّة بعد سلامهم ، و في سورة هود في وسط القصّة بعد امتناعهم من الأكل ، وهذا كثير الورد في نظم القرآن .

على أنّ آيات هود صريحة في البشريّ بإسحاق و يعقوب وهي تتضمّن جدال إبراهيم في قوم لوط في سياق لايشكّ معه أنّه كان قبل هلاك قوم لوط ، ولأزمه كون بشريّ إسحاق قبله لا بعده .

على أنّ من المتفق عليه أنّ إسماعيل كان أكبر سنّاً من إسحاق و بين ولادتهما سنون ، ولو كانت هؤلاء الملائكة بشّروا إبراهيم بإسماعيل في مسيرهم إلى هلاك قوم لوط قبيل الهلاك و بشّروه بإسحاق في منصرفهم عن هلاكهم بعيداً كان الفصل بين البشريين يوماً أو يومين فيكون الفصل بين البشريّ بإسحاق و بين ولادته سنون من الزمان و البشريّ لا تطلق إلا على الإخبار بالجميل إذا كان مشرفاً على الوقوع إلا إذا كانت هناك عناية خاصّة و أمّا الإخبار بمطلق الجميل فهو وعدو نحو ذلك .

و ثانيها أنّه هل هناك بشريّ بإسماعيل ؟ و الحقّ أنّ ما ذكرت من البشريّ في صدر آيات الصافات إنّما هي بشريّ بإسماعيل وهي غير ما ذكرت في ذيل الآيات من البشريّ بإسحاق صريحاً فإنّ سياق الآيات في ذيل قوله : « فبشّرناه بسلام حليم » ثمّ استئناف البشارة بإسحاق في قوله أخيراً : « وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين » لا يدع ريباً لمرتاب أنّ الغلام الحليم الذي بشّره أو لا غير إسحاق الذي بشّره ثانياً ، و ليس إلاّ إسماعيل .

و ذكر الطبريّ في تاريخه أنّ المراد بالبشارة الأولى في هذه السورة أيضاً البشارة بإسحاق قياساً على ما ذكر من البشارة في سائر السور ؛ و هو كما ترى . و

قد تقدّم كلام في هذا المعنى في قصص إبراهيم عليه السلام في الجزء السابع من الكتاب .  
وثالثها البحث في القصّة من جهة تطبيق ما في التوراة الحاضرة منها على ما  
استفيد من القرآن الكريم ، و سيوافيك ذلك عند الكلام على قصّة لوط عليه السلام في  
ذيل الآيات التالية .

ورابعها البحث فيها من جهة جدال إبراهيم الملائكة وقد وقع فيها مثل قوله:  
« يجادلنا في قوم لوط » وقوله : « يا إبراهيم أعرض عن هذا » .  
وقد تقدّم أنّ سياق الآيات وخاصة قوله : « إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب »  
لا يدلّ إلا على نعمته بالجميل فلم يكن جداله إلا حرصا منه في نجاة عباد الله رجاء أن  
يهتدوا إلى صراط الايمان .





وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ  
عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ  
يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ  
رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ  
مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ (٨٠) قَالُوا يَا  
لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَاصْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْهَتْ  
مِنْكُمْ أَحَدًا أَمَرَآتِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصَّبْحُ أَلَيْسَ الصَّبْحُ  
بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ  
سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢).

### ﴿بيان﴾

الآيات تذكر عذاب قوم لوط ، وهي من وجه تنمّة الآيات السابقة التي قصّت  
نزول الملائكة ودخولهم على إبراهيم عليه السلام وتبشير به إسحاق فإنما كانت كالتوطئة  
لقصة عذاب قوم لوط .

**قوله تعالى :** « ولما جاءت رسلنا لوطاً سيئاً ، بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم  
عصيب » يقال : ساءه الأمر مساءة أي أوقع عليه السوء ، وسيئاً ، بالأمر بالبناء للمجهول  
أي أوقع عليه من ناحيته وبسببه .  
والذرع مقايضة الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا



يقيسون بها ، ويطلق على نفس المقياس أيضاً ، ويقال : ضاق بالأمر ذرعاً وهو كناية عن انسداد طريق الحيلة والعجز عن الاهتداء إلى مخلص ينجو به الإنسان من النائية كالذي يذرع مالا ينطبق عليه ذرعه .

والعصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشدّ واليوم العصيب هو اليوم الذي شدّ بالبلاء شدّاً لا يقبل الانحلال ولا بعض أجزائه ينفك عن بعض . والمعنى لما جاءت رسلنا لوطاً وهم الملائكة النازلون بأبراهيم عليه السلام مجيئهم لوطاً ، وعجز عن الاحتمال لنجاتهم من شرّ القوم فإنّهم دخلوا عليه في صور غلمان مرد صبيحي المنظر وكان قومه ذوي حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من المترقّب أن يعرضوا عنهم ويتركوهم على حالهم ، ولذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال : « هذا يوم عصيب » أي شديد ملتفّ بعض شرّه ببعض .

**قوله تعالى :** « فجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات » قال الراغب : يقال : هرع وأهرع ساقه سوقاً بعنف وتخويف . انتهى وعن كتاب العين الإهرع السوق الحثيث انتهى .

وقوله : « ومن قبل كانوا يعملون السيئات » أي ومن قبل ذلك كانوا يقتربون المعاصي ويأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف ، ولا يحجبهم عن ذلك استحياء أو استئذان ، ولا ينزجرون بوعظة أو ملامة أو مذمة لأنّ العادة تسهّل كلّ صعب وتزيّن كلّ قبيح ووقيح . والجملة كالمعتضة بين قوله : « فجاءه قومه يهرعون إليه » وقوله : « قال يا قوم هؤلاء بناتي » الخ وهي نافعة في مضمون طرفيها أمّا فيما قبلها فإنّها توضح أنّ الذي كان يهرعهم ويسوقهم إلى لوط عليه السلام هو أنّهم كانوا يعملون السيئات وصاروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء ولعين به فساقهم ذلك إلى المجيء إليه وقصد السوء بأضيافه .

وأما فيما بعدها فإنّها تفيد أنّهم لرسوخ الملكة واستقرار العادة سلبوا سمع القبول وأن يزجرهم زاجر من عظة أو نصيحة ، ولذلك بدأ لوط في تكليمهم

بعرض بناته عليهم ثم قال لهم : « اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي » الخ .

**قوله تعالى :** « قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم » إلى آخر الآية لما رآهم تجمعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظة أو إغلاظ في الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصية فيه من الحلال فعرض بناته عليهم ورجحهم بأنهن أطهر لهم .

وإنما المراد بصيغة النفضيل - أطهر - مجرد الاشتمال على الطهارة من غير شوب بقذارة ، والمراد هي طاهرة محضا ، وهو استعمال شائع قال تعالى : « ما عند الله خير من اللهو » الجمعة : ١٤ و قال : « والصلح خير » النساء : ١٢٨ . و تفيد معنى الأخذ بالمتيقن .

وتقييد قوله : « هؤلاء بناتي » بقوله : « هن أطهر لكم » شاهد صدق على أنه إنما عرض لهم مسهن عن نكاح لاعتن سفاح وحاشا مقام نبي الله عن ذلك ، و ذلك لأن السفاح لاطهارة فيه أصلا وقد قال تعالى : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة و ساء سيلا » أسرى : ٣٢ ، وقال : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » الأنعام : ١٥١ ، وقد تقدم في تفسير هذه الآية أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامة المشروعة في جميع الشرائع الإلهية النازلة على أنبيائه .

ومن هنا يظهر فساد قول من يقول : إنه عرض عليهم بناته من غير تقييده بنكاح . ولست أدري ما معنى علاج فحشاء بفحشاء غيرها ؟ وما معنى قوله حينئذ : « فاتقوا الله » ؟ ولو كان يريد دفع الفضيحة و العار عن نفسه فقط لاكتفى بقوله : « ولا تخزون في ضيفي » .

وربما قيل : إن المراد بقوله : « هؤلاء بناتي » الإشارة إلى نساء القوم لأن النبي أبو أمته فنسأوهم بناته كما أن رجالهم بنوه يريد أن قصد الإثبات وهو سبيل فطري خير لكم وأطهر من قصد الذكور من طريق الفحشاء .

وهو تحكم لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة ، وأما كونهم كفارا و بناته مسلمات ولا يجوز إنكاح المسلمة من الكافر فليس من المعلوم أن ذلك من شريعة

إبراهيم حتى يتبعه لوط عليه السلام فمن الجائز أن يكون تزويج المؤمنة بالكافر جائزا في شرعه كما أنه كان جائزا في صدر الإسلام ، وقد زوج النبي ﷺ بنته من أبي العاص بن الربيع وهو كافر قبل الهجرة ثم نسخ ذلك .

على أن قولهم في جوابه : « لقد علمت مالما في بناتك من حق » لا يلائم كون المراد بالبنات في كلامه إنما هي نساؤهم لابناته من صلبه فإنهم ما كانوا مؤمنين به حتى يعترفوا بكون نساءهم بناته إلا أن يكون المراد التهكم ولا قرينة عليه .

لا يقال تعبيره ﷺ بالبنات وليس له عندئذ إلا بنتان يدل على أن مراده بناته من نساء أمته لابناته غير الصادق عليه لفظ الجمع .

لأننا نقول : لا دليل على ذلك من كلامه تعالى ولا وقع ذلك في نقل يعتمد عليه نعم وقع في التوراة الحاضرة أنه كان للوط بنتان فقط ، ولا اعتماد على ما تضمنه .

وقوله : « فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي » بيان للمطلوب ، وقوله : « ولا تخزون في ضيفي » عطف تفسيري لقوله : « فاتقوا الله » فانه ﷺ إنما كان يطلب منهم أن لا يتعزوا لضيفه لتقوى الله لالهوى نفسه وعصبية جاهلية منه ، ولم يكن عنده فرق بين ضيفه وغيرهم فيما كان يردعهم ، وقد عظمهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع وألح على ذلك سنين متتالية .

وإنما علق الردع على معنى الضيافة وأضاف الضيف إلى نفسه وذكر الخزي الوارد عليه من التعرض بهم كل ذلك رجاء أن يهيج صفة الفتوة والكرامة فيهم ولذلك عقب ذلك بالاستغاثة والاستنصار بقوله : « أليس منكم رجل رشيد » لعله يجد فيهم ذارشا إنساني فينتصر له وينجيه وضيوفه من أيدي أولئك الظالمين لكن القوم كانوا كما قال الله تعالى : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » الحجر : ٧٢ ولم يؤثر ذلك فيهم أثرا ولم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما أسأوه به من أي إلحاح في ذلك .

**قوله تعالى :** « قالوا يا لوط لقد علمت مالنا في بناتك من حقّ وإنّك لتعلم ما نريد » هذا جواب القوم عمّا دعاهم إليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفي أن يكون لهم في بناته من حقّ وأنّه يعلم ذلك ويعلم ما هو بغيتهم في هذا الهجوم وماذا يريدون .

وقد قيل في معنى نفْيهم الحقّ : إنّ معناه مالنا في بناتك من حاجة وما ليس للإنسان فيه حاجة فكأنّه لاحق له فيه فني الكلام نوع استعارة .  
وقيل : إنّ المراد ليس لنا في بناتك من حقّ لأنّا لانتزوّجهنّ ومن لم يتزوّج بامرأة فلا حقّ له فيها فالمراد بنفي الحقّ نفي سببه وهو الازدواج .  
وقيل : المراد بالحقّ هو الحظّ والنصيب دون الحقّ الشرعيّ أو العرفي أي لارغبة لنا فيهنّ لأنّهنّ نساء ولا ميل لنا إليهنّ .

والذي يجب الالتفات إليه أنّهم لم يقولوا : ما لنا في بناتك من حقّ بل قالوا : « لقد علمت مالنا في بناتك من حقّ » فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك و بين القولين فرق فالظاهر أنّهم ذكروه بما كان يعلم من السنّة القومية الجارية بينهم، وهو المنع من التعرّض لنساء الناس وخاصّة بالقهر والغلبة أو ترك إتيان النساء بالمرّة و استباحة التعرّض للغلمان وقضاء الوطر منهم ، وقد كان لوط يردّعهم عن سنّتهم ذلك إذ يقول لهم : « إنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » الأعراف : ٨١ « أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم » الشعراء : ١٦٦ « إنّكم لتأتون الرجال و تقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر » العنكبوت : ٢٩ ، ولا شك أنّ السنّة القومية الجارية على فعل شيء، يثبت حقّا فيه ، والجارية على تركه ينفي الحقّ .

و بالجملة هم يلفتون نظره ﷺ إلى ما يعلم من انتفاء حقّهم عن بناته بماهنّ نساء بحسب السنّة القومية وما يعلم من إرادتهم في الهجوم على داره هذا ولعلّ هذا أحسن الوجوه ، وبعده الوجه الثالث .

**قوله تعالى :** « قال لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد » يقال : أوى

إلى كذا يأوى أو يآوى وماوى أي انضم إليه ، وآواه إليه يؤويه إيواء أي ضمّه إليه .  
الركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس .

الظاهر أنّه لما وعظهم لوط عليه السلام بالأمر بتقوى الله وتهيبج فتوتهم في حفظ موقعه ورعاية حرمة في عدم التعرّض لضيغه بما يجلب إليه العار والخزي ، وقد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولي الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم ويدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيماسأل ولا انماز من بينهم ذو رشد ينصره ويدفع عنه بل أيأسوه بقولهم : « يا لوط لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » لم يبق له إلا أن يظهر ما به من البث والحرز في صورة التمني فتمنّى أن يكون له منهم قوّة يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين - وهو الرجل الرشيد الذي كان يسأل عنه في استغاثته - أو يكون له ركن شديد وعشيرة منيعة ينضم إليهم فيدفعهم بهم .

فقوله : « لو أن لي بكم قوّة » أي ليت لي قدرة بسببكم بانضمام رجل منكم رشيد إليّ يقوم بنصرتي فأدفعكم به ، وقوله : « أو آوي إلى ركن شديد » أي أو كنت أنضمّ إلى ركن شديد أي عشيرة منيعة يمنعكم منّي هذا ما يعطيه ظاهر السياق .

وقيل : إن معنى قوله : « لو أن لي بكم قوّة » أتمنّى أن يكون لي منعة وقدرة وجماعة أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافي . وفيه أن فيه تبديل قوله : « بكم » إلى قولنا : بهم عليكم . وهو كما ترى .

وقيل : إن معنى « لو أن لي بكم قوّة » لو قويت عليكم بنفسي . وفيه أنّه أبعد من لفظ الآية .

وقيل : إن الخطاب في الآية للأضياف دون القوم ، ومعنى الآية أنّه قال لأضيافه : أتمنّى أن يكون لي بسببكم قوّة ألقاهم بها . وفيه أن الانتقال من خطاب القوم إلى خطاب الأضياف ولا دليل من اللفظ ظاهراً يدلّ عليه إبهام وتعقيد من غير موجب ، وكلامه تعالى أجلّ من ذلك .

**قوله تعالى :** « قالوا يا لوط إنّنا رسل ربك لن يصلوا إليك » إلى آخر الآية

عدم وصولهم إليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون ، والمعنى لمّا بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبا للوط : إنّنا رسل ربك فأظهروا له أنّهم ملائكة وعرفّوه أنّهم مرسلون من عند الله ، و طيّبوا نفسه أنّ القوم لن يصلوا إليه ولن يقدرُوا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى في موضع آخر من كلامه : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم » القمر : ٣٧ ، فأذهب الله بأبصار الذين تايعوا على الشرّ وازدهجوا على بابه فصاروا عميانا ينخبّطون .

و قوله : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد » الإسراء . و السرى بالضم السير بالليل فيكون قوله : « بقطع من الليل » نوع توضيح له ، و الباء للمصاحبة أو بمعنى في . و القطع من الشيء طائفة منه و بعضه ، و الالتفات افتعال من اللفت قال الراغب : يقال : لفته عن كذا صرفه عنه قال تعالى : « قالوا أجئتنا لتلقتنا » أي تصرفنا ، ومنه التفت فلان إذا عدل عن قبله بوجهه ، وامرأة لفتوت تلفت من زوجها إلى ولدها من غيره . انتهى .

و القول دستور من الملائكة للوط عليه السلام إرشاداً له إلى النجاة من العذاب النازل بالقوم صبيحة ليلتهم هاتيك ، و فيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله بعد : « إنّ موعدهم الصبح » .

و المعنى أنّنا مرسلون لعذاب القوم و هلاكهم فانج أنت بنفسك و أهلك و سيروا أنت و أهلك بقطع من هذا الليل واخرجوا من ديارهم فإنّهم هالكون بعذاب الله صبيحة ليلتهم هذه ، و لا كثير وقت بينك وبين الصبح ، و لا ينظر أحدكم إلى وراء . و ما ذكره بعضهم أنّ المراد بالالتفات الالتفات إلى مال أو متاع في المدينة يأخذه معه أو الالتفات بمعنى التخلّف عن السرى ممّا لا يلتفت إليه .

و قوله : « إلّا امرأتك إنّّه مصيبها ما أصابهم » ظاهر السياق أنّه استثناء من قوله : « أهلك » لا من قوله : « أحد » و في قوله : « إنّّه مصيبها ما أصابهم » بيان السبب لاستثنائها ، و قال تعالى في غير هذا الموضع : « إلّا امرأتك قدّرنا إنّها لمن الغابرين » الحجر : ٦٠ .

و قوله : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » أي موعد هلاكهم الصبح وهو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق كما قال تعالى في موضع آخر : « فأخذتهم الصيحة مشرقين » الحجر : ٧٣ .

و الجملة الأولى تعليل لقوله : « فأسر بأهلك بقطع من الليل » وفيه نوع استعجال كما تقدم ، و يؤكده قوله : « أليس الصبح بقريب ؟ » و من الجائز أن يكون لوط عليه السلام يستعجلهم في عذاب القوم فيجيبوه بقولهم : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » أي إن من المقدر أن يهلكوا بالصبح و ليس موعدا بعيدا أو يكون الجملة الأولى استعجالا من الملائكة ، والثانية تسلية منهم للوط في استعجاله . ولم يذكر في الآيات ما هي الغاية لسراهم و المحلل الذي يتوجهون إليه و قد قال تعالى في موضع آخر من كلامه : « فأسر بأهلك بقطع من الليل و اتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد و امضوا حيث تؤمرون » الحجر : ٦٥ و ظاهره أن الملائكة لم يذكروا له المقصد و أحوالوا ذلك إلى ما سيأتيه من الدلالة بالوحي الإلهي .

**قوله تعالى :** « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها و أمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك » ضمائر التأنيت الثلاث راجعة إلى أرض القوم أو القرية أو بلادهم المعلومه من السياق ، والسجيل على ما في المجمع بمعنى السجين وهو النار ، و قال الراغب . السجين حجر و طين مختلط ، و أصله فيما قيل فارسي معرب . انتهى يشير إلى ما قيل إن أصله سنك گل ، وقيل : إنه مأخوذ من السجل بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك ، و قيل : مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت .

و الظاهر أن الأصل في جميع هذه المعاني هو التركيب الفارسي المعرب المفيد معنى الحجر والطين ، والسجل بمعنى الكتاب أيضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسع فسمي كل كتاب سجلا و إن كان من قرطاس ، و الإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك .

و النضد هو النظم و الترتيب ، و التسويم جعل الشيء ذاعلامه من السيماء  
بمعنى العلامة .

و المعنى : و لما جاء أمرنا بالعذاب و هو أمره تعالى الملائكة بعذابهم و هو  
كلمة « كن » التي أشار إليها في قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له - كن »  
يس : ٨٣ جعلنا عالي أرضهم و بلادهم سافلها بتقليبها عليهم و أمطرنا عليها حجارة  
من سجيل منضود معلّمة عند ربك وفي علمه ليس لها أن تخطيء هدفها الذي رميت  
لأجل إصابته .

و ذكر بعضهم أن القلب وقع على بلادهم و الأمطار بالسجيل عذب به  
الغائبون منهم ، و قيل : إن القرية هي التي أمطرت حين رفعها جبرئيل ليخسفها ،  
و قيل : إنما أمطرت عليهم الحجارة بعد ما قلبت قريتهم تغليظاً في العقوبة . و  
الأقوال جميعاً من التحكّم من غير دليل من اللفظ .

وفي قوله تعالى في غير هذا الموضع : « فأخذتهم الصيحة مشرقين » الحجر : ٧٣  
فقد كان هناك قلب و صيحة و إمطار بالحجارة و من الممكن أن يكون ذلك بحدوث  
بركان من البراكين بالقرب من بلادهم و تحدث به زلزلة في أرضهم و انفجار أرضي  
بصيحة توجب قلب مدنهم ، و يمطر البركان عليهم من قطعات الحجارة التي يثيرها  
و يرميها ، والله أعلم .

**قوله تعالى :** « و ماهي من الظالمين ببعيد » قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل  
مكة أو المشركون من قوم النبي ﷺ و الكلام مسوق للتهديد ، و المعنى وليست  
هذه الحجارة من ظالمي مكة ببعيد أو المعنى : ليست هذه القرى المخسوفة من ظالمي  
قومك ببعيد فإنه في طريقهم بين مكة و الشام كما قال تعالى في موضع آخر : « و  
إنّها لبسبيل مقيم » الحجر : ٧٦ ، و قال : « و إنكم لتمرّون عليهم مصبحين و  
بالليل أفلا تعقلون » الصافات : ١٣٨ .

و يؤيّد العدول من سياق التكلم إلى الغيبة في قوله : « مسومة عند ربك »  
فكأنّه تعالى عدل عن مثل قولنا : مسومة عندنا ، إلى هذا التعبير ليعترض لقومه ﷺ



بالتهديد أو بإنهاء الحديث إلى حسّهم ليكون أقوى تأثيراً في الحجاج عليهم .  
 وربّما احتمل أن المراد تهديد مطلق الظالمين و المراد أنّه ليست الحجارة  
 أي إمطارها من عند الله تعالى من معشر الظالمين و منهم قوم لوط الظالمون ببعيد، و  
 يكون وجه الالتفات في قوله : « عند ربّك » أيضا التعريض لقوم النبيّ الظالمين  
 المشركين .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن زكريّا بن محمّد [عن أبيه] عن عمرو عن أبي جعفر عليه السلام قال :  
 كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله فطلبهم إبليس الطلب الشديد ، وكان من فضلهم  
 وخيرتهم أنّهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم و تبقى النساء خلفهم فلم يزل  
 إبليس يعتادهم فكانوا إذا رجعوا خرّ إبليس ما يعملون .

فقال بعضهم لبعض : تعالوا نرصد هذا الذي يخرب متاعنا فرصدوه فإذا هو  
 غلام أحسن ما يكون من الغلمان فقالوا له : أنت الذي تخرب متاعنا مرّة بعد  
 أخرى ، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيّثوه عند رجل فلمّا كان الليل صاح له  
 فقال له : مالك ؟ فقال : فإنّ أبي ينوّمني على بطنه فقال له : تعال فتم على بطني .  
 قال : فلم يزل يدلك الرجل حتّى علّمه أن يفعل بنفسه فأوّل علّمه إبليس  
 و الثاني علّمه هو ثمّ انسلّ يفرّ منهم ، و أصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام  
 و يعجبهم منه وهم لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتّى اكتفى الرجال بعضهم ببعض  
 ثمّ جعلوا يرصدون مائة الطريق فيفعلون بهم حتّى تنكبّ مدينتهم الناس ثمّ تركوا  
 نساءهم و أقبلوا على الغلمان .

فلمّا رأى أنّه قد أحكم أمره في الرجال جاء إلى النساء فصيّر نفسه امرأة  
 فقال لهنّ : إنّ رجالكنّ يفعل بعضهم ببعض ؟ قلن : نعم رأينا ذلك و كلّ ذلك  
 يعظمهم لوط و يوصيهم و إبليس يغويهم حتّى استغنى النساء بالنساء .

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زي غلمان عليهم أقبية فمرّوا بلوط وهو يحرق . قال : أين تريدون ؟ ما رأيت أبجل منكم قط . فقالوا : إنّنا رسل سيّدنا إلى ربّ هذه البلدة . قال : أو لم يبلغ سيّدكم ما يفعل أهل هذه القرية ؟ إنّهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتّى يخرج الدم . قالوا : أمرنا سيّدنا أن نمرّ وسطها . قال : فلي إليكم حاجة . قالوا : وما هي ؟ قال : تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام .

قال : فجلسوا . قل : فبعث ابنته قال : فجئني لهم بخبز وجئني لهم بماء في القرعة وجئني لهم بعباء يتغطّون بها من البرد فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطرو الوادي فقال لوط : الساعة تذهب بالصبيان الوادي قال : قوموا حتّى نمضي ، وجعل لوط يمشي في أصل الحائط ، وجعل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل يمشون وسط الطريق . قال : يا بنيّ امشوا ههنا فقالوا : أمرنا سيّدنا أن نمرّ في وسطها وكان لوط يستغنم الظلام .

و مرّ إبليس فأخذ من حجر امرأة صبيّاً فطرحه في البئر فتصايح أهل المدينة كلّهم على باب لوط فلما أن نظروا إلى الغلمان في منزل لوط قالوا : يا لوط قد دخلت في عملنا ؟ فقال : هؤلاء ضيفي فلا تفضحون في ضيفي . قالوا : هم ثلاثة خذ واحداً وأعطنا اثنين . قال : وأدخلهم الحجرة وقال : لو أنّ لي أهل بيت تمنعوني منكم .

قال : وتدافعوا على الباب وكسروا باب لوط وطرحوا لوطاً فقال له جبرئيل : إنّنا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأخذ كلّاً من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال : شامت الوجوه فعمي أهل المدينة كلّهم فقال لهم لوط : يا رسل ربّي فما أمركم ربّي فيهم ؟ قالوا : أمرنا أن نأخذهم بالسحر . قال : فلي إليكم حاجة . قالوا : وما حاجتك ؟ قال : تأخذونهم الساعة فإنّي أخاف أن يبدو لربّي فيهم . فقالوا : يا لوط إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد أن يأخذ فخذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك .

فقال أبو جعفر عليه السلام : رحم الله لوطا لو علم من معه في الحجرة . لعلم أنه منصور حيث يقول : « لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد » أي ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة ؟ فقال عز وجل لمحمد عليه السلام : « وما هي من الظالمين ببعيد » من ظالمي أمثلك إن عملوا ما عمل قوم لوط ، و قال رسول الله عليه السلام : من ألح في وطى الرجال لم يمت حتى يدعو الرجال إلى نفسه .

**أقول :** و الرواية لا تخلو من تشويش ما في اللفظ ، وقد ذكر فيها الملائكة المرسلون ثلاثة ، و في بعض الروايات - كالرواية المذكورة في الباب السابق عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد الله عليه السلام - أنهم كانوا أربعة بزيادة كربيل ، و في بعض الروايات من طرق أهل السنة أنهم كانوا ثلاثة وهم جبرئيل و ميكائيل و رفائيل ، و الظاهر من الرواية أنها تأخذ قول لوط : « لو أن لي بكم قوة » ألح خطابا منه للملائكة لا للقوم ، و قد تقدّمت الإشارة إليه في بيان الآيات .

و قوله عليه السلام : رحم الله لوطا لو علم الخ في معنى قول النبي عليه السلام - على ما روي عنه - رحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد .  
و قوله عليه السلام : فقال عز وجل لمحمد عليه السلام ألح إشارة إلى ما تقدّم من احتمال كون الآية ، مسوقا لتهديد قريش .

و في تفسير القمّي باسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « و أمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » قال : ما من عبد يخرج من الدنيا يستحلّ عمل قوم لوط إلّا رماه الله جندلة من تلك الحجارة تكون منيته فيه و لكن الخلق لا يرونه .

**أقول :** و روى في الكافي باسناده عن ميمون البان عنه عليه السلام مثله . و فيه من بات مصرا على اللواط لم يمت حتى يرميه الله بحجارة تكون فيه منيته ولا يراه أحد ، و في الحديثين إشعار بكون قوله : « و ما هي من الظالمين ببعيد » غير خاص بقريش ، و إشعار بكون العذاب المذكور روحانيا غير مادي .

و في الكافي باسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام في قول لوط :

« هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم » قال : عرض عليهم التزويج .

و في التهذيب عن الرضا عليه السلام : عن إتيان الرجل المرأة من خلفها فقال : أحلتها آية من كتاب الله عز وجل : قول لوط : « هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم » قد علم أنهم لا يريدون الفرج .

و في الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال : عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته إنه إن كفَّ يده عنهم كفَّ يدا واحدة ، و كفوا عنه أيدي كثيرة مع مودتهم و حفاظتهم و نصرتهم حتى لربما غضب الرجل للرجل و ما يعرفه إلا بحسبه و سأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى فتلا هذه الآية : « لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد » .

قال علي رضي الله عنه : والركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عشيرة فوالذي لا إله غيره ما بعث الله نبيًا بعد لوط إلا في ثروة من قومه .

**أقول :** و آخر الرواية مروية من طرق أهل السنة و الشيعة .

و في الكافي - في حديث أبي يزيد الحمار عن أبي جعفر عليه السلام المنقول في البحث الروائي السابق - قال : فأتوا يعني الملائكة لوطا وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه وهم معتمون فلمَّا رآى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض و عمام بيض قال لهم : المنزل فقالوا : نعم فنقدّمهم و مشوا خلفه فندم على عرضه المنزل عليهم فقال : أي شيء صنعت؟ آتني بهم قومي و أنا أعرفهم ؟ فقال : إنكم لتأتون شرارا من خلق الله . قال جبرئيل : لانعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرّات . فقال جبرئيل : هذه واحدة فمشى ساعة ثمّ التفت إليهم فقال : إنكم لتأتون شرارا من خلق الله فقال جبرئيل : هذه ثنتان . ثمّ مشى فلمَّا بلغ باب المدينة التفت إليهم ثمّ قال : إنكم لتأتون شرارا من خلق الله . فقال جبرئيل : هذه الثالثة ثمّ دخل و دخلوا معه حتى دخل منزله .

فلمَّا رأته امرأته رأته هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعو فدخلت فلمَّا رأوا الدخان أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاؤا على الباب فنزلت

إليهم فقالت : عندنا قوم ما رأيت قط قوما أحسن منهم هيئة فجاءوا إلى الباب ليدخلوا . فلمّا رأهم لوط قام إليهم فقال لهم : يا قوم اتّقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ؟ ثمّ قال : هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم فدعاهم كلّهم إلى الحلال فقالوا : مالنا في بناتك من حقّ وإنّك لتعلم ما نريد فقال لهم : لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد فقال جبرئيل : لو يعلم أيّ قوّة له .

فتمكثروه حتّى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل فقال : يا لوط دعهم يدخلون فلمّا دخلوا أهوى جبرئيل باصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عزّ وجلّ : « فطمسنا أعينهم » ثمّ ناداه جبرئيل فقال له : إنّنا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأسرّ بأهلك بقطع من الليل ، وقال له جبرئيل : إنّنا بعثنا في إهلاكهم فقال : يا جبرئيل عجّل فقال : إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب .

فأمره يتحمّل ومن معه إلّا امرأته ثمّ اقتلعها يعني المدينة جبرئيل بجناحه من سبع أرضين ثمّ رفعها حتّى سمع أهل السماء الدنيا نياح الكلاب وصراخ الديوك ثمّ قلبها وأمطر عليها وعلى من حول المدينة بحجارة من سجيل .

**أقول :** وما اشتمل عليه آخر الرواية من اقتلاعها من سبع أرضين ثمّ رفعها إلى حيث سمع أهل السماء الدنيا نياح كلابهم وصراخ ديو كههم أمر خارق للعادة ، و هو وإن كان لا يستبعد من قدرة الله سبحانه لكنّه ممّا لا يكفي في ثبوته أمثال هذه الرواية وهي من الآحاد .

على أنّ السنّة الإلهيّة جارية على أن تقتضي في الكرامات والمعجزات الحكمة و أيّ حكمة في رفعهم إلى هذا الحدّ ولا أثر له في عذابهم ولا في تشديده ؟

وقول بعض أهل الكلام : من الجائز أن يكون هذا الفعال العجيب الخارق للعادة لطفًا من الله ليكون الإخبار بذلك من طريق المعصومين مقرّبا للمؤمنين إلى الطاعة مبعداً لهم من المعصية كلام مدخول فإنّ خلق الأمور العظيمة المعجبة و الحوادث الخارقة للعادة ليتأكّد بها إيمان المؤمنين و يعتبر بها المعتبرون و إن كان لا يخلو من لطف إلّا أنّه إنّما يكون لطفًا فيما كان بلوغه لهم من طريق الحسّ أو أيّ

طريق علمي آخر ، وأما رواية واحدة أو ضعيفة وهي خالية عن الحجية لا يعبا بها فلا معنى لايجاد الأمور الخارقة و الحوادث العجيبة لأجل حصول اعتبار أو مخافة من طريقها ، ولا وجه لتشديد عذاب قوم ليعتبر به قوم آخرون إلا في سنة الجهال من طغاة البشر وجبابرةهم .

قال صاحب المنار في تفسيره : وفي خرافات المفسرين المروية عن الإسرائيليات أن جبرئيل قلعه من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج فيها ثم قلبها قلبا مستويا فجعل عاليها سافلها . وهذا تصور مبني على اعتقاد متصوره أن الأجرام السماوية المأهولة بالسكان مما يمكن أن يقرب منهم سكان الأرض وما فيها من الحيوان و يبقون أحياء . وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار الفعلي في هذه الأيام التي يكتب هذا فيها أن الطيارات والمناطيد التي تتخلق في الجو تصل إلى حيث يخف ضغط الهواء و يستحيل حياة الناس فيها ، وهم يصنعون أنواعا منها يصنعون فيها من أ كيميجين الهواء ما يكفي استنشاقه و تنفسه للحياة في طبقات الجو العليا و يصعدون فيها .

وقد أثير في الكتاب العزيز إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء » . فان قيل : إن هذا الفعل المروي عن جبرئيل من الممكنات العقلية وكان وقوعه من خوارق العادات فلا يصح أن يجعل تصديقه موقوفا على ما عرف من سنن الكائنات .

قلت : نعم ولكن الشرط الأول لقبول الرواية في أمر جاء على غير السنن و النواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران و خراب أن تكون الرواية عن وحي إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الاسناد لا شذوذ فيه ولا علة على الأقل ، ولم يذكر في كتاب الله تعالى ، ولم يرد فيه حديث مرفوع إلى نبيه ﷺ ، ولا تظهر حكمة الله فيه ، وإنما روي عن بعض التابعين دون الصحابة . ولا

شكّ أنه من الإسرائيليات .

و مما قالوه فيها : أن عدد أهلها كان أربعة آلاف ألف و بلاد فلسطين كلها لا تسع هذا العدد فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الأربع ؟ انتهى .  
و الذي ذكره أن الحديث إنما روي عن التابعين دون الصحابة فانه أن هذا المعنى مروى عن ابن عباس و عن الحذيفة بن اليمان ففي رواية ابن عباس - كما في الدر المنثور عن إسحاق بن بشروابن عساكر من طريق جويبر و مقاتل عن الضحاك عنه - « فلمّا كان عند وجه الصبح عمد جبريل إلى قرى لوط بما فيها من رجالها و نساءها و ثمارها و طيرها فحوّاها و طواها ثمّ قلّعها من تخوم الثرى ثمّ احتملها تحت جناحه ثمّ رفعها إلى السماء الدنيا فسمع سكّان السماء الدنيا أصوات الكلاب و الطير و النساء و الرجال من تحت جناح جبريل ثمّ أرسلها منكوسة ثمّ أتبعها بالحجارة ، وكانت الحجارة للرعاة و التجّار و من كان خارجا عن مدائنهم » الحديث .

و في رواية حذيفة بن اليمان - على ما في الدر المنثور عن عبدالرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عنه - « فاستأذن جبريل في هلاكهم فأذن له فاحتمل الأرض التي كانوا عليها ، و أهوى بها حتّى سمع أهل السماء الدنيا صغاء كلابهم و أوقد تحتمهم نارا ثمّ قلبها بهم فسمعت امرأة لوط الوجبة وهي معهم فالتفت فأصابها العذاب ، و تبعث سفارهم الحجارة » الحديث .

و أمّا من التابعين فقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير و مجاهد و أبي صالح و محمد بن كعب القرظي و عن السديّ ما هو أغلظ من ذلك قال : لمّا أصبحوا نزل جبريل فاقطلع الأرض من سبع أراضين فحملها حتّى بلغ السماء الدنيا ثمّ أهوى بها جبريل إلى الأرض » الحديث .

و أمّا ما ذكره من أنّه « يشترط في قبول الرواية أن تكون منقولة بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الاسناد لاشذوذ فيه ولا علة » فمسألة أصوليّة ، و الذي استقرّ عليه النظر اليوم في المسألة أن الخبر إن كان متواترا أو محفوظا بقرينة

قطعية فلا ريب في حجيتها ، وأما غير ذلك فلا حجية فيه إلا الأخبار الواردة في الأحكام الشرعية الفرعية إذا كان الخبر موثوق الصدور بالظن النوعي فإن لها حجية .

وذلك أن الحجية الشرعية من الاعتبارات العقلائية فتتبع وجود أثر شرعي في المورد يقبل الجعل والاعتبار الشرعي والقضايا التاريخية والأمر الاعتقادي لا معنى لجعل الحجية فيها لعدم أثر شرعي ولا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علما وتعبيد الناس بذلك ، والموضوعات الخارجية وإن أمكن أن يتحقق فيها أثر شرعي إلا أن آثارها جزئية والجعل الشرعي لا ينال إلا الكليات و ليطلب تفصيل القول في المسألة من علم الأصول .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد .

**أقول :** مقتضى المقام الذي كان يجاري فيه لوط قومه و يأمرهم بتقوى الله و الاجتناب عن الفجور و ظاهر سياق الآيات الحاكية للمشاجرة بينه و بين قومه أن لوطا إنما كان يتمنى أنصارا أولي رشد من بين قومه أو من غيرهم فقله : « أو آوي إلى ركن شديد » يريد به أنصارا من غير القوم من عشيرة أو أخلاء و أصدقاء في الله ينصرونه في الدفع عن أضيافه هذا والركن الشديد معه في داره وهم جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و لذلك لبّوه من غير فصل و قالوا : يا لوط إننا نرسل ربك لن يصلوا إليك .

ولم يكن ليغفل في حال من تلك الأحوال عن ربه و أن كل النصر من عنده حتى ينسأه و يتمنى ناصراً غيره ، و حاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجهل المذموم و قد قال الله تعالى في حقّه : « آتيناه حكما وعلما - إلى أن قال - وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين » الأنبياء : ٧٥ .

فقول النبي ﷺ : « إن كان ليأوى إلى ركن شديد » معناه أن معه جبرئيل



و سائر الملائكة و هو لا يعلم بذلك ، و ليس معناه أن معه الله سبحانه و هو جاهل بمقام ربه .

فما في بعض الروايات الناقلة للفظه رسول الله ﷺ من الإشعار بأن مراده بالركن الشديد هو الله سبحانه دون الملائكة إنما نشأ عن فهم بعض رواة الحديث كما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : رحم الله لوطا كان يأوى إلى ركن شديد يعني الله تعالى . الحديث .

و كما عنه من طريق آخر قال : إن النبي ﷺ قال : « يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد » و لعل فيه نقلا بالمعنى و أن النبي ﷺ قال : رحم الله لوطا فغفره الراوي إلى قوله : يغفر الله للوط المشعر بكون لوط أهمل أدبا من آداب العبودية أو أذنب ذنبا بجعله مقام ربه و نسيانه مالم يكن له أن ينساه .

## ﴿ كلام في قصة لوط و قومه في فصول ﴾

١ - قصته و قصة قومه في القرآن . كان لوط عليه السلام من كلدان في أرض

بابل و من السابقين الأولين ممن آمن بإبراهيم عليه السلام آمن به و قال : إنني مهاجر إلى ربي ( العنكبوت : ٢٦ ) فنجاه الله مع إبراهيم إلى الأرض المقدسة أرض فلسطين ( الأنبياء : ٧١ ) فنزل في بعض بلادها ( وهي مدينة سدوم على ما في التواريخ و التوراة و بعض الروايات ) .

وكان أهل المدينة و ماوالاها من المدائن و قد سماها الله في كلامه بالمؤتفكات ( التوبة : ٧٠ ) يعبدون الأصنام ، و يأتون بالفاحشة : اللواط ، وهم أول قوم شاع فيهم ذلك ( الأعراف : ٨٠ ) حتى كانوا يأتون به في نواديهم من غير إنكار ( العنكبوت : ٢٩ ) ولم يزل تشيع الفاحشة فيهم حتى عادت سنة قومية ابتلت به عامتهم و تركوا النساء و قطعوا السبيل ( العنكبوت : ٢٩ ) .

فأرسل الله لوطا إليهم ( الشعراء : ١٦٢ ) فدعاهم إلى تقوى الله و ترك الفحشاء

والرجوع إلى طريق الفطرة وأنذرهم وخوفهم فلم يزددهم إلا اعتوا ولم يكن جوابهم إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وهددوه بالأخراج من بلدتهم وقالوا له : لكن لم تنته لتكونن من المخرجين (الشعراء : ١٦٧) وقالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ( النمل : ٥٦ ) .

٢ - عاقبة أمرهم . لم يزل لوط عليه السلام يدعوهم إلى سبيل الله و ملازمة سنة الفطرة وترك الفحشاء وهم يصرون على عمل الخبائث حتى استقر بهم الطغيان و حقت عليهم كلمة العذاب فبعث الله رسلا من الملائكة المكرمين لإهلاكهم فذلوا أولا على إبراهيم عليه السلام وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط فجادلهم إبراهيم عليه السلام لعله يرد بذلك عنهم العذاب ، و ذكرهم بأن فيهم لوطا فردوا عليه بأنهم أعلم بموقع لوط وأهله ، وأنه قد جاء أمر الله و أن القوم آتيهم عذاب غير مردود ( العنكبوت : ٣٢ - هود : ٧٦ ) .

فمضوا إلى لوط في صور غلمان مرد ودخلوا عليه ضيفا فشق ذلك على لوط و ضاق بهم ذرعا لما كان يعلم من قومه أنهم سيتعرون لهما و أنهم غير تاركينهم البتة فلم يلبث دون أن سمع القوم بذلك و أقبلوا يهرعون إليه وهم يستبشرون و هجموا على داره فخرج إليهم و بالغ في وعظهم واستنارته فتوتهم ورشدهم حتى عرض عليهم بناته و قال : يا قوم إن هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونني في ضيفي ثم استغاث و قال : أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه أنه ليس لهم في بناته إربة و أنهم غير تاركين أضيافه البتة حتى أيس لوط و قال : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ( هود : ٨٠ ) .

قالت الملائكة عند ذلك يا لوط : إننا أرسل ربك طب نفسا إن القوم لن يصلوا إليك فطمسوا أعين القوم فعادوا عميانا يتخبطون و تفرقوا ( القمر : ٣٧ ) . ثم أمروا لوطا عليه السلام أن يسري بأهله من ليلته بقطع من الليل و يتبع أديبارهم ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنه مصيبتها ما أصابهم ، و أخبروه أنهم سيهلكون القوم مصبحين ( هود : ٨١ - الحجر : ٦٦ ) .

فأخذت الصيحة القوم مشرقين ، وأرسل الله عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين ، وقلب مدائنهم عليهم فجعل عاليها سافلها وأخرج من كان فيها من المؤمنين فلم يجد فيها غير بيت من المسلمين و هو بيت لوط و ترك فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ( الذاريات : ٣٧ - وغيرها ) .

و في اختصاص الإيمان و الإسلام ببيت لوط عليه السلام ، وشمول العذاب لمدائنهم دلالة - أولاً - على أن القوم كانوا كفاراً غير مؤمنين ، و - ثانياً - على أن الفحشاء ما كانت شائعة فيما بين الرجال منهم فحسب إذ لو كان الأمر على ذلك و النساء بريئات منها و كان لوط يدعو الناس إلى الرجوع إلى سبيل الفطرة و سنة الخلقة التي هي مواصلة الرجال و النساء لاتبعته عدة من النساء و اجتمعن حوله و آمن به طبعاً ، و لم يذكر من ذلك شيء في كلامه سبحانه .

و في ذلك تصديق ما تقدم في الأخبار المأثورة أن الفحشاء شاعت بينهم ، و اكتمى الرجال بالرجال باللواط ، و النساء بالنساء بالسحق .

٣ - شخصية لوط المعنوية . كان عليه السلام رسولا من الله إلى أهل المؤتفكات و هي مدينة سدوم و ما والاها من المدائن - و يقال : كانت أربع مداين : سدوم و عمورة و صوغر و صبوييم و قد أشر كه في جميع المقامات الروحية التي وصف بها أنبياء الكرام .

و ممّا وصفه به خاصّة ما في قوله : « و لوطا آتيناها حكما وعلما ونجيناها من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين و أدخلناهم في رحمتنا » من الصالحين « الأنبياء : ٧٥ .

٤ - لوط و قومه في التوراة . ذكرت <sup>(١)</sup> التوراة أن لوطا كان ابن أخي أبرام - إبراهيم - هاران بن تارخ و كان هو و أبرام في بيت تارخ في أور الكلدانيين ثم هاجر تارخ أورا قاصدا أرض الكنعانيين فأقام بلدة حاران و معه أبرام و لوط و مات هناك .

(١) الاصحاح الحادى عشر و الثانى عشر من سفر التكوين .

ثمَّ إِنَّ أبراَمَ بأمر من الربِّ خرج من حاران و معه لوط و لهما مال كثير و غلمان اكتسبا ذلك في حاران فأَتى أرض كنعان ، و كان يرتحل أبراَم ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب ثمَّ أَتى مصر ثمَّ صعد من هناك جنوباً نحو بيت إيل فأقام هناك .

و لوط السائر مع أبراَم أيضاً كان له غنم و بقر و خيام ولم يحتملها الأرض أن يسكنها و وقعت خصامة بين رعاة مواشيها فتفرقوا حذراً من وقوع النزاع و التشاجر فاختار لوط دائرة الأردن و سكن في مدن الدائرة و نقل خيامه إلى سدوم ، و كان أهل سدوم أشراراً و خطاة لدى الربِّ جدّاً ، و نقل أبراَم خيامه و أقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون .

ثمَّ وقعت حرب بين ملوك سدوم و عمورة و إدمة و صبوييم و صوغر من جانب و أربعة من جيرانهم من جانب ، انهزم فيها ملك سدوم و من معه من الملوك ، و أخذ العدو جميع أملاك سدوم و عمورة و جميع أطعمتهم ، و أسر لوط فيمن أسر و سبي جميع أمواله . و انتهى الخبر إلى أبراَم فخرج فيمن معه من الغلمان ، و كانوا يزيدون على ثلاث مائة فحاربهم و هزمهم ، و أنجى لوطاً و جميع أمواله من الأسر و السبي ، وردّه إلى مكانه الذي كان مقيماً فيه (ملخص ما في التوراة من صدر قصّة لوط) .

قالت التوراة <sup>(١)</sup> : و ظهر له - لأبراَم - الربُّ عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار . فرفع عينيه و نظرو إذا ثلاثة رجال واقفون لديه . فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة و سجد إلى الأرض . و قال : يا سيّد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك . ليؤخذ قليل ماء و اغسلوا أرجلكم و اتكؤا تحت هذه الشجرة . فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثمَّ تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت .

(١) الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين .

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال : أسرع بثلاث كيلات دقيقا سميدا اعجنني واصنعي خبز ملة ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخسا و جيداً وأعطاه المغلام فأسرع ليعمله . ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدماً لهم . و إذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا .

وقالوا له : أين سارة امرأتك فقال : هاهي في الخيمة فقال : إنني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن . و كانت سارة سامعة في باب الخيمة و هو وراءه . و كان إبراهيم و سارة شيخين متقدمين في الأيام . وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة في باطنها قائلة : أبعد فنائي يكون لي تنعم و سيدي قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة : أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت ؟ هل يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة و يكون لسارة ابن فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ، لأنها خافت . فقال : لا بل ضحكت .

ثم قام الرجال من هناك و تطلّعوا نحو سدوم ، و كان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم . فقال الرب : هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله ؟ و إبراهيم يكون أمة كبيرة و قويّة و يتبارك به جميع أمم الأرض . لأنني عرفته لكي يوصي بنيه و بيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برّاً وعدلاً لكي يأتي الرب لابراهيم بما تكلم به .

فقال الرب : إن صراخ سدوم و عمورة قد كثر و خطيئتهم قد عظمت جداً . أنزل و أرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ و إلا فاعلم . و انصرف الرجال من هناك و ذهبوا نحو سدوم . و أمّا إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب .

فتقدم إبراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه ؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم

حاشاك . أديان كل الأرض لا يصنع عدلا ؟ فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فأني أصفح عن الممكّن كلّهُ من أجلهم .

فأجاب إبراهيم وقال : إنني قد شرعت أكلّم المولى وأنا تراب ورماد ربّما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال الرب : لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاديكلمه أيضا وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال : إنني قد شرعت أكلّم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون فقال : لا أهلك من أجل العشرين .

فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرّة فقط عسى أن يوجد هناك عشرة فقال : لا أهلك من أجل العشرة . وذهب الربّ عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه .

فجاء <sup>(١)</sup> الملاك إلى سدوم مساء وكان لوط جالسا في باب سدوم فلمّا رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض . وقال : يا سيّدي ميلا إلى بيت عبدكما وبيتنا و اغسلا أرجلكما ثمّ تمكّرا و تذهبان في طريقكما فقلا : لابل في الساحة نبيت فألحّ عليهما جدّا فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة وخبز فطيرا فأكلا .

وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كلّ الشعب من أقصاها فنادوا لوطا وقالوا له : أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة ؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما . فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه . وقال : لا تفعلوا شرا يا إخوتي . هوذا لي ابنتان لم يعرفا رجلا أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . وأمّا هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئا لأنّهما قد دخلا تحت ظلّ سقفي .

(١) الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين .

فقالوا : ابعد إلى هناك . ثم قالوا : جاء هذا الإنسان ليتغرب و هو يحكم حكماً . الآن نفعل بك شرّاً أكثر منهما . فآلحوا على الرجل لوط جداً وتقدّموا ليكسروا الباب فمدّ الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت و أغلقا الباب و أمّا الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب .

و قال الرجلان للوط : من لك أيضاً ههنا أصهارك و بنيك و بناتك و كلّ من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الربّ فأرسلنا الربّ لنهلكهم . فخرج لوط و كلّم أصهاره الآخذين بناته و قال : قوموا اخرجوا من هذا المكان لأنّ الربّ مهلك المدينة فكان كمازح في أعين أصهاره .

و لمّا طلع الفجر كان الملاكان يعجزان لوطاً قائلين : قم خذ امرأتك و ابنتيك الموجودتين لئلاّ تهلك باثم المدينة . و لمّا توانى أمسك الرجلان بيده و بيد امرأته و بيد ابنتيه لشفقة الربّ عليه و أخرجاه و وضعاه خارج المدينة .

و كان لمّا أخرجاهم إلى خارج أنّه قال : اهرب لحياتك . لا تنظر إلى ورائك ولا تتقف في كلّ الدائرة . اهرب إلى الجبل لئلاّ تهلك فقال لهما لوط : لا ياسيد هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك و عظمت لطفك الذي صنعت إليّ باستبقاء نفسي . و أنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعلّ الشرّ يدركني فأموت . هو ذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها . وهي صغيرة أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة فتحيا نفسي . فقال له : إنّني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها . أسرع اهرب إلى هناك لأنّي لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتّى تجبىء إلى هناك - لذلك دعي اسم المدينة صوغر .

و إذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الربّ على سدوم و عمورة كبريتاً و ناراً من عند الربّ من السماء . و قلب تلك المدن و

كلّ الدائرة وجميع سكّان المدن و نبات الأرض . و نظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح .

و بكرّ إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الربّ و تطلّع نحو سدوم و عموره و نحو كلّ أرض الدائرة . و نظر و إذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون . و حدث لمّا أخرج الله مدن الدائرة أنّ الله ذكر إبراهيم . و أرسل لوطا من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط .

و صعد لوط من صوغر و سكن في الجبل و ابنتاه معه لأنّه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو و ابنتاه . و قالت البكر للصغيرة : أبو ناقد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كلّ الأرض هلمّ نسقي أبانا خمرا و نضطجع معه فنحيي من أبيئنا نسلا . فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة . و دخلت البكر و اضطجعت مع أبيها و لم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها و حدث في الغد أنّ البكر قالت للصغيرة إنّي قد اضطجعت البارحة مع أبي . نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبيئنا نسلا . فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا . و قامت الصغيرة و اضطجعت معه . و لم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما .

فولدت البكر ابنا و دعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم والصغيرة أيضا ولدت ابنا و دعت اسمه بن عمّى و هو أبو بني عمّون إلى اليوم . انتهى .

هذا ما قصّته التوراة في لوط و قومه نقلناه على طوله ليتّضح به ما تخالف القرآن الكريم من وجه القصة و من وجوه غيرها .

ففيها كون الملك المرسل للبشرى و العذاب ملكين اثنين . و قد عبّر القرآن بالرسل - بلفظ الجمع و أقلّه ثلاثة -

و فيها أنّ أضياف إبراهيم أكلوا ممّا صنعه و قدّمه إليهم ، و القرآن ينفي ذلك و يقصّ أنّ إبراهيم خاف إذ رأى أنّ أيديهم لاتصل إليه .



و فيها : إثبات بنتين للوط ، و القرآن يعبر بلفظ البنات . و فيها كيفية إخراج الملائكة لوطا و كيفية تعذيب القوم و صيرورة المرأة عمودا من ملح و غير ذلك .

و فيها نسبة التّجسّم صريحة إلى الله سبحانه ، و ما ذكرته من قصّة لوط مع بنتيه أخيرا ، و القرآن ينزّه ساحه الحقّ سبحانه عن التّجسّم و يبرّئ أنبياءه و رسله عن ارتكاب ما لا يليق بساحة قدسهم .





وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنفَعُوكُمُ الْمُكْيَالُ وَالْمِيزَانُ إِنِّي أُرِيكُمْ بُخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٣) وَيَا قَوْمِ اتَّقُوا الْمُكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٤) بَقِيَتْ إِلَهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ فِعْلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ ارْهَقُوا أَعْنَ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا مِنْهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ

رَقِيبٌ (٩٣) وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ (٩٤) كَانَ لَمْ يَقْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعَثْتُ ثَمُودَ (٩٥) .

### ﴿بيان﴾

تذكر الآيات قصّة شعيب عليه السلام و قومه وهم أهل مدين ، و كانوا يعبدون الأصنام ، و كان قدشاع التطفيف في الكيل والوزن عندهم واشتدّ الفساد فيهم فأرسل الله سبحانه شعيبا عليه السلام إليهم فدعاهم إلى التوحيد و توفية الميزان و المكيال بالقيسط وترك الفساد في الأرض ، و بشرهم وأنذرهم و بالغ في عظمتهم و قد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : كان شعيب خطيب الأنبياء .

فلم يجبه القوم إلّا بالردّ و العصيان ، هدّوه بالرجم و الطرد من بينهم و بالغوا في إيذائه وإيذاء شُرذمة من الناس آمنوا به و صدّهم عن سبيل الله و داموا على ذلك حتّى سأل الله أن يقضي بينه وبينهم فأهلكهم الله تعالى .

**قوله تعالى :** « وإلى مدين أخاهم شعيبا » إلى آخر الآية . عطف على ما تقدّمه من قصص الأنبياء و أممهم ، و مدين اسم مدينة كان يسكنها قوم شعيب ففي نسبة إرسال شعيب إلى مدين و كان مرسلًا إلى أهله نوع من المجاز في الإسناد كقولنا : جرى الميزان ، و في عدّ شعيب عليه السلام أخًا لهم دلالة على أنّه كان ينتسب إليهم .

و قوله : « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » تقدّم تفسيره في نظائره .

و قوله : « ولا تنقصوا المكيال و الميزان » المكيال و الميزان اسما آلة بمعنى مايكال به و ما يوزن به ، و لا يوصفان بالنقص وإنّما يوصف بالنقص كالزيادة و المساواة المكيل و الموزون فنسبة النقص إلى المكيال و الميزان من المجاز العقليّ .

وفي تخصيص نقص المكيال والميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالة على شيوعه بينهم وإقبالهم عليه وإفراطهم فيه بحيث ظهر فسادهم وبان سيئ أثره فأوجب ذلك شدة اهتمام به من داعي الحق فدعاهم إلى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي. وقوله : « إنني أراكم بخير » أي أشاهدكم في خير ، وهو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال وسعة الرزق والرخص والخصب فلا حاجة لكم إلى نقص المكيال والميزان ، واختلاس اليسير من أشياء الناس طمعا في ذلك من غير سبيله المشروع وظلما وعتوا ، وعلى هذا فقلوه : « إنني أراكم بخير » تعليل لقلوه : « ولا تمتصوا المكيال والميزان » .

ويمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعناية الله معنيون بنعمه آتاكم عقلا ورشدا ورزقكم رزقا فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلهة من دونه وتشرخوا به غيره ، وأن تقسدا في الأرض بنقص المكيال والميزان ، وعلى هذا يكون تعليلا لما تقدمه من الجملتين أعني قوله : « اعبدوا الله » الخ وقوله : « ولا تمتصوا » الخ كما أن قوله : « وإنني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » كذلك .

فمحصل قوله : « إنني أراكم » إلى آخر الآية أن هناك رادعين يجب أن يردعكم عن معصية الله : أحدهما : أنكم في خير ولا حاجة لكم إلى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها . و ثانيهما : أن وراء مخالفة أمر الله يوما محيطا يخاف عذابه .

وليس من البعيد أن يراد بقوله : « إنني أراكم بخير » أنني أراكم برؤية خير أي أنظر إليكم نظر الناصح المشفق الذي لا يصاحب نظره إلا الخير ولا يريد بكم غير السعادة ، وعلى هذا يكون قوله : « وإنني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » كعطف التفسير بالنسبة إليه .

وقوله : « وإنني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » يشير به إلى يوم القيامة أو يوم نزول عذاب الاستئصال ومعنى كون اليوم - وهو يوم القضاء بالعذاب - محيطا أنه لا مخرج منه ولا مفر ولا ملاذ من دون الله فلا يدفع فيه ناصر ولا معين ، ولا ينفع

فيه توبة ولا شفاعاة ، ويؤل معنى الإحاطة إلى كون العذاب قطعياً لا مناص منه ، و معنى الآية أن للكفر والفسوق عذاباً غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك .

**قوله تعالى :** « ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم »

الخ الإيفاء إعطاء الحقّ بتمامه و البخس النقص كرّر القول في المكيال و الميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغة في الاهتمام بأمر لا غنى لمجتمعهم عنه ؛ وذلك أنّه دعاهم أولاً إلى الصلاح بالنهي عن نقص المكيال و الميزان ، وعاد ثانياً فأمر بإيفاء المكيال و الميزان و نهى عن بخس الناس أشياءهم إشارة إلى أن مجرد التجرد عن نقص المكيال والميزان لا يكفي في إعطاء هذا الأمر حقّه - وإنّما نهى عنه أو لا تكون معرفة اجمالية هي كالمقدّمة لمعرفة التكليف تفصيلاً - بل يجب أن يوفي الكائل والوازن مكياله وميزانه و يعطيهما حقهما ولا يبخسا ولا ينقصا الأشياء المنسوبة إلى الناس بالمعاملة حتّى يعلموا أنّهما أدّيا إلى الناس أشياءهم و ردّاً إليهم مالهم على ما هو عليه .

وقوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » قال الراغب : العيث و العثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلّا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسّاً و العثي فيما يدرك حكماً يقال : عثي يعثى عثياً ، وعلى هذا « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » وعثا يعثو عثوا . انتهى .

وعلى هذا فقوله : « مفسدين » حال من ضمير « لا تعثوا » لا فادة التأكيد نظير ما يفيد قولنا : لا تنفسدوا إفساداً .

والجملة أعني قوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » نهى مستأنف عن الفساد في الأرض من قتل أو جرح أو أيّ ظلم ماليّ أو جاهيّ أو عرضيّ لكن لا يبعد أن يستفاد من السياق كون الجملة عطفاً تفسيريّاً للنهي السابق فيكون نهياً تأكيدياً عن التنظيف ونقص المكيال والميزان لأنّه من الفساد في الأرض .

بيان ذلك أن الاجتماع المدنيّ الدائر بين أفراد النوع الإنسانيّ مبنيّ على المبادلة حقيقة فما من مواصلة ومراعاة بين فردين من أفراد النوع إلّا وفيه إعطاء و

أخذ فلا يزال المجتمعون يتعاونون في شؤون حياتهم يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يماثله أو يزيد عليه ، ويدفع إليه نفعا ليجذب منه إلى نفسه نفعا وهو المعاملة والمبادلة .

ومن أظهر مصاديق هذه المبادلة المعاملات المالية وخاصة في الأمتعة التي لها حجم أو وزن مما يكتال أو يوزن فإن ذلك من أقدم ما تنبّه الإنسان لوجوب إجراء سنة المبادلة فيه .

فالمعاملات المالية وخاصة البيع والشراء من أركان حياة الإنسان الاجتماعية يقدر الواحد منهم ما يحتاج إليه في حياته الضرورية بالكيل أو الوزن ، وما يجب عليه أن يبذله في حذائه من الثمن ثم يسير في حياته بانياً لها على هذا التقدير والتدبير .

فإذا خانته معاملته ونقص المكيال والميزان من حيث لا يشعر هو فقد أفسد تدبيره وأبطل تقديره ، واختل بذلك نظام معيشتة من الجهتين معاً من جهة ما يقنيه من لوازم الحياة بالاشتراء ومن جهة ما يبذله من الثمن الزائد الذي يتعب نفسه في تحصيله بالاكتساب فيسلب إصابة النظر وحسن التدبير في حياته ويتخبط في مسيرها خبط العشواء وهو الفساد .

وإذا شاع ذلك في مجتمع فقد شاع الفساد فيما بينهم ولم يلبثوا دون أن يسلبوا الوثوق والاطمئنان واعتماد بعضهم على بعض ويرتجل بذلك الأمن العام من بينهم وهو النكبة الشاملة التي تحيط بالصالح والطالح والمطغف والأذي يوفي المكيال والميزان على حد سواء ، وعاد بذلك اجتماعهم اجتماعاً على المكر وإفساد الحياة لا اجتماعاً على التعاون لسعادتها قال تعالى : « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً » أسرى : ٣٥ .

**قوله تعالى :** « بقيّة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » البقيّة بمعنى الباقي والمراد به الربح الحاصل للبائع وهو الذي يبقى له بعد تمام المعاملة فيضعه في سبيل حوائجه ، وذلك أن المبادلة وإن لم يوضع بالقصد الأول

على أساس الاسترباح ، وإنما كان الواحد منهم يقتني شيئاً من متاع الحياة ، فإذا كان يزيد على ما يحتاج إليه بدل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج إليه ولا يملكه ثم أخذت نفس التجارة و تبدل الأمتعة من الأثمان حرفة يكتسب بها المال ويقتنى بها الثروة فأخذ الواحد منهم متاعاً من نوع واحد أو أنواع شتى وعرضه على أرباب الحاجة للمبادلة ، و أضاف إلى رأس ماله فيه شيئاً من الربح بإزاء عمله في الجمع و العرض ورضي بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل أمر المبادلة عليهم فللتاجر في تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشتهم ويحول إليه ثروة يقتنيها ويقيم بها صلب حياته .

فالمراد أنّ الربح الذي هو بقیة إلهیة هداكم الله إليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذي تقتنونه من طريق التطفيف ونقص المكيال والميزان إن كنتم مؤمنين فإنّ المؤمن إنّما ينفع من المال بالمشروع الذي ساقه الله إليه من طريق حلّه ، وأما غير ذلك ممّا لا يرتضيه الله ولا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه ولا حاجة له إليه .

وقيل : إنّ الاشتراط بالإيمان في قوله : « إن كنتم مؤمنين » للدلالة على اشتراط الإيمان للمعلم بذلك لالأصله والمعنى إن كنتم مؤمنين علمتم صحة قلبي : إنّ بقیة الله خير لكم .

وقيل معنى الآية ثواب طاعة الله - بكون البقیة بمعنى ثواب الطاعة الباقي - خير لكم إن كنتم مؤمنين . وقيل غير ذلك .

و قوله : « وما أنا عليكم بحفيظ » أي وما يرجع إلى قدرتي شيء ممّا عندكم من نفس أو عمل أو طاعة أو رزق و نعمة فإنّما أنا رسول ليس عليه إلّا البلاغ ، لكم أن تختاروا ما فيه رشدكم و خيركم أو تسقطوا في مهبط الهلكة من غير أن أقدر على جلب خير إليكم أو دفع شر منكم فهو كقوله تعالى : « فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » الأنعام : ١٠٤ .

**قوله تعالى :** « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » إلى آخر

الآية ، ردّ منهم لحجة شعيب عليه ، وهو من الطف التريّكيب ، ومغزى مرادهم أنّا في حرّية فيما نختاره لأنفسنا من دين أو نتصرّف به في أموالنا من وجوه التصرف و لست تملكنا حتّى تأمرنا بكلّ ما أحببت أو تنهانا عن كلّ ما كرهت فإن ساءك شيء ممّا تشاهد ممّا بما تصلّي وتقرّب إلى ربّك و أردت أن تأمر و تنهى فلا تتعدّ نفسك لأنّك لا تملك إلّا إيّاها .

وقد أدّوا مرادهم هذا في صورة بدیعة شوبة بالنهكّم واللوم معا ومسبو كفي قالب الاستفهام الانكارى وهو أنّ الذي تريده ممّا من ترك عبادة الأصنام ، وترك ماشئنا من التصرف في أموالنا هو الذي بعثناك إليه صلاتك وشوّهته في عينك فأمرتك به لما أنّها ملكتك لكنّك أردت ممّا ما أرادته منك صلاتك و لست تملكنا أنت ولا صلاتك لأنّنا أحرار في شعورنا وإرادتنا لنأمن نختار أيّ دين شئنا ونتصرّف في أموالنا أيّ تصرّف أردنا من غير حجر ولا منع ولم ننتحل إلّا ديننا الذي هو دين آبائنا ولم نتصرّف إلّا في أموالنا ولا حرج على ذي مال في ماله .

فما معنى أن تأمرك بإبائك صلاتك بشيء ونكون نحن الممثلون لما أمرتك به ؟ وبعبارة أخرى ما معنى أن تأمرك صلاتك بفعلنا القائم بنا دونك ؟ فهل هذا إلا سفها من الرأي ؟ وإنّك لأنّك الحليم الرشيد والحليم لا يعجل في زجر من يراه مسيئا وانتقام من يراه مجرما حتّى ينجلي عليه وجه الصواب ، والرشيد لا يقدم على أمر فيه غي وضلال فكيف أقدمت على مثل هذا الأمر السفهيّ الذي لا صورة له إلا الجهالة والغى ؟

وقد ظهر بهذا البيان أوّلا : أنّهم إنّما نسبوا الأمر إلى الصلاة لما فيها من البعث و الدعوة إلى معارضة القوم في عبادتهم الأصنام ونقصهم في المكيال والميزان ، وهذا هو السرّ في تعبيرهم عن ذلك بقولهم : «أصلاتك تأمرك أن تترك» الخ دون أن يقولوا : أصلاتك تنهاك أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ مع أنّ التعبير عن المنع بالنهي عن الفعل أقرب إلى الطبع من التعبير بالأمر بالترك ولذلك عبّر عنه شعيب بالنهي في جوابه عن قولهم إذ قال : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنّها كم عنه » ولم يقل



إلى ما أمركم بتركه . والمراد - على أي حال - منعه إيتاهم عن عبادة الأصنام و التطفيف فافهم ذلك فإنه من لطائف هذه الآية التي ملئت لطافة وحسنا .

وثانياً : أنهم إنما قالوا : « أن نترك ما يعبد آباؤنا » دون أن يقولوا : أن نترك آلهتنا أو أن نترك الأوثان ليشيروا بذلك إلى الحجّة في ذلك وهي أن هذه الأصنام دام على عبادتها آباؤنا فهي سنّة قوميّة لنا ، ولا ضير في الجري على سنّة قوميّة ورثها الخلف من السلف ، ونشأ عليها الجيل بعد الجيل فإننا نعبد آلهتنا وندوم على ديننا وهو دين آباؤنا ونحفظ رسماً ملبياً عن الضيعة .

و ثالثاً : أنهم إنما قالوا : « أن نفعل في أموالنا » فذكروا الأموال مضافة إلى أنفسهم ليكون في ذلك إيماء إلى الحجّة فإن الشيء إذا صار مالاً لأحد لم يشكّ ذوريب في أن له أن يتصرف فيه وليس لغيره ممن يعترف بمال يستهله أن يعارضه في ذلك ، و للمرء أن يسير في مسير الحياة و يتدبّر في أمر المعيشة بما يستطيعه من الحذق و الاحتيا ، ويهديه إليه الذكاء والكياسة .

ورابعاً : أن قولهم : « أصلاتك تأمرك - إلى قوله - إنك لانت الحليم الرشيد » مبني على التهكم والاستهزاء إلا أن التهكم في تعليقهم أمر الصلاة شعبياً على تركهم ما يعبد آباؤهم ، وكذا في نسبة الأمر إلى الصلاة لا غير ، و أمّا نسبة الحلم و الرشد إليه فليس فيها تهكم واستهزاء ، ولذلك أكد قوله : « إنك لانت الحليم الرشيد » بأنّ اللام وإتيان الخبر جملة اسميّة ليكون أقوى في إثبات الحلم و الرشد له فيصير أبلغ في ملامته و الإنكار عليه ، وأنّ الذي لاشكّ في حلمه ورشده قبيح عليه أن يقدم على مثل هذا الأمر السفهوي ، وينتهز على سلب حرّيّة الناس و استقلالهم في الشعور والإرادة .

و ظهر بذلك أن ما ذكره كثير منهم أنهم وصفوه بالحلم و الرشد على سبيل الاستهزاء يعنون به أنه موصوف بضدّهما وهو الجهالة و الغي . ليس بصواب .

**قوله تعالى :** « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي و رزقني منه رزقاً حسناً » إلى آخر الآية . المراد بكونه على بينة من ربّه كونه على آية بيّنة وهي

آية النبوة والمعجزة الدالة على صدق النبي في دعوى النبوة ، والمراد بكونه رزق من الله رزقاً حسناً أن الله آتاه من لدنه وحي النبوة المشتمل على أصول المعارف والشرائع ، وقد مرّ توضيح نظير هاتين الكلمتين فيما تقدّم .

والمعنى أخبروني إن كنت رسولا من الله إليكم وخصّني بوحى المعارف والشرائع وأيدني بآية بيّنة يدلّ على صدق دعواي فهل أنا سفيه في رأيي ؟ وهل ما أدعوكم إليه دعوة سفهية ؟ وهل في ذلك تحكّم منّي عليكم أو سلب منّي لحرّيتكم ؟ فإنّما هو الله المالك لكلّ شيء ولستم بأحرار بالنسبة إليه بل أنتم عباده يأمركم بما شاء ، وله الحكم وإليه ترجعون .

وقوله : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » تعديّة المخالفة بإلى لتضمينه معنى ما يتعدّى بها كالليل ونحوه ؟ والتقدير : أخالفكم مائلا إلى ما أنهاكم عنه أو أميل إلى ما أنهاكم عنه مخالفا لكم .

والجملة جواب عن ما اتّهموه به أنّه يريد أن يسلب عنهم الحرّية في أعمالهم ويستعبدهم ويتحكّم عليهم ، ومحصّله أنّه لو كان مريداً ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه ، وهو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتّهموه به وإنّما يريد الإصلاح باستطاع . توضيحه أنّ الصنع الإلهي وإن أنشأ الإنسان مختاراً في فعله حرّاً في عمله له أن يميل في مظانّ العمل إلى كلّ من جانبي الفعل والترك فله بحسب هذه النشأة حرّية تامّة بالقياس إلى بني نوعه الذين هم أمثاله وأشباهه في الخلقة لهم ماله وعليهم ما عليه فليس لأحد أن يتحكّم على آخر عن هوى من نفسه .

إلا أنّه أفطره على الاجتماع فلا تتمّ له الحياة إلّا في مجتمع من أفراد النوع يتعاون فيه الجميع على رفع حوائج الجميع ثم يختصّ كلّ منهم بماله من نصيب بمقدار ماله من الزنة الاجتماعيّة ، ومن البديهي أنّ الاجتماع لا يقوم على ساق إلّا بسنن وقوانين تجري فيها ، وحكومة يتولّاها بعضهم تحفظ النظم وتجري القوانين كلّ ذلك على حسب ما يدعو إليه مصالح المجتمع .

فلا مناص من أن يفدي المجتمعون بعض حرّيتهم قبال القانون والسنة

الجارية بالحرمان من الانطلاق و الاسترسال ليسعدوا لذلك بنيل بعض مشتهياتهم و إحياء البعض الباقي من حرّيتهم .

فالإنسان الاجتماعي لا حرّية له قبال المسائل الحيويّة التي تدعو إليهم مصالح المجتمع و منافع ، و الذي يتحكّمه الحكومة في ذلك من الأمر و النهي ليس من الاستعباد و الاستكبار في شيء ، إذ إنّها إنّما يتحكّم فيما لا حرّية للإنسان الاجتماعي فيه ، و كذا الواحد من الناس المجتمعين إذا رأى من أعمال إخوانه المجتمعين ما يضرّ بحال المجتمع أو لا ينفع لا بطلاله ركنا من أركان المصالح الأساسيّة فيها فبعثه ذلك إلى وعظهم بما يرشدهم إلى اتّباع سبيل الرشد فأمرهم بما يجب عليهم العمل به ونهاهم عن اقتراف ما يجب عليهم الانتهاء عنه لم يكن هذا الواحد متحكّما عن هوى النفس مستعبدا للأحرار المجتمعين من بني نوعه فإنّه لا حرّية لهم قبال المصالح العالية و الأحكام اللازمة المراعاة في مجتمعهم ، و ليس ما يلقيه إليهم من الأمر و النهي في هذا الباب أمرا أو نهيا له في الحقيقة بل كان أمرا و نهيا ناشئين عن دعوة المصالح المذكورة قائمين بالمجتمع من حيث هو مجتمع بشخصيّته الوسيعة ، و إنّما الواحد الذي يلقي إليهم الأمر و النهي بمنزله لسان ناطق لا يزيد على ذلك . و أمانة ذلك أن يأتمر هو نفسه بما يأمر به و ينتهي هو نفسه عما ينهى عنه من غير أن يخالف قوله فعله و نظره عمله ، إذ الإنسان مطبوع على التحفّظ على منافع و رعاية مصالحه فلو كان فيما يدعو إليه غيره من العمل خير و هو مشترك بينهم لم يخالفه بشخصه ، ولم يترك لنفسه ما يستحسنه غيره ، ولذلك قال ﷺ فيما ألّقاء إليهم من الجواب : « و ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » و قال أيضا - كما حكاه الله تميماً للفائدة و دفعا لأيّ تهمة تتوجّه إليه : « و ما أسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على ربّ العالمين » الشعراء : ١٨٠ .

فهو ﷺ يشير بقوله : « و ما أريد أن أخالفكم » إلخ إلى أن الذي ينهاهم عنه من الأمور التي فيها صلاح مجتمعهم الذي هو أحد أفرادها ، و يجب على الجميع مراعاتها و ملازمتها ، و ليس اقتراحا استعباديا عن هوى من نفسه ، و لذلك عقّبه

بقوله : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » .

و ملخص المقام أنهم لما سمعوا من شعيب عليه السلام الدعوة إلى ترك عبادة الأصنام والتطفيف رده بأن ذلك اقتراح منه يخالف لما هم عليه من الحرّية الإنسانية التي تسوّغ لهم أن يعبدوا من شاؤوا ويفعلوا في أموالهم ما شاؤوا .

فردّ عليهم شعيب عليه السلام بأنّ الذي يدعوهم إليه ليس من قبل نفسه حتّى ينافي مسائلهم ذلك حرّيتهم ويبطل به استقلالهم في الشعور والإرادة بل هو رسول من ربهم إليهم وله على ذلك آية بيّنة ، والذي أتاهاهم به من عند الله الذي يملكهم ويملك كلّ شيء ، وهم عباده لحرّية لهم قبالة ، ولا خيرة لهم فيما يريد منكم .

على أنّ الذي ألقاه إليهم من الأمور التي فيه صلاح مجتمعاتهم وسعادة أنفسهم في الدنيا والآخرة ، وأمارة ذلك أنّه لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه بل هو مثلهم في العمل به ، وإنّما يريد الإصلاح ما استطاع ، ولا يريد منهم على ذلك أجرا إن أجره إلا على ربّ العالمين .

وقوله : « وما توفّقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » في مقام الاستثناء من الاستطاعة فإنّه عليه السلام لما ذكر لهم أنّه يريد إصلاح مجتمعاتهم بالعلم النافع والعمل الصالح على مقدار ماله من الاستطاعة وفي ضوءها أثبت لنفسه استطاعة وقدرة وليست للعبد باستقلاله وحيال نفسه استطاعة دون الله سبحانه أتمّ ما في كلامه من النقص والقصور بقوله : « وما توفّقي إلا بالله » أي إنّ الذي يترشّح من إرادتي باستطاعة منّي من تدبير أمور مجتمعاتكم وتوفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجة لسعادته إنّما هو بالله سبحانه لاغنى عنه ولا مخرج من إحاطته ولا استقلال في أمر دونه فهو الذي أعطاني ما هو عندي من الاستطاعة ، وهو الذي يوفّق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه وتوفّقي به .

بيّن عليه السلام هذه الحقيقة ، واعترف بأنّ توفيقه بالله ، وذلك من فروع كونه تعالى هو الفاطر لكلّ نفس والحافظ عليها والقائم على كلّ نفس بما كسبت كما قال : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض » الفاطر : ١ ، وقال : « وربّك على كلّ

شيء حفيظ « السبا : ٢١ ، وقال : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ ، وقال : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » الفاطر : ٤١ ومحصّله أنّه تعالى هو الذي أبدع الأشياء وأعمالها والروابط التي بينها وأظهرها بالوجود ، وهو الذي قبض على كل شيء فأمسكه وأمسك آثاره والروابط التي بينها أن تزول وتغيب وراءستر البطلان .

ولازم ذلك أنّه تعالى وكيل كل شيء في تدبير أموره فهي منسوبة إليه تعالى في تحقيقها وتحقيق الروابط التي بينها لما أنّه محيط بها قاهر عليها ، ولها مع ذلك نسبة إلى ذلك الشيء بأذنه تعالى .

ومن الواجب للعبد العالم بمقام ربّه العارف بهذه الحقيقة أن يمثلها بإنشاء التوكل على ربّه والإبادة والرجوع إليه ، ولذلك لما ذكر شعيب عليه السلام أن توفيقه بالله عقبه بإنشاء التوكل والإبادة فقال : « عليه توكلت وإليه أُنِيب » .

## ﴿ كلام في معنى حرية الانسان في عمله ﴾

الإنسان بحسب الخلقة موجود ذو شعور وإرادة له أن يختار لنفسه ما يشاء من الفعل وبعبارة أخرى له في كل فعل يقف عليه أن يختار جانب الفعل وله أن يختار جانب الترك فكل فعل من الأفعال الممكنة الإتيان إذا عرض عليه كان هو بحسب الطبع واقفا بالنسبة إليه على نقطة يلتقي فيها طريقتان : الفعل والترك فهو مضطر في التلبس والاتصاف بأصل الاختيار لكنّه مختار في الأفعال المنتمية إليه الصادرة عنه باختياره أي إنّّه مطلق العنان بالنسبة إلى الفعل والترك بحسب الفطرة غير مقيّد بشيء من الجانبين ولا معلول ، وهو المراد بحرّيّة الإنسان تكويناً .

ولازم هذه الحرّيّة التكوينية حرّيّة أخرى تشريعية يتقلّد بها في حياته الاجتماعية وهو أنّ له أن يختار لنفسه ما شاء من طرق الحياة ويعمل بما شاء من العمل ، وليس لأحد من بني نوعه أن يستعلي عليه فيستعبده ويتملك إرادته وعمله

فيحمل بهوى نفسه عليه ما يكرهه فإنَّ أفراد النوع أمثال لكلِّ منهم ما لغيره من الطبيعة الحرَّة قال تعالى : « ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤ وقال : « وما كان لبشر - إلى أن قال - ثمَّ يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله » آل عمران : ٧٩ .

هذا ما للإنسان بالقياس إلى أمثاله من بني نوعه ، و أمّا بالقياس إلى العلل و الأسباب الكونية التي أو جدت الطبيعة الإنسانية فلا حرِّيَّة له قبالها فإنَّها تملكه و تحيط به من جميع الجهات و تقلِّبه ظهراً لبطن ، وهي التي با نشائها و نفوذ أمرها فعلت بالإنسان ما فعلت فأظهرته على ما هو عليه من البنيان و الخواص من غير أن يكون له الخيرة من أمره فيقبل ما يحبُّه و يردُّ ما يكرهه بل كان كما أريد لا كما أراد حتَّى أن أعمال الإنسان الاختيارية وهي ميدان الحرِّيَّة الإنسانية إنَّما تطيع الإنسان فيما أذنت فيه هذه العلل و الأسباب فليس كلُّ ما أحبُّه الإنسان و أراد بواقعه ، ولا هو في كلِّ ما اختاره لنفسه بموفق له ، و هو ظاهر .

و هذه العلل و الأسباب هي التي جهّزت الإنسان بجهازات تدكِّره حوائجه و نواقص وجوده ، و تبعثه إلى أعمال فيها سعادته و ارتفاع نواقصه و حوائجه كالغاذية مثلاً التي تدكِّره الجوع و العطش و تهديه إلى الخبز و الماء لتحصيل الشبع والريِّ و هكذا سائر الجهازات التي في وجوده .

ثمَّ إنَّ هذه العلل و الأسباب أوجبت إيجاباً تشريعياً على الإنسان الفرد أمورا ذات مصالح واقعية لا يسعه إنكارها ولا الاستنكاف بالاستغناء عنها كالأكل و الشرب و الإيواء و الاتِّقاء من الحرِّ و البرد و الدفاع تجاه كلِّ ما يصادُّ منافع وجوده .

ثمَّ أفطرته بالحياة الاجتماعية فأذعن بوجوب تأسيس المجتمع المنزليِّ و المدنيِّ و السير في مسير التعاون و التعامل ، و يضطرُّه ذلك إلى الحرمان عن موهبة الحرِّيَّة من جهتين :

إحداهما : أنَّ الاجتماع لا يتمُّ من الفرد إلاَّ با عطاءه الأفراد المتعاونين له حقوقاً

متقابلة محترمة عنده ليعطوه بإزاءها حقوقا يحترمونها و ذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له ، و ينفعهم بمقدار ما ينتفع بهم ، و يحرم عن الانطلاق و الاسترسال في العمل على حسب ما يحرمهم فليس له أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد بل هو حر فيما لا يزاحم حرّية الآخرين ، و هذا حرمان عن بعض الحرّية للحصول على بعضها .

و ثانيتهما : أن المجتمع لا يقوم له صلب دون أن يجري فيها سنن و قوانين يتسلّمها الأفراد المجتمعون أو أكثرهم تضمن تلك السنن و القوانين منافعهم العامّة بحسب ما للاجتماع من الحياة الراقية أو المنحطة الرديّة ، ويستحفظ بها مصالحهم العالية الاجتماعيّة .

و من المعلوم أن احترام السنن و القوانين يسلب الحرّية عن المجتمعين في مواردّها فالذي يستنّ سنّة أو يقتنّ قانونا سواء كان هو عامّة المجتمعين أو المندوبين منهم أو السلطان أو كان هو الله و رسوله - على حسب اختلاف السنن و القوانين - يحرم الناس بعض حرّيتهم ليحفظ به البعض الآخر منها ، قال الله تعالى : « وربّك يخلق ما يشاء و يختار ما كان لهم الخيرة » القصص : ٦٨ ، و قال تعالى : « و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا » الأحزاب : ٣٦ .

فتلخص أن الإنسان إنمّا هو حرّ بالقياس إلى أبناء نوعه فيما يقترحونه لهوى من أنفسهم ، و أمّا بالنسبة إلى ما تقتضيه مصالحه الملزمة و خاصّة المصالح الاجتماعيّة العامّة على ما تهديه إليها و إلى مقتضياتها العلل و الأسباب فلا حرّية له البتّة ، ولا أن الدعوة إلى سنّة أو أيّ عمل يوافق المصالح الانسانيّة من ناحية القانون أو من بيده إجراؤه أو الناصح المتبرّع الذي يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر متمسّكا بحجّة بيّنة ، من التحكّم الباطل و سلب الحرّية المشروعة في شيء . ثمّ إنّ العلل و الأسباب المذكورة و ما تهدي إليه من المصالح مصاديق لإرادة الله سبحانه أو إذنه - على ما يهدي إليه و يبيّنه تعليم التوحيد في الإسلام - فهو سبحانه

المالك على الإطلاق ، و ليس لغيره إلا المملو كميّة من كلّ جهة ، ولا للإنسان إلا العبوديّة محضاً فما الكميّة المطلقة تسلب أيّ حرّيّة متوهّمة للإنسان بالنسبة إلى ربّه كما أنّها هي تعطيه الحرّيّة بالقياس إلى سائر بني نوعه كما قال تعالى : « أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤ .

فهو سبحانه الحاكم على الإطلاق و المطاع من غير قيد و شرط كما قال : « إن الحكم إلا لله » و قد أعطى حقّ الأمر و النهي والطاعة لرسله ولأولي الأمر المؤمنين من الأمّة الإسلاميّة فلا حرّيّة لأحد قبال كلمة الحقّ التي يأتون به و يدعون إليه قال تعالى : « أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم » النساء : ٥٩ و قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر » التوبة : ٧١ .

**قوله تعالى :** « و يا قوم لا يجرمكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح » الجرم بالفتح فالسكون - على ما ذكره الراغب - قطع الثمرة عن الشجر و قد استعير لكلّ اكتساب مكروه ، و الشقاق المخالفة و المعادة . والمعنى : احذروا أن يكتسب لكم مخالفتي و معاداتي بسبب ما أدعوكم إليه إصابة مصيبة مثل مصيبة قوم نوح و هي الغرق أو قوم هود و هي الريح العقيم أو قوم صالح و هي الصيحة و الرجفة .

و قوله : « و ما قوم لوط منكم ببعيد » أي لافضل كثيراً بين زمانهم و زمانكم و قد كانت الفاصلة الزمانيّة بين القومين أقلّ من ثلاثة قرون ، و قد كان لوط معاصراً لإبراهيم عليه السلام و شعيب معاصراً لموسى عليه السلام .

وقيل : المراد به نفي البعد المكاني ، و الإشارة إلى أنّ بلادهم الخربة قريبة منكم لقرب مدين من سدوم وهو بالأرض المقدّسة فالمعنى و مامكان قوم لوط منكم ببعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفة و آثارهم الباقية الظاهرة . والسياق لا يساعد عليه



والتقدير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل .

**قوله تعالى :** « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود » قد تقدم الكلام في معنى قوله : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه » أي استغفروا الله من ذنوبكم وارجعوا إليه بالإيمان به وبرسوله إن الله ذو رحمة ومودة يرحم المستغفرين التائبين ويحبهم .

وقد قال أوّلاً : « استغفروا ربكم » فأضاف الرب إليهم ثم قال في مقام تعليله : « إن ربي رحيم ودود » ولعل الوجه فيه أنه ذكر في مرحلة الأمر بالاستغفار والتوبة من الله سبحانه صفة ربوبيته لأنّها الصفة التي ترتبط به العبادة ومنها الاستغفار والتوبة ، وأضاف ربوبيته إليهم بقوله : « ربكم » لتأكيد الارتباط ولإشعار بأنه هو ربهم لامتدادها من الأبواب من دون الله .

وكان من حق الكلام أن يقول في تعليله : إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلاً ثناء على الله سبحانه ، وقد أثبت سابقاً أنه ربّ التوهم أضافه ثانياً إلى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم وربّي رحيم ودود .

على أن في هذه الإضافة معنى المعرفة والخبرة فتفيد تأييداً لصحة القول فإنه في معنى أنه تعالى رحيم ودود وكيف لا؟ وهو ربّي أعرفه بهذين الوصفين .

والودود من أسماء الله تعالى ، وهو فعول من الود بمعنى الحبّ إلا أن المستفاد من موارد استعماله أنه نوع خاص من المحبة وهو الحب الذي له آثار وتبعات ظاهرة كالإلفة والمرادة والإحسان قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً » الروم : ٢١ .

والله سبحانه يحبّ عباده ويظهر آثار حبه بإفضائه نعمه عليهم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » إبراهيم : ٣٤ فهو تعالى ودود لهم .

**قوله تعالى :** « قالوا يا شعيب مانفقه كثيراً مما تقول وإننا لنراك فينا ضعيفاً » إلى آخر الآية ، الفقه أبلغ من الفهم وأقوى ، ورهط الرجل عشيرته وقومه ، وقيل : إنه من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة وعلى هذا ففي قولهم : رهطك ، إشارة إلى قلتهم

وهوان أمرهم ، والرجم هو الرمي بالحجارة .

لما حاجهم شعيب عليه السلام وأعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون أن يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجّة فذكر واله :

« أو لأنّ كثيراً ممّا يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له ، وهذا كناية عن أنّه يتكلّم بما لا فائدة فيه .

ثمّ عقّبوه بقولهم : « وإنّا لنراك فينا ضعيفا » أي لانفهم ما تقول ولست قوياً فينا حتّى تضطرّنا قوّتك على الاجتهاد في فهم كلامك والاهتمام بأخذه ، والسمع والقبول له فإنّا لا نراك فينا إلّا ضعيفا لا يعبأ بأمره ولا يلتفت إلى قوله .

ثمّ هدّوه بقولهم : « ولولا رهطك لرجمناك » أي ولولا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكنّا نراعي جانبهم فيك ، وفي تقليل العشيرة إيحاء إلى أنّهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير أن يبالوا بعشيرته ، وإنّما كفّهم عن قتله نوع احترام وتكريم منهم لعشيرته .

ثمّ عقّبوه بقولهم : « وما أنت علينا بعزیز » تأكيداً لقولهم : « لولا رهطك لرجمناك » أي لست بقويّ منيع جانباً علينا حتّى يمنعنا ذلك من قتلك بشرّ القتل ، وإنّما يمنعنا رعاية جانب رهطك . فمحصل قولهم إهانة شعيب وأنّهم لا يعبؤون به ولا بما قال ، وإنّما يراعون في ترك التعرّض له جانب رهطه .

**قوله تعالى :** « قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله واتّخذتموه وراءكم ظهريّاً » الظهريّ نسبة إلى الظهر بفتح الظاء المعجمة وإنّما غير بالنسب وهو الشئ الذي وراء الظهر فيترك نسياً منسياً يقال : اتّخذته وراءه ظهريّاً أي نسيه ولم يذكره ولم يعتن به .

وهذا نقض من شعيب لقولهم : « ولولا رهطك لرجمناك » أي كيف تعزّزون رهطي وتحترمون جانبهم ، ولا تعزّزون الله سبحانه ولا تحترمون جانبه وإنّي أنا الذي أدعوكم إليه من جانبه ؟ فهل رهطي أعزّ عليكم من الله ؟ وقد جعلتموه نسياً

منسيًا وليس لكم ذلك وما كان لكم أن تفعلوه إنَّ ربِّي بما تعملون محيط بما له من الإحاطة بكلِّ شيء وجوداً وعلماً وقدرة . وفي الآية طعن في رأيهم بالسفه كما طعنوا في الآية السابقة في رأيه بالهوان .

**قوله تعالى :** « ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنِّي عامل » إلى آخر الآية قال في المجمع : المكانة الحال التي يتمكّن بها صاحبها من عمل . انتهى وهو في الأصل - كما قيل - من مكن مكانة كضخم ضخامة إذا قوي على العمل كلَّ القوة ويقال : تمكّن من كذا أي أحاط به قوّة .

وهذا تهديد من شعيب لهم أشدّ التهديد فإنّه يشعر بأنّه على وثوق بما يقول لا يأخذه قلق ولا اضطراب من كفرهم به وتمرّدهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوّة والتمكّن فلهم عملهم وله عمله فسوف يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذي يأخذه العذاب . هم أوهو ؟ ويعلمون من هو كاذب ؟ فليرتقبوا وهو معهم رقيب لا يفارقهم .

**قوله تعالى :** « ولما جاء أمرنا نجّينا شعيبا - إلى قوله - جاثمين » تقدّم ما يتّضح به معنى الآية .

**قوله تعالى :** « كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » غني في المكان إذا أقام فيه . وقوله : « ألا بعداً لمدين » الخ فيه لعنهم كما لعنت ثمود ، وقد تقدّم بعض الكلام فيه في القصص السابقة .

## ﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ قال : قال : بعث الله شعيباً إلى مدين وهي قرية على طريق الشام فلم يؤمنوا به .

وفي تفسير العيّاشيّ عن أحمد بن محمد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : « إنّي أراكم بخير » قال : كان سعرهم رخيصة .  
وفيه عن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال : سأله عن انتظار الفرج فقال :

أوليس تعلم أن انتظار الفرج من الفرج ؟ ثم قال : إن الله تبارك و تعالى يقول : « وارتقبوا إنني معكم رقيب . »

**أقول :** قوله : ليس تعلم بمعنى لا تعلم وهي لغة مولدة .

وفي المعاني باسناده عن عبدالله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت : فقوله عز وجل : « وما توفيقي إلا بالله » وقوله عز وجل : « إن ينصر كم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصر كم من بعده » ؟ فقال : إذا فعل العبد ما أمر الله عز وجل به من الطاعة كان فعله وفقا لأمر الله عز وجل وسمي العبد موفقا وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك و تعالى بينه وبين تلك المعصية فمر كها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ، ومتى خلّى بينه و بين المعصية فلم يحل بينه وبينها حتى يتركها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه .

**أقول :** محصل بيانه عليه السلام أن توفيقه تعالى و خذلانه من صفاته الفعلية فالنوفيق هو نظمه الأسباب بحيث تؤدي العبد إلى العمل الصالح أو عدم إيجاده بعض الأسباب التي يستعان بها على المعصية . والخذلان خلاف ذلك . و على ذلك فمتعلق التوفيق الأسباب لأنه إيجاد التوافق بينها وهي المتصفة بها ، وأما توصيف العبد به فمن قبيل الوصف بحال المتعلق .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال : قلت : يا رسول الله أوصني . قال : قل : ربّي الله ثم استقم . قلت : ربّي الله وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنِيب . قال : ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شربا ونهلتها نهلا .

**أقول :** وقد تقدّمت الإشارة إلى نبذة من معنى الجملة .

وفيه أخرج الواحدي وابن عساكر عن شاذان بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي فرد الله عليه بصره ، وأوحى الله إليه : يا شعيب ما هذا البكاء ؟ أشوقا إلى الجنة أم خوفا من النار ؟ فقال : لا ولكن اعتقدت حبك بقلبي فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي ؟ فأوحى الله إليه : يا شعيب إن يكن ذلك حقّا فهنيئا لك لقائي . يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي .

**أقول:** المراد بالنظر إليه تعالى هو النظر القلبي دون النظر الحسي المستلزم للجسمية، تعالى عن ذلك، وقد تقدم توضيحه في تفسير قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا» الأعراف: ١٤٣ في الجزء الثامن من الكتاب.

وفيه أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب: «وإننا لنراك فينا ضعيفا» قال: كان مكفوفا فنسبوه إلى الضعف.

«ولولا رهطك لرجمناك» قال علي: فوالله الذي لا إله غيره ماهابوا جلال ربهم ماهابوا إلا العشرة.

## ﴿كلام في قصة شعيب وقومه في القرآن في فصول﴾

١ - هو عليه السلام ثالث الرسل من العرب الذين ذكرت أسماءهم في القرآن وهم هود وصالح وشعيب وعبد الله عليه السلام ذكر الله سبحانه طرفاً من قصصه في سور الأعراف وهود والشعراء والقصص والعنكبوت.

كان عليه السلام من أهل مدين - مدينة في طريق الشام من الجزيرة - وكان معاصراً لموسى عليه السلام، وقد زوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى حجج وإن أتمّ عشرأ فممن عنده (القصص: ٢٧) فخدمه موسى عشر سنين ثم ودّعه وسار بأهله إلى مصر.

وكان قومه من أهل مدين يعبدون الأصنام وكانوا قوماً منعمين بالأمن و الرفاهية والخصب ورخص الأسعار فشاغ الفساد بينهم و التطفيف بنقص المكّيال و الميزان (هود: ٨٤ - وغيرها) فأرسل الله إليهم شعيباً وأمره أن ينهأهم عن عبادة الأصنام وعن الفساد في الأرض ونقص المكّيال والميزان فدعأهم إلى ما أمر به ووعظهم بالإنذار والتبشير وذكّرهم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط.

وبالغ عليه السلام في الاحتجاج عليهم وعظمتهم فلم يزدتهم إلا طغياناً وكفراً فسوقاً (الأعراف وهود وغيرهما من السور) ولم يؤمنوا به إلا عدّة قليلة منهم فأخذوا في إيذائهم والسخرية بهم وتهديدهم عن اتباع شعيب عليه السلام، وكانوا يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدّون عن سبيل الله من آمن به و يبغونها عوجاً (الأعراف: ٨٦).

وأخذوا يرمونه عليه السلام - بأنه مسحور وأنه كاذب (الشعراء : ١٨٥ ، ١٨٦) و أخافوه بالرجم ، وهدّوه و الذين آمنوا به بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملّتهم (الأعراف : ٨٨) ولم يزلوا به حتّى أياسوه من إيمانهم فتركهم و أنفسهم (هود : ٩٣) ودعا الله بالفتح قال : ربّنا افتح بيننا و بين قومنا بالحقّ و أنت خير الفاتحين .

فأرسل الله إليهم عذاب يوم الظلّة (الشعراء : ١٨٩) وقد كانوا يستهزؤن به أن أسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين وأخذتهم الصيحة (هود : ٩٤) و الرجفة (الأعراف : ٩١ - العنكبوت : ٣٧) فأصبحوا في ديارهم جائعين ، ونجّى شعيبا و من معه من المؤمنين (هود : ٩٤) فتولّى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين (الأعراف : ٩٣) .

**٢ - شخصيته المذهوبة .** كان عليه السلام من زمرة الرسل المكرمين وقد أشرّكه الله تعالى فيما أنشأهم به من الثناء الجميل في كتابه ، وقد حكى عنه فيما كلّم به قومه وخاصة في سور الأعراف وهود والشعراء شيئا كثيرا من حقائق المعارف والعلوم الإلهية والأدب البارع مع ربّه ومع الناس .

وقد سمّى نفسه الرسول الأمين (الشعراء : ١٧٨) ومصلحا (هود : ٨٨) وأنه من الصالحين (الشعراء : ٢٧) فحكى الله ذلك عنه حكاية إمضاء ، وقد خدمه الكليم موسى بن عمران عليه السلام زهاء عشر سنين سلام الله عليه .

**٣ - ذكره في التوراة .** لم تقصّ التوراة قصّته مع قومه وإنّما أشارت إليه في ضمن ما ذكرت قصة قتل موسى القبطي وفراده من مصر إلى مديان (القصة) فسمّته « رعوثيل كاهن مديان »<sup>(١)</sup>



وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ  
النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ نَعْتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ  
الرَّقْدُ الْمَرْقُودُ (٩٩)

### ﴿بيان﴾

إشارة إلى قصة موسى -عليه السلام- ، وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن  
ذكر باسمه في مائة وثلاثين موضعاً منه في بضع وثلاثين سورة وقد اعطني بتفصيل  
قصته أكثر من غيره غير أنه تعالى أجمل القول فيها في هذه السورة فاكتفى بالاشارة  
الإجمالية إليها .

**قوله تعالى :** « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » الباء في قوله بآياتنا  
للمصاحبة أي ولقد أرسلنا موسى مصحوباً بآياتنا وذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء  
والرسل وأيدهم بالآيات المعجزة طائفتان منهم من أوتي الآية المعجزة على حسب  
ما اقترحه قومه كصالح عليه السلام المؤيد بآية الناقة ، وطائفة أيدوا بآية من الآيات  
في بدى، بعثتهم كموسى وعيسى و محمد عليهم السلام كما قال تعالى خطاباً لموسى عليه السلام :  
« اذهب أنت وأخوك بآياتي » طه : ٤٢ ، وقال في عيسى عليه السلام : « ورسولاً إلى بني  
إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم » الخ آل عمران : ٤٩ ، وقال في محمد عليه السلام :  
« هو الذي أرسل رسوله بالهدى » الصف : ٩ . والهدى القرآن بدليل قوله : « ذلك  
الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » البقرة : ٢ ، وقال تعالى : « واتبعوا النور الذي  
أنزل معه » الأعراف : ١٥٧ .

فموسى ﷺ مرسل مع آيات وسلطان مبين ، وظاهر أن المراد بهذه الآيات الأمور الخارقة التي كانت تجري على يده ، و يدل على ذلك سياق قصصه ﷺ في القرآن الكريم .

وأما السلطان وهو البرهان والحجة القاطعة التي يتسلط على العقول والأفهام فيعم الآيات المعجزة والحجة العقلية ، وعلى تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العام على الخاص .

وليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجارية بينه وبين آل فرعون ذاك الجبار الطاغى الذي ما ابتلي بمثله أحد من الرسل غير موسى ﷺ لكن الله تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه وجنوده ونجى بني إسرائيل بيده ، ويشعر بهذا المعنى قوله : « قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أذن يطفى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » طه : ٤٦ ، وقوله لموسى ﷺ : « لا تخف إنك أنت الأعلى » طه ٦٨ .

وفي هذه الآية نظائرها دلالة واضحة على أن رسالة موسى ﷺ ما كانت تختص بقومه من بني إسرائيل بل كانت تعمهم وغيرهم .

**قوله تعالى :** « إلى فرعون وملاؤه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد » نسبة رسالته إلى فرعون وملاؤه - والملاؤه أشرف القوم وعظماؤهم الذين يملئون القلوب هيبة - دون جميع قومه لعلها للإشارة إلى أن عامتهم لم يكونوا إلا أتباعاً لا رأي لهم إلا ما رآه لهم عظماؤهم .

وقوله : « فاتبعوا أمر فرعون » الخ الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعم من القول والفعل كما حكى الله عن فرعون في قوله : « قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » المؤمن : ٢٩ فينطبق على السنة والطريقة التي كان يتخذها ويأمر بها . و كأن الآية محاذاة لقول فرعون هذا فكذب به الله تعالى بقوله : « وما أمر فرعون برشيد » .

والرشيد فاعيل من الرشد خلاف الغي أي وما أمر فرعون بندي رشد حتى



يهدي إلى الحقّ بل كان ذا غيٍّ وجهالة، وقيل: الرشيد بمعنى المرشد .

وفي الجملة أعني قوله: « وما أمر فرعون برشيد » وضع الظاهر موضع المضمّر ، والأصل « أمره » ولعلّ الفائدة فيه ما يفيد اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر ولا يستفاد ذلك من الضمير البتّة .

**قوله تعالى :** « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورد » أي يقدم فرعون قومه فإنّهم اتّبعوا أمره فكان إماماً لهم من أئمة الضلال قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » القصص : ٤١ .

وقوله : « فأوردهم النار » تفريع على سابقه أي يقدمهم فيوردهم النار، والتعبير بلفظ الماضي لتحقّق الوقوع ، و ربّما قيل : إنّهُ تفريع على قوله : « فاتّبعوا أمر فرعون » أي اتّبعوه فأوردهم الاتّباع النار ، وقد استدلّ لتأييد هذا المعنى بقوله : « وحقّ بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب » المؤمن : ٤٦ حيث تدلّ الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا ، ولا يخفى أنّ الآيات ظاهرة في خلاف ما استدلّ بها عليه لتعبيرها في العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوّاً وعشيّاً ، وفي يوم القيامة بالدخول في أشدّ العذاب الذي سجّل فيها أنّه النار .

وقوله : « وبئس الورد المورد » الوردهو الماء الذي يرده العطاش من الحيوان و الإنسان للمشرب قال الراغب في المفردات : الورود أصله قصد الماء ثمّ يستعمل في غيره يقال : وردت الماء أرد ورودا فأنا وارد والماء مورود . وقد أوردت الإبل الماء قال : « ولما ورد ماء مدين » والورد الماء المرشّح للمورود . انتهى .

وعلى هذا ففي الكلام استعارة لطيفة بتشبيه الغاية التي يقصدها الإنسان في الحياة لمساعدته المبذولة بالماء الذي يقصده العطشان فعذب السعادة التي يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده ، وسعادة الإنسان الأخيرة هي رضوان الله و الجنة لكنّهم لما غووا باتّباع أمر فرعون وأخطأوا سبيل السعادة الحقيقيّة تبدّلت غايتهم إلى النار فكانت النار هو الورد الذي يردونه ، وبئس الورد المورد ، لأنّ الورد هو الذي

يخمد لهيب الصدر ويروي الحشا العطشان و هو عذب الماء ونعم المنهل السائغ وأما إذا تبدّل إلى عذاب النار فبئس الورد المورد .

**قوله تعالى :** « فأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرfid المرفود » أي هم اتبعوا أمر فرعون فاتبعهم لعنة من الله في هذه الدنيا و إبعاد من رحمته و طرد من ساحة قربه ، و مصداق اللعن الذي أتبعوه هو الغرق ، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمة المكتوب في صحائف أعمالهم الذي من آثاره الغرق و عذاب الآخرة .

وقوله : « ويوم القيامة بئس الرfid المرفود » الرfid هو العطية والأصل في معناه العون ، وسميت العطية رفا و مرفودا لأنه عون للآخذ على حوائجه ، والمعنى و بئس الرfid رفدهم يوم القيامة وهو النار التي يسجرون فيها ، والآية نظيرة قوله في موضع آخر : « وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » القصص : ٤٢ . وربما أخذ : « يوم القيامة » في الآية ظرفاً متعلّقاً بقوله : « أتبعوا » أو بقوله : « لعنة » نظير قوله : « في هذه » ، والمعنى : وأتبعهم الله في الدنيا والآخرة لعنة أوفأتبعهم الله لعنة الدنيا والآخرة ثم استونف فقل : بئس الرfid المرفود اللعن الذي أتبعوه أو الإتياع باللعن .

تم والحمد لله



فهرس مافى هذا الجزء من اهات المطالب

رقم الايات	موضوع البحث	نوع البحث	الصحيفة
سورة هود			
٣٥-٢٥	كلام فى قدرة الانبياء والاولياء	فلسفى قرآنى	٢١٦
٤٩-٣٦	أبحاث حول قصة نوح فى فصول	قرآنى روائى تاريخى فلسفى	٢٥٥
	١ - الاشارة إلى قصته .		»
	٢ - قصته ﷺ فى القرآن :		
	بعثه وإرساله .		٢٥٦
	دينه وشريعته .		٢٥٧
	اجتهاده فى دعوته .		»
	لبثه فى قومه .		»
	صنعه الفلك .		٢٥٨
	نزول العذاب ومجيء الطوفان .		٢٥٨
	قضاء الأمر ونزوله و من معه إلى الأرض		٢٥٨
	قصة ابن نوح الغريق .		٢٥٩
	٣ - خصائص نوح ﷺ .		»
	٤ - قصته فى التوراة الحاضرة .		٢٦٠
	٥ - ما جاء فى أمر الطوفان فى أخبار الأمم و		
	أساطيرهم .		٢٦٦
	٦ - هل كانت نبوته عامّة للبشر ؟		٢٦٨
	٧ - هل الطوفان كان عامّا لجميع الأرض ؟		٢٧٢
	بحث جيولوجى ملحق بهذا الفصل فى فصول		
	١ - الأراضى الرسوبية .		٢٧٥

رقم الايات	موضوع البحث	نوع البحث	الصحيفة
٤٩-٣٦	٢ - الطبقات الرسوبية أحدث القشور و الطبقات الجيولوجية .	قرآنى روائى تاريخى فلسفى	٢٧٦
	٣ - انبساط البحار واتساعها .		٢٧٦
	٤ - العوامل المؤثرة في ازدياد المياه و غزارة عملها في عهد الطوفان .		٢٧٧
	٥ - نتيجة البحث .		٢٧٨
	٨ - عمره ﷺ الطويل .		٢٧٩
	٩ - أين هو جبل الجودي ؟ .		٢٨٠
	١٠ - شبهة و جوابها .		٢٨٠
	<b>كلام فى عبادة الاصنام وفيه فصول</b>		»
	١ - الانسان واطمئنانه إلى الحس .		»
	٢ - الإقبال إلى الله بالعبادة .		٢٨٢
	٣ - كيف نشأت الوثنية .		٢٨٤
	٤ - اتخاذ الأصنام لأرباب الأنواع وغيرهم .		٢٨٥
	٥ - الوثنية الصابئة .		٢٨٧
	٦ - الوثنية البرهمية .		٢٨٨
	٧ - الوثنية البوذية .		٢٩٣
	٨ - وثنية العرب .		٢٩٥
	٩ - دفاع الإسلام عن التوحيد ومنازلته الوثنية .		٢٩٧
	١٠ - بناء سيرة النبي على التوحيد ونفي الشركاء .		٢٩٩
	<b>كلام آخر ملحق بالكلام السابق فى فصول</b>		٣٠٠
	١ - التباسخ عند الوثنيين .		»
	٢ - سريان هذه المحاذير إلى سائر الأديان .		٣٠٣

رقم الايات	موضوع البحث	نوع البحث	الصحيفة
٤٩-٣٦	٣ - إصلاح الإسلام لهذه المفاصد .		٣٠٤
	٤ - إشكال الاستشفاع والتبرك في الإسلام .		٣٠٥
٦٠-٥٠	كلام في قصة هود	تاريخي قرآني	٣١٨
	١ - عاد قوم هود .		»
	٢ - شخصية هود المعنوية .		٣١٩
٦٨-٦١	كلام في قصة صالح في فصول		٣٢٩
	١ - ثمود قوم صالح عليه السلام .		»
	٢ - بعثة صالح .		»
	٣ - شخصية صالح .		٣٣٠
٧٦-٦٩	كلام في قصة البشري	قرآني	٣٤٥
٨٢-٧٧	كلام في قصة لوط وقومه في فصول :	قرآني تاريخي	٣٦٧
	١ - قصته وقصة قومه في القرآن .		»
	٢ - عاقبة أمرهم .		٣٦٨
	٣ - شخصية لوط المعنوية .		٣٦٩
	٤ - لوط وقومه في التوراة .		٣٦٩
٩٥-٨٣	كلام في معنى حرية الإنسان في عمله .		٣٨٧
	كلام في قصة شعيب وقومه في القرآن في فصول :	قرآني تاريخي	٣٩٥
	١ - قصته عليه السلام .		»
	٢ - شخصيته المعنوية .		٣٩٦
	٣ - ذكره في التوراة .		»

## ﴿ بسمه تعالى و له الحمد ﴾

حمداً وشكراً على آلائه تبارك و تعالى على ما وفقنا لتصحيح هذا  
السفر القيم و هو الجزء العاشر من أجزاء الميزان في تفسير القرآن  
الكريم لمؤلفه العلامة الطباطبائي مدّ ظله . ولقد صحّحناه و قابلناه  
على النسخة المكتوبة بيده الكريمة و على الرغم من جهدنا في ذلك  
يحتوي على أخطاء مطبعيّة و غير مطبعيّة نرجو إصلاحها من القارى،  
الكريم والله على كلّ شيء حفيظ .

محمد الباقر البهبدى

من لجنة التصحيح لدار الكتب الاسلامية

الصواب	الخطأ	الصحيفة البطر	الخطأ	الصواب
وفي الدر المنثور	١٨ ١٨٤	١٨	وفي فيه	١٨ ١٨٤
من قوله	٢١ ٢١٣	٢١	الى قوله	٢١ ٢١٣
و توصيف	١٤ ٢٣٣	١٤	و التوصيف	١٤ ٢٣٣
من الهلاك	١٢ ٢٣٥	١٢	عن الهلاك	١٢ ٢٣٥
للضلال	١٢ ٢٣٥	١٢	عن الضلال	١٢ ٢٣٥
العي	١٣ ٢٣٥	١٣	الغي	١٣ ٢٣٥
تقولون	٢ ٢٤٦	٢	تقولون	٢ ٢٤٦
اوسعها	٦ ٢٥١	٦	اوسها	٦ ٢٥١
وما	١٢ ٢٥٤	١٢	و فيما	١٢ ٢٥٤
من النار	٥ ٢٩٩	٥	من الله	٥ ٢٩٩
تزيق	٢٢ ٣١٢	٢٢	تزيق	٢٢ ٣١٢
و ميّز	٤ ٣١٦	٤	و ميّز	٤ ٣١٦
شخصيته	١٥ ٣١٩	١٥	شخصيته	١٥ ٣١٩
الرجفة	١٣ ٣٣٠	١٣	الراجفة	١٣ ٣٣٠
فالواجس	٨ ٣٣٣	٨	فالوجس	٨ ٣٣٣
وهو المسمّى	٢٣ ٣٣٣	٢٣	هو المسمّى	٢٣ ٣٣٣
حد الاعتدال	١٣ ٣٣٤	١٣	حد الاعتدال	١٣ ٣٣٤
تقابل	٢١ ٣٣٤	٢١	يقابل	٢١ ٣٣٤
ولا تطمع	١١ ٣٣٩	١١	ولا نطمع	١١ ٣٣٩
و الهة	١٣ ٣٤١	١٣	و الهه	١٣ ٣٤١
الربط	٩ ٣٤٤	٩	الرابط	٩ ٣٤٤
على الجميل	٣ ١٥	٣	بالجميل	٣ ١٥
ثنائهم على الله	١٧ ١٥	١٧	ثنائهم لله	١٧ ١٥
يرتضي	٢٤ ٢٧	٢٤	يرتفع	٢٤ ٢٧
فيها	٢٤ ٣٦	٢٤	فيه	٢٤ ٣٦
ساكنها	٢٤ ٣٦	٢٤	ساكنه	٢٤ ٣٦
لأنّها	١ ٣٧	١	لأنّه	١ ٣٧
فعلة	٢٠ ٤١	٢٠	فعله	٢٠ ٤١
عنه	١٩ ٧٣	١٩	به عنهم	١٩ ٧٣
تعالى	٥ ٧٧	٥	تعاله	٥ ٧٧
من	١ ٧٨	١	عن	١ ٧٨
رصدا	١٦ ٨٨	١٦	رصد	١٦ ٨٨
المطلب	٢٤ ٨٨	٢٤	الطلب	٢٤ ٨٨
المناسب له	٨ ٩٠	٨	المناسب	٨ ٩٠
لشيء	٩ ٩٠	٩	الشيء	٩ ٩٠
لراحة	٩ ١٠٤	٩	لازاحة	٩ ١٠٤
يستقرّوا	١٢ ١٢٣	١٢	يسقرّوا	١٢ ١٢٣
من	١٩ ١٢٣	١٩	عن	١٩ ١٢٣
ما	٢ ١٣٠	٢	بما	٢ ١٣٠
الحاكي	٢٢ ١٤٧	٢٢	الحاكية	٢٢ ١٤٧
الدال	٢٣ ١٤٧	٢٣	الدالّة	٢٣ ١٤٧
نعمه	١٥ ١٦٢	١٥	نعمه	١٥ ١٦٢

الصيغة	السطر	الخطأ	الصواب	الصيغة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤٤	٩	تأثيرا خاصا	تأثير خاص	٣٦٥	٤	فانه	فاته
٣٤٥	٣	عذاب	عذاب	٣٧٠	٢١	فأخذ	فأخذ
٣٤٦	٢	امرائه	امرائه	٣٧٠	٨	خطاه	خطاة
٣٥١	١٤	يقترقون	يقترقون	٣٨٢	١٦	عليه	له
٣٥١	١٧	بوعظة	بموعظة	٣٨٢	٢٠	في المكيال	المكيال

